الدار العربية للعلوم - ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الفريق الدكتور سعد العبيدي

دوّامات المحنة

قراءة سياسية نفسية
لأربع سنوات من المِحَن في
عراق ما بعد التغيير

دوّامات المحنة

قراءة سياسية نفسية
لأربع سنوات من المِحَن في
عراق ما بعد التغيير


بسم الله الرحمن الرحيم

دوّامات المحنة

قراءة سياسية نفسية
لأربع سنوات من المِحَن في
عراق ما بعد التغيير

الفريق الدكتور سعد العبيدي



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ردمك 978-9953-87-177-6

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

المحتويات

الباب الأول
المحنة

الباب الثاني
مسارب المحنة

الباب الثالث

العوامل النفسية في المحنة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾

صدق الله العظيم

إهداء

إلى كل روح أزهقت غدرا بعد التغيير

إلى وطني الذي مزقت أوصاله أطراف التغيير

إلى عائلتي التي لم يجتمع شملها بعد التغيير

أهدي جهدي

آملا في أن يسهم مع غيره في الخروج من دوامات التغيير

تقـــديــم

في التغيير لا شيء يبقى على حاله، والتغيير حالة لابد منها، صحيح أن التغيير يغرز أظفاره أحيانا في اللحم والعظم ويأكل العظيم والوضيع بنفس الطريقة وعلى نفـــس المنوال وبالوحشية ذاتها، ولكن التغيير حالة لازمة للوجود الإنساني، فمنذ الأزل كـــان الناس يتغيرون ويتبدلون ويتلونون في طباعهم وأثوابهم وأذواقهم، فما كـــان بالأمس جميلا مستحسنا، صار اليوم قبيحا مستهجنا، وما كان اليوم لذيذا مستساغا ضاراً قد يكون غدا غثا رديئا.

التغيير هو الذي يسميه الشعراء الزمن الرديء، والحق إن التغيير سنة من سنن الكـــون، لاشـــيء يبقى على حاله حتى الحجر والشجر بيوتنا وأحلامنا وأوجاعنا وأورامـــنا كلها تتبدل ولولا التغيير لكنا حتى اللحظة نرتاد الكهوف ونعتاش على الحشائش، ولما خطر في بال أحدنا يوما أنه سيكون بمقدورنا أن نتخطى في معرفتنا حدود القرية التي نعيش فيها.

وبغـــداد الـــتي تتحول، والناس الذين يأكلون فيها بعضهم بعضا سيكون من بيـــنهم من أرهقه السكوت، ومن ألجمه الخوف، ومن ركض مع الراكضين يسرق مع السارقين، وتاجر مع المتاجرين ولا بد أن يبقى منهم ولو بعدد أصابع اليد، من لا يأكـــل الـــسحت، ولا يعلـــم أولاده النفاق والرياء والكذب الأبيض والأصفر والبنفـــسجي، ولا بد أن يكون من هؤلاء من يحب جاره ويدافع عنه حتى لو كان من طائفة أخرى ودين آخر وكوكب آخر، ولا بد أن يكون هناك - على عوزهم - من يَصِلونَ أرحامهم وجيرانهم وأصدقاءهم.

ولـــو أن الـــناس جميعا سايروا موجة التبدل والتحول لما كان هناك تغيير، فالتغـــيير في علمنا هو التوليفة بين الفكرة ونقيضها، والتغيير على ذلك هو وليد الأضداد، والأضداد في بلادنا صارت أكثر من الرمل والحصى وأكثر من القمل

والجراد، والسياسيون صاروا أكثر من هذا وذاك.

ومع ذلك يبقى التغيير شيئاً مرغوباً فيه رغم الجرح النازف من أقصى حافات الرمل إلى آخر بيت قرميدي على ضفة النهر.

ولكن التغيير المرغوب فيه ليس التغيير المفاجئ، فهذا الأخير خطير على الماء والهواء، والبشر والحجر ونتائجه أكثر خطورة على النسل والحرث، خصوصا إذا صوحب بعصبة من اللصوص التائبين الذين يتسللون إلى غرف نومنا وسراويل أولادنا ومدخرات نسائنا جاؤوا ليسرقوا كل شيء حتى عرائسنا وطبولنا ووسائدنا، تساندهم نخبة من أهلنا وعشيرتنا وأبناء عمومتنا فماذا يكون حالنا، وكل خطوة يخطوها بجنازيرهم وجنازير من معهم تجلب لنا العار قبل الخراب.

ترنيمة حزينة... ولكي تقرأ هذه الترنيمة الحزينة في كتاب الدكتور سعد العبيدي عليك أن تكون مستعدا للصرخة بأعلى صوتك، ليس مستهجنا ولا مستنكرا ولا متألما بل حائرا خائفا مترقبا لأن ما تضمنه الكتاب أكثر من كثير، ولولا علمي أن الدكتور سعد العراقي بالأصل والفصل، أمين في النقل والتحليل لقلت إنّه يكتب شيئا من الخيال العلمي، والأحداث والوقائع والشواهد التي يرويها لا يمكن أن تكون إلا في الأساطير وحكايات الجن، ولكنها تحدث هناك، على مقربة من تمثال أبي جعفر المنصور الذي نهب مع المنهوبات وقرب ساحة الفردوس حيث أسقط الغزاة تمثال آخر الخلفاء وآخر الطواغيت أو آخر الفرسان، وعند ضفتي دجلة المتقابلتين المتجاورتين لآلاف السنين، وفي ماء النهر الذي كان يروي الناس فصار يرتوي منهم.

لماذا كتاب كهذا يُقرأ؟ ... لولا أنّي أحترم التوثيق والتأصيل والتحليل وأحترم حق الأجيال القادمة في معرفة ما جرى ويجري في بلادنا بأمانة وموضوعية، لأوصيت القارئ أن يمزق هذا الكتاب مرة وإلى الأبد ويرمي به في النهر ليكون جثة بين الجثث.

فما بين دفتي هذا الكتاب لا يشعرني بالحزن فحسب، ولكن بالخزي من أبناء جلدتي الذين يأكلون بعضهم بعضا كالحيات... فما يدريني من هو هذا "المجاهد" الذي يتنزه على الجسر الحديدي أحد أجمل جسور بغداد وينسفه مازحا وهو

يـــدري أن الجـــسر لم يكن يوما سنيا ولا شيعيا ولا حتى كرديا، ولا ندري من اخترع هذه الأكذوبة الطائفية الكبيرة، وصنف الناس مذهبيا، ولكنها لعبة السياسة والسياسيين والغرباء وأولاد المتاريس والمباغي والمنافي.

ولو كان الأمر غير هذا لكانت دمعة أحدهم بحجم جبل حزنا. ولكن أنصتوا إلى جـــسر الصرافية المذبوح من الوريد إلى الوريد والمصلوب على "الدجلة" كما يقـــول أهـــل المـــدائح ويقول الدكتور سعد (والحكاية ليست على الجسر) عقود وصفقات بملايين الدولارات، فيها نسب للأحزاب والحركات التي تتوسط لعقدها فسحبت السياسيين إلى ساحة التجارة وشؤون المال وأقنعتهم بنظرية التبادل الودي للمنفعة فأسسوا معاً أول بوادر الفساد.

إذن لابـــد للجسر أن يموت مخنوقا أو مشنوقا أو مخطوفا، لكي يقولوا ها نحن نقـــوم بإعمار العراق، بدولار ونصف لإعمار الجسر وبمليون دولار ونصف حصة اللصوص من الإعمار.

لا نـــريد جـــسرا مخطوفا ولا مصلوبا ولا معطوبا، ولا نريد خبزا مسموما، ونـــشارة خبـــز صدام كانت أطهر ألف مرة من بياض خبز اللصوص والقراصنة وبائعـــي الضمير الذين يستنـــزفون دم أطفالنا ليطعموا به أطفالهم الذين حصنوهم بعـــيدا في المـــنافي والمباغـــي والقبور، هؤلاء هم الذين علموا الشرطي النظيف أن يتحول إلى حارس للمجرمين حتى يتمكنوا من الإجهاز على ضحاياهم، هم الذين علمـــوا أطفـــال العراق "الأحلى والأنقى بين أطفال الكون" كيف يرقصون على جـــثث المغـــدورين في الشوارع المهجورة، وهم الذين علموا أشباه الفقراء النهب لأنهم كانوا أول الناهبين.

هـــم الذين قتلوا العلماء ظهرا وشردوا الأطباء والمهندسين وأصحاب الحَرْفِ النبيل، وهم الذين أجهزوا على شيخوختي وتركوني مرميا في آخر أصقاع الأرض وهـــم الـــذين أسسوا للفساد كما يقول الدكتور سعد. لا شيء إلا لأنهم جياع وجيوبهم مليئة، جياع وقصورهم عامرة، يملكون كل شيء ولا يملكون شيئا، ومع ذلك ما زال في بلادنا بقية من أولئك الرجال الذين لا يقتلون على الهوية، ولا تزيغ أبـــصارهم حفـــنة من الأوراق الشيطانية الخضراء ولا يتآمرون على اغتيال الجسر

الحديـــدي لأنـــه نقطـــة الوصل بين الرصافة والكرخ، ولديهم حصانة ضد الرياء والحسد والغدر والتهجير والتفجير.

في هـــذا الـــزمن الـــرديء، زمن الغثيان والهذيان والتمحور والتبعثر والتلون والـــتدني، لم يـــبق أمام المثقفين وأهل الضمائر إلا أن يكتبوا لا لكي يغيروا مسيرة التـــردي والتسربل والتغربل، بل للتذكير والتحفيز ولكي لا يقال لم يعد في العراق أحد من أهل الطهر والنقاء.

مرة أخرى أقول لو كان بمقدوري أن ألقي بجثة هذا الكتاب في النهر لفعلت، لما يـــشعرني بالخـــزي ممـــا يفعله بعض أهلنا ببعضهم، لكني أدرك قيمة هذا الكتاب بشواهده وأحداثه التي تدمي القلب، وقيمة الكتاب ليست في الشواهد ذاتها، ولكن في تحلـــيلها نفسيا واجتماعيا وعسكريا وسياسيا، فالدكتور سعد عاش بين علمي الـــنفس والاجتماع أكثر مما عاش بين العسكر، ورغم أنّه وصل إلى رتبة فريق في الجيش، ولكنه فريق في علم النفس والاجتماع أكثر منه فريق في الحرب والضرب. وقـــد ساهمت تحليلاته المعمقة وسرده الإيقاعي السريع في إضفاء نوع من السلاسة والعذوبة على كل ما في الكتاب من علم وفن.

الكتاب أكثر من وثيقة تاريخية، وأكثر من تحليل تخصصي.

إنـــه باختـــصار شديد، مزيج من العلم بفنون الحرب والإدارة والتعبئة وعلم النفس والتاريخ والأدب أيضا، ولكن حذارِ أن تقرأوه!!

الدكتور فجر جودة النعيمي

لندن 2007/5/2

الباب الأول

المحنة

إن ما يجري في العراق محنة وجميع الأطراف المشاركين فيها أدخلوا في دوامات تعصف بهم قد يخرج بعضهم منها بهيئة غير التي دخل بها

المقدمة

انتظر العراقيون التغيير طويلا، وإن انقسموا كعادتهم بالنظرة إليه، وسبل القيام بـــه، والموقف من المنفذين لخططه بعد أن تحقق فعلا في 2003/4/9، وكان الأمل يحدوهم أفراداً، وجماعات يرى بعضها:

أنّ القـــادمين الجـــدد سيكونون من بين الذين قاتلوا صدام حسين لعشرات الـــسّنين، ومـــا داموا كذلك فإنهم سيفتحون الباب حسب تصورهم واسعا لتغيير يطوي في تاريخهم المؤلم عذابات سني القهر، والخوف، والتهديد، والقلق، والتشريد مـــن ناحـــية، ويقـــربهم من ناحية ثانية من عالم آخر ينعم أبناؤه بخيرات الحضارة الإنسانية، رفاها، وأمنا، واستقرارا، ومتعة في هذه الحياة.

ولا يـــرى بعضها إلا المناظر التي تصطف أمامه، ولا يتحسس إلا القريب من محـــيطه، تأمـــل في التغيير حرية سفر مفتوحة إلى الخارج بعد أن حرم منها ثلاثة عقود، وتأشيرات سفر إلى أمريكا، وبريطانيا، وأوروبا، حلمٌ ترك في النفوس حنيناً إلى الماضي القديم، وتعلّقاً بالمستقبل المجهول، وتخيّلاً لخطوات التغيير:

أسواق كبيرة، ولو مثل تلك التي أنشئت في دول الجوار.

محلات للهامبرغر التي انتشرت أبعد من دول الجوار.

كافيتـــريات علـــى الطريقة الغربية، وحسابات مفتوحة، وفضائيات متعددة، وهواتف نقالة كما هو موجود في عالم باتت المسافة النفسية بينه، وبينهم عشرات السنين.

وأخرى أغلق الواقع الذي عاشه أبناؤها حصارا، وبؤسا في العشرين سنة الأخيرة مـــنافذ الـــتفكير، والتخيل في عقولهم فلم يعد أمامهم سوى الأمل في تغيير يغيب عنه حكم اتفقوا على تصنيفه بالظالم، ومن بعده لم يضعوا في الحساب أي تصور لما سيأتي لأنه لن يصل من وجهة نظرهم إلى ما وصل إليه الحال زمن الظالمين.

وجماعات عاشت خارج العراق معاني مؤلمة للغربة، والهجرة، والتهجير لم تشأ يوما الخوض في نقاش يتعلق بقلق التغيير، وما سيؤول إليه التغيير، ومن سيأتي على

أعـــتابه راكـــبا سيارة أمريكية، أو انجليزية، أو ماشيا على أقدامه مع جنود المشاة الذين يتقدمون صوب بغداد بسرعة غير اعتيادية، لأن حصوله "التغيير" هو الفرصة الوحيدة لإعادتهم إلى ديار طالما حنوا إلى أطلالها.

وأملاك، وممتلكات حرموا منها.

ونسيم صيف لاهب نسوا لسعاته طوال إقامتهم في بلاد الغرب.

ومجـــتمع الأصـــل عـــسى أن يجـــدوا فيه زوجاً لابنتهم التي قارب عمرها ســـني الـــيأس، وزوجـــة لابـــنهم الذي انغمس كثيرا في مجتمع الغربة عسى أن تـــرحب العـــراقية بهم في كبرهم خلافا لما هو جار من زوجات الشباب في بلاد الغرب.

وأهـــل حرموا من الجلوس معهم في أمسيات يوم الخميس، والأعياد، وشرب الشاي في برد الشتاء.

كانـــت تلـــك بعض جوانب الأمل، والآراء الخاصة بالتغيير قبل حصوله مع حـــالات عدم ارتياح، وخوف، ولوم لا ينكر وجودها عند البعض تقل كثيرا عن مفـــردات الأمـــل في الأيام التي سبقت التغيير، والأولى التي جاءت بعده على أقل تقدير دافعها على الأغلب:

1. المعانـــاة المـــؤلمة مـــن واقع تخيم عليه ضغوط نفسية شديدة مستمرة، ورغبة بالتخلص منها شديدة أيضا.
2. القلق من حاضر بائس، لم تعد له نهايات سارة منذ عدة عقود.
3. الـــتوجس من استمرار الخطأ، والتمادي في حصوله، وانتقاله عن طريق الحث، والتقليد إلى من سيأتي فيبقيهم في المأساة ذاتها.
4. الخـــوف شبه الدائم من خسارة موقع، ومكان، وجاه، وأولاد، والحياة وسط عيش لم يعد فيه شيء مأمون.

لقد حصلت الحرب التي قادت إلى التغيير في 2003/3/20، و لم يقاتل الجيش العراقـــي كما هو مفروض، ومطلوب بسبب الاعتقاد بأن الآتي من زمن، ونظام حكـــم، وســـبل عيش تقل فيها الضغوط، والمخاطر، معتقدات تعززت في عقول المنتسبين نتيجة:

1. ظروف العيش الصعبة، وأساليب الإدارة المعنوية غير الصحيحة.
2. قلة الضبط، وتدني مستويات التدريب النفسي، وتعزيز الشعور الوطني.
3. مفردات الحرب النفسية التي تسللت إلى خلايا التفكير، وضخمت تلك المعتقدات في العقول، وشكلت أنواعاً من السلوك بعيدة عن معنى القتال.

زادها تلميعا أو تخيلا آمال العسكر الوطنيين بجيش سيكون بعد التغيير مهني الطابع، منضبط الوقائع، مسلحاً بسلاح أمريكي من أحدث طراز.

لا يضطهد الكردي في الشمال، ولا يعتدي على الشيعي في الجنوب، ولا يقترب من السني في الوسط، ولا يفكر يوما بمس كرامة الأقليات الأخرى المنتشرة في البلاد، مهامه معروفة في الدفاع عن أرض العراق.

وعقيدته القتالية معروفة أيضاً تهتم بأساليب القتال دون العراق، والتواجد في ثكناته مفخرة لمن يتواجد، ولباقي أهل العراق.

و لم تقاتل الجيوش الداعمة من القدس، وفدائيو صدام، وغيرها[1] لأسباب عدة بينها:

1. الخواء الذي أصاب النفوس، وأعياها حدا لم تعد فيه قادرة على مسك البندقية، والوقوف على القدمين بقوة في ساحة القتال.
2. الرغبة في ترك القائد وحيدا في أرض المعركة التي ملأت منافذ التفكير نتيجة لآلاف الساعات من العمل النفسي التي تبث موجهة إليهم من إذاعات حكومية، وفضائيات مساندة، وصحف، وبرامج.

---

1) لا يمكن التعميم منطقيا لما يتعلق بعدم القتال على كل القولت العراقية التي اشتركت في الحرب إذ إنّ العودة إلى وقائع المعارك، وشهادة بعض القادة المنصفين أشارت إلى أن قطعات مهمة من الفيلق الثالث في قاطع البصرة والناصرية وخاصة اللواء45، وكذلك قطعات كبيرة من فيلق الحرس الجمهوري الثاني في مناطق واسعة جنوب بغداد على محوري دجلة والفرات، ومحور الحلة المركزي، وداخل بغداد قد قاتلت بشكل جيد بحساب التوازن التقني، والجوي، والتسليحي الذي لم يكن في صالحها، كذلك قاتلت وحدات من الحرس الخاص، وبعض فدائيي صدام، ووحدات من فيلق الحرس الجمهوري الأول بشكل مقبول داخل بغداد في الساعات الأولى لدخولها.

3. كثرة الأخطاء في مجال العمل، والتعامل.

جميعها دوافع، وأسباب جعلت الواحد منهم هائما في أرض التيه، ينتظر الحدث "الحرب" بفارغ الصبر ليتخلص من ضغط الانتظار تحت هذا التأثير الهائل للإعلام، والحرب النفسية التي لم تمنحهم فرصة التفكير، وإعادة التقييم.

و لم يقاتل متطوعو الحزب أيضاً بعد أن أُفرِغَ الحزب من مناضليه الذين توزعوا بين الجيش العراقي الأصيل، وجيش القدس الرديف، وفدائيو صدام ضباطا، وآمرين، وقادة مناطق، وهيئات ركن و لم يبقِ هذا التوزع، والتوزيع في الجهاز الحزبي إلا القليل من العقائديين، الذين وجدوا أنفسهم مع الأيام الأولى للحرب أن ظهورهم مكشوفة.

والأمل في الصمود ميؤوس منه.

وإيقاف جيوش المحتلين يكاد أن يكون مستحيلاً.

والتغيير حاصل، ومطلوب فيه رأس النظام، ففضلوا هم أيضاً الانسحاب من الساحة، وإبقاء القائد الأعلى وحيدا في الميدان إلا من حمايات تشرذمت بسبب كثافة الضربات المدمرة للطائرات، والصواريخ، وفعل الحرب النفسية الذي غير نهج التفكير.

و لم يَصْدُقِ الواعدون بالتطوع، والموت دون القائد، والنظام يوم كانوا يملأون قاعات القصور الجمهورية بالآلاف، يدبكون، وينشدون، ويهتفون، ويُمَنونَ، ويقبضون. أحسوا الخطر القادم قبل غيرهم من الشرائح التي كانت تصطف معهم طوابير أمام القصور فانسحبوا من الساحة مبكرا حتى بدل البعض عناوينهم.

وترك البعض مناطقهم.

وتجرأ البعض على عدم الرد على تلفونات مسؤوليهم.

ورفض البعض الآخر الاستجابة إلى رسل قياداتهم الحزبية التي فقدت قدرتها على الإخافة في الأيام الأخيرة، لأنهم أو بالمعنى الأدق بعضهم كانوا ينتظرون يوم التغيير بطوابير على عادتهم في الوقوف بصفوفها لتقديم الوعود، وفروض الطاعة إلى سائق دبابة من دبابات الحلفاء تصل قريبا من صفوفهم، أو قائد عسكري من

جـــيوش الحلفـــاء يفتح مقره قريبا منهم، أو حزب يكون قد استولى على مقرات أحزابهم.

أمـــا الأجهزة الأمنية التي أعدت إعدادا متميزا لثلاثة عقود، ودعمت بخيرة الحـــزبيين، والقريبين الموالين، وبأحسن العقول، وُجهزت بأحدث التجهيزات، ومُـــولَت بالحـــصة الأكـــبر مـــن الميزانية العامة للدولة كانت أول من أصيب بالإحباط بعد القيادات العسكرية، وهيئات ركنها التي أدركت المصيبة، وهول الكارثـــة القادمة، وخطأ القرار في مواجهة أقوى دولة في العالم مدعومة بعديد مـــن جـــيوش الحلفاء[1]. وهو مستوى من الإحباط أشعرهم بالعجز عن تنفيذ خطط درسوا جوانبها جيدا، والقيام بعمل دربوا على القيام به، وصدمة وجدوا فيها أن:

القادة قد غابوا عن مراكز قيادهم، ومواقع الاتصال بهم.

المنتسبين قد تبخروا، أو تركوا الساحة مع غيرهم من دون إذن، وأبقوا صدام الـــذي عوّلَ عليهم وحيدا في ساعاته الأخيرة يتجرع سم الهزيمة بنحول، واكتئاب إلا مـــن ابن يركض مع القلة المتبقية من حماية الصف الأول حول السيارة الرئاسية في آخر مشهد جماهيري للحاكم في حي الاعظمية وسط بغداد، ومعه وزير دفاعه المعروف بمهنيته العالية، وإطاعته الأوامر، وتنفيذها في أحلك الظروف.

مـــشهدٌ يـــستحق التوقف عنده كثيرا من باب التحليل، واستعراض حوادث الـــتاريخ لأنه المشهد الوحيد في حياة صدام الذي تعثر فيه أمام الجمهور، وكاميرة التلفزيون المتبقية برفقته إلى ما قبل الاختفاء يوم 2003/4/9 والذي يحمل في طياته الكـــثير من المعاني عن الوضع النفسي، وعن الساعات الأخيرة في حكمه الطويل، وعـــن موقـــف الأقـــارب، وخذلان الجيوش، وتفرق الصحب، والمريدين، وكُثر الانتهازيين، ونكث العهود.

(1) شـــاركت مـــع أمريكا في الحرب عدة دول بجيوش أو وحدات كانت أكثرها عددا وقدرة بعد بـــريطانيا الأمـــريكان، وكـــوريا الجنوبية، وأستراليا، وبولونيا، وأخرى أخذت على عاتقها مـــسؤولية التواجد بعد انتهاء العمليات العسكرية الكبيرة في محافظات الوسط، والجنوب فيما أخذ الأمريكان مسؤولية بغداد وشماله، والمنطقة الغربية الأكثر توترا (1).

لقد حصل التغيير رسميا بإنـــزال التمثال من ساحة الجندي المجهول القديمة أمـــام فـــندق الـــشيراتون يوم التاسع من نيسان، وأعيدت إلى الذاكرة العراقية المـــبرمجة على العنف في أيام الفوضى، واختلال التوازن أولى علاماتها في تجسيد فلـــسفة العـــدوان التي لم يجرؤ أحد على تفسيرها حتّى في التاريخ المذكور يوم هـــرع المـــنفعلون إلى التمـــثال يؤازرون، ويشدون على يد سائق دبابة الإنقاذ الأمـــريكية الـــذي أخذ على عاتقه إنـــزال التمثال، مبادرة منه أو بأوامر من قيادته أو بدفع من الجمهور.

لا يهمهم هذا وهم يسارعون بضربه، وتفكيكه، ومن ثم سحله كما سحلوا من قبل ما يقارب الخمسة والخمسين عاماً رجالاً عظاماً من زمن الملكية الدستورية العـــراقية في 1958/7/14 بفـــارق أن السحّل كان هذه المرة لما تبقى من التمثال، وكان في تلك المرة لأجساد المغدورين.

إنّ التغـــيير الذي استغرق واحداً وعشرين يوم قتال كانت فيها الكفة ليست لصالح النظام وصدام أحدث صدمة تسببت في حالة ذهول لعموم العراقيين، الّذين وجدوا فيها أنفسهم بلا قيود كانوا تعودوا العمل بوجودها في السابق.

منفـــتحين لتلقـــي ســـيل هائـــل من المعلومات لم يسمح لهم بتلقيها في السابق.

قـــادرين على الاتصال المباشر بكل دول العالم من دون استثناء الأمر الذي لم يكـــن ممكـــنا حدوثه في السابق، والتكلم بصوت عال مع أيّ كان، أجنبي بشعر أصـــفر أو عراقي قادم من خلف البحار أو منتقد لكل ما جرى بصوت مسموع، وكلام ممزوج بحركات الاحتجاج دونما رقيب أو حسيب.

علـــى السفر إلى خارج العراق إلى أي بلد تقع عليه العين، أو تقدمه الذاكرة دون موافقات، والعودة منه دون تأشير.

على التخابر مع أجنبي، وعمل علاقات معه بلا حرج.

وجـــدوا الـــتدفق السريع إلى ساحته من قبل آلاف من العرب، والمسلمين، والعـــراقيين الـــسابقين، والمهاجـــرين، والمهجـــرين، والمغامـــرين، والمستخبرين، والجواسيس، وطالبي الثروة والجاه، وغيرهم دون توجس.

لقد دامت حالة الذهول ما لا يزيد عن ثلاثة أشهر بعد حصول التغيير كان السلوك العام فيها متجها فقط إلى:

1. لملمة الجراح السابقة.
2. الكسب من أموال الدولة السائبة، والاستحواذ على بعض ممتلكاتها المباحة.
3. التوجه البسيط إلى أخذ الثأر، وتصفية الحسابات التي لم يتم تصفيتها في السابق.
4. تعزيز النفوذ المالي للساعين الجدد بالاستفادة من الأموال التي سرقت، والجنائي بإنشاء عصابات، وتقوية أخرى من الأموال التي نهبت.
5. مد النفوذ السياسي للقادمين من الخارج أحزابا مضافة إلى تلك المسجلة بسجل المعارضة السابقة، وحركات سياسية جديدة التفّ حولها سريعا آلاف من الذين يفتشون عن فرصة سانحة، ودور في النظام الجديد، وكذلك الساعين من الداخل وهم:

أ. وطنيون أجبروا على السكوت في العهد السابق، يعتقدون أن الالتزام الوطني يجبرهم على العمل بالسياسة دعما لعملية التغيير فتوزعوا على أحزاب يرأسها قادمون من الخارج أو أسسوا أحزابا هم عمادها، وجمهورها من الداخل.

ب. انتهازيون توقفوا عن الجري بالأمس القريب، وحولوا اتجاهاتهم نحو العهد الجديد فوقفوا مؤيدين إلى من قَدِمَ من الخارج، ومن يمتلك علاقة مميزة بالمحتل، أو أخذوا على عاتقهم تأسيس أحزاب، وحركات يكونون هم فيها الدعاة، والمنظرين ليزيدوا الأعداد الموجودة مئات لا عمل لها سوى الإعاقة، والتدليس السياسي.

ج. تجار، ومقاولون لم يتركوا الفرصة كعادتهم، فأقاموا الولائم لمن وصل من الخارج مرحبين، وشاكرين جهدهم في التغيير. عارضين الدعم المالي، والشعبي لمن سيقود البلاد بعد التغيير، مستعرضين قدراتهم، وجهودهم للمساهمة في إعادة بناء العراق:

عقود، وصفقات بملايين الدولارات فيها نسب للأحزاب، والحركات التي حددوا دعمهم لها فسحبوا السياسيين إلى ساحة التجارة، وشؤون المال، وأقنعوهم بنظرية التبادل الودي للمنفعة، فأسسوا أولى بوادر الفساد.

د. شيوخ عشائر التسعينات المصنّفون من الدرجات الدنيا، والذين انسحبوا قبل غيرهم من ساحة المواجهة نكثا للعهد الذي أعطوه لصدام فكانوا أكثر اللاهثين وراء الجاه، والسلطة، والمال، حشدوا جهودهم بكل ما أوتوا من قوة فتوزعوا بين الأحزاب، والحركات السياسية، وبين الجهات الدينية يعرضون أنفسهم فداء للعهد الجديد. وأفراد عشائرهم جنوداً لنصرة العهد الجديد.

فشوهوا بسلوكهم معنى النضال السياسي، وأسهموا مع مثلائهم في حرف المسيرة.

هـ. عسكرٌ من الماضي أثقل الزمنُ عليهم، وصدام، وآخرون مستمرون بالخدمة في قيادات الجيش حتى يوم التغيير، وبعض كانوا موزعين على تنظيمات النخوة، وقوات الاحتياط، وأصدقاء الرئيس لم يتأخروا عن الركب الذي تَكَونَ مع الأيام الأولى للتغيير بعدما شاهدوا بأعينهم طبيعة الهرولة.

وأدركوا بحسهم القيادي ما سينتج عنها، فشاركوا فيها، وتوزعوا بين الأحزاب، والحركات، توزيعا لم يكونوا فيه قادة كما تعودوا من قبل لأن اللعبة السياسية هذه المرة لا تقبل العسكري قائدا في زمن الديمقراطية.

ولا يقبل فيها السياسيون الجدد العسكري قائدا، ولا يقدّمونه مع الجالسين في الصف الأول وهو المتهم من قِبَلِهم بالتآمر، والوقوف مع صدام في حروبه، ودعم النظام.

فأسسوا عليه في تحركهم، وتنظيم أعمال أحزابهم، وفي اتصالاتهم مع المحتل، وغيره فسجلوا بهرولتهم أنهم أكثر الخاسرين.

لقد انتهت الأشهر الأولى، وانتهت معها حالة الذهول، وفاق الجمع العراقي من الغيبوبة المؤقتة أو الصدمة التي كانت نفسية، حقيقية، شديدة، مهدوا بسلوكهم الناتج عنها، وبالذهول إلى أكبر عملية اضطراب في الأمن والسياسة، والقيم

الاجتماعية في تاريخ العراق، وربما على مستوى العرب، والمنطقة التي يقع فيها العراق في العصر الحديث، وعلى العموم وجدوا بعد إفاقتهم من الصدمة:

1. رجال أعمال، وتجاراً جدداً كانوا بالأمس من الحفاة، والمتسكعين، والمجرمين، أصبحوا الآن من بين السائرين إلى العلا في الصفوف الأولى من مجتمع ما بعد التغيير.
2. الأجهزة الضابطة قد انتهت ولا يمكن الركون إليها في فض مشكلة بسيطة بين العوائل والجيران، ولا من يطبق القانون.
3. آلاف الناهبين الذين فتحوا البنوك، والدوائر والقاصات تربعوا على السوق، وعلى أفخم البيوت، والمعامل، وقدم بعضهم نفسه في الصف الأول مع المعنيين بالتغيير، والوطنيين الذين سيقودون عملية إعادة البناء، والتعمير.
4. عصابات بدأت تظهر في الحي، والشارع تفرض قوانينها على الناس الآخرين، وتتكاثر بشكل سريع، وتتسلل إلى بعض المفاصل المهمة في الدولة، والمجتمع بشكل سريع أيضا.
5. مئات الآلاف من الجنود، وضباط الصف، والضباط، الذين وجدوا أنفسهم فجأة بلا عمل، ولا مورد رزق، ولا تقدير أو احترام، ووجدوا أن لا فائدة من توزعهم على الأحزاب، والحركات السياسية التي بدأت تتاجر بهم، وتبيع بعضهم كمصادر معلومات.
6. السياسيين القادمين من الخارج الذين أدركوا أن الكثير من أدبياتهم زمن المعارضة غير ممكنة التطبيق، والكثير من خططهم لإعادة بناء العراق غير قابلة التنفيذ، وورش العمل التي كانت تدار، وتعقد في لندن، وواشنطن لم يلتفت إلى نتائجها أحد حتى أضحت ضرباً من التاريخ، وأنّ جهود المشاركة في عملية إعادة البناء هي توجهات للكسب، والتحصيل.
7. اختفاء آلاف العرب الذين قدموا إلى العراق قبل التغيير للقتال دون حصوله، ودخول آلاف منهم، والمسلمين الساعين إلى قتال الكفار على أرضه قد أخذوا مواقعهم، وتمترسوا، وكونوا علاقات قتال بالضد بدأوها أولا بعمليات المهارشة بعد قليل من الاستفاقة من حالة الذهول.

8. المساعي المعلنة لجلب الأموال لغرض الاستثمار صعبة التحقيق بسبب التعقيد، والتخوف، وعدم الاطمئنان، وظروف عدم الاستقرار، وما وصل منها دخل في دوامة الروتين، والفساد. الخ من معالم السلوك، والتصورات، والأهداف، والاستراتيجيات الدولية التي أسهمت جميعها بسحب العراق إلى ساحة قتال من نوع خاص مطلوب فيها:
   1. جلب كل الإرهابيين المسلمين في العالم إلى أرض قتل اختيرت بإمعان.
   2. إلهاء أجيال، وإيجاد أخرى لا علاقة لها بالماضي، وأفكاره، والإيديولوجيات.
   3. تقديم رسالة ديمقراطية إلى المحيط غير الديمقراطي مهما كان الثمن المدفوع.
   4. إثبات خطأ أفكار في حكم الدين للسياسة أو تدخله في شؤونها، وصحة أفكار أخرى قد تكون بعيدة عن فقه الدين السياسي، وقد يكون الأمر أبعد من ذلك حيث التوجه إلى تدمير الدين بأدوات السياسة التي دخلها رجال الدين ليُثبّت للعالم عدم قدرة الإسلام كدين على إدارة الدول، والمجتمعات.

كل ذلك، وغيره الكثير وجده العراقيون خلال الصحوة من حالة الذهول، وما بعدها، ووجد الكثير منهم أنهم مساهمون بما يحصل، وغير قادرين على فعل شيء للحيلولة دون أن يحصل، فدخلوا دائرة الفعل مع الداخلين الأجانب فكونوا معهم دوامات قوامها التدمير، والخراب بأساليب، ووسائل متعددة ستكون هي عناوين الكتاب في بابه الأول.

إن الأسلوب الذي سيتبع في هذا الكتاب هو سرد لبعض الوقائع التي تمثل حقيقة الفوضى، والاضطراب مع تحليلها من وجهة النظر النفسية، والسياسية، وهو سرد سيتناول الجانب السلبي منها بطبيعة الحال لأن الإيجاب لا يقع ضمن الفوضى كما إن ذكر الإيجاب أو مناقشته في الوقت الراهن غير ذي جدوى في عملية الإصلاح المطلوبة لهذا الواقع المأساوي، والذي يتطلب الخوض في غماره أولا تحديد المشكلة أي الخلل، والاضطراب، ومن ثم إعطاء تصور عن نسب انتشارها، وبعض أسباب هذا الانتشار، وأخيرا تسليط الضوء، ولو بشكل بسيط على آفاق

التخلص منها أو ما يمكن تسميته بالحلول المقترحة التي سيشار إلى بعضها ضمنا أو بـــشكل عابر من خلال السياق العام للموضوع، كما إن كثر الأمثلة السلبية التي أريد لها أن تكون شاهدا على سعة الخلل، وعمق المأساة لا تعني أن كل ما يحصل في العـــراق في الوقت الراهن موشح بالسواد رغم حقيقة وجوده، ولا تعني الأمثلة الـــتي تذكر حول أخطاء البعض من السياسيين، والمسؤولين، والعسكر أن العراق خـــال من الوطنيين، والنـــزيهين، والحكماء، والمهنيين، لكن مقتضيات الاستدلال على حجم الكارثة، والمأساة تحتم إعطاء الأمثلة من هذا النوع التي تؤكد بالمحصلة أن الوضع في العراق يمثل فعلا مأساة، والمساهمين في ساحته جميعا وسط عديد من الدوامات.

الفصل الأول

جذور المحنة

إن محنة العراق أكثر من معقدة بعد أن دخل دواماتها العديد من الأطراف التي تتقاطع أهدافهم على المديات القريبة والبعيدة.

المبحث الأول

الجذور العامة

بدأت الحرب على الأرض العراقية، وانتهت صفحتها الأولى بسهولة لم يكن يتوقعها الحلفاء طرفها الأول قوات متعددة الجنسية بقيادة أمريكية وضعت في حساباتها مقاومة ولو من النوع التقليدي لعدة أشهر في الوسط، والجنوب وبعض مناطق الشمال، وطرفها الثاني صدام حسين، وضع في مخيلته سحب الخصم إلى قتال مدن يشتت جهد قواته، ويكبّده خسائر في الأرواح لا يمكنه تحمل تبعاتها إنسانيا، والثالث قوات عراقية لم يصمد العسكري المهني منها عمليا كما كان معهودا له في الحروب السابقة.

ولم يدافع البعثي فيها كما هو مفروض فعليا.

ولم تتدخل قوات النخوة، ولا الاحتياط القريب، وغيرها من التشكيلات التي أرادها صدام أن تكون مصدات أو قوات لامتصاص زخم الهجوم، وتوجيهه إلى المدن دون بغداد مقره الحصين.

وانتهت تلك الصفحة سريعا فأذهلت المراقبين، ودفعت العراقيين، وغيرهم من المقيمين في العراق إلى انتظار التطورات الحاصلة في الموقف بمشاعر كانت مزيجا من:

1. القلق حيث المجهول في التعامل مع الأجنبي الذي لا يمكن الاطمئنان له، ولا التكهن بأهدافه البعيدة على وجه الخصوص.

2. الدهـــشة من سرعة التخلص من ضغوط كانت مسلطة على العقول لعشرات السنين.
3. لـــذة الـــتخلص من عبء الماضي، وأمل التطلع إلى مستقبل يفترض أن يكون أحسن في ضوء المعلن من الأهداف.

لقد كانت الصفحة خليطاً من المشاعر أو بمعنى أدق مزيجاً من فرح بالخلاص "مـــن الديكـــتاتورية" وغصة من فعل التخلص" على يد الأجنبي" وأمل في تحقيق "الديمقراطية"، حتَّمَ الموقف النفسي في ذلك الزمن المضغوط اختلاطها بسبب صدمة التغيير، لكن من غير المنطقي في مجاله أن ينكفئ بعد التغيير مباشرة العديد ممن حملوا مسؤولية إدارة الدولة، والمجتمع على أنفسهم، ويتوجهوا لإشباع حاجاتهم النفسية، والمادية التي شعر بعضهم أنه قد حُرم منها لعديد من السنين، فنسوا أو تناسوا دون عمـــد أن الخطـــوة الأولى باتجاه قيادة البلد نحو التحقيق الأفضل للمستقبل الآمن، والسيطرة الفعلية على المجتمع القلق هي إعادة التجانس النسبي لذاك الخليط.

إذ وبدلا من التدخل لفعله تُرك الأمر على الغارب خلافا للمنطق الصحيح.

فمـــشاعر الفـــرح بالخلاص لم يتم تعزيزها أو توسيع رقعتها بعائد ملموس للخـــلاص، إذ قُـــسمت على سبيل المثال السلطة بين سبع جهات سياسية فاعلة احتكارا فتقلصت فسحة الفرح في عقول آخرين من خارجها.

وُوزعت الوظائف، والمقاولات، والهيئات الدبلوماسية على القريبين من الجهات السبع، وبعض المتنفذين من خارجهم فضاقت مساحة الفرح في نفوس آخرين.

وصحا الجمع على عدم قدرة المعنيين على إعادة الكهرباء، والماء، التي أرهقت الكاهل، وأتعبت النفوس، وكذلك تصليح المجاري التي أفسدت البيئة في بغداد.

وعلـــى فـــشل في مكافحة الجريمة، وأعمال الإرهاب، وتقليل نسب البطالة، وغيرهـــا كمـــا هو مطلوب فانحسرت مجالات الفرح في دواخل آخرين يشكلون الأغلبية، أو قلت لتزيد من عدم تجانس الخليط.

والغصة من فعل التخلص على يد الأجنبي مشاعر يفترض إزاحتها من العقول تدريجـــيا لتنقية الخليط، وقد حصل في مجالها العكس إذ وبدلا من أن تتركز الجهود في السنة الأولى التي أدار فيها مجلس الحكم، وبريمر العراق على إعادة تنظيم الجيش،

والـــشرطة، وأجهـــزة الأمن الداخلي كقوى ضابطة تحل محل القوات الأجنبية في السيطرة، والضبط تلمس العراقيون أن ما جرى فيها مجرد خطوات مشوهة لا توفر قدرة لإحداها في التعامل مع أزمة قتال في قرية دخلها إرهابيون أجانب يسعون إلى القـــتال، وبـــسببها بقي العسكر الأجنبي، وسلطته في الشارع، والمدينة وقريبا من القرية، فضاعف وجوده من عدد الذين يشعرون بالغصة، بل وتحولت تدريجيا عند البعض إلى مشاعر عدوان زادت من تعقيدات الخليط.

أما الأمل في تحقيق الديمقراطية، والرفاه ورغم صعوبتهما في مجتمع عانى عقوداً من البطش، والديكتاتورية، وجد المتأملون في مستقبلهما أن هناك:

احتكاراً مبطناً في الحكم، وميلاً للاستحواذ.

صياغات ذكية في الدستور، والتشريع لامتداد السيطرة، ومد النفوذ.

أفكـــاراً للمؤامـــرة مـــا زالت في عقول السياسيين، وعملاً جاداً للإقصاء، والتهميش.

تحويـــراً في النوايا، والشعارات، وإعادة تفعيل لقوانين الماضي التي تحقق بعض غايات الحاضر.

ضعفاً في الأداء، واختلالاً في معايير الولاء.

عـــندها تحوّل كثير من مشاعر الأمل إلى إحباط، وزاد من اضطراب الخليط، وعدم تجانسه حدا لم يبق أصحابه متفرجين أو محايدين لما يدور من حولهم، وقريبا مـــن مشاعرهم إذ إنه ومن الناحية النفسية وكلما تغيرت المشاعر بسبب الظروف المحـــيطة إيجاباً على سبيل المثال كلما وجدنا الفرد متجها للمساهمة في البناء ساعيا إلى تحقـــيق الاستقرار، والعكس من ذلك صحيح كلما تشبع العقل بمشاعر السلب نجـــده متجها بدوافع نفسية إلى المساهمة في إشاعة الفوضى، والاضطراب سعيا منه للـــتخلص من ضغوط تلك المشاعر، وهذا وغيره مؤشر حاصل بنسب ليست قليلة في السني الأربع الأولى لعراق ما بعد التغيير.

الجانـــب الأمـــني خاصة في بغداد، وديالى، والأنبار، والموصل، وأقل منها في بعـــض محافظات الوسط، والجنوب يتميز بسعة استخدام السلاح بالضد من قوات مـــتعددة الجنـــسية، ومؤسسات الدولة العراقية، وأجهزتها إذ تبين مؤشرات العمل

المسلح، وبعض الدراسات التي تناولت الموضوع أن ما يقارب من 78% من الهجمات المسلحة، وأعمال التخريب تقع في تلك المدن.

وأنّ أسرع وتيرة للتدهور الأمني هي تلك التي تشهدها العاصمة بغداد(2).

ويتميز أيضاً بظاهرة الغياب البيّن للسلطة، واتساع عمليات الإرهاب، والجريمة، وانعدام الأمن، وشيوع معالم الفوضى وتكرار اغتيالات (متعددة النوايا والاتجاهات) طالت عناوين كبيرة في الدولة، وشخصيات معروفة في كلّ المجالات بطريقة جزر لم تقتصر على من مثلهم بعد أن امتدت لتشمل الطلبة، والشباب، والنسوة، والأطفال حتى أيقن الجميع:

1. عجز أجهزة الدولة عن حماية رجالاتها.
2. ضعف سلطتها المركزية.
3. قلة حزمها في كثير من الأمور إلى المستوى الذي أصبح فيه المواطن العادي لا يعير سلطتها أي اهتمام، وبات فيه الإرهابي، والمسلح من المقاومة وغيرها، والمجرم العادي أكثر إصرارا على تنفيذ مخططاتهم، وأفعالهم دون أن يبالوا بها في جميع الأحوال، وهذا أمر واضح من الأرقام التي تذكرها بعض المصادر عن الخسائر بالأرواح مثل بعثة الأمم المتحدة للمساعدة في العراق (يونامي) التي ذكرت في تقريرها التاسع بتاريخ 2007/1/16 أن الخسائر للفترة من 1 تشرين الثاني/نوفمبر وحتى 31 كانون الأول/ديسمبر للعام 2006 بلغت بين المدنيين مقتل 6376، وجرح 6875 على الأقل جراء العنف الجاري في الفترة التي يغطيها التقرير(3).

وبهذا يبلغ العدد الإجمالي للضحايا من المدنين لعام 2006، نحو 34452 أربع وثلاثين ألفا وأربعمائة واثنين وخمسين قتيلا، والجرحى 36685 بحدود ستة وثلاثين ألفا وستمائة وخمسة وثمانين جريحا، مع بقاء الوضع في بغداد، تحديدا، خطيراً جدا، إذ تسجل يوميا إصابات، وتظهر جثث مجهولة الهوية، وعليها علامات تعذيب.

وبنفس الاتجاه أورد بحث بعنوان (محنة الأكاديميين العراقيين) كان قد قدم إلى مؤتمر مدريد الدولي حول اغتيال الأكاديميين العراقيين في 23-24 نيسان 2006 أنّه

قــد تم اغتــيال مــا لا يقل عن 530 عالما عراقيا، وأكثر من 200 أستاذ جامعي، وشخصيات أكاديمية أخرى حتى موعد تقديم البحث (4).

وفي مجــال الصحة أفاد مدير عام دائرة العمليات الطبية في الوزارة بتصريحات نشرت يوم 2007/2/12 في جريدة الصباح وبثت على أكثر من فضائية عراقية أن نحــو 618 ســتمائة وثمانــية عشر من موظفي الوزارة بينهم أطباء قتلوا على يد الجماعات المسلحة خلال السنوات الثلاث الماضية، بينهم:

132 مائة واثنان وثلاثون طبيبا، و223 مائتان وثلاث وعشرون من الكوادر التمريضية.

185 مائة وخمس وثمانون من عناصر حماية المنشآت الحيوية".

وأضــاف المديــر أن "الشهداء هم من كلتا الطائفتين الشيعية، والسنية، وتم استهدافهم من قبل المجاميع الإرهابية"(5).

إن الأرقــام التي تتناول الخسائر في العراق في الوقت الحاضر يصعب تأكيدها علميا لوجود عامل التضخيم، والتبسيط المرتبط بالموقف السياسي، والطائفي، ومع ذلــك فإن الخسائر كبيرة جدا، وتزيد كثيرا عن متوسط الخسائر اليومية للحرب العراقية الإيرانية المعروفة بكثرة خسائرها.

وإن الحكــومة في مواجهــتها الميدانــية تحاول أن تفعل شيئاً، وبسبب كثرة المعــوقات الــتي تحــول دون فعل الشيء تعلن استنكارها، وإصرارها على تقديم الحماية، لكن نواياها في كل مرة تصطدم بالآتي:

1. قدرات الأجهزة الأمنية المحدودة في التعامل مع الخصم بما لا يكفي على تأمين التفوق الرادع.
2. حجــم التخريب، والإرهاب في المجتمع الذي لا يتيح الفرصة لهذه الأجهزة أن تــضع حارســا لكــل أستاذ، وصحفي، وتاجر، ومفرزة أمام كل مدرسة، وجامع، ومستوصف صحي، ومثلها في كل سوق، وتجمع بشري.

لذا تجد الأجهزة نفسها عاجزة، ومحبطة مع كل حالة قتل، وتفجير.

وتجد الحكومة أنها في حيرة من اتساع حجم التخريب.

ويجـــد الناس أنهم أمام كارثة لا مفر منها إلا بالهجرة أو الدخول في محيطها أطرافا مشاركة بعدة اتجاهات.

زاد هذا الأمر سوءًا ارتكاب أخطاء في السياسة العامة لإدارة الدولة، والمجتمع إلى الحد الذي أقنع الغالبية العظمى من المواطنين العراقيين مع قدر من المبالغة بأن:

1. انـــشغال الإدارة العـــراقية في الوقت الراهن محصور بمصالح، واعتبارات ذاتية تتأســـس على من يشغل المنصب، ومن يغادره، وكيف تتحقق أهداف الحزب بالكسب، ومد النفوذ بعيدا عن التفكير بأمن المواطن، واستقراره.
2. التوجه المحموم لعديد من المسؤولين في السلطة هو لإحاطة أنفسهم بطائفة من المعارف، والمقربين، وبلفيف من المنتسبين إلى الحركة، والكتلة، والحزب، وهم في كثير من الأحيان ليسوا من ذوي الخبرة العلمية، والاختصاص الذي يؤهلهم تقديم الحلول للوضع الأمني المتأزم في البلاد.
3. الـــولاء، والتقديـــر، والغلبة توجهت إلى الأقارب، والمعارف، وأبناء العشيرة، والمنطقة، والطائفة، والحزب، كبديل عن العراق وطنا شعر فيه المواطن العادي بأنه ضحية يطاله البؤس، والشقاء، ومشروع للقتل يقدم كقربان لعملية التغيير، والديمقراطية.
4. الإرهـــاب الـــذي يستهدف السياسة لا يصل إلى الرموز التي تسكن المنطقة الخـــضراء، وتحتمي بأفواج من الحراس العراقيين، والأجانب في بعض الأحيان، والذي يتوجه إلى الإدارة لا تصل شظاياه إلى المستويات العليا التي أخذت هي كذلك من المنطقة الخضراء مساكن، ومقرات.
5. العـــيش في دوامـــات محـــنة لا أمل فيها لإيجاد حلول تجنب الأمة مزيدا من الويلات.

إن المعضلة أو الأزمة العراقية شهدت في السنة الرابعة مزيدا من التطور باتجاه التعقـــيد الأمـــر الـــذي يحتم النظر إليها ليس من زاوية الخارج الذي رسم معظم مـــساراتها المتناقـــضة فقط بل وكذلك من الداخل الذي يرسي عادة ذلك التطور استجابات باتجاه الحل أو التعقيد إذ نرى في الخارج خلال هذه المرحلة على سبيل المـــثال توجها لغالبية الدول الكبرى على وجه الخصوص للإسهام في تقديم الدعم

الاقتصادي، والسياسي أملا في النهوض بواقعها أي الأزمة العراقية خطوة إلى الأمام يمكـــن أن تؤسس قواعد الأمن، والديمقراطية بخسارة أقل كما هو معلن على أقل تقديـــر، ونرى في الوقت نفسه استمراراً للمحاولات ذاتها من بعض الدول القريبة لإبقاء الأزمة بؤرة متوترة لحسابات تتعلق في معظمها بإبعاد شبح التدخل الأمريكي في شـــؤونها، ومع هذا فإن أهم تلك التوجهات تأثيرا في واقع الأزمة موافقة الدول الدائـــنة لنادي باريس على إطفاء 80% من إجمالي ديون العراق البالغة بحدود 120 ملـــيار دولار، والـــذي يمثل إطفاؤها مبادرة إيجابية باتجاه المساعدة، وتقديم العون تُحسَبُ لتلك الدول الصناعية الكبرى في وقت يحتاج فيه العراق إلى كل عون من أجـــل الـــنهوض، وتجاوز محنته التي تتأسس على ترميم الاقتصاد المدمر، وتحسين مـــستوى العيش للإنسان العراقي المحطم، بغض النظر عن ملابسات تلك الديون، وفوائدها المستحقة، وعن الحصار الذي فرض على العراق آنذاك، وأمواله المجمدة.

تلـــيها في الأهمـــية مقررات مؤتمر شرم الشيخ الذي عقد عام 2004 والذي أوحـــى إلى جمـــيع المعنيين بالأزمة العراقية بأن لا يكتفوا بعدم التدخل السلبي في شؤونه الداخلية فحسب بل ويساعدوا على تحسين ظروفه السياسية، وإنجاح تجربته الديمقراطية.

إن التوجهات المذكورة في مجال الاقتصاد، والسياسة، والأمن، تلك الأركان المهمـــة للأزمـــة العـــراقية يؤشر اتخاذها في ذلك العام رغبة دولية معقولة في عدم السماح بمزيد من الفوضى، والاضطراب في ساحتها الملتهبة أو السيطرة عليها لكي لا تـــنفلت زمامها، لكنها توجهات وإن باتت واضحة في السلوك الدولي الخارجي لا يمكن تجسيدها على أرض الواقع العراقي الداخلي حقائق تسهم في تخفيف التوتر وفـــرض الأمن، أي الشروع بتقديم الحلول المناسبة لأن أخطاء قد ارتكبت من قبل الإدارة الأمـــريكية المعنية، وقصوراً في التفاعل مع تلك الخطط موجود في الإدارة العـــراقية، إذ نرى مثلا أن الكثير من الوزارات حُددَتْ لها خطط استثمارية تحولت معظم تخصيصاتها من ميزانية عام 2003 إلى 2004 ومن ثم إلى 2005 حتى أصدرت وزارة المالـــية نهايـــة عام 2005 أمرا منعت فيه تدوير تلك الأموال إذا ما عجزت الوزارة المعنية عن صرفها، كما أعلن وزير المالية في مجال تقديمه ميزانية عام 2007

أن هناك فائضاً في ميزانية 2006 بحدود 14 مليار دولار لم تستطع أجهزة، ومؤسسات، ودوائر الدولة صرفها بسبب الظروف الأمنية، وتعقيدات آلية الصرف، ومسائل الفساد، كما أنّ الديون التي تشطب على سبيل المثال لا يمكن أن تُحَسِن من حال الاقتصاد المتهرئ كما هو مطلوب وبالسرعة التي يفترض أن تكون إذا ما استمر مسلسل الهدم، والتفجير للبنى التحتية، وتأخرت خطوات الشروع في إعادة الأعمار، وبقي الفساد آفة مستشرية في عموم البلاد، كذلك فإن الدعم السياسي باتجاه الديمقراطية، وإنجاح الانتخابات لا يمكن أن يتحقق إذا لم يدرك جميع العراقيين أهمية المشاركة فيها خطوة أساسية للحصول على الحقوق، وأن يعوا جيدا أن البلد سوف لن يُشيّد من جديد إلا بالنوايا الحسنة للأهل، ولن يتقدم ثانية إلا بالجهد الحثيث للمجتمع، ولن يفيق من غفوته المهلكة إلا بالتوجه الجمعي للمشاركة في الحل، والتوجه إلى التعامل المنطقي مع الواقع الحالي بطريقة تتلاءم، والظروف السائدة بعيدا عن الكره، والحقد، والاقتتال، وبعكسه سوف يجدون هم، والقريبون معهم أنهم جميعا في مركب قديم تتقاذفه الأمواج وسط المحيط لا يمكن أن تحول دون غرقهم وإياه كل محاولات العالم الآخر أو أمواله، وإن كانت بمئات المليارات.

إن الأزمة في العراق أكثر من معقدة بعد أن تكونت ساحة قتال فيها العديد من المشاركين، والكثير من الأهداف التي تتقاطع على المدى القريب، والبعيد.

فالأمريكان لهم استراتيجياتهم التي تفضي إلى أهداف يكون فيها العراق بالصورة التي يريدون بعد عشرات السنين، ولا يأبهون بالخسائر التي تحدث لتحقيقها حسب الأصول.

ودول الجوار لها مصالحها في إبعاد الأمريكان عن المنطقة، والحيلولة دون تحقيقهم لتلك الاستراتيجيات.

ودول حليفة تتحسس ما يجري في العراق فالكويت قلقة لا ترغب أن ترى بجوارها دولة شيعية قد ينتجها الصراع، ويضعها بين فكي كماشة بينها وبين إيران، على الرغم من دورها في الحرب كحليف بسبب غزوها عام 1990.

والأردن لا يحبذ هذا ولا يريد بجواره دولة سنية ضعيفة أو فقيرة يتحمل أعباء تقويتها، ولا يريدها صورة للدولة الدينية التي تهدد استقراره وباقي دول المنطقة، ولا يرغب كذلك بفقدان العراق عمقه الاستراتيجي في الصراع مع إسرائيل.

وكذلك الحال بالنسبة إلى السعودية التي لا يسرها تطور الأحداث التي قد يجبرها السعي للحيلولة دون تطورها للتدخل في مجرياتها، والانزلاق طرفا في حرب يكون الجميع فيها من الخاسرين، وصراع قد يفضي إلى تقسيم العراق، وإيجاد دولة شيعية على حدودها بما يثير العديد من المشاكل لشيعتها في المنطقة الشرقية.

وتركيا التي حاولت أن تنأى عن التدخل المباشر طرفا في الحرب عام 2003 تجد نفسها بالتدريج قريبة من حدود العراق أو داخلة في محيطها لأنها وضعت خطوطاً حمراء على حصول الأكراد في الشمال العراقي على دولتهم المستقلة، وعلى ضم كركوك إلى كردستان، وهي خطوط دفعتها إلى أن تكون موجودة بشكل غير مكشوف، وأن تهدد بالوجود المكشوف بقوات وضعتها مباشرة على الحدود مع العراق.

إن هذا الوضع المعقد والذي يَعدّهُ البعض من السياسيين مقصوداً من قبل دولة الاحتلال لخلق فوضى مسيطر[1] عليها تفضي إلى تحقيق أهداف السياسة

(1) يتهم العديد من العراقيين القوات الخاصة الأمريكية بافتعال بعض الحوادث، والتفجيرات التي يصعب إثبات صحتها أو إنكار وجودها على الرغم من حصول مصادمات بين القوات العراقية، وأفراد تلك القوات أكثر من مرة، كما أنّ القوات الأمريكية في إدارتها للعملية الأمنية كانت حريصة على عدم إبقاء أي إرهابي أو مسلح يلقى عليه القبض في أيدي القوات العراقية، وتتدخل لأخذه بالقوة إذا ما اقتضى الأمر بهدف التحقيق معه بدعوى عدم نزاهة القوات العراقية في التعامل مع الموضوع، ويتردد بين رجال الأمن، والسياسيين، وفي الشارع العراقي أن أكثر من شخص كان قد ألقي عليه القبض، وبحوزته سلاح، ومتفجرات قد تم إخلاء سبيله بعد أيام، وشوهد في منطقته أو مناطق أخرى يمارس القتال بالضد من الحكومة، وهذا أمر يصعب تأكيده بدقة أيضاً إذ إنّ القوات العراقية تلقي القبض في بعض الأحيان على أشخاص تلبسهم تهم الإرهاب وهم بعيدين عن هكذا تهم، ويصح في الوقت نفسه إطلاق سراح أشخاص متّهمين بأعمال إرهاب لعدم كفاية الأدلة من وجهة نظر الأمريكان على الرغم من وجودها من وجهة النظر العراقية. وعلى العموم هناك قناعة بين العديد من العراقيين في الوقت الحاضر أن أمريكا كدولة احتلال هي طرف رئيسي بالفوضى

الاســـتراتيجية في المـــستقبل البعيد شجعت أطرافاً أخرى على المجيء إلى العراق، ودفعـــتهم إلى إعلان مشاريعهم التي ينوون توسيعها في حالة النجاح مثل القاعدة، وفلسفتها في إقامة الإمارات الإسلامية التي تبناها الزرقاوي الذي كان قبل مقتله في 8 حزيـــران عـــام 2006 مسؤولا عنها في بلاد الرافدين كما كان يلقب آنذاك، والـــذي عـــزز مفهوم الإمارة في العقل الجهادي العامل في العراق بعد أن تبين له، ولأســـباب ذاتـــية أن أفغانستان التي يكثر في محيطها الأمراء الكبار، وتقوى فيها القبلـــية، لا تـــصلح مكانـــا لإنشاء عدة إمارات في مناطق ينبغي أن تكون فيها الجغـــرافية، والطبـــيعة الـــسكانية، والطائفية، والظروف القتالية عوامل مساعدة للـــتكوين، والاســـتمرار، عليه توجه، وبعض مريديه إلى العراق فوصلوا إلى أرضه بيـــساطة، ومع وصولهم وجدوا الفرصة سانحة لتحقيق النوايا، والأهداف الخاصة، وهم المُدَربين تدريبا جيدا على حرب العصابات التي تتلاءم، وأساليب القتال على الأرض العـــراقية فجعلتهم، ودافعيتهم بالصدارة في جوانب القيادة الميدانية للقتال، حـــتى اســـتوعبوا في بعض الأحيان العديد من قواعد المقاومة العراقية التي لم تتفق، وخطواتهم في تعميم القتال خارج المحتل، وقواته العسكرية.

وهـــيأت لهـــم المجـــال أن يخيفوا الموجودين من حولهم، والأتباع وأبقتهم في الأعلـــى، مسلحين بأفكار سلفية طائفية تنسجم وغياب التنوير، والردة، والشعور بالإحباط بين البعض من الشباب الجاهل في غالب الأحيان.

ويبدو من الخطوات الأولى لمسيرة المذكورين أن جوانب الذات أي الحلم في أن ينـــشئوا إمـــارة هي الدافع الأقوى في السلوك إذ توجهوا أولا إلى المكان الذي

الحاصـــلة، وهي قادرة على إيقافها في الوقت الذي تريد، ولديها أجهزة استخبارات هي الأقوى في العالم لا يمكن أن تقف عاجزة أمام السيطرة على تمويل الإرهاب، وقواعد تفخيخ السيارات، ومـــنافذ التـــزود بالأســـلحة، والمتفجرات من خارج الحدود، ولا يمكن أن تكون قد غفلت في حساباتها القتالية خلال شنها الحرب على العراق موضوع السيطرة على تلك المخازن الضخمة للأسلحة، والمتفجرات التي تركتها عرضة للنهب ما أوصل ملايين قطع السلاح للناس العاديين، وللإرهابيـــين، ومع ذلك يبقى غير المعقول في التناقضات الواضحة في هذا الجانب عدم سعي الأمـــريكان لإثبات العكس، وكأنّهم بفعلتهم هذه يريدون التمهيد لقبول واقع معين فيما إذا أصبح مكـــشوفاً تماماً فـــي المستقبل أو إنهم يتصرفون بتعالٍ، وغطرسة لا تضع في الحسبان حال المجتمع الذي يعملون على جعله منارا للديمقراطية في الشرق الأوسط الجديد.

يمكــن أن يحققوا فيه تلك الطموحات، وليس المكان الأكثر حاجة للقتال من أجل العقـيدة، إذ إنّنا لو رجعنا قليلا إلى الثقافة العربية، والإسلامية السائدة حتى يومنا هـذا، وقارنـا في موضـوع أحقية القتال كما يراه غالبية الفقهاء، والمتدينين بين فلسطين التي صنفت بالمغتصبة في هذه الثقافة. وبين العراق الذي اختلط فيه مفهوم التحرير بالاحتلال نجد أن الكفة تميل إلى صالح القتال على الساحة الفلسطينية.

ونجـد في الوقت ذاته أن العزوف عن الذهاب إليها من قبل المذكورين الذي يقيم بعضهم أصلا في القريب منها كونها ساحة لا توفر مجالا لهم في تحقيق الذات، والأحلام، وتكوين الإمارة لأنّ هناك:

1. مقاتلين فلسطينيين لا يمكن منافستهم في الوطنية.
2. قوة ردع إسرائيلية لا تسمح للتفكير بمثل ذلك.
3. تجانـساً طائفـياً في المجـتمع الفلـسطيني لا يمكن التأسيس عليه لإثارة الفتن والأحقاد[1].
4. وعياً بين الشباب الفلسطيني يتأسس على أن تحقيق طموحاتهم في الاستقلال، وإقامـة دولتهم لا يمر عبر الإمارات المتفرقة هنا أو هناك، ونجد أن الإمارة التي يـريد أن يكونها السلفيون المتشددون القادمون من خارج العراق، والعراقيون الـسائرون بالـركب سـيغيب أو يُغَيبُ فيها العلماء لأنهم لا يقبلون التعميم الشامل للجهل.

وسـيهرب أو يجـبر على الهرَوب منها الأطباء لأنهم لا يوافقون على العودة بالطب إلى الفصد، والحجامة.

وسيغيب أو يدفع إلى الغياب عن جامعاتها الطلبة لأنهم لا يريدون العودة بهم ودراستهم إلى الكتاتيب. وستتنحى فيها المرأة نصف المجتمع لأنها لا تقبل أن تكون

(1) لا يمكـن الـتعويل علـى الاختلافات المذهبية فقط كأداة فاعلة لإثارة الفتنة في المجتمعات العربية والإسلامية، فالشواهد الموجودة في فلسطين التي لا تعاني وجود الشيعة، والسنة في تـركيبتها الاجتماعـية وجـد لها الإسرائيليون، وقوى خارجية، وداخلية التكتل النضالي أو الـسياسي بـين فتح، وحماس مجالا واسعا لإثارة فتنة نجحوا في إثارة بعض معالمها منذ ما يقارب السنة، وحتى وقتنا الراهن.

آلــة تفــريخ، ووســيلة تمتع جنسي لحامل سيف مثلوم، وسيهاجر أو يُهَجرُ منها العسكر لأنهم لا يستطيعون العودة بأساليب الانتشار، والقتال إلى النبل، والسيف، واســتخدام الدواب، وسيحاول، ويستنجد فيها العقلاء، والكسبة، ولا يجدون من يــستجيب، وسيستغيث الأطفال من سَوِقهم إلى المحرقة، وحرمانهم متع الطفولة، ومــستلزمات الــنمو الطبيعــي، وسيتمتع فيها فقط المرضى بداء الذات المفرط، والجهلة، والقتلة، والحالمون بالعودة إلى الماضي سبيلا لتدمير الحضارة في العراق[1].

إنهــا مــشكلة أدت إلى بث بذور الفتنة في العراق، وعملت على استقطاب العديــد مــن الشباب إلى جانبها على أساس النهج المتبع للجهاد لتكوين الإمارة الإسلامية التي لا يرجح المنطق إقامتها بالعراق لأسباب التركيبة الاجتماعية، والمعالم الحــضارية، وبذا سيكون أولئك الشباب بجرد وقود لاستمرارها فترة قصيرة تؤدي دورا، وتنتهي كما انتهت غيرها من المحاولات، وإنها كارثة ستزيد من الخسائر التي يــدفعها العراقيون حصلت للأسباب التي وردت أعلاه مضافة إليها أخطاء الإدارة، وعــوامل الطائفية، والتدخلات الخارجية، وأسباب أخرى ستتمّ مناقشتها بأسلوب العرض التاريخي لبعض الوقائع، والأحداث التي مرت بالعراق منذ يوم التغيير حتى عــام 2007 وقــت صدور الكتاب، وتحليلها من وجهة نظر سياسية نفسية يترك للقــارئ في مجالها الحكم على الأسباب الفعلية بعد أن كثرت إلى مستوى يصعب إحصاؤها في كتاب واحد، وفي زمن قد لا يسمح بالإحصاء.

واحــدة مــن المشاكل التي أعاقت عملية الإسراع في إعادة البناء، والانتقال الــصحيح إلى مجتمع الدولة المستقرة هي الفراغ المؤسسي الذي حصل بعد التغيير ودفــع بــالحكم، على وفق أحقية تحميل مسؤولية الحكم إلى من وقف بالضد من

---

(1) شــاعت أقاويــل في بعض المناطق التي يقوى فيها السلفيون خاصة في الرمادي، والفلوجة، وبعض مناطق من ديالى، وأشارت حوادث كثيرة إلى أنهم أغلقوا صالونات التجميل النسائية، ومــنعوا الحلاقين من استعمال الخيط الشائع في حلاقة الشباب، ومنعوا الستلايت، ومشاهدة التلفــزيون، وأغلقوا محال بيع الثلج بدعوى عدم شرب الرسول (ص) الماء البارد، وحدثت أخرى مشابهة بعض الشيء في بعض المناطق التي تهيمن عليها جماعات شيعية متطرفة في مديــنة الــصدر، والأمــين، والــشعلة، أعمــال يراد منها العودة إلى السلفية أسلوبا لإدارة المجتمعات.

النظام السابق أي المعارضة بأحزابها، وشخصياتها الفاعلة قبل أن تتهيأ للانتقال من المعارضـــة إلى الدولة إذ بقيت غالبيتها تفكر تفكير دولة، وتعمل بروح المعارضة، ويبدو أن هذه معادلة تعاني منها جميع المعارضات التي يتسنى لها استلام الحكم بعد تغيير جذري، و لم تأخذ فرصة التهيؤ، والتدريب للانتقال التدريجي من المعارضة إلى الدولـــة، يـــستثنى منها بطبيعة الحال المعارضات القائمة في الدول الديمقراطية أي الغربية على وجه الخصوص لأن معارضتها مبنية في الأصل على معايير بينها علانية العمـــل، واستعداد المجتمع لاستثمار كل الجهود، وتجاوز الذاتية، والأنانية (بنسب ليست قليلة) ورغبة المعارض، ومجموعته تقديم الأفضل إلى بلدهم الذي يعتقدون في محـــيطه أنهم يمثلون الجزء، وليس الكل المطلق، كما إنها تتبادل المسؤولية في حكم البلاد، وبتبادلها تتعلم كيفية الانتقال سريعا من المعارضة إلى الدولة، وغيرها معايير كـــثيرة فـــيما عداها "المعارضات الغربية" فإن المعارضات الأخرى، وفي المجتمعات الأخـــرى ســـواء تلك التي تعمل في السر داخل حدود بلدها، أو تلك التي تقاتل بالبندقية على حافات الحدود، أو الثالثة التي تناضل بالفكرة، والقلم، والتحرك السياسي من خارجها، قد تعَوّدَ بعضها: الالتفاف على الحقيقة في المضمار الرمزي للحقيقة.

وخبر قسم منها فن التآمر في الطريق إلى الحكم المدني الآمن.

واستوعب عدد من أفرادها فعل التسقيط قبل الوصول إلى خط النهاية.

وتـــركوا في توجههم هذا التمعن بالمناورة فنا لتحقيق الأهداف، وأهملوا في مـــساعيهم هذه التمسك بأساليب تبادل الأدوار طريقا لتأمين الغاية، وتجاوزوا في أخطائهم هذه التعاون، والتنسيق في مجال صناعة، وإصدار القرار سبيلا للوصول إلى المرامـــي كما هو الشأن الدارج في نظم الدول، والمعارضات الديمقراطية، إنه أمر واقـــع تعـــود غالبـــية أسباب وجوده إلى قلة النضج الحضاري، وإلى طبيعة العمل المعارض، وكذلك إلى الخصائص النفسية لبعض المعارضين، وبسببه تعثرت خطوات الانـــتقال إلى الدولـــة فلـــسفة وسلوكا، وتم الإخلال بشروط المبادرة، والمناورة، وحشد الجهود اللازمة لقيادة الدولة.

إنهـــا مسألة معقدة، وتعقيداتها ماثلة أمامنا في الواقع المعاش لإدارة الدولة من قـــبل المعارضة السابقة، والتي حققت في معارضتها على كافة الجبهات الكثير من

النقاط في العقل العراقي، وكذلك الأجنبي باتجاه نشر الوعي، وصياغة رأي عام أمن بقدر معقول فعل التغيير.

لكـــن في الواقع ورغم هذا الجهد، وفترة النضال الطويلة نسبيا بقي المعنيون يتـــصرفون بمـــنطق المعارضة أو بمعنى آخر لم يسلكوا وهم أعلى السلطة السلوك المؤسسي للدولة بسبب:

1. إبقـــاء جل خطاباتهم السياسية تيارات مؤدلجة في العقل الحزبي الحاكم حاليا، والمعـــارض سابقا دون أن يمدوها موحدة واضحة متكاملة إلى العقل العراقي الحالم بمؤسسة الدولة.
2. كـــون صـــياغة العديد من قراراتها في التعامل مع أكثر الأمور حساسية أشبه بالمُعَومة تصاغ مفرداتها تبعا للتيارات، والطوائف، والأصول القومية، وأماكن التواجد، والتموين، والمصالح الحزبية، وعلى العكس من فلسفة الدولة التي تدفع لأن يكـــون الموقف، والخطاب موحدا يعبر عن الرغبات، والتطلعات، والنوايا لعمـــوم المجـــتمع، وينم عن الخبرة، والدراية، والاختصاص، وإن كان من بين الصناع، والمفاصل من يختلف مرحليا أو لم يقتنع آنيا.

وعلى النقيض من سياقات عمل الدولة التي يقدم فيها الجميع العون للجميع بغية أن تـــستمر العجلـــة في الدوران بقيت غالبية الأحزاب المشاركة بالحكومة تعمل على نظـــام الفئة الضيقة لا تمد يدها خارج حدودها، وأبقت مساعيها مقتصرة على تحقيق مصالحها الآنية القريبة لا تفكر بمصالح الوطن والآخرين، وجاهدت في لقاءات الجمع كي تحصل على أكبر قدر من الحصص دون الاكتراث بحق الباقين، واستعرضت أمام الكـــبار في أن تكـــون القـــوة الأنسب، والمجموعة الأصلح متناسية وجود القريبين، وحاولت في كل مناسبة أن تثبت وجودها على الساحة متناسية وجود الآخرين.

لقد حصل ذلك، وسيحصل الكثير بسبب عدم القدرة على الخروج من دائرة المعارضـــة إلى فكـــر الدولة، فتسبب بوجه العموم في خسارة كبيرة للجهد المتاح لإعادة بناء الدولة والمجتمع الذي يسعون من أجل رفاهيته، واستقراره.

إن عموم العراقيين يؤمنون باستحالة الاستمرار في العمل بمنطق المعارضة، وإن استمراره حتى الوقت الراهن أسهم في زيادة التعقيد في إدارة الدولة، لأنه غير ملائم

لمقتضيات إدارة مؤسسات الدولة، ويتسبب في خسارة جسيمة، وبعض معالم خسارته فيما يتعلق بالعراق على سبيل المثال يتبين جليا في المثل التالي:

يعتقد معظم السياسيين، والأحزاب، والكتل وكثير من العراقيين أن الوضع في العراق شائك، وخطير، وأن غالبية أوراق الحل بيد الأمريكان، وهناك أوراق أخرى وإن كانت أقل قوة لكنها مؤثرة في بعض جوانب الحل تمتلكها دول الجوار، ويعتقدون في الوقت ذاته أن الأمريكان هم الطرف المؤهل للتأثير على كل من في يده أوراق، وتقبل غالبيتهم وجود هذا التأثير، وتفعيله لوضع نهاية بأقل ما يمكن من الخسائر للمحنة التي يعيشونها، لكن السياسيين من جهة أخرى يتعاملون مع قوة التأثير هذه بنفس أسلوب تعاملهم عندما كانوا في صفوف المعارضة، تستدعيهم الإدارة الأمريكية أفرادا يمثلون أحزاباً وكتلاً وليس بصفتهم أطرافاً في الحكم، ينقلون وجهة نظر الحزب، والحركة في الحل، وإمكاناتهم في المساهمة في الجهد المخصص ضمن وجهة النظر هذه، ويعودون من أمريكا ليلتقوا أولا برؤساء كتلهم قبل اللقاء بالحكومة ليتدارسوا ما مطلوب من خطوات، وما زالوا يختلفون في العديد من المواقف مثلما كانوا يختلفون إبان وجودهم في المعارضة حتى تتدخل أمريكا بتقريب وجهات النظر، وتملية الحلول الوسط كما كانت من قبل، هذا وما زالت بعض الأطراف المشاركة في الحكم تحصل على دعم وتمويل من الأمريكان، ودول أخرى بذات الصيغ التي كانت تحصل عليها زمن المعارضة الأمر الذي يجعل مخارج السلوك السياسي أقرب للفئوية منها إلى الدولة التي تحتم معايير العمل فيها الابتعاد أو تحريم مثل هكذا سلوك، وبذا خسر العراق قوة دفع الدولة لحل بعض مشاكله، وعلاقاته مع المحتل، والدول الأخرى.

إن هذا السلوك السياسي البعيد عن معطيات الدولة انعكس نفسيا على الجمهور العراقي الذي لم يتشبع في فكره أو لم يستوعب وجود البعض في أعلى مراكز الدولة أو بمعنى أدق إن القيمة النفسية للوزير في الدولة الحالية لم تكن القيمة ذاتها التي كانت للوزير السابق حتى في زمن صدام الذي كانت للعديد من الناس مواقف بالضد من هذا الوزير وحكومته، لأن الوزير في حكومات ما بعد التغيير بقي متقوقعا في الحزب، ولم ينتقل إلى صف الدولة، ولم يتصرف البعض التصرف المناسب لرجل الدولة.

إن الواقــع الذي تعيشه غالبية الأحزاب المشاركة في تشكيل الحكومة يؤشر حتى نهاية 2006 وبداية السنة التي تليها عدم امتلاكها القدرات الكافية للانتقال إلى العمل وفق فلسفة الدولة، بل والإصرار على البقاء في بوتقة المعارضة خاصة عندما أتــيحت للسبعة منهم الفرصة لتحمل مسؤولية قيادة الدولة بدعم الدولة الأعظم، والأهم في الشأن العراقي، وبعد أن منحتهم الفرصة في أن ينتقلوا من خانة المعارضة إلى صــفحة الدولــة، لكنهم لم يتخلصوا من سلطة المعارضة على تفكيرهم التي تــتطلب أن ينظــر كل واحد منهم إلى أنه لا يمثل فصيله فقط بل كل العراقيين، وتمثيله لهم ينبغي أن يدفعه إلى تجاوز معايير الحصص الدقيقة في التمثيل العام، وإلى الــسعي للتوسعة لأكبر قدر ممكن من باقي العراقيين، إنه فقط منطق الدولة الذي يسقط فيه حق الفيتو الذي يرفعه البعض أمام التحاق الآخرين إلى الجهد السياسي، والمهــني الداعم لإعادة البناء لأن منطق الدولة لا يستثني أحدا من أبناء شعبها من الخدمة في مؤسساتها، ولا يسقط من حساباته طائفة أو فئة من التمتع بحقوقها، كما أن العمل بمنطق الدولة لا يسمح في أن يجاهد البعض لاقتصار توزيع المسؤولية على مــن دعمته أمريكا في الأصل، لأن التفكير بمنطق الدولة وأهدافها، ومسيرتها يحتم إتاحة الفرصة أمام الجميع ومد يد العون إلى الجميع بقصد البناء والتعمير، هذا وإن منطق الدولة، والسلوك مسلك الدولة يقتضي:

1. أن تُفــتح الصدور لمرحلة أمان، واستقرار بعيدا عن التكتل، والتآمر الذي دمر الشعب العراقي في الماضي، والحاضر على حد سواء.
2. أن يتجاوز الحزب حزبيته، وتتخطى الحركة خصوصيتها.
3. يــرى كل فرد أن الدولة في داخله مفهوم يتم التعامل من خلاله مع الآخرين سياسيين متحزبين أو مستقلين كأبناء لهذا الشعب لهم حقوق، وعليهم واجبات.
4. أن ينظر إلى كل الأقوام نظرة متساوية، وإلى كل الطوائف نظرة متجانسة.

وبعكــسه أي في حــال البقاء تحت سلطة أو فلسفة العمل المعارض سيبقي الشعب بعيدا عن تحقيق أهدافه في إعادة البناء الديمقراطي لبلده.

وســيدفع الأمــريكان، وغيرهم إلى الاقتناع بضرورة التدخل في الشؤون الداخلــية، وربمــا الاقتــناع بفكرة البقاء في العراق إلى أمد بعيد لضرورات

المساعدة في الانتقال إلى الدولة نفسيا، وعمليا أو أنه أي الاستمرار في العمل بمنطق المعارضة سيوجه المعنيين بالشأن العراقي إلى تجاوز السياسيين الحاليين، وقسم من الأحزاب الفاعلة الذين لم يستطيعوا استيعاب فكر، وسلوك الدولة، والدفع بتقديم آخرين من خارج التشكيلة التقليدية، من أولئك المؤمنين بفكر الدولة، كحلٍ يمكن أن يبدأ الدعوة إليه شعب العراق بدعم من الآخرين، إنها الحقيقة التي ينبغي أن يتنبه لها الجميع، وخاصة المجموعات المشاركة في الحكم قبل فوات الأوان.

المبحث الثاني
الجذور الاجتماعية

تتشابه المجتمعات البشرية في نواح معينة، وتختلف في أخرى، وتتميز بتركيبتها الاجتماعية المتجانسة أو غير المتجانسة حقيقة يمكن تعميمها على جميع المجتمعات بينها العراق الذي يتميز بتركيبة اجتماعية تفتقر إلى التجانس، وبالحدود التي أعطت كل جماعة من تلك الجماعات التي تشكل تركيبته طابعا يمكن أن يميزها عن غيرها من حيث الأفكار، والقيم، والتقاليد، والأهداف، وغيرها تحتم أن تكون النظرة، وأسلوب التعامل مع كل منها منسجمين وتلك الأفكار، والمعايير وربما يكون مختلفا عن أسلوب يتبع مع جماعة أخرى، كما إن العراق ومثل غيره من المجتمعات فيه منظومة قيمية عامة"رغم تصدع بعض جوانبها" يشترك فيها الجميع من الأبناء على وجه التقريب، وفيها من العادات، والتقاليد التي تتفرد فيها جماعة دون أخرى الأمر الذي جعل التعامل فيما بينها من جهة، وبينها وبين الآخرين من القريبين والبعيدين "الأجانب" من جهة أخرى يختلف من جماعة إلى ثانية في بعض الأحيان، وهذه مسألة عمقتها الظروف السياسية التي مرت بالبلاد منذ العهد العثماني، وما بعده الانتداب البريطاني، والحكم الملكي، والجمهوريات المتعاقبة بعد عام 1958 والتي دفعت الأساليب المتبعة في التعامل أبناء التركيبة الاجتماعية العراقية العامة إلى أن يختلفوا بالنظرة إلى مواضيع مهمة مثل الحكم، والدولة، والأجنبي من حيث الرفض، والقبول، وسبل الاتصال، وإدامة التواصل، وبالمحصلة تكونت آراء،

واتجاهـــات لم تكـــن موحدة في هذا الجانب[1] رغم أن الخمسين سنة الأخيرة قد عززت في العقل

الجمعـــي العراقـــي بشكل عام اتجاهات لقبول فيه شبه إجماع للانفتاح على العالم، ورفض فيه شبه إجماع للأجنبي، والخوف من التعامل معه ولو أنها قد تغيرت نـــسبيا بعـــد حـــصول عملـــية التغيير في 2003/4/9، هذا وإن النظر إلى الواقع الاجتماعـــي العراقي نظرة متفحصة في وقتنا الراهن يدفع إلى أن يكون تناوله من زوايا مختلفة بينها:

1. زاويـــة الخصائص الشخصية التي يمكن القول في مجالها إن العراقي مثل غيره من البـــشر، وكبعض منهم، وهو في نفس الوقت ليس مطابقا لأي منهم، خاصة في مجـــال العادات، والتقاليد، والقيم التي تكونت عبر تعرضه طويلا لخبرات حياتية كـــان بعضها قاسيا إلى حد أكسبته خصائص قسم منها قد تكون غير ملموسة في مجـــتمعات غـــربية علـــى وجه الخصوص مثل تقديراته للظلم، وقياسه لمعالم الاضـــطهاد والمآســـي التي يعيشها، ويندر أن يتذمر من وجودها في العلن، بل ويمارس قسم من الناس بعض مفرداتها تسلطا على الآخرين أي تقمص شخصية الظـــالم[2]، وتحسسه للخوف، والرعب وقدرته العالية على التكيف لانفعالاتهما

---

(1) لـــدى الـــشيعة طقـــوس سنوية في شهر محرم بينها إقامة مراسم العزاء الجماعي، واللطم، والتطبيـــر استذكارا لحادثة استشهاد الأمام الحسين (ع) وقفت بالضد منها غالبية الحكومات المتعاقـــبة خاصة حكومة صدام مع بعض التفاوت، وهو وقوف دفع الشيعة إلى تسييس هذه المناســـبة، والمغـــالاة أحيانا لتنفيذ طقوسها كنوع من المقاومة للرفض، وكونت مواقف من غالبيتهم بالضد من تلك الحكومات.

(2) كان الموقوفون، وبعض المعتقلين في العراق وما زالوا كذلك يعانون من قسوة معتقليهم الذين ينـــتمون إلـــى نفس تركيبتهم الطائفية بسبب تقمص المشرفين على الاعتقال من نفس الطائفة لشخصية الظالم، ويلاحظ في الفترة التي نشطت فيها قوى الأمن العراقية، وتمتعت بسلطات واسعة للفترة من عام 1970 حتى 2003 أن القائمين على تنفيذ فعل التعذيب يأتون غالبا من نفـــس التـــركيبة الطائفـــية لغالبية المعتقلين الذين يَشْكُونَ باستمرار من قسوتهم، وتفننهم في الـــتعذيب، كمـــا ذكـــر بعض المشاركين في الانتفاضة عام 1991 ولُناسٌ عاديون إن ممثلي حزب البعث الذين انتشروا لقيادة الجهد الأمني في المحافظات الجنوبية كان الشيعة منهم مثل محمد حمزة الزبيدي على سبيل المثال أكثر قسوة من بين الممثلين الآخرين الأمر الذي يؤكد مسألة التقمص.

بـــسبب كثرة تعرضه لمثيراهما عبر فترة زمنية طويلة بدأت من الحكم العثماني، وانـــتهت نـــسبيا مع حكم صدام، إذ كان على سبيل المثال مرور شرطي على حصانه في ريف عراقي في الأربعينات من القرن الماضي كافيا للانصياع، ووجود مفـــرزة أمـــن في حي سكني كافياً لفرض أوامر الحكومة بالتجنيد، والالتزام. كـــذلك تقبل الواقع المعاش، ومن ثم التمرد عليه، أو ما يسمى في بعض أدبيات التحلـــيل النفسي باشتهاء المثير (6) وكأن البعض يستطعم الهموم أو يستهويها، لكثرة وجودها وشدة ضغوطها، واستمرار بقائها ليتمتع بالثورة عليها حتى كون العقـــل الجمعـــي أمثلة، ومصطلحات، وعبارات للتقبل تدور في معظمها حول الحـــظ، والقـــسمة مثل (المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين) لتسهيل عملية التقبل، والتعامل في آن معا، يقابلها تداول أخرى للتحريض على التخلص منها مـــثل (إذا دام الظلم دمر)، ومن ثم القدرية، واللامبالاة، والإيمان بالأمر الواقع، يرجع بعضها إلى الدين، والشريعة التي تُسّهِل عملية العيش في الظروف الصعبة، وتـــسهم في التكيف مع متغيراهما غير السهلة، وتدفع إلى التلون باللون المطلوب بنسب ليست قليلة، والمدح حد الإسفاف، والذاتية حد النرجسية، وسعة هامش التبريـــر في مواقـــف الحـــياة التي يكثر فيها الخطأ، والتجاوز لتقليل تأثيره على الـــضمير[1]، بالإضـــافة إلى البساطة، والطيبة، والاستعداد لمنح الثقة، وسهولة الانفـــتاح علـــى الآخـــرين، ممـــزوجة أحيانا بكثرة التلون، والتقرب لمستوى الانـــتهازية، والوصـــولية التي تصبح واضحة عند التعامل مع الأعلى في الدولة، والأجهزة المعنية في الضبط الاجتماعي، وهذه خصائص تنم عن وجود قدر من التـــناقض يمكن تلمسه في الوقت الراهن في سلوك البعض من الإرهابيين، وأفراد

---

(1) كـــان هـــناك شـــرطي فـــي إحدى قرى محافظة بابل يعمل في الجمارك في ستينات القرن الماضـــي، يغيب عن البيت بسبب عمله في نقاط، ودوريات قريبة من الحدود، وعندما يأتي إلى بيته يجلب معه بضائع تعد مهربة يمنعُ تداولها القانون مثل بنادق، وعتاد الصيد، وأقمشة وغيـــرها، ســـئل مرة عن كيفية جلبه هذه المواد وهي ممنوعة حسب قانون الجمارك الذي يفترض أن يطبقه قبل الغير أجاب هذه القوانين تتبع الحكومة، وأنا لست معنيا بها، وهذا نوع من التبرير وضعه لإقناع نفسه بفعل الخطأ قبل غيره من الآخرين، كان الموقف الشعبي من الحكومة في الوسط والجنوب يشجع على حصوله.

العصابات المعنيين بالاختطاف، والتعذيب إذ يسرفون في استعراض القوة، والتسلط، والإيذاء حد الوصف بالوحشية أحيانا، ويلاحظ على سلوكهم تغير جذري في حال إلقاء القبض عليهم من قبل الجهات الأمنية الحكومية إلى مستوى التوسل، والتوبة، والمسكنة التي تثير الاشمئزاز، والمهادنة المقصود بها هنا مهادنة الخطأ تجاوزا على المعقول في رفضه، وهذه مسألة تسحب إلى التطرق لمسألة المعقول، واللامعقول التي يتفق الفلاسفة، وعلماء النفس في أنها في بعض جوانب الحياة نسبية، أي أن من يرى الوقوف ساعات بانتظار الحصول على عشرين لترا من النفط الأبيض على سبيل المثال معقولا، يراه الآخر وتبعا لخبرته، وخصائصه الشخصية غير معقول، ويتفقون أيضاً على أن النسبية هذه لا يمكن تعميمها على كل المواقف، والأحداث أي أن هناك أشياء معقولة في نظر العامة، وأشياء أخرى على العكس من ذلك، فكروية الأرض مثلا باتت في وقتنا الراهن من الحقائق المعقولة، وعدم دفع الضرائب في نظر الأوروبيين مسألة غير معقولة، ومع ذلك فالأمر مختلف بالنسبة للعراقيين بعد أن أنستهم الأحداث الجسام لما قبل التغيير، وبعده الكثير من معايير المعقول، وأدخلتهم في دوامة الهمس مع الذات، والتحدث مع الآخرين كل الوقت في شؤون أصبحت مثيرة للحيرة مثل العبرة التي لم يأخذها الكثير بنظر الاعتبار من أحداث الماضي الداخلية، والخارجية حدا يتجاوز فيه عضو في مجلس الحكم عِبَرْ النقد الجارح على ترشيحه الابن الأكبر وكيلا لوزارة، ويسابق الزمن لتحقيق أكبر قدر من الفائدة فيرشح ابنه الذي ما زال في العشرينات سفيرا يمثل الدولة العراقية التي شاءت الظروف أن يكون هو أحد حكامها غير المنتخبين. والوهن الذي غرق في جوانبه كثير من المعنيين إلى مستوى توجه فيه بعضهم لحسم أخطاء أعضاء في مجلس الحكم، والوزراء في السنة الأولى إلى السيد بريمر مباشرة يحسبونه حكما منصفا، وحاكما أكثر حرصا على مستقبل العراق من مجلس الحكم. وكذلك التحفظ الذي وضع البعض نفسه في دائرته إلى الحد الذي جعل أعضاء في مجلس الحكم يوقعون على مسودة قانون للفترة الانتقالية، ومن بعدها يتحفظون على بعض فقراته التي لم يتوصلوا إلى اتفاق بصددها، ويضعون أنفسهم مع المنتقدين. إن اللامعقول في

السلوك العام لم ينته عند حدود أخطاء الحاكم، وتقصير الوزير، ولم يتوقف على سلوك الرشوة، والمخالفة، والهدم، والتخريب بعد أن امتد إلى كل جوانب الحياة التي وضعت الشعب أسيرا للاّ معقول إلى حد الاستسلام الذي أعاده إلى نقطة الصفر كما هو حاله بعد قليل من عام 1968 مهادنا الخطأ، قابلا حصوله ثم العيش طويلا تحت رحمته، كأنه يتلذذ بمعاقبة نفسيه بمازوشية واضحة المعالم.

2. زاوية التركيبة الاجتماعية التي نجد أن العراق في مجالها:

أ. يتكون قوميا من العرب جماعة ثقافية تشكل غالبية سكانه، ومن بعدهم الأكراد جماعة فرعية، يليهم التركمان ومن ثم أقليات قومية أخرى مثل الآشوريين، والكلدان، والأرمن، واليزيديين، والصابئة المندائيين، وغيرهم. وهي جماعات لكل منها ثقافتها، ودرجة انتمائها، وقيمها، وتقاليدها، رغم اشتراكها جميعا ببعض القيم، والتقاليد العامة.

ب. يشكل المسلمون الجماعة الثقافية الغالبة من سكانه، ومن بعدهم المسيحيون، والصابئة، واليزيديون جماعات فرعية تقل كثيرا عن المسلمين، ومن الطبيعي أن يؤثر الدين، ومفاهيمه في سلوك تلك الجماعات بشكل واضح، وملموس، وينتج قيما ومعايير تختلف من جماعة إلى أخرى في بعض المواقف، والحالات.

ج. في داخل تلك الجماعات الفرعية" الدينية" هناك شيعة، وسنة بالنسبة إلى المسلمين، وهناك كاثوليك ومن بعدهم الارثدوكس بالنسبة إلى المسيحيين رغم أن المذهبية في الديانة المسيحية في العراق غير ذات أثر واضح على السلوك بشكل عام.

د. وهناك في التركيبة الاجتماعية العراقية تفرعات أخرى يمكن أن تميز جماعات ببعض الخصائص، والتقاليد مثل القبيلة، والعشيرة والفخذ، وإذا ما توغلنا أكثر في المفهوم الخاص بالتركيبة الاجتماعية العراقية نرى بعض الخصوصيات ذات الصلة بالمنطقة أيضاً أو بمعنى آخر هناك اتجاهات جماعية، ولو بشكل محدود تهيمن أحيانا على مشاعر، ومواقف بعض المحافظات العراقية بدرجات متفاوتة، وعلى أساسها أطلقت صفة للانتماء

لـــبعض المحافظـــات تقترب إلى حد ما من مفهوم الثقافات الفرعية مثل المصالوة، والتكارتة، والدليم، والبصاروة، والنجفيين... الخ وبسبب عدم الـــتوازن في التعامل تكونت لكل جماعة أهدافها، وتطلعاتها ومن ثم بعض قيمها وتقاليدها الخاصة.

3. زاوية التشكيلة السياسية التي نجد في مجالها أن العراقيين يقحمون أنفسهم أكثر من غيرهم في أمور السياسة، رغبة منهم في المشاركة، والحصول على المكاسب في المواقـــع، رغبات كونت في داخلهم اتجاهات تبدو وكأنها متقاطعة إذ تشير الوقائـــع إلى أنهـــم ميّالون إلى العمل السياسي، وهم في نفس الوقت "إذا ما تعرضـــوا إلى الضغط" مستعدون للوقوف بوضع المتفرج على ما يجري، ومع ذلك فإن المعروف عنهم قلة الرضا، وصعوبة المراس الأمر الذي أربك عملهم في السياسة، فتوجّهت غالبيتهم إلى حزب البعث على سبيل المثال عندما كان في الـــسلطة، وتخلّـــت عنه سريعا وتوجّهت بعدة اتجاهات مدفوعة بالرغبة في المـــشاركة، والسعي إلى الحصول على المكاسب فتسبّبت في حالة من الفرقة، والتشتت انعكست سلبا على العملية السياسية الجارية في الوقت الراهن.

4. الـــزاوية التعبوية التي تؤشر أن العراق ساحة قتال تختلف فيها الطبيعة الجغرافية في شمال العراق عن وسطه وجنوبه، ويختلف فيها الطقس الذي أسهم في تكون طبـــيعة قـــيم، وأداء هـــي الأخـــرى مختلفة نوعا ما، وتختلف فيها المواقف، والـــولاءات الـــتي كـــونت أســـاليب قتال هي الأخرى مختلفة إذ تبين وقائع الأحـــداث الجاريـــة في ســـاحة القـــتال الحالية على سبيل المثال أن تفخيخ الـــسيارات، والمعـــدات، والعـــبوات الناسفة منشأه، والتعامل معه سني على الأغلـــب، وإن فـــرق الموت، والاغتيال مساره، والتعامل في مجاله شيعي على الأغلب أيضا، كما أن الاختلاف موجود بين المشاركين حتى في الأهداف تبعا لنـــشأتهم، وأصـــولهم التي تبين مثلا أن المسلحين بالضد من الحكومة العراقية، والقـــوات متعددة الجنسية هم من بقايا العسكر القديم، وقوى الأمن المنحلة، وهم في غرب العراق يختلفون من حيث الأهداف والولاء عن أولئك الموجودين في الشمال أو الوسط والجنوب، مما يثير مصاعب في التعامل معهم من ناحية،

ومصاعب في تحقيق أهداف القتال التعبوية إلى جانبهم من ناحية أخرى.

5. والـزاوية الأخرى التي ينبغي النظر منها أيضاً زاوية الأجنبي في العقلية العراقية، وفيها من المؤكد أن العراقيين قد تعاملوا في تاريخهم الطويل مع أجانب كثيرين، وكانت أرضهم بؤرة توتر، وصراع، وساحة معارك بين أمم، ودول، وإمبراطوريات أجنبية، دفعت إلى أن تكون اتجاهاتهم نحو الأجنبي اتجاهات متداخلة تعتمد على موقف الدين، والمذهب، والدولة أحيانا، وأقل منها المنفعة الذاتية أحيانا أخرى.

وهي بوجه العموم حتى عام 1968 كانت تتميز بالتودد، والانفتاح، والرغبة بالاختلاط، والتقليد، مع قليل من عدم الثقة، لكنها وبعد ذلك العام، ونتيجة للعزل الذي عمله حزب البعث الحاكم، وقسوة الأحكام التي تصدر على من يتعاملون مع الأجانب، تبدلت تدريجيا لتكون في غالبيتها اتجاهات يشوبها الخوف، والتوجس، وعدم الثقة، مقرونة بالحسد، والرغبة بالتقليد، مع مشاعر عدوان بالضد في بعض الأحيان، وهي اتجاهات تغيرت بعض معالمها بعد 2003/4/9 باتجاه التقدير، والتودد، والعرفان بالجميل، والرغبة بالتقليد، لكنها لم تستقر عند حدود مقبولة بسبب قصر فترة الاستقرار، وخطأ التعامل، وتدخل قوى الإرهاب المضادة التي كونت ردة في العقلية العراقية العامة أعادت بعض اتجاهات قبول الأجنبي، والرغبة في التعامل معه عند البعض غير القليل من العراقيين إلى مرحلة ما قبل التغيير، وبصورة مختلفة تغلب عليها ألوان العتب، والشك، وعدم الثقة دون الخوف من التقرب إليه عامل كان الأكثر تأثيرا في تحديد نوع العلاقة في السابق.

6. وكذلك زاوية العراقي في العقلية الغربية التي يتبين من سير الأحداث، وسبل التعامل التي تأسست بعد التغيير أن المسافة في جوانب الثقافة السائدة، ومستوى التحضر بين الغرب، والمجتمع العراقي بعيدة زمنيا الأمر الذي جعلهم في بعض المواقف غير قادرين على تصور أن التجاوز على أموال الدولة أو سرقتها في بعض مناطق الريف ولفترة زمنية قريبة يفتي البعض من رجال الدين بجوازها، وتعد شجاعة يجري التفاخر بها بين المعنيين، وليست ذنبا يحاسب عليه

الـضمير، وبنفس القدر لا يمكن أن يقتنع الكثير من العراقيين بثقافة الغرب في العلاقة بين الجنسين، وغيرها من معالم اختلاف تسهم بشكل مباشر في تعقيد مسائل التعاون، والاتصال التي تتأسس عليها عملية إعادة البناء في غالبية جوانبها السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والتربوية. إن النظر من هذه الزاوية يدفع إلى التعريج بشكل أوسع على الجانب الأمريكي أقوى اللاعبين في الساحة التعبوية في نظرته التي أكدت الأحداث خطأها على الرغم من امتلاكهم قاعدة معلومات استخبارية دقيقة، وقوة ردع هائلة، وإمكانات مادية جيدة، لكنهم في الوقت نفسه لم يحملوا معهم خبرات تعامل اجتماعية ملائمة لشعب بمجموعات ثقافية متعددة، وظروف عيش صعبة، ومعنويات مضطربة، الأمر الذي أوقع قياداتهم الميدانية وأفرادهم الذين يتعاملون مع الإنسان العراقي في الشارع، وفي المؤسسة، وأحيانا في الحكومة بأخطاء تكررت في ساحة إعادة البناء، وكذلك في القتال مع التباطؤ في حسم الصراع مع الإرهاب، وإبقاء بعض القضايا معلقة مثل موضوع الجيش السابق، وقوى الأمن، والاجتثاث، والمليشيات، وغيرها. ما أوقف التغير الإيجابي للاتجاهات نحو الأجنبي بشكل عام، والأمريكي على وجه الخصوص، وأعاد إلى الأذهان بنسب ليست قليلة معالم الشك، وتلك المفردات، والمصطلحات "السلبية" التي كررها الإعلام السابق عن الأمريكي، وتسبب في تعميم مشاعر عدوان بالضد كان يمكن حسرها بأقل ما يمكن في حال التعامل الصحيح مع الواقع. إن المجتمع العراقي مجتمعٌ مركّب، شهد تاريخه السياسي العديد من الثورات، وأنواعاً من التمرد، والاحتجاج، وعدم الرضا، والرضوخ والانصياع، ودارت على أرضه الكثير من الحروب قبل الإسلام، وبعده، ولم يكن بعيدا عن الحربين العالميتين الأولى، والثانية التي حدثت في القرن الماضي، وشخصيات أبنائه في المتوسط شخصيات مركبة تحتل على سبيل المثال خصائص البساطة، والميل إلى التعاون حيزا في الذات الإنسانية، وتحتل في نفس الوقت خصائص الرغبة في التعالي على الآخرين، وحب الذات المفرط حيزا لا تقل سعته عن الأول مما يزيد الأمر تعقيدا في مسألة التعامل معها في كل المجالات.

الفصل الثاني

جوانب المحنة

حوادث تتكرر يوميا في العراق تحدث خسائر أغالبها من المدنيين، تعطي انطباعاً وكأن العراق حقل ألغام لم تؤشر حدوده.

إن الأمن الهاجس الأكبر لجميع العراقيين وسنأخذه أساسا للعرض، وتقديم الأمـثلة في مجـال الخـسارة بعدما وصلت آثاره السلبية في القتل، والاغتيال، والـسلب، والتهجير عتبات البيوت، ومكاتب السياسيين، ومواكب المسؤولين، وكعـادقم في الهواجس، والأزمات هرول الكثير إلى الأمام يجتهد بعضهم حلا علـى طريقته الخاصة، ويضع بعضهم حزمة حلول تبعا لمنفعته الخاصة، ويقدم بعضهم الآخر مقترحات أقرب إلى الواقع تبعا إلى خبرته الخاصة، وهكذا الحال أو المنطق في أية أزمة أو مشكلة تواجه الإنسان يستثار فيها، ويثير الآخرين ليقدموا مـا بجعبتهم لتجاوز آثارها الضاغطة، وليتخلصوا من قمديداقما المباشرة على أمنهم الشخصي.

لكـن غير المنطقي فيها هو التوجه الواضح لبعض السياسيين الذين يتحملون مسؤولية جر البلاد إلى حالة الفوضى، والاضطراب الأمني، وكذلك أعضاء برلمان معنيين بتطوراقما السلبية للتخبط في موضوع المقترحات بين التهدئة من خلال الحل الشامل للمشاكل التي تعكر الأمن، وبين إعلان النفير العام، واستخدام القوة بالضد من كل مصادر إثارة التوتر والاضطراب.

أو بـين مهننة العملية الأمنية بإيكال مسؤوليتها إلى دوائر، ومؤسسات مهنية مختـصة بعيدا عن السياسة، وتدخل السياسيين، وبين تسييسها بتشكيل هيئة أمنية من ممثلي الكتل السياسية لإدارة هذه العملية المعقدة.

إن غالبية السياسيين العراقيين الجدد لا يمتلكون الخبرة، ولا القدرة على إدراك ماهــية الأمن، والعوامل الشائكة المؤثرة فيه، وهذا ليس عيباً في تركيبتهم السياسية بطبــيعة الحال، لكنه عيب في الإدعاء بالقدرة التي دفعت البعض وبدلا من التفتيش عــن الحلول العملية إلى الاتجاه لتقديم المقترحات بتشكيل الهيئات، واللجان[1] التي يشتركون جميعهم فيها أو ممثلين عنهم فينقلون إليها تناقضات السياسة التي تسببت أصلا في إيجاد بذرة الفوضى، والاضطراب.

إن مـــسألة الأمن مسألة فنية تخصصية، والقتال على أرض الوطن، وفي قراه، ومدنـــه مـــع البعض من الأهل، والدخلاء من أعقد أنواع القتال التي لا تستوعب كثـــر الاجـــتهاد والتشتت، ولا تتحمل وسع التدخل الفني للسياسيين الذي يثير حفـــيظة المقاتـــل مـــن أبناء القوات المسلحة في الميدان، ويخل في جوانب القيادة، والسيطرة المطلوبة بما يزيد من هامش التعقيد.

هـــذا وإذا ما أريد لهذه المسألة أن تخرج من دائرة الحيرة، والارتباك لا بد أن يلـــزم السياسيون، والمشرعون أنفسهم في ترك المجال للمهنيين في الميدان، ويركزوا جهدهم على التفويض بالقتال.

ومـــن ثم حـــشد الطاقات المتاحة لدعم العسكر في قتالهم الحرج سياسيا من خـــلال التقلـــيل من التشكيك في كلماتهم، وحواراتهم التي تضيف عوامل جديدة للـــتأزم، والتعقـــيد، وكذلك تقديم الدعم المعنوي الذي يحتاجه الجندي في ساحة القتال، ومن ثم توعية أهالي المناطق إلى خطورة عدم التعاون مع العسكر في القتال، وتشجيعهم على تفسير مواقف الحكومة تفسيرا وطنيا ليس طائفيا، والوقوف معها.

وعلـــيهم أي الـــسياسيين، والمشرعين استثمار علاقاتهم المتشعبة مع الخارج، وتـــأمين ضغط إقليميّ ودوليّ لتجفيف منابع دعم المسلحين، والإرهابيين، الخ من أعمال ينبغي أن يقوموا بها أوقات الأزمات بدلا من الوقوع في مستنقع المقترحات،

(1) مـــع كـــل تأزم في الجانب الأمني ببغداد، وباقي مدن العراق يتوجه سياسيون مشاركون في الحكم إلى تشكيل لجان أو هيئات آخرها اللجنة العليا للأمن السياسي التي يشترك فيها رؤساء الكـــتل النيابـــية، ومسؤولون من الحكومة بتوليفة نقلت إليها نفس معالم التناقض، والاحتقان السياسي، والطائفي.

والتخبط في تقديمها، لأن تحقيق الأمن الفعلي، والاستقرار عمل لا يعتمد على كثر المقترحات التي تُغيِّبْ أو تستثني الجهد الفني ميدانيا.

ولا يتوقف على البندقية رغم أهميتها بيد السياسي.

ولا يتحقق في حال السعي للتدخل في شؤون العسكر فنيا.

إنه عملية مشتركة من قرار يتخذه السياسيون، وإجراء ينفذه العسكريون، لا يجوز فيه أن يحتج العسكر على طبيعته.

ولا يتدخل السياسيون في جوانبه الفنية.

معادلـــة لابـــد وأن يدرك ماهيتها السياسيون المعنيون، ويتركوا العسكر في ساحتهم المهنية يقاتلون، يترك "العسكر" من جانبهم الحكومة في ساحتها السياسية تعالج الموقف بقدرها المتاحة.

لكن هذه معادلة لم يفهمها العديد من السياسيين، وعطلت فهمها تناقضات الداخل، وأمراض الشخصية.

وحـــال دون فهمها عديد من الأطراف الخارجية فتسببت في أن يكون حتى الربع الأول من عام 2007 كل شارع من شوارع بغداد يؤشر اضطرابا.

وكل مدينة من مدن العراق تعيش قلقا.

وكل طلاب المدارس في بغداد، وعمال مصانعها، وأساتذة الجامعات، والباعة المتجولين يحسون الموت قريبا منهم.

وكـــل مـــن يـــركب سيارة في طريقه إلى السوق أو مكان العمل يتوقع انفجارا.

تؤشـــر جميعها إلى اضطراب واضح المعالم في أمن المواطن، والدولة، والمجتمع مؤشراته بشكل عام:

1. قتلـــى تزيد أعدادهم عن المائة مقتول غدرا في اليوم الواحد، وأكثر أحيانا في عموم الدولة العراقية حتى عام 2007.
2. ســـيطرات وهمـــية بـــين المناطق السكنية، ودوريات للشرطة غير نظامية في الشوارع البغدادية تعتقل لتنتقم أو تبيع لأغراض القتل الانتقامي على الهوية.

3. مليشيات لأحزاب سنية، وشيعية لم يستطع الضليع في الشريعة، وأصول الدين أن يفرق في نواياها للغدر على الأصول المذهبية.
4. هاونات تتساقط على البيوت في منطقة شيعية، أو سنية لا تفرق عند سقوطها بين الانتماءات الطائفية.
5. قنص من أعلى السطوح لا يميز في خضم الأحداث بين المارة من المدنيين، وأفراد الدوريات العسكرية[1].
6. سيارة حمل مفخخة، وحافلة ركاب مفخخة، وأخرى صالون مفخخة، وعربة خضرة يجرها حصان مفخخة، وأخرى يدفعها عامل مسكين مفخخة تسير جميعها في شوارع العاصمة قد تنفجر حالا أو بعد حين، تقتل من يكون قريبا منها بالصدفة القدرية.

   أو عند مرور من يراد قتله بتخطيط مسبق، ودفع من جهات عراقية ارتأت في القتل وسيلة لفض الصراع أو أجنبية لا تضع في الحسبان كم القتلى من العراق لديمومة الصراع.
7. جثة شاب ملقاة على قارعة طريق، أو حافة نهر، أو في مياه آسنة ثُقبتْ جمجمتها بثاقب حلزوني، وطعنت بسكين، قطعت أوصالها بطريقة همجية.
8. طفل في عمر الزهور تختطفه عصابة من الجهلة تساوم الأهل على ثمن الإفراج عنه فيجده الأب في مكان الاستلام مغدورا على الطريقة البربرية.
9. أب لعائلة يُقتلُ أمام الزوجة، والأولاد بطريقة يتقيأ لها الأطفال حتى يفقدوا وعيهم، والجناة يتفرجون.
10. بيت يضرب بقاذفة صواريخ، ويتهدم على من فيه من الكبار والصغار.
11. سوق يُحرق، ومحلات تتفجر بعد أن نُهبت موجوداتها من قبل الجناة.

---

(1) سئل قناص كان يتمركز قبل انسحابه بأيام من تطبيق الخطة الأمنية الأخيرة في ساحة بيروت بشارع فلسطين عن كيفية التفريق في قنصه للمارة، وهو بهذه المسافة البعيدة نسبيا عن الهدف المطلوب قنصه، فرد ببساطة إنه يفرق بين السني، والشيعي من لبس الكوفية، والعقال "لمن يلبسها"، وكذلك من الجلابية"الدشداشة باللهجة العراقية" مضيفا.

12. مــوكب عرس وسط شوارع بغداد يوقفه مسلحون في وضح النهار يخطفون العريس، وعروسه من وسط المحتفلين، ويغتصبونها أمام عيني العريس الدامعة في ليلة عرسه المنكوب، والأهل يتحسرون.
13. طالـبات بعمر الزهور يقصدن الجامعة على أمل أن يحصلن من علمها على ما يفـيد مـستقبلهن والعراق، تنتظرهن في الطريق سيارة مفخخة، تنفجر لتنثر أجسادهن بكل اتجاه عشرات الأمتار[1].
14. موظف في الدولة يتجه صباحا إلى مقر عمله، وأمله أن يعود للزوجة، والأولاد تنتظـره عصابة في منعطف الشارع المؤدي إلى بيته لترديه صريعا لأنه لم يمتثل إلى تهديدهم بتسهيل عملهم في نهب الدائرة، وأخذ الأوليات.

وغيرهـا الكثير من الأفعال والأعمال التي تبين أن الفوضى منتشرة في العديد مـن جـوانب الحياة العراقية، وأن معالم الاضطراب الأمني قد شملت أيضاً معظم جوانب الحياة[2].

---

(1) أنـه لماذا يحتار بمسألة التفرقة كثيرا إذ إنّ واجبه كان قنص أكبر عدد ممكن من أبناء مدينة الـثورة"الـصدر" وعليه فإن السيارات، والأشخاص القادمين من شرق الشارع المؤدي إلى سـاحة بيروت هم بالتأكيد من أبناء هذه المدينة وعليه أن ينفذ، وكلما سنحت الفرصة لذلك، مؤكدا في ختام الجواب، ماذا سيحدث إذا ما قُتل أحد السنة خطأ في هذه العملية الجبارة التي تحتاج إلى المجازفة، والتضحية؟

(2) تعـددت حـالات الاخـتطاف ودوافعه بين السياسية، والعشائرية، والانتقامية، والمالية، لكن أسـلوب تنفـيذها، والنـتائج تتشابه في بعض الأحيان إذ يختطف طفل ويطالب الأهل بفدية عـشرات الآلاف مـن الدولارات، وعندما يساوم الأب على المبلغ يذكره المختطفون ببيت موجـود لديـه في الكرادة، وشقة في عمان عليه أن يبيعها ليسدد فدية الابن الوحيد، وعندما يبـيع، ويكمـل المبلغ عن طريق الديون يجد في وقت التسليم، والاستلام أن ابنه قد قتل لأنه يعرف المختطفين.

وتعـددت كـذلك أشـكال التعذيب بطريقة بعيدة عن المعالم الإنسانية إذ يقطع اللسان، وتبتر أطراف، وتطفأ في الجسم أعقاب السجائر، وتثقب الجمجمة، ويوضع الجريح في منقوع الملح لأنـه سـني مختطف من جماعات شيعية، أو شيعي مختطف من جماعات سنية حتى أصبح الـتعذيب مسألة ملازمة للاختطاف إذ يروي أحد الشباب المخطوفين من منطقة الغزالية أنه اخـتطف فـي صيف عام 2005 وبالتحقيق معه اتهم بنقله جريحاً كان من المجاهدين، وفي أثـناء التحقيق أصر المخطوف أنه وجد جريحا على الأرض يتحرك فنقله إلى المستشفى ولم يـسال عـن هويته، وبعد متابعة من أهل المخطوف توصلوا إلى أحد المسؤولين السياسيين

المبحث الأول

الخسارة

إن ماهية الأحداث المذكورة فيما سبق وغيرها من معالم البؤس، والشقاء دفعت إلى أن يحس العموم بقلق من واقع لا يؤتمن، ومستقبل لا يرحم، وتعيش الغالبية حالة من عدم الرضا حدا باتت فيه المقارنة بين حاضر بعد التغيير المؤلم.

وماضي زمن صدام الذي كان مؤلماً ليست في صالحه أي التغيير لأن العقل بطبيعته يكبت الانفعالات التي كانت مؤلمة، ويحتفظ بألم الأخرى التي يعيشها في الوقت الراهن، فارتفعت أصوات العامة في البيت أولا، والمقهى تتذكر أياما كان النوم فيها عميقا إلا لمن ذم النظام، وشتم الحاكم.

وكان الطفل سعيدا لا يسمع قصص القتل، والتمثيل بالجثث، ومفارقات الواقع الظالم، ولا يتلصص من خلف أهله على مشاهد الدم في التلفزيون فوجد نفسه ما بعد التغيير قلقا يحلم أحلاماً مزعجة، وكوابيس تعيق نموه الطبيعي انفعاليا.

ووجدت الأم التي كانت محايدة في مشاعرها، ومشغولة بهموم ترضية الزوج، وتربية الأطفال أنها وسط المشهد الدامي فصرخت تذرف الدمع على أيام زمان، وقريبا منها شيخ يروي كيف كان يقضي يومه في المقهى أو ماشيا على الطريق مع ندماء له من أبناء جيل لم يجدوا لهم مكانا هذه الأيام.

وعلى مقربة منهم مقرات حزبية، وصالونات سياسية تدور فيها نقاشات بصوت مسموع عن أخطاء في التقدير، وتجاوزات على معايير التقويم، وعن خجل

فوعدهم خيرا، وفي اليوم الثاني أخبرهم أنه غير موجود لدى جماعته، لكنه سوف يتصل بجماعة أخرى يعرفها أو قريبة من جماعته، وتبين وجوده لديهم فتوسط له مؤكدا أن الشخص المخطوف معروف من قبله، وفي أثناء بقائه معلقا بسقف الغرف ورأسه مدلى إلى الأسفل جاء شخص أخبر القائم بالتعذيب أمراً ما فرد الأخير "إذن لم ينقل مجاهدا نريد قتله، واستمر بضربه بالعصا على أرجله مع التكلم معه على أنه نزيه، وسوف يطلق سراحه في الحال، وكانت آخر عصا يحصل عليها مع كلمة إطلاق السراح، وتقديم الاعتذار عما حصل، الأمر الذي يؤكد أن التعذيب أصبح عادة اكتسبتها كل الأطراف المعنية بالاختطاف.

مـــن المـــشاركة في ركب التغيير، ورغبة في التنحي إلا لمن صعد أعلى المنارة قائدا لمرحلة ما بعد التغيير.

فأحس المجتمع خسارة فقد فيها الأغلبية:

1. رضـــاهم عـــن حالهم، وعن حكومتهم، والقريبين منهم في الشارع، والمحلة، والمدينة حتى أصبح كثيرٌ منهم غريبين عن أنفسهم، وعن المحيط.
2. رغبـــتهم في الـــدفاع عن الدولة، وعن التغيير وإن كان عديد منهم داعين إلى حدوثـــه شـــاعرين بظلم المرحلة التي سبقتهم حتى أضحوا يائسين من إمكانية التعديل.
3. سعيهم الطبيعي للمشاركة في التقويم، والإصلاح وإن تيسرت لهم الإمكانيات العلمية، والفنية بعد أن رأوا بأنفسهم حجم الكارثة، وجسامة المعوقات التي جعلـــت كـــثيرا مـــنهم منطوين على ذواتهم، يعيشون معاناتهم، لا يثقون بالتغيير.
4. توازنهم النفسي الملائم للتهدئة، والتفكير المنطقي، والتفاعل الاجتماعي بعد أن تغـــير شكل الخوف في داخلهم من خوف قد اعتادوا تبريره لثلاثة عقود مـــن الحاكم، والحكومة، وأجهزتها الأمنية. إلى خوف غير منطقي من الجار الـــذي يكـــون مـــن طائفة أخرى. ومن القريب الذي لا يتفق مع الأفكار، والمبادئ.

ومـــن المـــذهب، والـــدين، والقـــصف، والانفجار، والاغتيال، والخطف، والـــشارع، والمدرسة، والظلام، التي أبقت نسباً منهم سجناء ديارهم، وأفكارهم، ومعـــنوياتهم الهابطـــة لا يقوون على الخروج، والمساهمة بفعل أي شيء، وإن ينبئ بـــالخلاص، والأهم منها الخوف من الموت، والإصابة التي تكثر في محيط تتكرر فيه يوميا أو بعدد الساعات، ومن: سيارة مفخخة تنتظر في مكان ما بغية تفجيرها وفق توقيت يتعلق بالهدف المقصود، وقد تنفجر بسبب الخطأ غير المحسوب، وبانفجارها في المكان، والزمان المحددين حسب الخطة أو خارج حدودها ستكون لها دائرة تأثير يتـــسع قطرها تبعا لوزن المواد المتفجرة ونوعها، وسيكون في تلك الدائرة أشخاص بالصدفة قد يدفعون حياتهم ثمنا لعراقيتهم.

عبوة ناسفة زرعت على حافة طريق يسلكه رتل عسكري من قوات متعددة الجنسية أو يمر به موظف بإحدى الدوائر الرسمية، أو شيخ مسن مطلوب ثأر من الزمن السابق، أو عالم دين أفتى بالمحبة والإخاء، أو رئيس حزب معروف بمعاداته للحرب والدمار، وعُبِثت لتنفجر عند التقرب منها بأسلوب التحكم عن بعد لاسلكيا، أو في حال المرور من فوقها آليا، وسيكون لانفجارها دائرة تأثير، وموت لا يستثني بطبيعة الحال سيدة حامل كانت قريبة من مركزها، ولا شيخاً وقوراً.

أو حتى طالباً بعمر الزهور.

عندها سيدفعون، وآخرين في المكان القريب حياتهم ثمنا لتجوالهم.

قنبرة هاون تُطلقُ على عجل من مسافة عدة كيلومترات على المنطقة الخضراء أو على وزارة من الوزارات أو على مكان لتجنيد الجيش، والشرطة، وهي "القنبرة" لم تُخَزَن بالشكل الصحيح منذ اختفائها من مخازن الجيش العراقي، ومدفعها لم يُحفظ بالشكل الصحيح منذ السماح بالاستيلاء عليه من بقايا الجيش العراقي، ومعدّوها أي القائمون على الإطلاق لم يتدربوا تدريبا صحيحا كما كان معمولا في عهد الجيش العراقي بتاريخه الطويل، فتخطئ القنبرة هدفها باحتمالات ليست قليلة، وتقع على عائلة تسعى لأن تعيش بعيدا عن الحرب، والسياسة.

وعلى تجمع في سوق يقصده أهل المنطقة.

أو سيارة نقل في شارع مزدحم.

وبخطئها هذا يدفع المنكوبون بانفلاقها ثمن تواجدهم عراقيين في الزمان، والمكان الخطأ.

ناقلة أشخاص مدرعة من قوات متعددة الجنسية تسير في دورية مسلحة في أحد شوارع المدينة، تناور مسرعة لتفادي هجوم عليها أو لتنفيذ أمر صدر إليها بالهجوم على هدف قريب، فتتجه بسببهما فجأة إلى اليسار قبل أن يتنبه سائقها أن إلى جنبه سيارة مملوءة بالركاب أصبحت تحت سرف ناقلته في ثوان معدودات.

وأصبح ركابها العشرة في عداد الأموات ثمنا لتقربهم من ناقلة الحلفاء.

لغم أرضي زُرِعَ في طريق خارجي لينفجر عند مرور آليات مدرعة، فكان أن مرت قبلهم حافلة عراقية تحمل ركابا ذهبوا لتأدية مراسم الزيارة تناثرت أجزاؤها،

ومـــن فيها من الركاب بذاك اللغم المصمم لتدمير دبابة فدفع المنكوبون حياتهم ثمنا لمرورهم من عليه بدلا من الآليات الحليفة.

دوريـــة شرطة تطارد عصابة في الشوارع العامة فتتبادل إطلاق النار معها في ظـــروف يصدف أن يكون في ساحة الرمي أناس قد يدفع أحدهم حياته ثمنا لأمن مطلوب أن يُفرض بالقوة.

مـــسلحون ينصبون كمينا لمسؤول في الدولة فيمطرون سيارته، وتلك القريبة منها بالرصاص، والرمانات اليدوية فيدفع من قُتلَ في الكمين حياته ثمنا للوظيفة.

... الخ من أعمال، وحوادث تتكرر يوميا في بغداد، والعديد من مدن العراق فتتـــسبب بوقوع خسائر غالبيتها من المدنيين غير المستهدفين أصلا، ووقوعها بهذه الطـــريقة، وبنـــسب تكاد تصنف بالكبيرة يعطي انطباعا وكأن العراق في معظمه أصـــبح حقل ألغام لم تؤشر حدوده، وبات العراقيون في داخله أسرى السير دون وسائل كشف فنية.

والسير في حقل ألغام لم تؤشر حدوده، ومن دون وسيلة كشف يكون مثيرا للخوف، والقلق عند أكفأ الجنود، وأحسنهم تدريبا، ومستوى للمعنويات.

تلـــك أنواع من الخسارة التي حددت مستوى المشاركة، والدافعية، وأخلّت بالحالـــة النفسية شكّلتْ أنواعاً من السلوك المثير للاضطراب الأمني بعد أن توافقت في حـــدوثها مع كثرة الأخطاء التي ترتكب في الشارع من قبل سالكيه، ومن قبل المعنيين بضبطه على حد سواء إذ يلاحظ، وبشكل واضح على سبيل المثال، أنّ:

1. الكـــثير من سيارات المسؤولين، وغير المسؤولين تسير عكس السير فتزيد من الفوضى والاضطراب، وتضاعف النقد، والاحتقان المنتشر واسعا بين العامة من الناس.
2. لعديـــد مـــن محاولات الاجتياز لسائقي سيارات في الشوارع، والطرق العامة تفضي إلى استخدام السلاح وسيلة حسم للخلاف بين راغب بالاجتياز، وغير راغب فيه.
3. لعديـــد من شرطة المرور يمكن أن يحسموا الموقف لصالح الطرف المعتدي لقاء مـــبلغ بسيط من المال، ومثلهم آخرين في مراكز الشرطة قد لا يستجيبون إلى

المـــشتكي إذا لم يتقاضوا مسبقا الثمن المطلوب، وقد يسهم أحدهم، والضابط الخفر في تهريب المتهم لقاء ثمن محدود.

4. نـــسباً غـــير قلـــيلة من المسؤولين في المؤسسات الحكومية نسوا أدوارهم في الإصـــلاح والتصحيح، وتوجهوا إلى الاستغلال بطريقة رخيصة لا لوم عليها، ولا عتاب مثل وزير يعين شقيقه مديرا لمكتبه بدرجة مدير عام، والحكومة تعلم أنه لا يستحق هذه الدرجة ولا يُوَجه حتى عتب بسيط للوزير الذي يشعر أن الوزارة حصته، وحزبه في التقسيمات شبه الرسمية.
5. عـــضو برلمان يزيد من أعداد حمايته الوهميين رغم عيشه في المنطقة الخضراء لا يخـــرج منها إلى المطار في حالة سفره خارج العراق، والحكومة ترضخ لرغباته غير المنطقية، لأن كتلته ممثلة بالحكومة، وتمثيلها حرج لا يراد له الاهتزاز.
6. كـــذلك هو حال بعض وكلاء الوزارات، والمدراء العامين نـــزولا إلى رؤساء الأقـــسام في الدوائر الحكومية التي يجسد فيها عديد منهم التجاوز كل بطريقته الخاصة.

هـــذه التجاوزات، وأخرى غيرها، وأخطاء في العمل، والتقدير أضعفت هيبة الدولـــة الـــتي يجري فيها أعضاء الحكومة، والمشاركون في تشكيلها على مستوى الرئاســـات الثلاث (رئاسة الجمهورية، ورئاسة الوزراء، ورئاسة البرلمان) في بعض المواقـــف كـــل باتجـــاه قد لا يلتقي مع الآخر أو يتقاطع معه فيزيدون جميعا شدة الاضطراب إذ نتلمس وبشكل واضح المعالم:

ينـــتقد أحدهم إجراءات الحكومة في جوانب الأمن بشدة عندما تمر فقط عبر مناطق تصنف من طائفته، ويشجع أخرى تمر عبر الطائفة الثانية.

وينصح آخر بضرورة تعديل الإجراءات لتشمل كل مناطق بغداد مع علمه أن المناطق التي يقصدها لا تشكل تهديدا على الأمن.

ويحَـــرضُ ثالث في لقاءاته، وخطبه، وسفراته خارج العراق الجمهور للوقوف بالضد من الحكومة، وجميع الإجراءات.

ويؤيد بعضهم كل توجهات الحكومة، ومشاريعها باندفاع، ويعارض بعضهم الآخر كل ما يصدر عنها قبل التعرف على طبيعته.

يـــرتكب قسم منهم أخطاء قاتلة يصعب محاسبتهم على ارتكابها لأن هذا قد يغــضب الكـــتلة المؤثـــرة في البرلمان، ويلتزم آخر بالقانون حد الاتهام بالضعف، والمحاباة.

يترك البعض في أعلى المناصب وظيفته، ويتوجه إلى مناطق في داخل العراق أو خارجه، ويستمر راتبه، ومخصصات حمايته لما يزيد عن السنة، ولا أحد يجرؤ على الـــتفكير باســـتبداله أو فـــصله وإن كان مطلوبا للعدالة عن طريق لجنة النـــزاهة وغيرها.

وزيـــر فاســـد بشكل علني، ومدير سارق بشكل مفضوح يتم إخبارهما قبل صـــدور أمر إلقاء القبض لفسح المجال لهما بالهرب خارج العراق، وتعجز وسائل القانون، وشرطة الانتربول عن استجلابهم للمحاكمة داخل البلاد.

محكـــوم "وزير سابق" يُحجز في أحد مراكز الشرطة بالمنطقة الخضراء يتمكن من الهرب في ظروف غامضة، يحاول كل جهاز من الأجهزة تناول موضوع هروبه بتفـــسير يخـــتلف عن الآخر تبعا لمرجعيته المذهبية، واجتهاداته الشخصية، ويصل الهارب إلى خارج البلد بجوازه الأمريكي، وكأن شيئا لم يكن.

طائـــرات سمتية يتم التعاقد على شرائها يتبين عند حلول موعد الاستلام أن أعمارهـــا قـــد انـــتهت ولا يمكنها الطيران، وهي أصلا مشتراة من المقابر الخاصة بالطائرات المستعملة وأثمانها مستلمة مسبقا، ولا أحد يستجير.

أسلحة تشترى على أنها حديثة الصنع، والأجهزة الأمنية في أمس الحاجة لها، وعـــند الاســـتلام في مطار بغداد يتبين أن قسماً منها قديم يعود تاريخ صنعه إلى ســـبعينات القرن الماضي قد أعيد تجديدها في دول مشاركة في التحالف، والمتعهد بالتوريد قريب من الوزير، ولا أحد يتكلم أو يستغيث.

وزير للدفاع يشكو في مجالسة الخاصة اختفاء أسلحة مشتراة إلى جيشه الجديد حـــال وصولها مطار بغداد، ويتبين أنها شحنت إلى جهة أخرى غير حكومية ولم يسمع أحد شكواه.

دائرة علمية تستباح وسط النهار، تحتلها مليشيا لفترة من الوقت تختطف من تـــريد، وتطلـــق سراح من تريد، وتُحمّل من ترغب في سيارات حكومية معروفة

أرقامهـــا، وكذلك طريق السير، ويسكت عن تداعياتها إلا القليل الذي لا قدرة له على التأثير.

يُـــستعرَض مـــسلحون في أحد شوارع العاصمة بغداد"اليرموك" لما يقارب النصف ساعة، ولا أحد يتابع مناطق الانطلاق، وأماكن التجمع، ومسالك التفرق، والانتشار.

يُعـــتقل وكـــيل وزارة الـــصحة[1] على أعتاب الاتهام بأعمال قتل، ودعم مليـــشيات في وزارته، وتقف المؤسسات الحكومية مكتوفة الأيدي لا تقوى على الرد، أو على تأكيد الاتهام.

أوامر الحكومة لا تنفذ في كل محافظات البلاد، وقوانينها الفيدرالية لا تسري كـــذلك في كل أنحاء البلاد لأن الوضع في كردستان خاص، وفي البصرة أقرب إلى الخاص، وكذلك في باقي المحافظات.

تعلن الحكومة رغبتها في القيام بتغيير وزراء غير مؤهلين، أي تعديل وزاري مـــنذ أكثـــر من ثمانية شهور، ولا تتقدم خطوة باتجاه التنفيذ لأن الكتل النيابية هـــي الـــتي تقـــرر، وتختار وتفتي بالموضوع، وبعضها يسعى إلى الإعاقة بقصد الإفشال.

وغيرها الكثير من الأعمال التي يصعب جمعها في مؤلف واحد كَبدتْ العراق، والعـــراقيين، ومـــا زالت تكبدهم خسائر فادحة في الأموال، والأرواح من ناحية، وعـــززت من ناحية ثانية الشعور بالخسارة في نفوس أهله حد الاستسلام لحصولها واعتبارها أمراً كان لابد أن يكون، مصحوبا بيأس شديد من عدم إمكانية التعويض في الوقت الحاضر، وفي المستقبل القريب.

---

(1) اعـــتقل وكـــيل وزارة الصحة في حكومة السيد المالكي، وهو من التيار الصدري بداية عام 2007 مـــن قبل قوات أمريكية وعراقية مشتركة كما أعلن في وسائل الإعلام، وبصدده أكد الأمريكان أن الاعتقال قد تم بموافقة الحكومة العراقية، واكدت الحكومة من جانبها أن لا علم لهـــا بمجـــريات اعـــتقال الوكيل، وفي خضم هذا التناقض في تحمل مسؤولية الاعتقال بين الجانبين الأمريكي والحكومي العراقي انتهى الموضوع سريعا أو تم نسيانه لشدة ما تبعه من أحداث.

المبحث الثاني

التدمير

كل تلك العواقب، والعقبات، والتناقضات، وأوجه القصور تسببت أو أسهمت جميعها، وعوامل أخرى بالسير في طريق تدمير الدولة، وإضعاف سلطة الحكومة المركزية بمستوى يفوق كثيرا سقوطها للمرة الأولى في السنوات الأخيرة من حكم صدام حسين، وأكثر خطورة من ذلك السقوط لأن التدمير الأخير حصل في أجواء لم تعد فيها المشاعر الوطنية كافية لدعم هذه الدولة، والمحافظة على هيبتها(1).

و لم يعد فيها الولاء كافيا لإثارة استجابات الإنسان العراقي لكي يخدم الدولة، ويضحي من أجلها بعد أن تجزأ بين العشيرة، والطائفة، والمنطقة، والقومية، وعلى أساسها باتت معالم التدمير في الوقت الراهن تحدق بها، والمجتمع من جانبين:

يتعلق الأول بالنمو المستمر للمخالفة، والتجاوز، وبتقوية القائمين عليها من جهة، وبالضعف المستمر لأجهزتها الأمنية، ومؤسساتها الاجتماعية الداعمة، والهبوط الملموس للمعنويات، وقلة الاستعداد، والدافعية، للمساهمة في إعادة هيبتها، ودعم الخطط الأمنية من جهة أخرى.

والثاني توجه يقترب من أن يكون منظما، وعاما للابتعاد عن مركز الدولة إلى خارجه بالتوافق مع الطروحات التي شاعت للتنحي عنها صوب الإقليم الفيدرالي المتجانس بعيدا عن هموم الغير، وتوجهاته التي لا تنسجم، وكذلك لا تتوافق مع واقع الحكم الجديد، ولا مع استحقاقات الديمقراطية كما هو مطلوب.

---

(1) يقل تدريجيا في الجلسات الخاصة ذكر العراق كبلد يثير الفخر، والاعتزاز، وبدلا عن ذلك يشاع الذم، والنقد، والتجريح لأعمال تحدث يوميا يجري تعميمها على العراقيين، وتحدث بينهم، وفي صفوفهم، وعلى مرأى منهم.

وبالمقابل شاعت في الثقافة العامة كتابات تمجد الجماعة، والمذهب، والقومية عملت مع ما يجري من أحداث عنف، واحتقان على تقليل أو تشويه صورة العراق في العقل الجمعي العراقي، وأسهمت مع اضطرابات الأمن، والعيش تحت التهديد إلى أكبر هجرة جماعية إلى الخارج في التاريخ العراقي وصلت في بداية شهر شباط 2007 حسب تقارير إعلامية إلى ما يقارب 3، 5 ثلاثة ونصف مليون توجهوا إلى سوريا، والأردن ومصر، وبعض دول الجوار (7).

إن خـسارة المجـتمع العراقي التي أشير لها سابقاً مع التناقضات الحاصلة فيه، والـتي أخلت بموضوع الأمن ولدّتْ بالإضافة إلى هذا الخلل اعتقادا بين الكثير من العراقيين يتمحور حول احتمالات خسارة الدولة من خلال جملة مؤشرات منها:

انـتهاء أو عـدم فاعلية القوانين المعمول بها، والتشريعات التي سيعمل بها في الـضبط، والـردع الاجتماعي، بعد أن عجزت أو توانت الحكومات المتعاقبة عن إعـادة آلاف المحكومين لأغراض جنائية سبق أن أطلق سراحهم صدام حسين في عفـو كأنـه مقـصود قبل سقوطه بأسابيع شكل وجودهم مصدر قلق، وقاعدة للجـريمة المـنظمة بـشكل واضح المعالم، كذلك التلكؤ في تنفيذ أحكام الإعدام الصادرة بحق إرهابيين، وقتلة بشكل يثير الشك، والريبة في كثير من الأحيان[1].

إن المـشكلة في موضوع الإحساس بالخسارة، واحتمالات التدمير، وكذلك الخرق الأمني لا تتوقف عند الأعمال الجنائية التي يمكن أن يقوم بها أولئك المجرمون، وإنمـا بإبقـائهم مطلقي السراح، وبعضهم غير أسوياء وبعضهم الآخر خطرون، والتـساهل في موضوعهم، وأمور أخرى وَسعتْ مجال الخطأ الذي يرتكب في كل المجالات[2].

---

(1) عندما يدخل أحد في نقاش جدي مع دعاة مؤيدي إقامة إقليم الجنوب ضمن العراق الفيدرالي يجد أن حججهم لدعم وجهة نظرهم تتأسس على:

أن التمرد، والخلل في الجانب الأمني اليوم يتركز في المناطق ذات الغالبية السنية، ويخضع إلى تحريض من جهات طائفية سنية يفسر أنهم أي السنة من وجهة نظر مؤيدي إقامة الإقليم لا يريدون أن يستقر العراق بطريقة الديمقراطية التي تجلب إلى حكمه الأغلبية الشيعية، عليه لـم يتـبق أمام الشيعة" كما يرى مؤيدو المشروع لتجاوز مشكلة عدم الرغبة في العيش وفق هـذه الاسـتحقاقات سوى توجههم للعيش بأمان في محيط منطقة الجنوب يغتنمون الفرصة لبنائها بعد أن تُركت مهملة لعشرات السنين.

كمـا أنّ وزراء مختـصين عـند مناقشتهم هذا الموضوع يشير بعضهم إلى وجود ضغوط خارجـية علـى العراق للحيلولة دون إقرار الاعدام، والتنفيذ وصلت حد التهديد بعدم إلغاء الديون، وإعاقة المنح، وغيرها.

(2) ذكـر أحد الأطباء النفسيين العسكريين المعروفين في بغداد أنه وفي الشهر الخامس من عام 2003 أحـضر ثلاثـة أخوة أخاهم الرابع، وهو شاب في الخامسة والعشرين من العمر إلى عـيادته الخاصـة وهو بحالة انفعال هستيري شديد يصعب السيطرة عليه إلا بالقوة، فسارع الطبـيب إلـى إعطائـه حقنة مورفين نام على إثرها في العيادة، وعندما صحا بعد ساعتين أعطـي أدوية مهدئة، ومضادة للاكتئاب، وطلب منهم جلبه في اليوم الثاني، وقد حضر بحال

إذ يناقش على سبيل المثال يوميا معارف، وقريبون أو سياسيون معنيون، وكذلك طلبة وموظفون، عسكر ومدنيون، يعيشون داخل العراق، وخارجه هذه المرحلة الزمنية الصعبة، وكثر أخطائها، والتجاوزات التي تؤثر سلبا في الحالة النفسية، في الاستعداد لارتكاب الخطأ، وفي تلك النقاشات أو الحوارات نرى أن الموظف يشكو سوء إدارة الأعلى منه، وتدني أداء الأقل، ويؤكد في مجرى النقاش أن معاملة تخص الوزارة يأخذها وارد في السجل تضيع بعد التسجيل.

ويتدخل مدير عام في وزارة سيادية معلنا أن طلبات للتعين بقائمة أسماء يوافق عليها الوزير وفي الطريق بعد الموافقة تتغير القائمة فتحذف أسماء، وتضاف أخرى حسب مبالغ تدفع إلى الوسيط المجهول أو بتأثير الحزب، والحركة غير المعلوم.

ويؤكد ضابط برتبة عالية على غرابة التعامل في جيشه الجديد بين المافوق، والمادون في معادلة الضبط وفقا للديمقراطية التي يتصورها البعض من المراتب أساسا لانتقاء الأوامر المطلوب تنفيذها، والتوجيهات التي لا تنسجم ورغباتهم الشخصية، وكثير من التطلعات.

ويتحسر ضابط آخر على سياقات الترقية، ومنح الرتب التي كانت تحكم الضوابط، والقيم العسكرية مبينا أن أشخاصا لم يكملوا الابتدائية، وآخرين لم يدخلوا الجندية قد منحوا رتبا عسكرية، ومناصب قيادية وهم الآن من بناة الجيش الجديد.

ويسخر مفوض في الشرطة من اشتراك بعض أفراد شرطته في الجريمة المنظمة[1] واستخدامهم معدات الشرطة، وأجهزتها لصيد المجني عليهم، وتمادي

تسمح له بالتحدث مع الطبيب، وفي أثناء دراسة حالته تبين أنه كان محكوماً بالإعدام بعد أن أدين بجرائم سطو، وقتل في منطقته، وقد أطلق سراحه بالعفو قبل الحرب، مؤكدا أي المريض أنه وبعد فترة من إطلاق سراحه بدا وكأنه يمر بنوبات من العدوانية يشم خلالها رائحة الدم بشكل مثير يدفعه بقوة إلى محاولة ارتكاب جريمة قتل لأي شخص يصادفه في هذه النوبة مؤكدا أنه وخلال شهرين من إطلاق سراحه ارتكب أربع حالات قتل عشوائية.

(1) أكد ضابط شرطة في نيسان 2005 أن آمر دورية شرطة برتبة نقيب كان قد لصطحب سيارة نقل كبيرة "لوري" من نقطة السيطرة القريبة من بوابة بغداد في الكاظمية إلى ناحية اللطيفية التي كانت تعرف آنذاك بمثلث الموت، وهو واثق أنها تنقل أسلحة، ومتفجرات إلى مسلحين في تلك المنطقة لقاء مبلغ ألفي دولار، وقد وصلت السيارة فعلا بفضل حراسة النقيب المذكور.

البعض الآخر منهم إلى حدّ مساومة العصابة التي يضبط بحوزتها أدلة جرمية أو حتى حراسة موقع الجريمة لحين اكتمالها، وانسحاب المجرمين.

وينتقد عضو في البرلمان زميلاً له بسبب توجهه أي الزميل لنصب الأفخاخ لمسؤول في الدولة ليس بهدف الاستيضاح عن سير العمل، بل للإيقاع به، والإحراج نتيجة لخلافات اجتماعية كانت قد حدثت بين العائلتين، و لم يتم الفصل العشائري في موضوعهما قبل أن يعمل الطرفان في السياسة المعارضة أيام الدعوة، والتحضير لإرساء معالم التقدم، والازدهار.

ويتدخل سياسي حلم برحيل الديكتاتور، وإعادة بناء العراق الديمقراطي ليُطمَئنَ الموظف، والطالب، والضابط، والشرطي، وكذلك المدير العام أن التردي حال لم يتوقف عندهم، وآثاره السلبية لم تطل الدائرة، والمؤسسة، والمخفر، والجيش فقط، مؤكدا أن السياسة الحزبية الجديدة التي انتظرها العراقيون بعد التخلص من سيطرة الحزب الواحد، وقيادة الفرد الواحد فيها بعض الشيوخ الذين شُيِّخوا بأمر الدولة يجوبون أحزاب اليمين، وأخرى في أقصى اليسار يَعرِضونَ انتماءهم، وأصوات أبناء عشائرهم لقاء من يدفع أكثر من بين الأحزاب[1]، والكتل السياسية ليقودوا بأنفسهم جموع التدمير.

وفيها نساء، ورجال شيب أكثر ممن هم في سن الشباب مسجلّون في أكثر من حزب، وأكثر من جمعية يتقلبون بالولاء، والرأي، والاتجاه ليضعوا دون أن يشعروا أسس تدمير لحاضرهم والمستقبل.

وفيها أيضاً أمين عام حزب ديمقراطي طالب بأكثر من مقعد في المجلس الوطني الذي اختير بالتوافق، والتعيين قبل الانتخاب وهو لا يحتكم في سجلات حزبه على عشرة أعضاء، وفيها كذلك عضو بارز في حزب مرموق يضع أمام حزبه شرط الموافقة على آراء يطرحها لم تحض بتأييد الآخرين أو يترك الحزب، ويؤسس آخر

---

(1) إن مشكلة الفرز بين السياسيين الوطنيين، والنفعيين غير الملتزمين مسألة صعبة في ظروف العراق الحالية، إذ نجد أن العديد منهم يتحمسون، وينظّرونَ، ويعملون بجد من أجل الصالح العام وبعد دخولهم الوظيفة يتغير سلوكهم إلى نقيض يظهر فيه أنّ المصالح الخاصة تفوق كثيرا مصالح الدولة، والوطن، ومع ذلك لا يمكن التعميم بسوء سلوك أو خطأ في سلوك غالبيتهم، لأنها مسألة غير منطقية، وفيها تجنٍّ على من حافظ على استقامته، ووطنيته كما هو معهود.

قومياً، وهو لا يمتلك أبسط مقومات التأسيس، ولا يعي أن عمله هذا تدمير للسياسة، والسياسيين.

إن السير باتجاه التدمير، أو التوجه نحو التدمير واقع في محيط الدولة، ومؤسساتها كما ورد سابقا، وواقع في محيط الفرد، بالضد من ذاته أيضاً دون أن يدرك طبيعته، وعواقبه، إذ نرى ومنذ العام 2004 على سبيل المثال يُقتل عسكري برصاص مجهول على قارعة الطريق فيتبين أن هناك من بين العسكر في نفس الوحدة مَن قد وشى به لحسابات خاصة، وأسهم في مقتله، دون أن يفكر الواشي أن قتلاً من هذا النوع يمثل قتلا للذات العسكرية التي هو جزء منها.

ويقع عدد من الشرطة العائدين من دورة تدريبية انتهت بالأردن بداية تشرين الأول 2004 في كمين ينتظرهم على الطريق ما بعد المحمودية فيطيح بهم جميعا في مشهد مأساوي مثير للاستغراب عن كيفية تعرف القائمين على الكمين بمقدمهم، وتوقيتات تحركهم منذ الحدود، وحتى موقع الكمين، وتبين لاحقا أن هناك في المركز من تجسس عليهم لصالح قوى تعمل بالضد من الدولة، وتابع خط سيرهم من خلال العلاقة مع أحدهم، ومقتلهم بهذه الطريقة يمثل تدميرا للذات الإنسانية.

وضابط يخرج من بيته في بابل متخفيا بسيارة مدنية يركبها لأول مرة قاصدا دائرته في بغداد تنتظره سيارتان قريبا من اللطيفية فتطلقان عليه النار، ويردى ومن معه قتلى، ويبقى سر تعرف المعنيين باغتياله على موعد خروجه من البيت، وتبديله السيارة في دائرة حكومية، ووقت مروره في منطقة القتل غير معلوم إلا بعد أن اعتقل عسكري من وحدته بتهمة بيع معلومات، واعترف أنه من زود القتلة بالتفاصيل اللازمة، وأنه من تسبب في مقتل زميله، وَقَتْلُ زميل يمثل تدميرا للمهنية العسكرية.

وقنابر هاون لا تتأخر يوما عن السقوط على مراكز الشرطة، وأماكن التطوع، ويجري فيها تصحيح للرمي بكفاءة، ويتبين أن أحد المنتسبين هو الذي يزود الرماة بالمعلومات، والإحداثيات المطلوبة فتسبب في مقتل مئات من الزملاء في وزارته، ودائرته، والقتل العشوائي في مثل هكذا مواقف الذي يمكن أن يعرض المعني إلى القتل ولو عن طريق الصدفة يمثل أخطر أنواع التدمير البشري.

ومـــن جهـــة أخرى نشاهد، وأكثر من مرة أن سيارة من دون أرقام منعت من الـــسير في الـــشارع حسب الأوامر السارية فيجد أحد رجال الشرطة الفرصة مناسبة لاستغلال المخالفة في مساومة يقبض منها عشرة آلاف دينار دون أن يسأل نفسه أن هذه السيارة ستكون في مهمة لاغتيال زملاء له في نفس الدورية، أو قد ترتد عليه في عودتها فتقتله، ومن معه فيصبح تجاوزه للقانون هنا تدميرا لذاته، ومن معه من الزملاء.

وتلاحق دورية نجدة شباباً مشبوهين يحملون أسلحة في سيارة أوبل، فيطلب منهم آمرها مائة ألف دينار ليطلق سراحهم قبل أن يفكر مع نفسه باحتمالات أن تكون السيارة في طريقها لنصب كمين لدورية شرطة يمهد قتل منتسبيها إلى ضعف في أداء الـــشرطة يـــؤدي إلى ســـهولة قتله في مواقف لاحقة تمثل نوعا من التدمير الذاتي.

وتطـــوق مفرزة شرطة سيارة حمل صغيرة فيها متفجرات متجهة إلى منطقة ســـاخنة في الكرخ يلمح آمرها للسائق عن استعداده للمساومة فينتهي الأمر اتفاقا علـــى نـــصف مليون دينار للتخلي عن حجزها دون أن يرد في تفكير المعني عدد المراكـــز التي ستفجر بسبب ذلك الاتفاق، ولا يستثني الاحتمال مركزه الذي قد يكون موجودا فيه أثناء الانفجار فيدفع حياته ثمنا لذلك.

ويطلـــق محقق في إحدى دوائر مكافحة الجريمة سراح شاب تحوم حوله شبهة المشاركة في أكثر من عملية مسلحة بالضد من القوات الحكومية لقاء عشرين ألف دولار دون أن يجهـــد نفسه، ويفكر أن ذلك المتهم الذي عرف الدائرة، والمحققين، والمـــداخل قـــد يضعها هدفا في عمليته المقبلة فيصبح المبلغ المقبوض وسيلة لتدميره ودائرته في آن معا.

ويقـــبل منتسبو نقطة تفتيش عسكرية الانسحاب من مكانهم داخل المحافظة، يتركون أسلحتهم والمعدات لعشرة مهاجمين في وضح النهار، ولم يبادر أحد منهم ويـــسأل نفـــسه وزمـــلاءه القريبين عن احتمالات استخدام الأسلحة التي تركت لتدميرهم في مواقف لاحقة.

كـــثيرة هي الوقائع اليومية التي زهقت بسببها أرواح العديد من أفراد الجيش، والشرطة، والموظفين الحكوميين، ويشهد حدوثها المتكرر على:

1. تقـــصير متعمد من أفراد داخل دوائرها المتعددة، وفساد مستأصل في تنظيماتها المخـــتلفة، وهي وقائع يمكن أن تفضي لاحقا إلى توسيع هامش الثمن المدفوع ليـــشمل أطـــرافها، عندها يمكن القول إنّ المعنيين قد سعوا إلى تدمير أنفسهم بأنفسهم.
2. إدراك مـــتدن لعـــواقب الخطـــأ الـــذي يـــرتكبه البعض من أفرادها بطريقة تـــؤدي إلى احـــتمال وقوعه ضمن دائرته عندها يصح القول إنّه قد سعى إلى حتفه.

وكـــثيرة هي الوقائع التي لم تعد محيرة في عقول العراقيين من داخل المؤسسة العـــسكرية، والأمنـــية، وخارجها وكثيرة هي الأسئلة عن دوافع ارتكاب الخطأ الكارثي، وعن دوافع عدم توجيه الأسئلة إلى الذات قبل ارتكابه المتعمد، لم تجد لها جواباً شافياً في الحوارات الدائرة بين الناس في أيام المحنة إلا في إطار الاستنتاج على أن حدوثها، واستمرار حدوثها يعودان إلى:

1. مستوى الخطأ، وسوء التقدير، وشدة القلق إلى الحد الذي لم يعد فيه المنتسب مـــيالا لأن يحـــسب أن ارتكاب المخالفة، والخطأ يمهد لموت زميله القريب أو حتى موته في المرحلة المقبلة.
2. خلـــل في تقدير الذات، وسلامتها في ظروف يقل فيها المجال لحساب السلامة الذاتية.
3. اضطراب الإدراك الذي لا يقبل التأويل في أن ذلك الخطأ الذي ارتكبه سوف لا يحـــصنه من عملية لاحقة استوفت مستلزمات نجاحها بسبب خطئه هو أو تهاون زميله، الأمر الذي يدفع إلى القول إنّ الخطأ المتعمد في هذا الجانب، وفي هـــذه الأيـــام الصعبة وزيادة مستويات تكرارها يمثل سعياً لا شعورياً لمعاقبة الذات أو تدميرها.

المبحث الثالث
الجريمة

بعـــد ازدياد نسب التكرار، وضعف عوامل الردع، والإصلاح نشأت في بغداد، وعديد من المحافظات مجتمعات منتجة للجريمة المنظمة، ومرتع للعصابات المخــتلفة إذ إن اشــتراك اثنين أو ثلاثة بعد التغيير مباشرة على سبيل المثال في كسر أبواب مصرف، وسرقة ملايين الدولارات ساعدتهم على ضم أعضاء جدد لجمع المعلومات عن أهداف أخرى يريدون سرقتها، وأعضاء لتأمين الحماية لهم، وللأموال المسروقة، وآخرين لتصريف المبالغ، وغيرها فتكونت بالنتيجة عصابة مــنظمة يــزداد دخلها بشكل كبير يغري أعضاءها الأصليين للعمل كل على انفراد أي أن العصابة الواحدة ولدت عصابتين أو أكثر، ونتيجة لضعف الجهاز الأمني الحكومي، وسهولة التنفيذ أصبح المجتمع العراقي بشكل عام، والبغدادي على وجه الخصوص مجتمعا منتجا للجريمة، ومساعدا على تفريخ العصابات التي امتدّ بعضها إلى الجهاز العسكري، والأمني إذ حدثت أكثر من حادثة سطو على مــصارف عام 2005 نفذت بسيارات شرطة، ومن قبل أشخاص يرتدون زيها الرسمي.

ونفــذت إحــداها عــام 2006 بمشاركة عربة همر تعود للجيش، ومن قبل أشخاص يرتدون الملابس العسكرية.

في هــذا المجتمع المنتج للجريمة لو تمت متابعة التطور التقني، والنفسي للجريمة الحادثــة فيه لوجدنا أنها تتصاعد بشكل يتناسب طرديا مع اختلال الأمن، وضعف أجهــزة الدولــة الضابطة، والإدارية إذ إنها بدأت على سبيل التوضيح بعد التغيير مباشــرة بصورة متفرقة في ريف العراق، وبعض مدنه، وسهوله الممتدة على شكل توجهات للقتل بقصد الانتقام من شخص:

1. كتب تقريرا بدون وجه حق.
2. وشى بقريب دون مبرر.
3. شهد زورا في إحدى المحاكم التي لا تُمَيِّزُ قراراتها إبان الحكم السابق.

وفي حالــتها بقــي الآخرون من علية القوم، والأجهزة المختصة، والعارفون ببواطن الأمور، والسياسيون المخولون يتفرجون أو يُصَلونَ شكرا للخالق عز وجل علــى قتل لم يكن في محيطهم أو قريبا منهم عندها اتسعت دائرة القتل لتطال بعضاً منهم، والباب مفتوح للبعض الآخر.

وامــتدت يــد الجــريمة لتمــر بطريق الموت في اللطيفية الذي يربط بغداد بالمحافظــات الجنوبية شهورا متعددة يُنحر فيها الفقراء، وعابرو السبيل، ومسؤولو الحكومة، وعسكرها.

وأثناءها تقف قوات متعددة الجنسية في حيرة من أمرها تَستنفرُ قواها إثر كل حادثة بعد أن تمر الساعات، وربما الأيام.

والــبعض من أهل بغداد، والقريبين من ساحة الموت يتفرجون دون أن يحرك أحــدهم ســاكنا طالمــا السكين لم يطل رقابهم فكثرت سكاكين الذبح الأعمى بوحشية همجية شملت مناطق في بغداد مثل العامرية، والسيدية، والدورة، والغزالية، والــشعلة، والأعظمــية، ومناطق في ديالى، والموصل، وكركوك، وغيرها في أبشع صور التعذيب البربري، والانتقام الوحشي.

واســتمرّ المسلــسل الــذي دخل البعض من السياسيين، ورجال الدين، والــتجار، ومافــيات التهــريب طــرفا فيه، واتسعت رقعته في بغداد، وباقي المحافظات العراقية.

وأفــاق الــناس من غفوتهم على صراخ المستغيثين فوجدوا القتلة قد تجاوزوا حدود الخشية من الخالق، والخوف من السلطة.

ووجــدوا أن الــبعض من منتسبي الأجهزة الأمنية المعنية بالحماية قد دخلوا الدائرة الواسعة للعنف، والقتل طرفا فيه.

وسمعــوا قصــصا عن الطب العدلي، وأساليب القتل في دهاليزه، والسجون الخاصــة لمن يفتش مفجوعا عن أخ له اختطف غيلة أو ابن قُتلَ غدرا، ومع ذلك سكت البعض ممن لم يضطر إلى مراجعة الطب العدلي، وثلاجاته الكئيبة[1].

---

(1) تَــنقُلُ ســيارات الــشرطة، والجيش مقتولين غدرا إلى الطب العدلي في مدينة الطب وعدة مستــشفيات، ومــن كثرتهم أحيانا ترمى الجثث فوق أخرى وبعضها مشوه أو بدون رأس،

وسعى البعض إلى إرسال امرأة للمراجعة إلى تلك السجون، وثلاجات الطب العـــدلي لكون استثناء النسوة من القتل مكرمة من القتلة، وتحول البعض الآخر إلى ترداد الدعوات في أن يجنبهم الخالق أية مراجعة.

عندها تضاعفت أعداد المغدورين من جميع الأطراف، وزادت شدة العداء بين الفرقاء، وتفنن الأمراء، وقادة فرق الموت بطرق النحر، وأساليب التنكيل، والإهانة العمدية لإنسانية الإنسان.

وتـــشجع الجناة في أعمال باتت منظمة، ومحكمة الأداء لإفشال تجربة الدولة في ديمقـــراطية لم يعد أحد يذكر الحاجة إلى تطبيقها في مجتمع يترنح تحت ضربات الإرهاب، وكذلك لتعزيز مشاعر الحقد، والتناحر الطائفي لتكون أساسا أو قاعدة لمخططات تفضي إلى تقسيم العراق.

قصص تعبر عن مأساة حقيقية، وروايات تفوق القدرة على الاستيعاب بسبب كثـــرة المـــصادر التي تنفذ الجريمة، لم تكن أكثرها إيلاما للمشاعر البشرية وإثارة للأحاسيس الإنسانية تلك القصة التي كان أبطالها حجاجاً من أهل ديالى، وجلولاء قـــد عـــادوا بعد تأدية الفريضة يوم 2006/10/27 وما جرى لهم من ملاحقة في مـــزارع المنطقة، واصطيادهم فردا بعد آخر من قبل أشخاص يقتلون على الاسم المثـــبت في الهوية، وينتشون بالدم النازف من جرح مسلم عاد من الحج لا ذنب له بالانتماء إلى طائفة معنية.

وهـــذه قصص، وغيرها أخرى مأساتها السكوت، وعدم المتابعة أو تسجيلها ضد مجهول باتت أصابعه تحرك من يكلف بالتحقيق أو التسجيل فأنتجت بطبيعتها جرائم أخرى أكثر سعة وتأثيرا مثل:

1. اختطاف منتسبي دائرة من الدوائر بأكملها، وكذلك مراجعيها.
2. قتل ركاب سيارات النقل في شوارع بغداد.
3. تصفية عوائل بأكملها.

وأخـــرى مازالت تنـــزف، وعندما تُنـــزل وبسبب قلة عربات النقل تحمل أحيانا من الأيدي والأرجل إن كانت موجودة، وأثناء الحمل في الطريق إلى الثلاجة ينخلع أحد الأطراف لأنها مهشمة في الأصل، ويجري هذا على مرأى من المرضى، والمراجعين.

وغيرها من القصص التي تنفذ بأساليب سوف لن تتوقف تأثيراها الكارثية عند حدود جماعة أو طائفة بعينها لأن كل جريمة تنتج أخرى عندما تتاح الفرصة كنوع من التنفيس عن العدوان، والانفعال حتى أصبحت في مجملها مثل دوامة تلف حول نفـــسها فتأخذ في طريقها العديد من السنة، والشيعة ضحايا غدر، ومصالح ذاتية، وعمى عقائدي، وتوجهات خارجية تسعى إلى تدمير البلاد.

هذا وبعد أن وجد البعض من أبناء العراق سهولة، ويسراً في تنفيذ الجريمة.

وعائداً ملموساً، ومجداً من ارتكاها.

تعزز في داخل البعض منهم الميل لارتكاها وسيلة عيش، وابتزاز مجدية.

إذ لو أجريت مقارنات بين مصادر الدخل في الوقت الحاضر سيجد المعنيون بها أن أعلى المداخيل تتحقق عن طريق الخطف[1]، وعمليات الابتزاز التي تتجه إلى أن تشترك بها بعض الجهات المسلحة بالضد من الحكومة أحيانا[2].

إذ إنّ اخــتطاف مقــاول يمكن أن يدر على الخاطفين ما يزيد عن مائة ألف دولار أو أكثر في بعض الأحيان.

إتــاوة السماح إلى بضاعة من السكر للمرور بسلام من طريبيل على الحدود العــراقية الأردنية إلى بغداد بما يزيد عن ثلاثين دولارا للطن الواحد تضاف مسبقا على سعر التكلفة بتسعيرة أواخر عام 2006.

---

(1) ورد علـــى لسان بعض المطلعين أن رجل أعمال عراقي معروفاً، يمتلك مصانع في العراق، وخارجه، وكذلك شركة طيران أسسها بعد التغيير كنوع من الاستثمار في البلاد اختطف في بغــداد عــام 2005، وأطلق سراحه لقاء فدية بلغت ستة ملايين دولار تسببت في موته بعد عملية إطلاق السراح بقليل.

(2) اســتورد صــناعي محــولات كهــربائية ضخمة لمشروع تعاقد مع الدولة لإكمال ما يتعلق بالكهرباء فيه، وشحنها صيف عام 2005 عن طريق مكتب شحن من العقبة في الأردن إلى بغداد، وفقدت بعد ما يقارب المائة كيلومتر عن الحدود العراقية الأردنية، وبعد متابعتها تبين أن اخــتطافها قد تم من قبل جهة مسلحة تدعي أنها من المقاومة، وأنها قد وضعت البضاعة فــي مخــزن يعــود إلى دائرة الكهرباء في مدينة الرطبة، وتطلب للإفراج عنها مبلغا قدره خمــسون ألف دولار مع الاحتفاظ بإحدى المولدات لأغراض الاستخدام العام، وبعد الموافقة، وتسليم المبلغ عن طريق وسيط عاودوا طلب مبالغ إضافية لم يطمئن الصناعي على نتيجتها، وتبــين أخيرا أنهم قد باعوا البضاعة إلى طرف ثالث بمبالغ كبيرة خلال فترة تفاوضهم مع صاحبها الشرعي.

ضـــمان حماية معمل في المنطقة الصناعية ببغداد، أو مقاول في منطقة سكنية تكلف عشرات الآلاف من الدولارات.

وهكذا أصبحت هذه وسيلة سهلة، ومربحة، ومستوى الخطر فيها يقل كثيرا عن مستوياته في المجتمعات الأخرى.

وهـــذا أدى في نهاية المطاف إلى عدم جدوى التجاوب الذاتي مع الجهة المعنية بضبط الأمن، واتهامها بالتقصير، والتخبط، وضعف الأداء بعد أن فقد رجل الأمن مصداقيته في تقديم الحماية، وجديته في تنفيذ القانون، وانحيازه في بعض الأحيان إلى جانـــب الخطأ[1] عندها لم يعد العراقي الموجود في الشارع بجوار مسرح الجريمة، والخطأ على استعداد أن يسأل الشرطي، والجندي المعنيين بالأمن عن حاجتهما إلى المـــساعدة، و لم يكن كذلك راغبا في إخبارهم بالمعلومات المتيسرة لديه عن سكنة الـــدار الـــتي تـــستخدم وكرا لمسلحين بالضد من الحكومة أو رجال العصابات المشبوهين.

إن تكرار مثل هكذا أعمال، وأخرى قريبة عززت الميل إلى ارتكاب الجريمة، وأنهـــت مـــن جانـــب آخر دور الإنسان العادي كمراقب يفيد في عملية التقويم، والإصــــلاح، وقللت من احتمالات وجوده في موقف الدفاع عن ما يجري لتعزيز الصحيح، وإطفاء الخطأ من السلوك غير الصحيح.

وقربت بالتالي الإنسان العراقي من الاستسلام لمصدر الخطأ، وربما التعامل معه

(1) بحدود الساعة التاسعة مساء منتصف شهر تموز عام 2004 وعندما خرج موظف بدرجة مديـــر عـــام فـــي وزارة الداخلـــية من بيته وجد أن الطريق المؤدي إليه مقطوع من قبل سيارات الشرطة، وأخرى تحيط بأحد البيوت القريبة، وعند محاولته الاستفسار عن الحالة لمعـــرفته بأصـــحاب البيت منع بقسوة مع بعض كلمات التهديد، وهو في هذه الحالة سمع مناداة بالجهاز الموجود بالسيارات مع السيطرة عن وصولهم إلى الهدف، وتنفيذهم المهمة بطـــريقة توحـــي تماما أنهم من الشرطة، وعند العودة، والاستفسار من الخفر في الوزارة تأكـــد عـــدم وجـــود مهمـــة للشرطة في هذه المنطقة، وبعد أكثر من ربع ساعة انسحبت السيارات، والأفراد بطريقة نظامية، وتبين بعدها مباشرة أنهم عصابة قاموا باختطاف شاب كـــان والده وزيراً سابقاً، مع الاستيلاء على مصوغات ذهبية، وبالتفاوض معهم تم إطلاق ســـراحه لقاء أربعون ألف دولار غادر بعدها، والأهل جميعا إلى خارج العراق، وهم في حسرة من أمرهم.

مباشـــرة بعيدا عن الدولة، ودوائرها المعنية[1]، تقربا يحقق فيه أفضل أمن متاح إذ وبعـــد أن تَفـــوقَ في ساحة القتال الدائرة الرجل المسلح بالضد، وعضو العصابة، والمجـــرم على رجل الأمن، وامتلك من كان في الجانب الأول الدافعية بقدر يفوق كثيرا تلك الموجودة عند الثاني، وحصل أيضاً على قدر من المتابعة، والرصد وجمع المعلومات بدرجات تفوق كثيرا ما هي موجودة أو ما يحصل عليها الثاني عندها لم تجـــد عائلـــة المخطوف "إلا في بعض الحالات القليلة" من المناسب إشراك أجهزة الحكـــومة في التفتيش عن المختطف، والمفقود، وأبعد من هذا نُصحتْ العديدِ من العـــوائل، والأشـــخاص مـــن قبل ضباط في الجيش، والشرطة، والأجهزة الأمنية بـــضرورة التفتـــيش عن وسطاء يتواجدون في بعض المقاهي المعروفة وسط بغداد لغرض التعرف على جهة الاختطاف، والتفاوض معها على الدية المطلوبة لإطلاق السراح، وهذا قَرّبَ بالتدريج المواطن من مصدر الخطأ، وأبعده في نفس الوقت عن الجهات الحكومية كمركز دعم، واطمئنان.

(1) يخـــشى الـــبغدادي، وآخرون من قيام أجهزة الأمن الحكومية بمداهمة، وتفتيش بيته لأنها قد تـــساومه بقـــسوة، وتعذبه بشدة، وقد تسرقه دون خشية، ويفضل عليها قوات متعددة الجنسية على الرغم من شيوع أقاويل بقيام بعض أفرادها بسرقة التحف النادرة والثمينة، والذهب على وجه الخصوص مما جعل بعض العوائل تتجه إلى دفن مصوغاتها في حديقة المنـــزل أو في أرضـــيته داخـــل إحـــدى الغرف أو الجدران، وكذلك قيام بعض النسوة بحمله عند حصول مداهمـــة علـــى الـــرغم من اصطحاب تلك القوات في كثير من الأحيان نماذج إقرار رسمية يـــسجل فيها المُداهم إقرارا بعدم حصول سرقة أو تجاوز يعززه إمضاء العسكري الأقدم في القـــوة التـــي تعطى نسخة منه إلى صاحب البيت، كما أنّ غالبية العوائل لا تتجه إلى أجهزة الدولـــة الأمنـــية لطلب تدخلها في التعامل مع حالة اختطاف أو ابتزاز أو تهجير، وبدلا عنها يقوم من يمثلها بالتفاوض، والمساومة وإن تيقنوا جميعا أن الغدر حتى بعد تسديد ما مطلوب وارد بنـــسب لـيـــست قليلة، وهذا واقع تعزز في عقول العراقيين بسبب ضعف تلك الأجهزة، وعدم الثقة بحياديتها، ونـــزاهتها، وقلة مبادرتها باستخدام ما هو متيسر لديها من معلومات، وإمكانيات لحسم مثل هكذا قضايا، ثم إن الأجهزة من جانبها لا تولي اهتماما بمتابعة مواضيع من هذا النوع أو ما يسمى بالحق العام، وتكتفي من جانبها بحفظ القضية ضد مجهول إلا في حالات قليلة تعد من بين الاستثناء.

المبحث الرابع

التقصير

إن كفاءة، وجدية المسؤولين عن ضبط الأمن في غالبية مفاصله التنفيذية، وعلـى ضـوء النـتائج المتحققة على أرض الواقع تبدو متدنية، لكن تحميلهم المـسؤولية كاملة مسألة غير منصفة لأنهم جهة تنفيذية ينبغي أن توفر لها الدولة المـستلزمات المهمة لحسن التنفيذ، كما إن اتهام الحكومة بكامل التقصير مسألة غـير منطقـية، لأن بعـض الوقائع تبين مثلا أن الحكومة الحالية، ومن قبلها الحكـومات الأخـرى بالتتابع لم تقف مكتوفة الأيدي فيما يتعلق بالأمن وقد حاولت جميعها بقدراتها الذاتية المتاحة، ونسقت مع قوات متعددة الجنسية على تحقـيق تقـدم في هذا المجال لكن قتالها في واقع الحال بأدوات، ووسائل"أفراد وأسـلحة، ومعـدات" كانت وما تزال غير كافية لتحقيق التفوق الحاسم على الخـصم[1]، وإنها من جانب آخر تقاتل في ساحة قتال أمني لم تكن فيها أقوى اللاعبين فالعملية الأمنية، والسلطة العسكرية في عموم العراق بيد قوات متعددة الجنسية.

كمـا إن القـول الفعـل في عملية التسليح والتجهيز، وأوامر نقل القوات، وتوزيع المسؤوليات هي كذلك بيد تلك القوات، وإن انتقلت بعض صلاحياتها في بعـض المحافظـات التي نقلت لها الصلاحية الأمنية فإن السيطرة الجوية، والحرب الالكترونية، والقدرة الاستخبارية ما تزال بيد تلك القوات.

(1) عندما أنيطت مسؤولية الأمن في داخل بغداد بالقوات العراقية بعد تسليم السلطة للعراقيين في مايـو 2004 قـسمت مـسؤولية العمل في بغداد لأغراض الحركات بين الأجهزة الأمنية، والعـسكرية فـي وزارتي الداخلية، والدفاع بأسلوب عمل، وقيادة لم يكن ملائما للحسم في سـاحة القـتال نتـيجة للاخـتلاف بين الوزارتين في متغيرات الاستعداد القتالي، والكفاءة، والولاء، ومستوى الخرق الأمني الموجود مما تسبب في وجود تنافس سلبي أخل في ظروف الـتعب، والإعـياء، وتدني المعنويات بالأمن في العاصمة بعد أن ساعد البعض من الآمرين بـتكوين حجج، وتبريرات لفشلهم في متابعة مسلحين مناوئين، وأفراد عصابات انسحبوا بقوة الـسلاح، وتـسللوا إلـى منطقة مجاورة ليست ضمن المسؤولية مكتفين بإدعاء طردهم أو تكبيدهم الخسائر الكبيرة بالأرواح، والسلاح كما تشير إلى ذلك البيانات الرسمية.

وعـــندما تـــتاح لهـــا الفرصة في أن تعمل فإن مؤشرات عملها توحي أن خـــبرتها، وأسلحتها قاصرة على حسم المواقف لصالحها، والحكومة الداعمة لها، ومـــن جانـــب آخر لم تستطع تلك القوات التخلص من داء المبالغة في تقدير الخـــسائر، وحساب الأرباح في ساحة القتال[1] الأمر الذي سبب لها، وللقيادة العـــسكرية والـــسياسية العليا بعض الإرباك في تقدير الموقف، ووضع الخطط، وطلـــب الإســـناد، والمعاونـــة من قوات متعددة الجنسية، وهذه معادلة لإدارة العمليات الأمنية إذا ما وضعنا في مجالها بعض الشخصيات التي اختيرت للقيادة، والتنفيذ على أساس المحاصصة، والعلاقات العامة التي أوصلت كبار سن وقليلي خبرة، وعديمي تحصيل إلى تحمل المسؤولية الأمنية نصل إلى قناعة أن الأهلية لم تكن كافية، وأنّ العديد من المعنيين غير مناسبين، وهذا وجه من أوجه التقصير لم يعد تأثيره السلبي يتعلق بالجانب الفني للخطأ، والجريمة بعد أن امتد إلى الجانب القيمي وستجد أن أعدادهم قد فاقت أعداد منتسبي الأجهزة الأمنية المكلفة بقتالهم، وأن الأسلحة المصادرة يمكـــن أن تجهز الجيش العراقي، والشرطة وربما تزيد عن ذلك بكثير مما يثير العديد من الأســـئلة، وعلامـــات الاســـتفهام عن: مصداقية تلك البيانات. الأعداد الفعلية للمـــسلحين المـــناوئين. والإرهابيين الفعليين، وهذه المبالغة التي تضر بحسابات الاســـتعداد القتالي لم تكن جديدة على الشخصية العسكرية العراقية بل كانت معهـــا منذ زمن يعود إلى غالبية المعارك، والحروب التي دخلها الجيش العراقي، وإلى بـــياناته الحـــادة عـــندما قاتل في كردستان، وعلى الحدود مع إيران، وفي الكـــويت الـــتي اعـــتادت قياداته الميدانية تضخيم خسارة الخصم بحدود كبيرة تـــريح القـــادة الكبار، وتربك القادة الصغار، وتضر بالمحصلة في سياقات إدارة المعركة.

إن اســـتخدام السلاح كوسيلة لفض الصراع، والاحتكام إليه معيارٌ للقوة في التهديد، والضغط على رموز الدولة، والقانون حتى أخذ اصطلاح حلال المشاكل

(1) لو تتاح الفرصة إلى جهة بحثية موثوقة أن تحصي بحيادية، وعلمية أعداد المقتولين، والملقى القـــبض علـــيهم، وقطـــع الأسلحة المستولى عليها، والعتاد حسب البيانات الرسمية لوزارتي الداخلية، والدفاع.

في عديد من التجمعات، والمناطق السكنية[1].

إن الســلاح الــذي ترك عمدا بيد المواطنين بعد أن سمحت قوات الاحتلال رسمــيا بحيازة بندقة آلية "كلاشنكوف" ومسدس وضع العراقيين في دوامة العنف خاصــة مع ضعف أجهزة الشرطة التي اعتادوا الاحتكام إليها في حالات الخلاف، والــشجار الذي يفوق قدرتهم، والقريبين على الحل، وفي ظل هذا الواقع اتجه إلى اســتخدامه الكثيرون من أبناء المجتمع لأتفه الأسباب، وباتت معايير القوة، والتأثير

(1) حلال المشاكل في الأصل وصف شاع في العراق عند سيدات الأجيال السابقة يتعلق بالدعوة مــن الله تعالــى أو مــن الإمام الكاظم عليه السلام بطلب حاجة ومعها وعدٌ "نذر" أن توزع للــناس عند تحقيقها ما يسمى بحلال المشاكل الذي يكون في العادة خليطاً من أشياء معظمها من السكر ومعه الزبيب، وهو نوع من النذور يقتصر على النساء، رخيص من حيث الثمن، بــسيط في تكوينه بمستوى يتلاءم وبساطة أيام زمان، أوجدته حاجة السيدات غير المتعلمات للاطمئــنان النفسي في التعامل مع ضغوط الحياة، وعوامل المجهول، وهذا النوع من النذور كــاد أن يختفي في نهاية سبعينات القرن الماضي في المدينة وبين المتعلمات، وما تبقى منه حتــى الوقت الراهن يحدث أغلبه بالريف، وبين المسنات من سكنته، والمناطق الشعبية. لكنه عــاد إلــى الظهــور بمنطق آخر وتبعا لحاجة من نوع آخر لا يتعلق طلبها من الخالق ولا بالترجــي من الأئمة، والأولياء الصالحين للتدخل في تحقيقها، بل وباستخدام القوة في فرض تحقــيقها، إذ حــدث في بداية شهر نيسان 2004 في إحدى المدن القريبة من بغداد أن توجه رئيس البلدية لفرض هيبة الدولة في شوارع مدينته وأول إجراء في مجالها إلزام المتجاوزين علــى أرصفة الشوارع بتركها، وإنهاء التجاوز، وكان مــن بيــن المتجاوزين نائب ضابط فـــي الجــيش القــديم أرهقته ظــروف العيش الصعبة، فتوجه إلى البيع المباشر لحاجيات مخــتلفة يضعها في (جنبر) حجز له على أحد الأرصفة مكانا لا يزيد عن المترين المربعين، فتــصادف أن يكــون أول المواجهين لإجراءات البلدية التي أشعرته بالحيف، والإحباط من قــسوة الحــياة التــي لم تترك له خيارا في الكسب سوى هذه الطريقة البدائية، فزادت شدة العــدوان في داخله بسرعة دفعته للتوجه إلى البلدية مؤكدا لزملائه البائعين أنه سيحسم الأمر عــن طــريق حــلال المــشاكل، وبعد وصوله بنايتها دخل غرفة رئيسها عنوة رغم وجود الحرس، مؤكدا له بانفعال شديد، ودون مقدمات أنه كان نائب ضابط في الجيش احتفظ لذكراه بقاذفــة كان قد استخدمها ضد الدروع أيام الحرب العراقية الإيرانية، وإنه مستعد لاستخدامها ضــده، والبلدية إذا ما تهدد مصدر رزقه الوحيد، عندها تصرف المسؤول الحكومي بحكمة عــندما تــيقن بجدية المعني في استخدام القاذفة في ظروف الانهيار النفسي شبه التام، فأمر المراقبين على الفور أن يبقى النائب الضابط، وآخرون في أماكنهم على الرصيف ناصحا إياه أن يسلم قاذفته إلى الجهات الرسمية لأنها وبقدر مساهمتها في حل مشكلته الحالية ستدخله في مشاكل قد لا يجد لها حلا في المستقبل المنظور.

تقاس على عدد البنادق الموجودة عند الجماعة والعائلة، وفي البيت الواحد.

إن وجود السلاح في البيت، والمحل، والجامع، والحسينية أفقد الدولة، وقوات متعددة الجنسية إمكانية السيطرة عليه إلى مستوى بات استخدامه علنا في مناسبات عادية لمباراة في كرة القدم حتى من الموجودين في المنطقة الخضراء، وعلى مقربة من قوات متعددة الجنسية في بعض الأحيان دون أن يلام مستخدمه في هذه المنطقة الأمنية المهمة.

هذا من جهة المواطن أما من جهة الدولة فإن الحالة تعبر عن إحساس العديد من المسؤولين في أجهزتها أنهم وحدهم في ساحة المواجهة مع الخطأ والتجاوز.

وأن الدولة بكل مفاصلها، وأجهزتها غير قادرة على دعمهم، وحمايتهم عند التوجه لتقويم الخطأ، كذلك تَصَدُّعْ العلاقة الوطنية بين الفرد"المواطن" والرموز الوطنية "الموظفين المعنيين" وشيوع عدم تحمل المسؤولية الوطنية في ظروف هي الأحوج لتحملها من أجل إزالة الخطأ، والشروع في عملية البناء التي تنم عن قصور في عملية الحسم لما يجري من خلل، وتجاوزات.

وفي متابعة لهذا الموضوع يتبن أن حلال المشاكل (سلاح القاذفة) مصطلح قد شاع استخدامه بين أوساط اجتماعية تحتل الشارع العراقي، يعبر وجوده الفعلي عن استعداد البعض لاستخدام القوة المسلحة ضد أجهزة الدولة لتحقيق غاياتهم الخاصة، وعن عدم انضباطهم، وكذلك تمردهم على الدولة وأجهزتها، واختلال مفاهيمهم الخاصة بسلطتها في تنظيم وإدارة المجتمع.

المبحث الخامس

الاضطراب

إن مشكلة الخلل أو الاضطراب الأمني، والسياسي، والاجتماعي في الوقت الراهن معقدة لم يكن محور ظهورها أو مؤشرات حصولها تتعلق بأداء الشرطي البسيط في مركز الشرطة، وفي دوائر المرور، ودوريات النجدة، ولم يكن كذلك مرتبطاً فقط بأداء الجندي المحدود في نقطة السيطرة، وفي بعض العمليات القتالية، بل وأصبحت حالة ارتبكت فيها أعمال السياسة، والإدارة.

واختلت معطيات العلاقات العامة، والمعنويات بطريقة تداخلت أو تفاعلت مع بعضها البعض لتنتج وضعا نفسيا قلقا لدى الكثير من منتسبي الشرطة، والجيش المساهمين في القتال المباشر، والذين ينتظرون في ساحات التدريب عندما وجدوا بسبب ذاك التداخل:

1. أنّ قوهم أقل من قوة الخصم "الإرهابي، والمسلح المقاوم، ورجل العصابة، والمخالف، وعضو المليشيا، والساعي إلى أخذ الثأر، والانتقام، وغيرهم" لأن التسليح المصرح به للوحدات العسكرية التابعة للجيش، وللداخلية أبقي في حدود الأسلحة الخفيفة حتى نهاية عام 2005 لكن فرقة مدرعة قد تشكلت بعد ذلك التاريخ، وألوية من وزارة الداخلية استلمت عربات نقل مدرعة فيها بعض الأسلحة المتوسطة.
2. أنّ التعامل معهم يتمّ من الأعلى بطريقة غير متوازنة في مسائل التقدير، والثقة، والترقية، وتوزيع المناصب، والمهام بعد أن تعمدت القيادات السياسية التي تناوبت على الحكم من زمن بريمر، ومن بعده العراقيين المحكومين بتراكمات الماضي في النظرة الخطأ عن العسكر والأمن، وانعدام الخبرة، إغفال أصول التعامل المهني، والفني مع العسكر، ورجال الأمن الأمر الذي دفع بعضهم على سبيل المثال إلى منح رتبة ضابط إلى كثير من الجنود، والشرطة، والمدنيين الذين لم يجتازوا الدراسة المتوسطة.

وترقية ضباط إلى رتبة أعلى دون معايير مهنية كانت معروفة للعسكر تجاوز فيها الوزراء المعنيون كثيرا من أصولها بعد منح القريبين منهم، وأعضاء فاعلين في أحزابهم أربع رتب أو أكثر مرة واحدة أحيانا، صعد فيها البعض من رتبة ملازم إلى لواء ارتكب فيه صاحب الأمر أخطاء جسيمة تتعلق بالتقليل من قيمة الرتبة العسكرية التي بات الكثير من الضباط المحترفين لا يميلون إلى حملها، والمراتب لا يحترمون وجودها، وتتعلق كذلك بالقفز من على موضوع الخبرة في إسناد المهام إذ إنّ ترقية ضابط من ملازم إلى لواء على سبيل المثال تلزم الوزير أن يسند له منصبا يوازي الرتبة، وعند إسناد هذا المنصب لهذا اللواء الذي يحمل في الواقع خبرة، وكفاءة ملازم يعني إسهام ذلك الوزير بإعاقة

العمل، وتخريب العملية الأمنية في أحد أهم جوانبها الإدارية[1].

3. أنّهم وحدهم في مواجهة الخصم، وباقي العراقيين سلبيون أو متفرّجون، والسياسيين وإن كانوا منقسمين بين مؤيد، ومعارض، ومحرض يعيشون جميعا في واحة آمنة داخل المنطقة الخضراء لا يقوون على صياغة قانون يدعم الموقف المتأزم في الميدان، ويقيهم كمقاتلين الآثار الجانبية لأخطاء القتال غير المتعمدة، أنّهم مكشوفون استخبارياً يحسون الضعف، ويميلون في بعض مواقف التهديد إلى الانسحاب من المواجهة أو التودد[2] إلى مصدر التهديد أو الوقوف على الحياد بينه من جهة وبين الدولة من جهة أخرى أو الانحياز الانتهازي له في بعض الأحيان بعيدا عن التفكير بالولاء المفروض للعراق. وأنّهم وحدهم في تحمل المسؤولية حتى في ما يتعلق بأمنهم الشخصي المباشر الأمر الذي يؤكده عديد من الوقائع التي حدثت خلال المرحلة السابقة[3].

---

(1) ترك بريمر مشكلة تتعلق بمنحه رتبا عسكرية لغير مؤهلين ازداد عددهم في الحكومة المؤقتة الأولى فشكلوا معضلة لوزيري الدفاع، والداخلية منذ العام 2004 فحاولا تقديم العديد من المقترحات لمعالجتها بينها منح بعضهم التقاعد، أو وظيفة مدنية، وتأهيل من يحملون شهادة جامعية كضباط من خلال دورات قصيرة الأمد، لكن عموم هذه المقترحات لم يكتب لها النجاح لعدم تفهم الأعلى تأثير وجودهم السلبي في الخدمة الأمنية، والعسكرية أو لتعاطف المسؤولين مع وجودهم لأسباب سياسية، وطائفية أو لعدم رغبة السياسيين في المستوى الأعلى إصدار قرار يمكن أن يثير مشاكل قد تكبر عن طريق الاحتجاج فتثلم من النفوذ، وحب التوسع الجماهيري على حساب الحق العام.

(2) كانت أجهزة الشرطة تشكو عام 2004 من خرق أمني يتمثل بوجود أعضاء من عصابات، ومطلوبين للقانون بين صفوفها، وبعد تطور الأحداث التي أنهكت قدراتهم الضبطية، والقتالية، وحصول بعض المليشيات على قوة دفع خارجية، وتهاون سياسي داخلي بدأ البعض من المنتسبين في الشرطة، واقل منهم في الجيش الانتساب إلى تلك المليشيات في السر والعلن، وباتت سلطة المليشيا في بعض مفاصل القيادة الدنيا على وجه الخصوص "من آمر الحضيرة صعودا حتى آمر الفوج" أكثر تأثيرا على المنتسب من آمر الوحدة، والمديرية، والتشكيل، عندها تشكلت أكبر عملية خلل للأمن في جسم الأجهزة المعنية، وضعتها في دوامة الاختراق.

(3) قُتلَ في نهاية أيلول عام 2004 تسعة وأربعون جنديا من الحرس الوطني ليلا على طريق عام قرب مندلي، كانوا قد أنهوا دورة تدريبية يفترض أن يتمتعوا في نهايتها بإجازة اعتيادية فيزورون الأهل، والأحبة، يتهيئون من بعدها لحياة عملية كحماة للوطن، والمواطن من القتل، والتدمير، فكان منحهم الإذن أو الإجازة ليلا لا يتفق والحس الأمني ويؤشر إلى عدم المشاركة في

لقـــد أصـــبح العـــسكر الجديد، منتسبو الشرطة أهدافا للإرهابيين، وبعض المـــسلحين، وكثرت حوادث قتلهم، ونصبت الكمائن على طرق تنقلهم، وكانت الخـــسائر بـــين صفوفهم ليست قليلة، وإذا ما تركنا في مجال مناقشتها قادة الجيش الجديد، وتحسباتهم التي غابت مع غياب جيشهم السابق، وتجاوزنا مسائل الضبط، والمعـــنويات الـــتي انتهت، والقيم، والمعايير العسكرية التي أهملت، وحاولنا العيش تخيلا مع كل ضحايا العسكر لحظات إنـــزالهم من السيارات، أو سحبهم من بين عوائلهم، أو اختطافهم من المواقف العامة مغلوبا على أمرهم، ورصهم على الأرض رغمـــا عنهم، ومن ثم إطلاق النار عليهم من الخلف في غفلة منهم، عندها ستقفز من على ذاكرتنا أسئلة غير الأسئلة التي سألها الأهل، والزملاء القريبون أو تلك التي لم يلحـــق أن يسألها المغدورون تتمحور حول الأثر الذي سيتركه هذا الحادث في نفـــوس الآخـــرين من العسكر والزملاء، والتصورات التي ستتكون في عقولهم عن البقاء وحدهم في الميدان؟

وهـــذه وقائـــع وأسئلة تدفع إلى التأكيد على أنها تعزز عند المنتسبين الاقتناع

تحمـــل المـــسؤولية، إذا مـــا أخذنا بعين الاعتبار أنهم في معسكر مع غيرهم من جنود وقد توجهوا بعد انتهاء برامجهم التدريبية، وحصولهم على الإجازة للاتفاق على المغادرة جماعيا فكـــان صـــعودهم إلـــى حافلات من نفس المعسكر، وخروجهم بها أشبه بالرتل لا يدلل على وجود أية ضوابط أو سياقات إدارية، ويثير في نفس الوقت سؤالا عن دور الآمر في العملية. وجنود بهذا العدد أكملوا فترة التدريب من حقهم على الآمر الأعلى، والجيش الذي سيخدمونه أن يرســـل معهم قوة مسلحة، أو أن يسلح السيارات التي تقلهم، إذا لم يكن باستطاعته منعهم من الخروج في تلك الليلة.

وإذا كـــان الآمـــر غافلا، ومن بعده المساعد نائما، وضابط الأمن مطمئنا، وقد ترك المجني علـــيهم ذلـــك المعسكر على مرأى المنتسبين، ودون موافقة الآمرين فعلى القادة في الجيش الجديـــد أن يسألوا عن أي جيش يريدون، وعن العلاقة العسكرية بين المافوق والمادون التي يـــودون، وعـــن الكيفـــية التـــي علم بها أهل الكمين بخط سير المنكوبين، وعن الوقت الذي استغرقه الكامنون للتحضير لغدر جنود غير محظوظين.

وحادثـــة أخرى بنفس الاتجاه إذ قُتلَ عقيد من وزارة الدفاع في شهر آب 2006 أمام بيته في منطقة الغزالية عجزت دائرته، ووحدات من الوزارة عن إخلاء جثته ليومين متتالين كان فيها مـــركونا أمـــام عائلته التي لا تستطيع التقرب لسحبه إلى داخل البيت، ولا تتمكن دائرته من إرسال قوة لإخلائه حتى غادر المسلحون الذين ارتكبوا عملية الاغتيال المكان.

بوحدة البقاء في الموقف الخطر، وسهولة التخلي عنهم في الموقف الصعب.

وستثار أسئلة أخرى تخل بالوضع المعنوي بين المقاتلين، وعوائلهم، وباقي الناس العاديين عن المدى الذي سيتجه إليه القتل وسيلة للتعامل مع الأزمة، ودور السياسة في تجنبه بين أهل الدار؟

وعن وقوف الأهل، وفرجتهم على ما يجري في محيطهم، والبلاد، وعجز أهل السياسة عن إيقاف التصاعد في مستويات القتل العمدي للعباد؟

وفشل الأقمار الصناعية، ووسائل الاستشعار التي كانت تسجل حركة النملة في صحراء مقفرة قبل المجيء إلى العراق؟ وعدم فاعلية الأجهزة الأمنية التي شكلتها الحكومة، وقوات الحلفاء في كشف الجريمة أو الحيلولة دون وقوعها، وتفكيك الخلايا المسلحة؟

وعن المارة، والمستطرقين، وقيم الحمية العربية، والتغني بالمجد، وأيام زمان؟

وعن الأحزاب، والحركات السياسية التي مازالت تتكاثر، وتتغافل، وتتآمر، وعن غرق أعضائها في وحل الفساد؟

وغيرها أسئلة لم يجد المقاتل في ساحة الجريمة، والإرهاب من يساعده على الإجابة عنها فيستنتج: أنه أبقي وحيدا في الميدان، وهو استنتاج أخل بالمعنويات، والحالة النفسية للعسكريين، والمدنيين في آن معا.

الفصل الثالث

شمولية المحنة

إن خطأ السياسيين والمسؤولين الحكوميين والناس العاديين يؤشر دخول العراقيين في دوامات محن شملت معظم جوانب الحياة.

يــتكون الأمـــن الإنساني في أي مجتمع من المجتمعات من امتدادات ثلاثة تتصل إحـــداها بالـــسياسة فيعبر عنها بالأمن السياسي، والثانية بالاقتصاد فيعبر عنه بالأمن الاقتـــصادي، والثالـــثة بالحالـــة النفسية العامة للمجتمع فتوصف بالأمن النفسي، أو الاجتماعـــي، وهـــذه امتدادات أي تكوينات للأمن تؤثر الواحدة منها في الأخرى، وتتأثـــر بهـــا للحد الذي يمكن فيه القول إنّ اضطراب الوضع السياسي في البلد يؤثر مباشرة في حالها الاقتصادي، واضطرابهما معا يؤثران حتما في الوضع النفسي المعنوي للمجتمع حيث التوتر، وعدم الاستقرار وربما القلق والكآبة، والعكس صحيح أيضاً إذ إنّ المجـــتمع الـــذي يعاني أفراده من خلل في الجوانب النفسية أو تصدع في المفاهيم القيمية، سوف لن يكون قادرا على صنع سياسة مستقرة للبلد أو من إنتاج اقتصاد يؤمن حاجات العيش بالمستوى المطلوب، وللتدليل على شمولية المحنة سنأخذ الأمن الاجتماعـــي مثالا لسعة التأثير في مجاله، ويقصد به هنا مجموع الضوابط، والقيم، والمفاهيم المتاحة في العقل الجمعي التي تساعد الأفراد، والجماعات على التعامل مع الضغوط الموجودة بما يحول دون إحساسهم بالعيش في حالة التوتر، والاضطراب، الإخلال بها يعني تصدعا في النظام القيمي الذي يخل بالأمن الاجتماعي.

والقـــيم مـــوجهات للـــسلوك أدركت البشرية معطياتها من خلال التفاعل الاجتماعـــي طويل الأمد، خضعت فيها للتأطير، والتعديل، والتحوير حتى وصلت إلى مستوى من القبول أو الرفض يدفع الغالبية إلى الالتزام بها كمعايير تمثيل نفسي

داخـــل الفـــرد لآثار المجتمع، والثقافة، وهو تمثيل يحدد الاستعداد للتصرف بشكل معـــين يلتـــزم بحـــدوده الناس أو معظمهم فيشكل نظامهم القيمي، الذي دعمت وجـــوده الأديان السماوية، وعززته الأقوام، والجماعات، والهيئات، والمؤسسات، والمـــنظمات بمستوى قلل نسبيا احتمالات التباين والاختلاف، والصراع في النفس البـــشرية، سعيا لأن يعيش الإنسان بقدر معقول من الرضا والاتزان"الأمن"، وعلى أســـاس هذا التعريف، نرى أن الكثير من الوقائع التي حدثت في سياقات السلوك الاعتـــيادي داخل المجتمع العراقي تؤشر مسا أو خرقا بالأمن الاجتماعي بينها على سبيل المثال طالب في الثانوية يتظاهر مع زملاء له بعد استلامه النتيجة غير المرضية احـــتجاجا على صعوبة الأسئلة مؤكدا حقه في التعبير عن الرأي بحرية، يذهب بعد إتمامهـــا مع صديق ثالث للتحضير معا لوسيلة يجتازون من خلالها الامتحان الذي يلي بطريقة غش تخل بالمعايير القيمية، والوضع الاجتماعي.

ومـــلازم في الجـــيش العراقي قد أحيل على التقاعد في ستينات القرن الماضي لعدم توافقه، والنظام القائم آنذاك حضر إلى مركز التطوع يتكئ على عصا مطالبا إعادتـــه إلى الخدمـــة العسكرية برتبة أقرانه المستمرين بها لأسباب سياسية دون أن يتحسب إلى حاجة الاضطراب الشديد للوضع الأمني في العراق للشباب في مقتبل العمر لمقارعة العدو في ساحة القتال، وإلى فرص عمل تلهي الشباب، وتنقذهم من آفة البطالة، وتجنبهم الانـــزلاق في وكر الجريمة التي تخل بالأمن الاجتماعي[1].

وأستاذ لمادة الباطنية بكلية طب بغداد ينتقد الوضع الحاصل بعد التغيير في كل

---

(1) لقـــد أحـــيل على التقاعد منذ عام 1968 كثير من الضباط لأسباب عدم توافقهم مع النظام أو لعـــدم انـــتمائهم إلى حزب البعث العربي الاشتراكي، وهم في الحالة هذه مشمولون بالقوانين التـــي تصنفهم ضمن المتضررين السياسيين من النظام السابق ويستحق العديد منهم احتساب ســـني التقاعد الماضية لأغراض الترفيع، والتقاعد، لكن المسألة من الناحية العملية تصطدم بكـــون الإعـــادة إلى الخدمة تتطلب شروط اللياقة، والعمر وإعادة مثل هؤلاء الضباط يعني تـــشكيلاً جديداً من الألوية، والفرقاء. ثم إن بعض الضباط قد أحيلوا على التقاعد لأسباب لم تكـــن سياسية راجعوا مراكز التسجيل لاحتسابهم كذلك، وهناك أيضاً مئات الضباط، وآلاف الجـــنود، وضـــباط الـــصف الذين يكافحون للعودة إلى الجيش الجديدة ليس للخدمة الوطنية، وتأديـــة مهـــام القتال بالضد من الإرهابيين، بل ولتعديل الراتب، وضمان تقاعد آخر العمر، والفرصة متاحة لتحقيق ذلك بسهولة.

جلساته مع الأهل، والأصدقاء مؤكدا بانفعال، وعصبية أن التردي قد وصل حدا لا يحتمل في مجال الفساد على وجه الخصوص، وهو ما زال يعطي حتى الامتحانات النهائية لسنة 3005 دروسا خصوصية لتقوية طلبته، خاتما محاضرته الأخيرة بتوصية لهم أن يضع الواحد منهم إشارة على آخر سؤال يجيبه يتفق معهم على نوعها، وعلى شرط قوامه إن زاد عدد الإشارات على عدد الطلبة الحاضرين محاضراته الخصوصية، دافعي الأجر بسخاء سيهمل كل الدفاتر الامتحانية التي تحمل تلك الإشارات، دون أن يؤمن ولو مرة واحدة أن ما يقوم به وهو الطبيب الاختصاصي، والأستاذ الجامعي قمة التخريب، والفساد الأخلاقي، والاجتماعي.

وضابط تمرس العمل جيدا في شرطة المرور مكلف من قبل الجهة الحكومية التي يمثلها طبقا للقانون أن يكافح المخالفة في ظروف العراق الصعبة، ويضبط التجاوز على قوانين المرور، كلف بقيادة مفرزة، وفي تكليفه هذا يجلس في إحدى سياراتها على انفراد، يأمر شرطيا معه باصطياد السيارات التي لا تحمل أرقاما وهي تمر قريبا منه في طريقها إلى إكمال عملية التسجيل الأصولي في المديرية العامة للمرور، يلقي على السائق الواقع في الفخ "بعد صيده" محاضرة عن مخالفته تعليمات المرور في التجوال بسيارته بلا أرقام، ثم يأمر الشرطي بتحرير المخالفة فيتعاطف الأخير مع الضحية في تمثيلية يتوسل فيها أي الشرطي إلى الضابط لحسم الأمر لقاء عشرة آلاف دينار دون أن يفكر يوما أن فعلته هذه تمهيد لاضطراب الأمن، وإخلال بكل قوانين المرور، وبالقيم المهنية.

وموظفة شابة توسطت مدير شركتها لتعيين صديقتها في أحد أفرع الشركة وهي الصديقة التي تمتلك خبرة جيدة، وتجيد لغة ثانية غير لغتها العربية، مدعية أنها تفعل ذلك تحت بند الإخلاص فوافق المدير شرط أن تلائم كفاءة المرشحة ما تريده الشركة، وشرط أن يقابلها بنفسه للتأكد من ذلك شخصيا، وبعد اختبار الكفاءة، ومقابلة لا تزيد عن عشر دقائق، وافق المدير على تعيينها في مكتبه، وفي أول يوم دوام جاءت الصديقة إلى صديقتها مهنئة لها بالمباشرة، مشيرة إلى الدور الذي لعبته وإلى حقوق الصداقة، مُذَكِرةً إياها في نفس الوقت أن لا تنسى هديتها، وهديتها في الحالة هذه ربع الراتب الذي ستستلمه أول الشهر لمدة عام، مؤكدة أن هذا هو

العــربون الفعلي للصداقة، بعيدا عن المجاملات، والأعراف الاجتماعية، هذا والأمر لا يــتوقف عند هذه الحدود فهناك الكثير من معالم الخطأ، والتجاوز بين المدراء، وكبار المسؤولين، وأرباب الأسر، والكادحين[1]، وغيرهم يؤشر حدوثها، ونسب تكــرار الحدوث إلى تصدع النظام القيمي كعامل مساعد لخرق الأمن الاجتماعي بدأت أولى معالمه إبان الحكم السابق، وامتدت إلى ما بعده بمستوى بات يؤثر في أمن المــواطن، والمجــتمع، ويتأثر به خاصة وأن مستوى الخلل الحاصل فيه قد ترك بصماته واضــحة علــى السلوك العام، وعلى خصائص المجتمع العراقي التي تشكو أصلا من التــصدع خلال الثلاثين سنة الأخيرة التي لم تلتفت فيها السلطة الحاكمة إلى الإنسان، وحاجاتــه القيمــية، وتركته رهينة ظروف الحصار، والفقر، والعوز تنهش فيه حتى أنهكته، وقدمته ضعيفا إلى مرحلة ما بعد التغيير التي أكملت عليه في جوانب عدة كان أكثــرها وضوحا ما يتعلق بقيم كانت موجودة، وتضاءلت نتيجة للتفاعل الاجتماعي طويل الأمد مع الخطأ الموجود، ومنها يمكن استنتاج الآتي.

1. إن تحولات في المفاهيم قد حدثت في العقود الثلاثة الأخيرة إذ حلت على سبيل المــثال المادية النفعية بدل التكافل، والدونية أو ضعف الحياء بدلا من الاعتزاز بالــنفس، وشــاعت الاستهانة بالوعي الإنساني، والإحساس بالعجز واليأس، واللا مسؤولية.
2. نتــيجة لتكرار مسارب تلك التحولات لفترة طويلة بدأت تتلاشى من النظام القيمــي العراقــي الألفــة والمودة، والتسامح، وحسن النية، وروح الجماعة، والتــضحية تدريجــيا وبسببها أحس الكثيرون بالضياع، الأمر الذي مهد إلى

(1) اتّهم بعض المدراء العامين في الدوائر الحكومية بوضع سعر محدد لقبول توظيف أو الموافقة علــى إعادة تعيين موظف كان مفصولاً سابقا، وقد وضعت تسعيرة محددة منذ العام 2003 وما بعده للقبول في سلك الشرطة، والجيش على سبيل المثال تزيد، وتنقص حسب العرض، والطلــب، والقــدرة على الدفع في بعض الأحيان، ويتداول بعض منتسبي وزارة الدفاع في الــوقت الــراهن"إدعــاءات غير موثقة" أن عشرين ورقة أي ألفي دولار تضمن التعيين في الــوزارة، وبأي مكان مطلوب. وفي نهاية عام 2005 ذكر موظف منقول من خارج العراق أن مــوظّفاً بمكــتب رئــيس الــوزراء طلب منه سبعة آلاف دولار ليعيده بكتاب من رئيس الــوزراء إلى مكانه السابق، وقد اتفقا، وقدم الموظف طلبا أكد له من في المكتب أنّ موافقة رئيس الوزراء قد تمت، وأنه سيصدر أمر الإعادة حال حصوله على المبلغ المتفق عليه.

الانحـــراف باتجـــاه السلب إلى حدّ أثار الفوضى والاضطراب، وعدم الارتياح لشريحة ليست قليلة من المجتمع العراقي.

3. إن الانحـــراف الـــذي بدأ في المجتمع العراقي ساعد الخلل في الجانب السياسي والاقتـــصادي على زيادة شدته مما أدى إلى تصدع النظام القيمي، وفي ظله تم تناســـي معايير الحرام وساد التجاوز على المال العام، واختلت الروح الوطنية، وتدنت مستويات الأمانة، والاستقامة، والتواصل، والتواد، والتراحم، وغيرها مـــن معـــالم التـــصدع التي شعر بسببها الغالبية بالتوتر وعدم الاستقرار أي اضـــطراب الأمن النفسي، ساعدت على سرعة تحقيقه عوامل مثل الاستعداد القيمـــي المسبق، وفقدان القدرة على التدخل، والضعف الحاصل في مستوى النضج السياسي التي ستناقش تباعا في المباحث التالية.

المبحث الأول

الاستعداد

لمعـــالم الحـــياة جميعا قيمها، وللسلوك في مجالها خصائصه، وحدوده، وعلى أساسها أصبحت على سبيل المثال:

للعائلة قيم تشكل طبيعة وجودها، وأسس التعامل بين أفرادها.

للجيرة ضوابط تحدد أصولها.

وللعمل في الحقل أو المعمل، وكذلك التدريس في المدرسة، والجامعة، والقتال في ساحة المعركة معايير تحدد طبيعة السلوك في محيطهم.

وغيرها مجالات أخرى في الحياة لها جميعا معايير تضبط سياقاتها، وعلى نفس الأسس باتت لأنواع السلوك تحديداتها التي بموجبها يصنف الأداء البشري بالجودة أو الرداءة، وتعزف الاتجاهات، والميول بالسلب أو الإيجاب.

إنهـــا قيم، ومعايير أي ضوابط شملت جميع جوانب الحياة البشرية كان البعض مـــنها مكـــتوبا، والبعض الآخر تتناقله الأجيال شفاها بصيغ الاتفاق الجمعي شبه المـــوروث، أسهمت جميعها في تنظيم جوانب الحياة، وضبط السلوك البشري، ما يهـــم العـــراقيين مـــنها في هذا الوقت الحرج ذلك الفصل الذي يتعلق بالسياسة،

وبالتحديد ما له صلة بالعملية السياسية الجارية، والتي لم تنضج بسبب:

1. الخلـــل الأمني الذي يعيق وجوده كل جهود التطور، والاطلاع على الخبرات، والمعارف التي أتيحت في ظروف ما بعد التغيير.
2. قصر الوقت المتاح أو الكافي لإنتاج قيم، ومعايير مكتوبة يلتزم بها الراغبون في المـــشاركة، والساعون من أجل المشاركة، أو خزين من التجربة الإيجابية يدفع بالاتجاه الصحيح خاصة وأن السلوك يُؤَدى في الموقف المحدد من خلال التفاعل بين الخزين الموجود في عقل المعني، ومتغيرات الظرف الموجود.

إن تعمـــيم هـــذه الحقيقة العلمية على ما يجري في العراق يعطينا تصورا أو تفسيرا لطبيعته ومنه يمكن استنتاج الآتي:

1. إن الظـــروف غـــير الملائمة قد استثارت أو قدمت الخزين السلبي للتعامل مع مواقف حياة في غالبها سلبية، فزادت من سعة الخطأ.
2. هناك استعداد قيمي مسبق في الأصل عند إنسان هذه البلاد لقبول القيام ببعض الأعمـــال غير المألوفة[1] نأخذ منها النهب على سبيل الاستدلال بعد أن شكل أول بـــادرة خرق غير مألوفة أثناء وما بعد التغيير إذ لو عدنا إلى بعض وقائعه

---

(1) إن الـــنهب، والـــسطو عادة بدوية قديمة تعبر عند سكنة الصحراء عن الرجولة، والشجاعة توارثـــتها الأجـــيال عبر الزمن، وصلت بعض آثارها العراق منذ القدم، واستمرت إلى نهاية خمسينات القرن الماضي يوم كانت العشيرة تفتخر أن من بين شبابها رجال ليل، ورجل الليل هـــو الذي يقوم بالسطو على عشائر، ومناطق أخرى غير منطقته، كما أن العوائل في الريف حتى ذلك التاريخ كانت تفضل زواج بناتها من رجال الليل، وتفتخر بهذا الزواج، ومع ذلك لا يـــصح الحكـــم بـــشكل مطلق على بعض معالم السلوك غير التوافقي المتوارث بمعزل عن الظـــروف المحـــيطة، إذ إنّ الـــنهب الذي أوردناه مثلا عن الخزين أو الموروث في العقل العراقـــي يمكـــن أن يعطـــي تصورا عن تكراره عبر التاريخ الذي يدعم وجوده في الذاكرة البعيدة، لكن مثله لا يمكن أن يشكل مثيرا كافيا لدفع المعني لارتكاب التجاوز أي النهب إذا لم تتوفر الظروف البيئية المثيرة، كما إن هناك حوادث في التاريخ العالمي الحديث وفرت فيها البيـــئة ظـــروفاً ملائمة لارتكاب النهب سارع فيها البعض إلى ارتكاب فعله وإن لم يكن في مـــوروثهم الحـــضاري قيم للنهب كما حصل في نيويورك يوم اطفئت الكهرباء في محيطها، وعـــم الـــنهب، والتخريب، وكذلك في مصر في سبعينات القرن الماضي إبان حكم الرئيس السادات الذي اندفع فيه الجمهور إلى أعمال نهب وتخريب للمحال التجارية، وأماكن اللهو في شارع الهرم على وجه الخصوص.

التي حصلت خلال وبعد 2003/4/9 كنوع من أنواع السلوك التي تحدده بعض القـــيم، وقارنا بعض أحداثه مع وقائع في التاريخ الحديث، والقديم لوجدنا أنه سلوك تكرر في المجتمع العراقي مرارا في الأعوام:

1948 مع اليهود العراقيين في بغداد على وجه الخصوص.

1958 مع العائلة المالكة إبان الانقلاب العسكري في 14 تموز.

1980 في المحمرة إبان الحرب العراقية الإيرانية.

1990 في الكويت بعد عملية الغزو التي دخلت المؤسسات الحكومية فيها آنـــذاك طـــرفا في الـــنهب المنظم لمؤسسات الدولة الكويتية المماثلة تبعها البعض من المسؤولين العسكريين، والإداريين ومن ثم الناس العاديون.

1991 مع عموم مؤسسات الدولة إبان الانتفاضة حيث الاستباحة الواسعة لكل مؤسسات الدولة، والقطاع الخاص.

وآخرها عام 2003 بعد دخول القوات الأمريكية بغداد التي ساعدت على حصوله[1].

---

(1) أشـــارت وســـائل الإعلام، وعديد من الروايات التي تناقلها البغداديون على أساس المشاهدة المباشرة إلى أن قوات الاحتلال سمحت، وشجعت عموم الناس على التجاوز على المال العام مؤكدة أنّ مخازن، ومحالاً تجارية، وغذائية، ودوائر حكومية كانت مغلقة قد فتحت عنوة من قـــبل دبابـــات أمـــريكية ثم نودي على المتفرجين بمصطلح شاع استخدامه آنذاك (علي بابا) للدخـــول والنهب، كذلك وثقت كاميرات التلفزيون قيام العديد من الشباب، والنسوة، والأطفال بحمـــل أجهـــزة، وأثـــاث، ومعدات من دوائر ومؤسسات، وبيوت دون أن تتدخل الدوريات الأمـــريكية القريبة، ومع ذلك فإن هذه القيمة القديمة التي اقترنت بتسمية (الفرهود) يبدو أنها مـــا زالت تحتل حيزا من المفهوم القيمي العام عند العراقيين(8) يظهر تأثيره في حال فقدان الـــسيطرة، وضـــعف الأجهزة الضابطة أي توفر الظروف البيئية المناسبة، هذا وإن القوات الأمريكية المحتلة لم تستطع أن تثبت حياديتها في هذا الموضوع إذ وفي نقاش عرضي جرى مع ضابط أمريكي خدم مع قوات المارينـــز التي دخلت بغداد إبان الاحتلال رد أسباب عدم تـــدخل الجيش لمنع هذه العمليات التي توسعت تدريجيا حتى أخذت سلوكا هستيريا عاما إلى أن الجـــنود ملتـــزمون بأوامر قتال محددة لم يكن من ضمنها التدخل لمنع هكذا أعمال، وقد يكون هذا الرد مقبولا في بعض جوانبه، لكن المحافظة على بعض المواقع مثل وزارة النفط، وتـــرك أخـــرى أكثر أهمية مثل المتحف العراقي الذي تعرض هو الآخر للنهب، وتَعمُد فتح أبواب بعض المخازن، والمحال التجارية يدحض ذلك القدر البسيط من القبول، ويرجح وجود قصد قد يكون بينه تقديم ما يُفَسرُ فائدة عينية مباشرة من الاحتلال إلى العراقيين المؤثرين في

ووجـــدنا أيـــضاً أن هناك استعداداً لقبول الواقع، والتكيف معه حد الإنتاج السريع، والتداول الواسع لمصطلحات جديدة للتعامل مع حالة قديمة، أخذت فيها أي المـــصطلحات حيـــزا مـــن التفكير السائد، وإن كانت ذات أبعاد سلبية بينها القفاصة، والعلاسة على سبيل المثال.

والقفاصـــة لفـــظ يعـــبر عن قيام شخص أو مجموعة أشخاص بالسيطرة، أو الـــتجاوز (قفص) على أملاك الدولة في ظروف التوتر، وعدم الاستقرار على وجه الخـــصوص، واستغلالها لأغراض السكن، وغيره، والعلاسة كلمة تعني قيام شخص بتـــزويد شـــخص آخر أو عصابة، أو مجموعة بمعلومات عن شخص ما أو جماعة محددة تؤدي في الغالب إلى الاختطاف أو القتل أو الابتزاز لقاء قدر من المال.

إن الّـــذين يـــتابعون مثل هكذا مواضيع، وهم قلة بسبب الخوف من القتل، والانـــتقام يجدون أن مفهوم تلك المصطلحات أصبح شائعا، ومعقدا كحال الكثير مـــن القـــضايا السياسية، والاجتماعية التي أسهمت في التمهيد إلى حدوث حالة الفوضـــى، والاضطراب، وما يزيد من تعقيداتها ذاك التعامل الخطأ من قبل غالبية وزارات الدولـــة العراقية، ومؤسساتها مع المعنيين بها من القفاصة، والعلاسة الذين يشكلون شريحة تكثر فيها الجريمة، والمخالفة، وخرق القانون، للحد الذي تتفاوض فـــيه بعض الوزارات التي تملك بيتا أو عمارة قُفصت أو تريد قفصها على منحهم مبالغ مقابل الإخلاء.

وبدأت الوزارات، والدوائر الحكومية بعد فترة قليلة من التغيير في سباق لمنح المبالغ.

وبـــدأ القفاصـــة مناوراتهم الواسعة لرفع سقف حدودها، والمساومة في مجالها حـــتى وضعت أسعار للشقق باتت معروفة حدودها، وكذلك البيوت التي ارتفعت كـــثيرا فـــيما إذا كانت مطلوبة لأحد دوائرها حتى وصلت في بعض الأحيان إلى

الـــشارع تقلل من احتمالات العدوانية التي يمكن أن توجه بالضد في أيام القتال الحرجة، وقد يكـــون ســـعيا من قادة ميدانيين لتلويث السلوك العراقي العام بارتكاب آثام تشعرهم بالدونية، وتبعدهم عن السمو بالمشاعر الوطنية، وهو استنتاج قد ينسجم مع مؤشرات المشاعر الوطنية العراقية، والولاء إلى الدولة العراقية التي قلت مستوياتها بشكل ملموس منذ التغيير لتصل في وقتنا الراهن إلى أدنى مستوى لها منذ تأسيس الدولة العراقية عام 1921.

خمس وعشرين ألف دولار لإخلاء بيت واحد داخل المنطقة الخضراء دفعته المديرية العامة للأمن، والاستخبارات العسكرية عام 2005، وهكذا يزيد المبلغ أو يقل تبعا للموقـــع، والوزارة، وثقة القفاص في نفسه بالمطاولة تجاه الإغراء المادي حتى بات الأمر سياقا أو تقليدا يسير عليه المتجاوزون في عموم العراق وهم عشرات الآلاف، وبـــات يـــشكل مشكلة ستترك آثارها الاجتماعية ليس على الجيل الحاكم، ومن يعـــيش زمنه من الأجيال فحسب، بل وكذلك على الأمن الاجتماعي للعراقيين، ومستقبل أبنائهم لعديد من الأجيال اللاحقة[1].

وهـــي مـــشكلة في واقع الحال لا تتعلق بالأموال الطائلة التي تدفعها الدولة لمخـــالفين، ومـــتجاوزين وهي بأمس الحاجة إليها في التنمية وإعادة الأعمار، ولا بانـــتقاص هيبـــتها وهي بأمس الحاجة إلى فرض القانون، بل وبما ستسهم به تلك الأمـــوال، ومـــا يؤدي به ذلك الضعف غير المبرر للسلطة من إنتاج الخطأ، وتعزيز السلوك المخالف.

إذ إنّ منح ساكن بيت واحد "قفاص" ذلك المبلغ الكبير على سبيل المثال دون الالـــتفات إلى مستوياته التحصيلية، وأصوله الاجتماعية، وصفحته الإجرامية يعني إمكانية دفعه إلى توظيف ذلك المبلغ في شراء مستلزمات تكوين عصابة للسطو على بـــيت أو محل أو بنك، أو اختطاف طفل، أو فتاة شابة كنتيجة شبه حتمية لتفاعل العوامل الرئيسية الثلاثة لإنتاج العصابات:

(1) دفعت وزارة الدفاع إلى متجاوزين أي قفاصة مبالغ طائلة للحصول على دور لسكن موظفيها وبعـــض دوائـــرها المهمة، وفعلت مثلها عديد من الوزارات التي حثت موظفيها الكبار على الانـــتقال إلى المنطقة الخضراء بعد الاضطراب الأمني في بغداد، ودفع ضباط برتب كبيرة ومسؤولون في الدولة من مجلس الوزراء مبالغ للمتجاوزين مقابل حصولهم على شقة أو بيت حكومي متجاوز عليه، ومن بعدهم تسدد دوائرهم المبالغ المتفق عليها بوصولات، ومن كثرة التعامل في الموضوع أصبحت هناك تسعيرة متفق عليها لاخلاء الشقة، وصلت بحدود عشرة آلاف دولار عـــام 2004 انخفـــضت إلى النصف عام 2005. وهذا واقع تكوّنَ بعد التغيير نتيجة التسهيلات في الدخول والخروج، والحماية التي قدمتها قوات الاحتلال إلى مثل هؤلاء بعـــد أن وجـــدتهم قد احتلوا تلك البيوت، والشقق قبل احتلالهم القصر الجمهوري، والمنطقة المحـــيطة بـــه، والتـــي كـــونت المنطقة الخضراء التي تتواجد في داخلها القيادة الأمريكية، وســـفارات الـــدول المشاركة بالتحالف، والحكومة العراقية بمجلس وزرائها، ومجلس الأمن الوطني، ووزارة الدفاع، ورئاسة المخابرات الوطنية، وبعض الوزارات والدوائر المهمة.

1. المال اللازم، والظروف الملائمة.
2. الاستعداد النفسي المسبق.
3. الاقتناع بفكرة السهولة في الابتزاز.

من هذا نجد أن التعامل مع القفاصة بهذه الطريقة المنافية للأعراف، والقوانين يؤذي الدولة، والمجتمع من ناحية، وسوف لن ينفع المعنيين بها من المسؤولين، وأصحاب القرار من ناحية أخرى سواء بتفادي التهديدات بالقتل.

أو بالحصول على العمولة المقسومة.

أو حتى بكسب أصوات الفقراء، والمحتاجين، والمتخلفين في الانتخابات من ناحية أخرى، لأن اتساع العمل الإجرامي بهذا المستوى سوف لن يستثني في اتساعه وزيرا غض الطرف عن محاسبة قفاص أو مديرا عاما تساهل مع قفاص تحوّلَ بسبب ذلك التساهل إلى رئيس عصابة، وقاتل مأجور.

وتكديس أموال العمولات أو السحت الحرام سوف يزيد من أطماع العصابات التي كان أفرادها في السابق من القفاصين، والعلاسين، فيتجهون بأطماعهم هذه إلى ارتكاب المزيد من الجرائم والتجاوزات.

وكسب أصوات مثل هؤلاء، واتباعهم من المساكين في الانتخابات كما يعتقد البعض سوف لن تضمنه الطرق الملتوية لأن الكثيرين منهم باتوا تجارا في سوق الابتزاز[1].

إن هذا النوع من الخطأ، ومهما أطلقت عليه من صفات أو مصطلحات انتشر في العراق بسبب الاستعداد النفسي المسبق للعمل، والتعامل معه، والانفلات الأمني الذي وفر البيئة الملائمة لاستثارة كل تلك الموروثات الخاصة بالاستعداد فكون سلوكا مخلا بكل المعايير القيمية الأصيلة.

---

(1) وزع رئيس قائمة انتخابية شاركت في انتخابات عام 2005 الكثير من الأموال على أشخاص قدموا أنفسهم كمؤثرين في مناطق شعبية "الفضل، باب الشيخ" مشهورة بكثافتها السكانية داخل بغداد، على الرغم من معرفته بمستوياتهم التحصيلية المتدنية، وسمعتهم المتردية، وعندما يُناقش من قبل زملائه في القائمة يؤكد أنهم لا يعرفون مدى تأثير هؤلاء على الجمهور، وتبين بعد إعلان النتائج أنه قد جمع فقط مائة صوت من تلك المناطق وتبين أن الذين قبضوا منه، ومنحوه وعدا قد قبضوا من أكثر من واحد وصوتوا لغيرهم على وفق توجهاتهم الطائفية.

المبحث الثاني

الفقدان

اعـــتادت المؤسسات الدينية، والهيئات الاجتماعية، والمنظمات المدنية التدخل في أمـــور الناس بوسائلها المختلفة لتعزيز الإيجاب من خلال التوجيه لتقليل التباين، والاخـــتلاف، والتصارع في النفس البشرية، والمساعدة في التهدئة سعيا منها لتقديم العـــون إلى الإنسان في أن يعيش بقدر معقول من الرضا، والاتزان "الأمن"، وهذا ســـياق عمـــل به المسلمون، ومن قبلهم المسيحيون، واليهود، وغيرهم عبر مراحل الزمن المختلفة.

إلا أنّ الذي يجري في العراق، وبعد أن دخلت المؤسسة الدينية المسلمة بشقيها الـــسني، والشيعي طرفا في صراع العملية السياسية المعقدة والتي فقدت جزءاً كبيراً مـــن قدرتها على الحيادية، وبعد استخدام النفوذ لأغراض التهدئة، إذ وعلى سبيل المـــثال عرفت المرجعية الدينية الشيعية، بالتهدئة، ومحاولة التقليل من الاندفاع للرد علـــى الانـــتقام الطائفي الذي نظمته القاعدة بالضد من الشيعة بعد فترة قليلة من السقوط لأغراض إشعال الفتنة، والحرب الأهلية، لكنها فقدت تلك القدرة المطلقة نسبيا في المجال المذكور"الرد الانتقامي" على أقل تقدير بعد تفجيرات سامراء في 22 شباط 2005 حيث انطلق البعض من الشيعة البسطاء لتنفيذ أعمال طبيعتها:

1. الانتقام عن طريق القتل، والاغتيال وغيرها.
2. السيطرة على مساجد سنية أو الحيلولة دون الوصول إليها.
3. تشكيل فرق خاصة "الموت" بقصد الرد، والقيام بأعمال الانتقام الجماعية.

وكأنهم وقعوا في الفخ المنصوب من قبل القاعدة دون أن تتمكن المرجعية من الحيلولة دون الوقوع على الرغم من إدراكها طبيعته، وخطورة نتائجه.

وهـــذا بحـــد ذاتـــه أثرَّ بشكل غير مباشر على فاعلية التحذير، والتحريم الـــشرعي لإطفـــاء السلب في السلوك البشري الذي تقوم به عادة المرجعيات، والمؤســـسات، والأدبيات، ووسائل الإعلام بعد أن غاص عميقا في بئر أو فخ الانـــتقام العديـــد مـــن أبناء السنة، والشيعة، وبدأوا التفنن في عمليات القتل،

والــتعذيب الــذي لم يعــد التحريم من وجهة نظر السائرين على طريقه نافعا للحيلولة دون حدوثه.

ولم تعد وسائل التحذير قادرة على منع ارتكاب الإثم عند المذكورين، وهناك أدلة وشواهد كثيرة على هذا الاستنتاج بينها:

1. الاســتمرار بالاســتهانة المــبالغ بهـا بالروح البشرية المسلمة على الرغم من التحذير[1].
2. مــشاهد المقــتولين المغدورين، وأشكال التعذيب التي ترتكب قبل القتل على الرغم من الاستهجان[2].
3. الاستحواذ على المساجد، والحسينيات المتبادل احتلالها، واقتحامها، وتدميرها على الرغم من التحريم[3].

وهذه إذا ما حُسبت بين القيم السلبية التي بدأت تتشكل بين الشباب.

(1) روت سيدة تسكن شقة في إحدى عمارات شارع حيفا أن شابا قد طُرحَ أرضا على الرصيف تحت عمارتها من قبل مجموعة شباب في المنطقة أخذوا يضربون رأسه بالطابوق، ويشتمون طائفــته، ويــتحدون بانفعال هستيري تلك الطائفة في أن يتقدم أحد منها لإنقاذه من المصير المحــتوم، وهو يصرخ، ويتحرك بجسم يرتجف "يرفس" مثل شاة مذبوحة حتى فارق الحياة بمشهد مازالت السيدة التي تعتنق مذهبا غير مذهب الضحية بعد سنتين من حدوثه تتذكر كل تفاصيله، وتنفجر باكية من وحشيته التي دفعتها لترك الشقة، والعراق.

(2) شهدت الأشهر الأخيرة من عام 2006 تصاعدا في أعداد المقتولين غدرا في بغداد على وجه الخــصوص، وبــات مــن المألــوف أن يشاهد المرء الخارج من بيته جثة شاب ملقاة على الرصيف، لعدة أيام حتى تتعفن، تمر من قربها نساء في طريقهن إلى السوق القريب، ويلعب صــغار بجوارها وهي مقطوعة الرأس والأطراف، وبات من المألوف أيضاً أن ترمى على أكــوام القمامــة جــثث مغــدورين، وكذلك في السوح العامة، والطرق الخارجية، وفي مياه الأنهــار، والمجاري، وقريبا من المساجد، وعلى أجسادها بوجه العموم آثار تعذيب واضحة المعالم.

(3) لقد دخلت المساجد، والحسينيات حلبة الصراع الطائفي في بغداد، وقليل من المحافظات غير المتجانــسة طائفيا، وفي خضم هذا الصراع تجري عمليات احتلال لبعضها، وتفجير لبعضها الآخر، وكأنها الأرض الحاكمة في ساحة يتقاتل على احتلالها جيشان، كما أنّ بيوت الله هذه اســتخدمت لتخــزين أسلحة، ومتفجرات، وأماكن سجن وتعذيب لأبرياء، وإيواء لإرهابيين، ومطلوبــين، واستخدمت "مع بعض الاستثناءات" بشكل مفضوح لأغراض التحريض، وإثارة التناحر.

وتمـــت معهـــا مـــراجعة دقيقة لكم الفتاوى، والخطب الدينية، والمقالات، والتوجيهات التي صدرت منذ العام 2004 حتى وقتنا الراهن من بعض علماء الدين الـــسنة، والشيعة على حد سواء، ومن مؤسسات المجتمع المدني المنتشرة واسعا في العراق يمكن على أساسها التأكيد على:

1. أن عملـــية التأثير الديني فقهيا لم تعد تمتلك قوة الدفع الكافية لتحوير السلوك السلبي مثل القتل، والاختطاف، والتعذيب، والاغتصاب، والابتزاز، والاعتداء إلى السلوك القويم مثل التواد، والتراحم، والتسامح، والاحترام لبعض الفاعلين في ساحة القتال الطائفي خاصة من كان منهم بالمستويات التحصيلية، والثقافية التي تقل عن الوسط.
2. أن بعـــض المعـــايير القيمية الدينية للرضا عن الحال، وكسب رضا الخالق مثل الالتزام، وفعل الخير التي تَميّزَ بها الإسلام قد تمت الاستعاضة عنها من قبل تلك المستويات، وأولئك المقاتلين المتصارعين، وعديد من الداعمين بسلوك طقوسي استعراضـــي يـــتعلق، بالمظهر حيث اللبس الشائع لجلابية بيضاء قصيرة تحتها ســـروال أبيض، وارتداء الحجاب[1]، وأحيانا النقاب في بعض المناطق المسيطر علـــيها ســـلفيا، كذلك إطلاق اللحى، واللطم في المناسبات الدينية في مناطق أخرى.

وغيرها أمور يقصد منها في بعض الأحيان كسب ود الغير في محيط يسعى إلى الاستفادة من المساهمة فيه إلى أكبر قدر ممكن.

(1) فـــي رمـــضان عام 2006 وفي أحد المستشفيات الحكومية كانت هناك سيطرة لمليشيا دينية تحتل المنطقة ألزمت الطبيبات، والمراجعات بلبس الحجاب، وهددتهن في إعلان وضع على الجـــدران بالقـــتل فـــي حـــال عـــدم الامتثال. وكانت هناك سيطرة لهذه المليشيا فيها شباب يحرســـون، ويطـــبقون هذا التهديد يجلسون في غرفة منعزلة أخذت من المستشفى كمقر لهم كانـــوا فيها يدخنون، ويتناولون الطعام في هذا الشهر، وعلى مستوى يعرف بحصوله جميع منتـــسبي المستـــشفى، وبيـــنهم الطبيبات المعنيات بالتهديد، كما اشتكت إحداهن من قيام أحد الـــشباب في تلك السيطرة بمحاولة التحرش بها أكثر من مرة، ولم يكف عن التحرش إلا بعد تهديده بالذهاب إلى مسؤوله في المقر القريب من المستشفى.

المبحث الثالث

الضعف

إن ظروف عدم الاستقرار التي مرت بالعراق لأكثر من نصف قرن من الزمان قد أثرت سلباً في مستويات النمو، والحراك الاجتماعي التي تسهم في تحديد مقدار النضج في هذا المجتمع، وغيره من المجتمعات، إذ في الوقت الذي كانت فيه بغداد على سبيل المثال في مقدمة العواصم العربية مع القاهرة، وبيروت في سبعينات القرن الماضي فيما يتعلق بالتقدم، والانفتاح، ومستوى التحصيل، باتت في الوقت الراهن في آخر قائمة التصنيف على مدرج السياسة، والعمران، والتحضر، وحقوق الإنسان، والتحصيل، والمعرفة.

هذا وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار السياسة كنموذج للمقارنة نرى أنه وعلى الرغم من ميل غالبية العراقيين للعمل في مجالها، وسعة قراءاتهم في حيثياتها لكنهم، ومنذ أكثر من نصف قرن من الزمان أي بعد انتهاء الملكية الدستورية كنظام حكم أسس بعض قواعد العمل السياسي، والانتخاب بشكل مقبول يفوق ما قدمته كل النظم الجمهورية التي أعقبتها ومن بعدها توجه الحكام إلى التفرد، والشمولية التي لم تعط العراقي مجالا للتطور في مسائل سياسية عديدة مثل الحرية في التعبير عن الرأي، وقبول الآخر وغيرها، الأمر الذي انعكس سلبا على مجريات ما بعد التغيير عام 2003 التي شهدت:

1. تشويهاً في مجريات العمل السياسي تسبب في حالة نكوص إلى الماضي أسهمت في مزيد من التخلف.
2. تناقضا في العمل السياسي أخل كثيرا في المعايير والقيم المطلوبة لبناء دولة ديمقراطية بالمفهوم الصحيح للديمقراطية.

وهذان الأمران أي التشويه، والتناقض يعبران عن ضعف واضح المعالم في مستوى النضج تؤشره بعض الأحداث، والتناقضات التي تكررت، وما زال البعض منها يتكرر حتى وقتنا الراهن بينها على سبيل المثال:

1. قيام المجلس المحلي لمدينة بغداد في النصف الأول لعام 2005 بإعفاء أمينه الذي تضاهي درجته درجة الوزير من مهام منصبه بدعوى تقصيره عن أداء مهامه

الاعتيادية، وعدم كفاءته المهنية في تنفيذ الواجبات الاعتيادية، ورئيس الوزراء الجهة التنفيذية في الدولة لا علم له بذلك.

وبعد أيام ألغى نفس المجلس المحلي لنفس العاصمة بغداد الإعفاء، وأعاد أمينها إلى منصبه السابق بدعوى كفاءته الجيدة في تنفيذ وتأدية المهام المطلوبة، ولما مشهود له من نزاهة وإخلاص خلال الفترة التي عمل بها، ولا أحد من الحكومة، والناس العاديين يسأل عن كيفية حصول ذلك؟

ولماذا هذا التخبط، وسوء التقدير؟

ولا أحد من أعضاء المجلس المحلي يعي أن فعلاً من هذا النوع يمهد إلى الفوضى، والاضطراب.

2. رشح مجلس الحوار الوطني أشخاصاً منه (كما ورد في وسائل الإعلام) لمنصب وزراء من حصة السنة في الوزارة التي شكلت زمن الدكتور الجعفري عام 2005 على أساس الحصة، ومبدأ التوافق، وأعلن بعد اكتمال الترشيح أنه، وبسبب عدم التشاور مع أعضائه، وأمور أخرى سوف يسحب موافقته بالاشتراك فيها، ويبدو أنه وعندما طلب من أحد مرشحيه الانسحاب رفض ذلك المرشح ما صدر له من أمر الانسحاب بعد التصديق على تسميته وزيرا، وأبقى نفسه في إطار المستقلين.

دون أن يسأل ذاك الوزير نفسه كيف له أن يقابل جماعته، والجمهور بعد أن تنتهي أعمال وزارته بعد عدة أشهر؟

وهو لا يدرك في الوقت ذاته أن عمله سيسقط الثقة بمن يدعى أنه يمثل جماعة أو طائفة على المدى البعيد.

3. وزير في نفس الوزارة المذكورة أي وزارة الدكتور الجعفري ترك منصبه الوزاري قبل أيام من انتهاء مهامه الرسمية دون أن يسلمها إلى الوزير الجديد في الحكومة المنتخبة أصوليا.

ولا أحد في رئاسة الوزراء يعلمه بوجود التزام وظيفي، وأدبي، وبروتوكولي يحتم قيامه بتسليم الوزارة رسميا.

و لم تكن هناك ضوابط ملزمة في هذا المجال.

ويزيد على فعلته هذه اصطحاب أفراد حمايته التي تدفع رواتبهم من الحكومة، وكذلك السيارات الخاصة باستخدامه وأفراد الحماية، والسكرتاريا، ولا قانون يحاسبه، أو سلطة تردعه، دون أن يعي أن عمله هذا يثير الشبهة من حوله، ويفسح المجال لمن يأتي من بعده بالتمادي على النظام والقانون.

4. طاقم وزارة ينهي أعماله قبل تسليم الوزارة بيوم واحد عن طريق الإحالة على التقاعد، والنقل إلى أماكن مختارة[1].

فيجد الوزير الجديد أن الخبرة الممتدة للوزارة قد اختفت باختفاء الوزير السابق.

وما من خيار أمامه إلا أن يبدأ من الصفر، وعن طريق المحاولة، والخطأ كما بدأ غيره من الوزراء، دون أن يضعوا جميعا في حسابهم أن سياسة البدء من الصفر، وكذلك المحاولة، والخطأ هي الأساس في تدمير البلاد.

6. أكثر من وزير في الوزارة السابقة يتوجهون إلى الخارج بعد تسليم الوزارة مباشرة قبل أن يكملوا الدور، والتسليم المفروض إتمامه، والحصول على براءة الذمة الأصولية من الوزارة، مصطحبين معهم همومهم، ومشاكلهم، وبعض أخطائهم، وتجاوزاتهم، وإشاعات تنهش الأجساد.

يقطعون صلتهم بالمجتمع الذي وعدوا أنهم سيخدمونه إبان فترة وجودهم في المنصب الوزاري، وكذلك بأحزابهم السياسية التي رشحتهم للوزارة قبل أقل من سنة، دون أن يفكروا بأن الهروب إلى الأمام خطأ جسيم، وأن التاريخ في وقتنا الراهن سيكتب بطريقة مختلفة عما كان يكتب بها أيام زمان.

7. وزراء من أحزاب صغيرة كانوا قد قطعوا اتصالات لهم بأخرى وصلت حدود الاتفاق التمهيدي على الدمج، وإعادة الهيكلة تماشيا والظروف السائدة، والحاجة التي حتمتها توجهات الفرقة والتشظي التي سادت في العراق، وساروا

---

(1) تداول السياسيون في محافلهم، والرواة في مجالسهم أن وزير التعليم العالي في حكومة الدكتور إياد علاوي الانتقالية التي تشكلت بعد تسليم السيادة من بريمر قد أصدر أمر نقله إلى ملحق ثقافي في إحدى دول الخليج قبل انفكاكه رسميا من الوزارة، وقام الوزير الذي تلاه بالوزارة بإلغاء الأمر، سابقة لم تحدث من قبل، وأصول في التدرج الوظيفي لم تكن مقبولة أصوليا.

إلى إنتاج أحزاب أكبر يكون لها موقع يناسب حجمها في المجتمع العراقي بعد تسميتهم وزراء، وهو قطعٌ للاتصال خارج المنطق والأصول في التعامل، والعلاقات لا يفسر إلا بضوء الذاتية التي غلفت سلوك المعنيين، وعدم النضج في عملهم السياسي[1].

وآخرون تعمدوا تأجيل مثل هكذا اتصالات مع اقتراب تسمية الوزارة قد عاودوا الاتصال ثانية بعد التأكد من عدم تسميتهم وزراء، دون أن يكلفوا أنفسهم بسؤالها عن جدوى معاودة الاتصال بعد أن أعطوا انطباعا عن سلوك لا يصنف إلا في مجال الانتهازية الوصولية، والرغبة الجنونية في تحقيق الذات، والعكس من هذا موجود أيضا.

8. رئيس كتلة نيابية يقصى عام 2006 من البرلمان، ويطلب من أعضاء كتلته التنحي احتجاجا وما من مجيب[2].
9. وزير النفط في حكومة السيد المالكي يخرج في لقاء متلفز يوم 2007/2/21 وعلى أكثر من فضائية عراقية وعربية يعلن فيه أن الوزارة وتلبية لطلب من صندوق النقد الدولي لدعم اقتصاد العراق سترفع أسعار الوقود بنسبة 15%.

ومن بعده يخرج مصدر مخول "موظف عالي المستوى" من نفس الوزارة أي يوم 2/23 وبالتحديد بعد يومين من ظهور الوزير مؤكدا أن الوزارة لا نية لها ولا

---

(1) اتفقت عام 2004 حركة سياسية معروفة بمستوى الوسط السياسي على إدماج تنظيمها مع الائتلاف الوطني الديمقراطي الذي تلتقي معه في الثوابت، والنهج، والأهداف ووصل الاتفاق حد التوقيع خلال يومين صادف فيهما أن يستوزر فيها رئيس تلك الحركة ضمن حكومة الدكتور إياد علاوي، وعندما جرى الاتصال بهم بعد عدة أيام على الموعد المحدد للتوقيع أكد المكلّفون بالإعداد له أي التوقيع عدم الحاجة إلى ذلك لحصول بعض المستجدات.

(2) ورد على لسان برلمانيين أن رئيس الكتلة الذي سحبت عنه الحصانة، وأقصي من البرلمان العراقي التقى أعضاء كتلته الثلاثة على أمل الاتفاق على الانسحاب الكتلوي من البرلمان، وفي مجال النقاش بينه وبينهم أكد له أحدهم أنه يحصل على دخل مع حمايته يعتبر عالياً جدا بمقاييس اليوم فإذا كان لديه الاستعداد لمنح كل عضو من أعضاء الكتلة مبلغاً مقطوعاً بما يساوي 20 عشرين ألف دولار فإنهم مستعدون أن ينسحبوا تضامنا معه، وبعكسه فهم مستمرّون بعملهم كأعضاء مستقلين، الأمر الذي أغاظ رئيس الكتلة وترك المكان، ومن ثم العراق إلى خارجه ليكون معارضا لكل ما يجري في العراق.

خطـــط لديها مطلقا برفع أسعار الوقود[1]، وفي الشهر الذي يلي رفعت الأسعار كما أعلن الوزير.

تلـــك، وغيرها الكثير من المفارقات، والتناقضات التي رافقت عمل السياسة خـــلال سني ما بعد التغيير تؤكد أن السياسيين، والإداريين المشاركين في الحكم، وغير المشاركين لم يصلوا إلى المستوى المطلوب من النضج.

وإنهم، وأعضاء الحكومات العراقية المتعاقبة لم يعملوا بأسلوب الفريق الوطني المنسجم خلال فترات عملهم، وبدلا من ذلك قدموا تصورا قوامه أن عملهم كان وما زال على أساس الجماعة غير المتجانسة.

إن اختـــيار بعـــض القياديين، والمسؤولين في بعض المراكز، والمهام لم يكن مـــوفقا، وإنهم حتى وقتنا الراهن لم ينجحوا في وضع ضوابط، ومعايير قيمية لعمل حكومي، وحزبي يتسق، ومعايير الديمقراطية.

وهذه مع أمور أخرى تعبر بوجه العموم عن الضعف أو التدني بمستوى النضج الـــذي يعيق وجوده الجهود المبذولة لإعادة الأمن، والاستقرار التي تحتاج إلى قدر كـــاف منه يساعد المنفذين على فهم طبيعة عملهم، وعلى التنفيذ بشكل صحيح، ويـــساعد القادة كذلك على إدراك طبيعة مهامهم وإصدار الأوامر المناسبة لحسن التنفـــيذ، ويساعد الجمهور أيضاً على استيعاب الواقع الصعب، والمرحلة الشائكة، وعلـــى أخـــذ دوره ليكون طرفا إيجابيا في المساعدة على إعادة الأمن والاستقرار. ويتسبب كذلك في إشاعة المزيد من الفوضى والاضطراب.

---

(1) إن هـــذه الحادثـــة التـــي حصلت بعد ما يقارب الأربع سنوات بعد التغيير لا يمكن اعتبارها استعراضـــا للقوة الموجودة داخل الوزارة، ولا سعيا من أحد الكتل لإحراج الوزير لأنه من الكتلة الأخرى.

إنهـــا تعبيـــر واضح المعالم عن الاستعراضية الفردية، وللتخبط، وضعف النضج في العمل الإداري، والسياسي، أو حتى ضعف في الأصول، والانضباط.

إن كـــلام الوزيـــر هو الأكثر وثوقا إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار شروط صندوق النقد الدولي للتعامل مع جميع الدول بينها العراق تتأسس على رفع الدعم عن عديد من المواد.

علـــيه يكون ظهور المصدر المخول، وسكوت الوزير عنه، وعدم محاسبته من قبل الحكومة تعبيراً عن مستوى عالٍ من التخبط الإداري، وعن مستوى متدنٍ من النضج، وافتقار لأبسط الأصول في التعامل مع المستويات القيادية في الوزارة، والدولة في آن معا.

إن المـــستوى المتدني للنضج خاصة في جوانب السياسة، والحكم، وإدارة شؤون الدولة والمجتمع لا يشمل الناس العاديين، ولا المستويات، والشرائح الوسطى، والأعلى منها فقط، وإنما يمتد إلى أعلى المستويات إلى القادة، والحكام أنفسهم ليخلقوا بوجوده مشاكل لهم حيث المصاعب في الإدارة، والفشل في تلبية الحاجات المطلوبة منهم.

وللمجـــتمع الـــذي يحكمون حيث الفقدان الحتمي لتأييده، ودعمه المطلوب لتحسين مستوى الأداء، والتنفيذ.

وفي مجالـــه يمكـــن التطرق إلى مثال واحد يعبر عن هذا الوجود يتعلق بزوايا الإلزام التي اعتادت غالبية الحكام العرب وضع أنفسهم فيها بطريقة الحرج دون أن يحـــسبوا جـــيدا قـــدراتهم في التنفـــيذ، فيخسرون نقاطا من إجمالي الهيبة المطلوبة لوجودهم أعلى السلطة.

ويكونون في أيامهم الأخيرة من المرفوضين.

ويكون شعبهم على الدوام هو الخاسر الوحيد.

والأمـــثلة هنا كثيرة لا تحصى منها ما يتعلق بالمرحوم السادات في صراعه مع إســـرائيل يـــوم درج إلى إعلان أو تحديد كل عام من الأعوام التي سبقت زيارته الشهيرة إلى القدس هو عام حسم رغم عدم امتلاكه الأوراق المناسبة للتعامل معها والـــتي تعيـــنه على أن يحسم بالفعل، فوضع نفسه في دائرة الحرج، وقلل من هيبة حكومته التي لا تقوى على فعل شيء في الموضوع المطلوب حسمه آنذاك.

ومنها ما يتعلق بمجتمعنا العراقي الذي يحوي من الأمثلة ذات الصلة بإدارة صدام للدولـــة الكثير سواء في الحرب العراقية الإيرانية يوم أكد أكثر من مرة أمام الشعب، وأمام قيادته العسكرية، والسياسية وعلى مستوى العلن أن المعركة القائمة هي الحاسمة.

وأن القادمة هي الأخيرة.

وتنتهـــي المعـــركة، ويبدد الجيش جل قدراته، ولم يحسم الصراع الموعود أو المعلن حسمه.

وتحل المعركة اللاحقة، ويستنـــزف العسكري ما تبقى من طاقته غير الكافية، ولم ينته الصراع حتى بات هو، وقادته في حرج لم يخرجوا منه إلا باستخدام القوة، وتوجيه التهم التي مزقت الهيبة العسكرية للجيش.

وهكـــذا يعاود التكرار إبان الحصار الذي يَعدُّ في كل سنة من سنيه العجاف أنها الأخيرة دون أن يأخذ بالاعتبار أن التزاماته التي لا يمكن الوفاء بها قَطَعَّتْ كل أوصال الثقة بينه، وبين الشعب الذي يتطلع إلى الحل، وأنهت هيبة الدولة التي بات يتـــندر علـــيها الكثيرون من أبناء الشعب، حتى الحزبيين منهم، ويتمنون نهايتها في تفكيرهـــم، وسلوكهم بأية وسيلة متاحة، وبأي ثمن كان رغم معرفتهم المسبقة أن التندر، والدعاء من أجل زوالها يعني الموت المحقق في معظم الأحيان.

ومـــن بين أهم صفات حكامنا نحن العرب، وبينهم العراقيون عدم الاتعاظ من الخطأ صفة تؤشر أيضاً إلى ضعف في مستوى النضج أمثلة له كثيرة بعد التغيير بينها:

إصـــدار مجلـــس الحكم بعض قرارات لا تحظى بمباركة الشعب، ولا بموافقة الحـــاكم المـــدني بريمر للبلاد مثلما حصل للعلم العراقي المقترح الذي أثار تصميمه المـــشابه من قريب إلى العلم الإسرائيلي ضجة كبيرة دفعت المجلس إلى إلغاء فكرة التـــبديل، والـــبقاء على العلم السابق الذي يتهمه الأكراد بحصول الإبادة الجماعية لشعبهم تحت لوائه.

وكـــذلك قائمة الثمانين وكيل وزارة، ورئيس هيئة، ومؤسسة التي أصدرها المجلـــس والتي أثارت في حينها الكثير من الانتقادات على مستوى الشارع، وبين القوى السياسية، والهيئات الاجتماعية، والنقابية بسبب طبيعتها الطائفية، والقومية مـــن جهة وتوجهاتها لتسييس المناصب الفنية من جهة أخرى دون أن يأخذ السادة أعـــضاء المجلـــس بالاعتبار أن وضع العراق لا يتحمل هذه التقسيمات التي نقلت البلاد إلى الطائفية المقيتة.

هـــذا وإن مـــثلها قرارات لا يستطيعون تنفيذها تضعهم في زاوية الحرج التي تنهي أية معالم ثقة بينهم، وباقي أبناء الشعب من خارج أحزابهم، وتضع البلاد في وضع نفسي مضطرب تكون فيه حاجة الجميع ماسة إلى الثقة، والهيبة التي تأتي من الحـــق، والطمأنة، والإيثار، وسلوك القدوة، وليس من استعراض القوة، والبقاء في زوايا الإلزام.

ومـــن بين الخصائص الأخرى للحكام العراقيين التي تعبر أيضاً عن قلة النضج الـــسياسي هـــي أنهم لا يستشيرون، إذ يعتقد غالبيتهم أنهم يعلمون ما في الغيب

كعلمهـــم في الفيزياء النووية، والطب، والهندسة، وعلم النفس، والاجتماع، ولو كان الحاليون على العكس من الحكام السابقين لما توجهوا إلى تعيين مستشارين من نفـــس الحـــزب، والطائفـــة الـــتي يكـــون فيها المستشار محكوماً بالثقافة ذاتها، وللأيديولوجية نفسها التي يحملها الأعلى المعني بالاستشارة، والتي تؤكد أن التسابق لتعـــيين المستـــشارين، وإن جاء بدفع أمريكي بعد الاحتلال فإنه لا يتعدى السعي لإفـــادة المنتـــسبين، والقـــريبين، والأصـــدقاء من فرصة تعيين وفرتها الدولة يجب استثمارها بأي حال من الأحوال.

الباب الثاني

مسارب المحنة

شهد الأمن الاجتماعي العراقي أكبر عملية خرق في تاريخه الحديث مكونا دوامات محن يصعب الخروج منها بالقدرات الذاتية المتاحة.

في المجـــتمعات المتحضرة يكون الأمن مكفولا بصيغ، وتشريعات، وضوابط أوجـــدها التجربة، والنمو الحضاري عبر مئات السنين من العمل الجاد، والكفاح المثمر تَحولُ دون التجاوز على حرية الإنسان وحقه في الحياة، والعيش المستقر، ولا علـــى راحـــته، ومساعيه في ممارسة شعائره، وعباداته الدينية، وتحقيق ذاته، وأمنه النفـــسي، والاجتماعـــي، وفي تلك المجتمعات أيضاً يكون الأمن أو بالمعنى الأدق أجهـــزته المـــتعددة الكفـــوءة الحامـــي الحقيقي لإنسانية الإنسان من نفسه، ومن نـــزوات بعض الحكام، وتسلطهم، وفساد ذممهم التي يمكن أن يؤدي حصولها إلى تفتيت المجتمع، وتحطيم معاييره القيمية، ومن ثم اتخاذ إجراءات تُقيدْ حرية الإنسان في داخلـــه، وتـــضعه في موقف المُراقب أو المُتابع طوال الوقت، والمتهم دون ذنب غالب الأحيان، وهو الأمر الذي يتنافى، والمعايير القيمية الإيجابية.

إن الأجهـــزة الأمنية الضابطة النـــزيهة المراقبة جيدا من قبل المجتمع المتحضر تحمـــي المواطن فيه من التسميم الفكري، والتوجه العنصري الذي يقود استشراؤه حـــتما إلى الاســـتخدام المنظم للعنف، والتجاوز، والجريمة، والانحراف عن معايير الوطنية، والولاء الأسمى للبلاد.

وفي مجتمعـــنا العراقي الذي نتناول معاضله بالعودة إلى ما يحصل في داخل محيطه من أعمال، وخروقات بالمقارنة بين حاضره، وماضيه، نرى وبشكل ملموس.

أن التـــردي قيمـــيا، والنكوص حضاريا كانا من أكثر النتائج وضوحا بعد التخريب المادي الحاصل لعديد من جوانب البنى التحتية للبلاد بعد أن:

1. تعثرت عملية الانتقال إلى الديمقراطية، وإعادة البناء، وأدخلت البلاد في حرب متشعبة معقدة لا يمكن في حال استمرارها التعويل على الاستمرار في مشاريع بناء العراق على الأسس الديمقراطية المعول عليها من قبل العراقيين أو حتى من قبل الأمريكان، وحلفائهم الموجودين في العراق.

2. أجهضت فرص سن قوانين[1] لتأمين حياة أفضل، وإعادة تشكيل أجهزة أمنية قادرة على الضبط، وتأمين ردع نفسي مناسب يحول دون الإسراف بارتكاب الجريمة بسبب:

1. أخطاء ارتكبها الاحتلال.
2. قصور في عمل السياسيين الذين حلموا بمجتمع عراقي خال من أجهزة أمنية طالما خزنوا في دواخلهم عنها عديداً من الخبرات السلبية التي تكونت في غرف تعذيبها القاسية، إبان نضالهم بالضد من الديكتاتورية، وكذلك خال من عسكر قوي مقتدر اعتقدوا أنه سبب إثارة المشاكل، والحروب لأكثر من ثلاثة عقود متتالية، حتى سعوا لاشعوريا إلى التقليل من أهميتها معاً، فأنتجوا أو أجبروا على إنتاج جيش جديد غير مكتمل العدة، والعدد، ولا يتناسب مع طبيعة التهديدات الخارجية، والداخلية.

وتعمدوا إسقاط فرض الحاجة إلى جهاز أمن داخلي قوي يمكنه التعامل مع الخروقات الداخلية فكانت أولى بدايات الاختلال المنطقي لطرفي المعادلة الخاصة بالاستقرار الذي مهد إلى الفوضى، والاضطراب، وأخل بالمعايير القيمية، وربما بدد أحلام السياسيين، وباقي العراقيين من إمكانية تطبيقها في المستقبل القريب.

عليه يمكن القول إنّ الأمن الاجتماعي الذي شهد أكبر عملية خرق في التاريخ العراقي سيكون من الصعب ترميم وضعه الحالي دون التنبه أولا إلى ماهية

---

(1) يشكو البرلمان، ورئيسه باستمرار غياب الأعضاء حتى أنّ بعضهم لم يسجل حضورا منذ انعقاده أول مرة بداية 2006 وحتى يومنا الحاضر بما لا يزيد عن عدد أصابع اليد، وعجز رئيس البرلمان أن يحد من هذه الظاهرة على الرغم من جرأته في تناولها على الفضائيات أكثر من مرة، وإقرار صيغة الحسم من الراتب على عدد أيام الغياب.

إن الغياب الذي يحصل في بعض الأحيان يكون بمستوى لا يستطيع فيه البرلمان تأمين النصاب القانوني في جلساته لكي يصوت على بعض التشريعات المهمة، وهذا إذا ما وضع مع الانقسام الحاد بين أعضائه على أساس الطائفة، والقومية، والمذهب يجعل عملية التصويت على بعض القوانين، صعبة خاصة تلك التي يمكن تفسيرها بأكثر من وجه، الأمر الذي تسبب، وما زال يتسبب في تأخير التصويت على عديد من التشريعات، والقوانين التي تعد ضرورية في ظروف العراق المضطربة، وغير المستقرة في الوقت الراهن.

هـــذا الخرق، ومستويات امتداده في المجتمع العراقي، وهو ما سيتم التركيز عليه في هذا الفصل في المباحث اللاحقة، وتحت العناوين الرئيسية الآتية:

التصدع القيمي، الطائفية، التناشز المعرفي، الفساد، القصور السياسي، السلوك العدواني.

الفصل الأول

التصدع

إن الاعتزاز بالنفس قيمة ضعفت كثيرا مستوياتها، وتفشى بدلا منها الابتذال في تحول أفضى إلى التصدع القيمي.

إن التحوير، والتغيير في الجانب القيمي الذي حصل في العراق شمل قيما يمكن عدها الأكثر تأثيرا على الأداء والسلوك، والأقرب إلى مسألة التأثير في الأمن الاجتماعي لأهل العراق، وهو تغيير يرجع في العديد من جوانبه إلى عدة عقود مضت بعد التحولات السياسية التي حصلت خاصة بعد 1979، وقادت إلى تغييرات كثيرة، وسريعة اجتماعيا شملت معظم معالم الحياة العراقية أسهمت في التأثير المباشر في المفاهيم القيمية باتجاه التحوير، والتعديل، والتصدع في بعض الأحيان. وهي عملية تأثير في الجانب القيمي لم تقتصر على فعل التغييرات السياسية بعد أن صاحبتها حروب كانت الأكثر تأثيرا على النظام القيمي خلال الثلاثين سنة الماضية عندما أفرزت:

1. مشاهد قتل متكررة كانت تعرض على شاشات التلفزيون بشكل يومي مستمر بدعوى تقوية نفوس الأجيال من الصبية، والشباب، وبمصطلح شعبي كان يتكرر بين أعلى المسؤولين في مثل هذه الأمور هو (لكي يكون جَلِدْ أي صلب).
2. صوراً من المعركة تقدم مناظر الجثث المتناثرة في ساحة القتال بدعوى التذكير.
3. الإشادة بالقتل كوسيلة للتعامل مع مواقف في الميدان، وخارجه لا تتطلب على وفق قواعد الاشتباك اللجوء إليه.

حتى أثرت في الأجيال المتعاقبة من الصبية، والشباب في تلقيها إبان فترة تكوين خصائصها النفسية فحورت من نظرتهم عن الإنسان، وتصورهم عن الإنسانية، وعوَدَتّهمْ على مشاهدة، وسماع، وقراءة مواضيع القتل التي زادت من درجة التحوير في بعض المفاهيم، وأسهمت في تكوين أجيال تستسهل القتل خيارا أولا في طريق التعامل مع الأحداث، كما أن الإثابة التي كانت تقدم للسلوك المقبول حكوميا، وغير المتوافق اجتماعيا مثل قيام أب بقتل ابنه بسبب موقفه من الخدمة العسكرية أو توجه زوجة للتجسس على زوجها لصالح جهة أمنية، وغيرها أعمال أثيبت من قبل الدولة أثرت سلبا في النظام القيمي العراقي، وسحبته إلى ميدان التصدع بفترة زمنية ليست طويلة، كما أن العقوبة الشديدة غير الموزونة لعديد من أنواع السلوك التي تعتبرها الدولة مخالفة أو جريمة تستحق العقاب تراها المعايير القيمية مسألة مختلفة مثل إيواء هارب، وإنصاف جار وغيرها أسهمت بالمحصلة في زيادة نسب التصدع الذي كانت مؤشراته واضحة من خلال بروز قيم سلبية جديدة، وتحوير أخرى ستتم مناقشتها بعناوين عن النفعية، والابتذال، والضبابية التي يؤشر عرضها مقدار التصدع في هذا المجتمع العريق.

المبحث الأول
النفعية

تعد العائلة العراقية من العوائل الممتدة فيها الأب سيد الموقف، وكفيل بتغطية مصاريف وحاجات الأبناء حتى بعد زواج البعض منهم في حال تمكنه على وجه الخصوص، والابن فيها ضامن لعيش الأب، والأم في شيخوختهما، والأخ الكبير له مقام الأب في التعامل، ورعاية الإخوة، والأخوات، والمؤسسة الحكومية المصرفية تقدم قروضاً لأغراض تشييد دار، وللزواج، وشراء سيارة، وعمل مشروع تجاري، والحكومة تمنح قطع أراضي لمنتسبيها، والجمعيات، والعائلة تتعاون فيما بينها لمساعدة أحد أبنائها المعوزين، وغيرها من معالم السلوك التكافلي الذي يُشعر المرء في المجتمع بقدر من الرضا، والأمان التي تضاءلت تدريجيا فأثارت التوتر، والعدوان.

إذ إن الـــذي حصل بعد عام 1980، وأشد منه قساوة أيام الحصار بعد عام 1990 هو أن معايير التكافل تغيّرت كثيراً:

فبالنسبة للدولة أصبحت عاجزة عن أن تقدم شيئا يساعد على تحسين الحال باستثناء الهبات التي كانت تقدم للحزبيين القياديين والوزراء والمقربين وكبار رجال الدولة ففقدت بعجزها هذا أحد أهم مقوماتها في تقديم التكافل.

والعائلـــة التي قل دخلها، وتفرق أبناؤها، وضاقت بها السبل حدا بات الابن ينظـــر شاخصا على أملاك أبيه، وعلى كيفية إقناعه بالحصول عليها دون الإخوة الآخرين، والأخ غير معني بأخيه الذي يسكن قريبا منه لانشغاله بهموم الحياة.

وهكذا الأمر بالنسبة إلى الصديق، والقريب، والجار، وابن المحلة الذين يكفلون باستمرار من يقع أو يكون ضمن محيط دائرة وجودهم، وغيرهم.

فانتهت في هذه الحالة أو بالمعنى الأدق ضعفت تأثيرات التكافل قيميا.

وحلت محلها النفعية بمستوى من السعة حدا بات فيه الجار يستبيح دار جاره الـــذي تـــسكنه العائلة منذ عشرات السنين مبررا سلوكه بوجود الجار في الجانب المذهبي الآخر، وأحقيته بالاستفادة من الظرف المواتي للنهب.

ويحـــل الصديق ما لدى صديقه الساعي إلى الهجرة من أثاث، وموجودات، ويساومه على الثمن مؤكدا بكل صراحة أنه الأولى باستثمار الفرصة من الغير، أو يسهم بقتله والاستيلاء على ما عنده من موجودات[1].

(1) ســجلت في بغداد أكثر من حادثة سطو من ملثمين يرشدهم شخص إلى بعض الموجودات في أحد البيوت أو إلى أحد الأولاد ليتم خطفه، وبعد تقديم الفدية يقتل الابن المخطوف، وأحيانا بعد إتمـــام عملية النهب يقتل صاحب البيت لأسباب يرجح البعض أنها تتعلق بالحيلولة دون التعرف علـــى أحد الجناة من الابن المخطوف أو الأب، وفي حي المغرب عاد شاب إلى بيته من عمان فـــي تـــشرين الأول 2006 لأداء الامـــتحان النهائي في الجامعة، وفي يوم سفره للعودة وجد مقتولا، وجثته مرمية في منطقة الوزيرية القريبة من بيته، ومن المتابعة تبين أن الجناة قد فعلوا ذلـــك للاســـتيلاء على مصوغات ذهبية كانت مدفونة داخل حديقة المنـــزل وكان يفترض أن يجلـــبها معـــه إلى عمان، وأن الجناة هم من معارفه المقربين بينهم حارس بيته لأن البعض قد سمعه ينادي أحدهم باسمه قبل ركوب السيارة، والخروج بها مع عدة أشخاص. وتبين من وقائع الكشف على الحادث أنه قد قفز من السيارة قبل إطلاق النار عليه الأمر الذي يرجح أنه يعرف الجـــناة جـــيدا، يدعم هذا الاستنتاج مغادرة بعض أصدقائه العارفين ببواطن الأمور بغداد بشكل سريع خوفاً على حياتهم من قبل الفاعلين بعد متابعتهم الموضوع، وتعرفهم على تفاصيله.

إن النفعية التي تمتد جذورها عميقا في التاريخ قد انتشرت سريعا في العراق ليعم تأثيرها ليس فقط على الشره المادي، والرغبة في التحصيل، والاكتناز، بل وشمل السياسة التي سارع العديد من القائمين عليها إلى التوسع في الكسب، والتحصيل.

فالديمقراطية التي نودي بها في مجتمع العراق الذي لم يخبر الديمقراطية بمعناها الصحيح توجه في خضمها المنادون الناضجون إلى صناديق الاقتراع معتقدين أنها الفيصل في إيصال المناسب إلى الحكم.

وأنها السبيل الأمثل لإثبات قدرة الأغلبية للوصول إلى الحكم.

والوسيلة الأنجع إلى مساهمة الأقليات في الحكم أصوليا.

والفرصة الأوفر لتغيير من لا تثبت ملاءمته للحكم من بين الأغلبية، والأقلية.

وفي نفس المناسبة هرول البعض من السياسيين النفعيين بكل اتجاه بهدف:

1. تجميع اكبر عدد ممكن من الأصوات.
2. التحرك في دهاليز التآمر، وعقد الصفقات البينية التي تؤهل القفز سريعا إلى الأعلى.
3. تقديم الرشا بأنواع مختلفة.

معتقدين أن الفرصة في الوصول إلى الحكم أو المساهمة فيه لا تعوض لأنها بطبيعة الحال هي التي ستعوض كل الخسائر المدفوعة مسبقا بالجهد، والمال.

وإن التحول إلى الديمقراطية سوف يلهي الشعب عن التفتيش في الدفاتر القديمة، ومعايير السلوك الحديثة فيكونون بالمقدمة في عربة الاستفادة من الديمقراطية.

وفي إطارها أي المناسبة توقف البعض الآخر عن السير أو أعاقوا سير الآخرين في طريقهم الطويل إلى إعادة البناء، معتقدين أن التوقف سيعيد البلاد إلى سابق العهد:

بؤرة لحكم القرية.

أساساً لسيطرة المنطقة.

مجالاً لنفوذ العشيرة بعيدا عن التصويت، وصناديق الاقتراع التي تحكم الطريق إلى الديمقراطية، وسيعوضون الخسارة.

لكن موقف الهرولة في طريق النفعية، والوقوف على جانبه، ومحاولات التدخل الخارجـــي التي لم تبتعد عن سياقات النفعية الدولية كونت جميعها حالة صراع في داخل المجتمع العراقي، لم ير الطرف الواحد أو المجموعة الواحدة فيه إلا السلب من الطــرف الآخر، والسلب هنا تكوين فكري بالضد لم تتضح معالمه من خلال فعل الخطأ أثناء الممارسة، والتطبيق كما هو حال الشعوب، والأمم الديمقراطية، بل هو عـــند البعض من الساسة العراقيين الجدد افتراض يتأسس على مطالب ذاتية"نفعية" طائفية كانت أو مناطقية، أو شخصية يعتقد أن الطرف الآخر سوف لن يحققها في ممارسته للحكم أو في مشاريعه الانتخابية للوصول إلى الحكم.

وبدلا من الانتظار، واستخدام آليات الديمقراطية في التصحيح، والوصول إلى الغاية، يستبق البعض أو يحاول القفز من على الآليات فيتحفظ على الأسماء المرشحة للمناصـــب العليا تارة، ويوجه الاتهام تارة أخرى معتقدا أنه سيحقق نصرا ميدانيا على خصم يفترضه موجوداً في ساحة قتال الديمقراطية، دون أن يعي أنه قد وضع المقابل في زاوية الحرج النفسي، ودفعه إلى أن يستنتج حتما أن هذا التحفظ تآمر لا يمكن قبوله.

والتفاف على نتائج الانتخاب لا يمكن السكوت عليه.

ومحاولة تقويض الديمقراطية لا يمكن التعامل معها.

وسعي لتدخل المجموعة الأصغر في شؤون الكتلة الأكبر لا يمكن تفهمه.

ومحاولة تسويف الاستحقاق لا يمكن استيعابه.

إنـــه تحفظ قوامه النفعية يحصل دون أن يدرك فيه المتحفظ أنه قد أوجد نهج تفكير لا يمكن أن تحتكره جماعة دون أخرى.

وإنـــه سياق عمل إذا ما تم الأخذ به سيسحب جميع الكتل، والجماعات إلى اعـــتماده أســـلوباً للرد، وخياراً للتعامل في ساحة الصراع التي تتسع جوانبها إلى المستوى الذي يصعب السيطرة فيه على النوايا، والأفعال، هذا ما حصل، ويحصل فعـــلا في عراق اليوم لمرحلة ما بعد الانتخابات الأخيرة، عندما جرى التحفظ على

أول مرشـــح لرئاسة الوزراء لأغراض بينها النفعية ما أوقع العراق في أزمة التحفظ على منصب آخر للطرف المتحفظ[1].

وهكـــذا جـــر المـــتحفظون البلاد إلى مواقف للإثارة يفسرها البعض من العـــراقيين المتعـــبين على أنها تحديات خاصة، وتوجهات طائفية، دفعت العديد منهم في مواقف الانفعال إلى التخندق حول هذا المتحفظ أو ذاك فاتسعت الهوة وزاد الاحتقان الطائفي، واشتد العداء وبدأ الثمن يدفع على أشده حتى من قبل المـــتحفظين، ثمـــنٌ ســـوف لـــن يتوقف عند عدم الوصول إلى الحكم، والمنصب "الاســـتفادة النفعـــية" بل وسيمتد إلى سفك المزيد من الدماء في محيطهم، والدائرة الواسعة لعموم العراقيين.

المبحث الثاني

الابتذال

على نفس معالم التكرار التي حصلت للتكافل، والأسباب التي أنتجت النفعية كـــان الأمـــر كـــذلك بالنـــسبة إلى الحياء، والاعتزاز بالنفس التي ضعفت كثيرا مـــستوياتهما، وتفـــشى بدلا منهما الابتذال بعد أن تَحوّل مئات وربما آلاف من الـــشباب الـــذين كانوا يؤازرون النظام السابق ضمن فدائيي صدام إلى مؤازرين فـــاعلين في تنظيمات سياسية، وميليشياتية لهم سطوة، وحضوة وقرار، وهذا تحولٌ قيمـــي ينم عن ضعف الحياء لا يخص الشباب، وقليلي التحصيل فقط بل وكذلك

---

(1) لقـــد فـــاز الدكـــتور الجعفري في اقتراع داخل كتلة الائتلاف العراقي الموحد للترشيح إلى منـــصب رئيس الوزراء بداية 2006، وقامت كتلته الأقوى في البرلمان بترشيحه فعليا، لكن الـــذي جرى في أروقة السياسة قبل التصويت في البرلمان هو التحفظ على توليه المنصب، وكَـــونَ هذا التحفظ أزمة دامت عدة شهور يرى فيها الجعفري أنه الأحق بمجيئه عن طريق الانـــتخاب، وتـــرى كتلته أنه مرشحها، ويصر المتحفظون على موقفهم دون أن يمانعوا من ترشـــيح بديل له من نفس الحزب "الدعوة" الذي لا يوجد تحفظ على مرشح له غير الدكتور الجعفـــري، وكانـــت أزمة قربت أن تعصف بعموم العملية السياسية في البلاد لولا رضوخ الدكـــتور الجعفري إلى الضغوط التي أثمرت ترشيح السيد المالكي من نفس الحزب كرئيس للوزراء.

آخـــرين مـــن أساتذة الجامعات، ورجال أعمال، وصناعيين، وضباط برتب عالية كانـــوا حـــتى يـــوم التغيير في 2003/4/9 يحتلون الفضائيات الحكومية، والأخرى المـــؤازرة لها آنذاك، ينظّرونَ لصالح صدام حسين، وأحقيته في البقاء، يحذرون من عملية التغيير، حتى سارع بعضهم بعد حصولها إلى عرض خدماته على الأمريكان في الأســـابيع الأولى خاصة من يتكلم منهم اللغة الانجليزية، ومن حضي برضاهم، وعمـــل معهم أصبح متفاخرا في جلساته أمام الحضور بحصوله على هوية من قيادة عـــسكرية أمريكية، وعاد آخرون إلى الفضائيات الجديدة يُنظّرون للوضع الجديد، ويـــشرون بتطبيقات الديمقراطية، وبمستقبل أفضل اقتصاديا، وسياسيا، ويذمون في الـــوقت نفـــسه الـــنظام القديم، ووقف قسم ثالث منهم على أبواب الأحزاب، والحـــركات السياسية عارضين خبرتهم الطويلة، وخدماتهم الجليلة ليكونوا أعضاء فاعلين في مفاصل قياداتها العليا فكان لهم ذلك في قليل من الأيام.

والأوفـــر حظا، والأكثر حياء منهم حَشَد المعارف، والأقارب وأسس حركة سياسية جديدة تنسجم مع العصر الجديد فوصل عضوا في البرلمان، دون أن يأخذوا جميعا وعلى أساس الحياء العام فسحة من الوقت بسيطة تنسي العراقيين، وتنسيهم مواقف عقائدية كانت بالضد من الأفكار الجديدة التي لها ينظرون[1].

ومع هذا الابتذال ضعفت الخشية أو تلاشت على وجه التقريب من قواميس الـــتخاطب كمعـــايير قيمـــية تدفع باتجاه الضبط الاجتماعي، والالتزام إذ لم يعد التجاوز على المال العام عيبا، ولا شعورا بوخز الضمير لأن الكثير يتجاوزون عليه بابتذال تحت مسميات مختلفة.

---

(1) في شهر مايو 2003 وفي جلسة سياسية في حديقة مقر الائتلاف الوطني الديمقراطي عصرا حضر صديقان يحملان شهادة الدكتوراه لإلقاء السلام، ومن خلال الكلام تبين أنهم يستكشفان أفـــضلية الانتماء إلى حركات سياسية كانت معارضة في السابق، وعندما وجهت لهم نصيحة بضرورة إعطاء وقت للنسيان خاصة وإن أحدهم كان يظهر على الفضائية الحكومية كمحلل اســـتراتيجي داعمـــا لها حتى قبل يومين من التغيير لم يرق لهما النصح، وتركا المقر دون المـــرور ثانـــية، وبعد فترة تبين أنهما قد مروا كذلك على عدة أحزاب، ومن ثم أسهموا في تأســـيس أخـــرى حتى أصبحت مثلبة على أحدهما بسبب تنقله بين الأحزاب على الرغم من إمكاناته العلمية المعترف بها أكاديميا.

ولم يعـــد الكذب عيبا بعد أن انتشر بشكل مريع في المجتمع العراقي حتى لا يخـــشى السياسي أن يكذب على جمهوره بإعطائهم وعوداً زائفة، وعلى قيادته التي يمنيها باتصالات مع آخرين غير موجودة.

ولا يهـــتم وزيـــر في أن يخبر وكلاء وزارته، والمدراء العامين بأنه مشغول بتـــرتيب وضـــع الـــوزارة، ويتبين من سائقه أنه منشغل بصفقة يعملها لحسابه الخاص.

ولا يخشى قريب يطرق بابه من قبل قريب آخر في الصباح الباكر في أن يأمر حارسه بإجابة القريب أنه غير موجود في البيت.

ولا يأبـــه الجندي في الكذب على آمره في ادّعاء المرض ليتخلص من واجب يكلف به.

واعتاد الجميع في موقف العتب الذي ينتشر هو الآخر بين العراقيين أن يصنفوا كذبهم بالأبيض عندما يُحرَجون.

وفي خضم هذه الفوضى أو دوامات الفوضى لم يخشَ صديق من بيع صديقه إلى عصابة أو مجموعة مسلحة لقاء ثمن يصل إلى عدة آلاف من الدولارات.

ولم يتوقف ابن المحلة عن تزويد المليشيات التي تهاجم المنطقة بالمعلومات تحت تأثير العيب أو الخشية لقاء حمايته.

ولم يـــتوان الكثيرون عن وعد يقدمونه للمساعدة، ويرجعون عنه، وعن بيع بيت، وينكثون العملية بعد أن يحصلوا على فروقات بالأسعار من طرف ثالث.

وهـــذه معالم سلوك تعطي تصوراً واضحاً عن الابتذال، وهو سلوك شائع في كـــل مجالات الحياة. ويرتبط مع هذا الابتذال الذي يتعلق بالذات، ابتذال من نوع آخر بالنظرة إلى الآخرين يمكن عده نوعاً من الاستهانة جاءت من ادّعاء المعرفة التي تمـــتاز بها الشخصية العربية بينها العراقية، خاصية سحبت البعض، وبينهم سياسيين إلى الإيغال بوهم المعرفة إلى الحد الذي بدأوا يستهينون بذكاء الآخرين، ووجودهم خلال التعامل معهم حد الابتذال.

حتى شاع في العلاقات العامة، والإدارة قيام العديد من المسؤولين السياسيين، والإداريـــين في محـــيطها على سبيل المثال إلى التفريق بالتعامل بين موظفيهم على

أســـاس المذهب، والدين، في حين يصرون في لقاءاتهم العامة، واتصالاتهم الخاصة علـــى التقـــيد بالعدل، والالتزام بالقانون، والأخلاق، دون أن يضعوا في الاعتبار موقـــف الآخـــرين مـــنهم، والمعرفة بأساليبهم، التي ينظر إليها المقابل كنوع من الابتذال.

وكذلك في مجالات السياسة التي يتحرك فيها المسؤول الأعلى أو الأمين العام للحـــزب على الجهات الأجنبية، والمحلية يجمع فيها التموين اللازم لديمومة الحركة، وعـــند الوصـــول إلى القبض يتوجه وحده للاتصال، ويخفي الخبر، وإن اضطر إلى الإفصاح عن ذلك يصرح بأرقام تقل كثيرا عن تلك التي يقبضها(1) بطريقة تنم عن ابتذال في داخله، واستهانة بالآخرين، وفي نفس المجال يتحرك في ساحة السياسة في الوقت الحاضر سياسيون يدعون أن لهم شأناً، وجمهوراً وهم في واقع الأمر يعملون وحدهم بلا قيادات فاعلة، ولا جمهور.

وهذا مع غيره إهانة لإنسانية الإنسان" ابتذال" واستهانة بالوعي العام كانت وما زالت موجودة في المجتمع، وإن لم تكن واسعة الحدوث كما هي الآن.

وفي مجالهـــا أو بجـــوارها اخـــتفت التضحية التي تتأسس على قدر من الود، والتقـــبل، والتـــراحم، قـــيم تعين على لم الشمل، وتوثيق عرى الجماعة المطلوب وجـــودها لمقاومة الخطأ، والانحدار بعد أن تفشى داء الذات المفرط أساسا للتعبير، ومعيارا للتفاهم، والتواصل مع الآخرين.

وبـــسببهما، وأمـــور أخـــرى لا مجال إلى تفصيلها اتّسع هامش الاستهانة، والابتذال ليشمل الوطن الذي أحس فيه الكثيرون بالضياع، والرغبة بترك المكان في أكـــبر هجرة جماعية في التاريخ العربي الحديث (9) أملا في التخلص من الضغوط النفسية الشديدة.

---

(1) فـــي عـــام 2002 كـــنت علـــى علاقة برئيس إحدى الصحف العربية التي أكتب فيها بشكل متواصل، وفي نقاشي معه أكثر من مرة عن التموين الخارجي للحركات السياسية المعارضة آنـــذاك أكد على أن حركة كنت أعرف تفاصيلها عن قرب قد حصلت عن طريق أمينها العام علـــى تمـــوين من أكثر من جهة، كان ذلك الأمين العام ينكر حصوله، وبعد التغيير حصلت أحـــداث ومفارقـــات أيـــدت وجهة نظر رئيس التحرير، وأيدت نظرية الاستهانة بذكاء قيادة الحركة حد الابتذال.

ورغـــبة في إيجاد الذات التي لم يجدوا لها مكانا في المنطقة فترك مئات الآلاف مـــن الشاعرين بالضياع أماكن الآباء في بغداد، ومدن أخرى، وتوجهوا إلى مواقع الأجداد جنوبا حيث السهل، والهور.

وشمـــالا حـــيث الجبل، والوادي، والقدر المعقول من التجانس المذهبي الذي يقيهم مؤقتا شرور الاحتقان إلى مستوى الابتذال.

وهرول ملايين مثلهم إلى الأمام صوب دول الجوار العربي المسلم التي تشكو جميعها ثقل الضيف القادم من بغداد.

وتتحسب لاحتمال انتقال أمراضه الاجتماعية عن طريق العدوى التي يراد لها أن تنـــتقل في كـــل المجتمعات العربية، والإسلامية قربانا لمشروع الشرق الأوسط الجديد(1).

وكـــذلك صـــوب مجـــتمعات اللجوء الغربية التي تنصف الإنسان، وتعين المـــضطهد، علـــى الـــرغم من خوفها، وتحسسها من حقد الإنسان القادم من الشرق.

تاركين جميعا أرض الآباء، ومواقع الأجداد، والتاريخ، والحاضر، والأملاك غـــير آســـفين على تاريخ وسموه بالمشوه. وحاضر وصفوه بالبائس لم يتبق لهم فـــيه ســـوى الذكريات المؤلمة لأربعة عقود من الزمان كانت الأسوأ في تاريخ العراق.

---

(1) يعـــيش مـــا يقارب المليوني عراقي في الأردن، وسوريا بات عيشهم فيها عامل تأثير سلبي على المستوى المعاشي لمواطني الدولتين المذكورتين، وعلى الجوانب الخدماتية فيهما الأمر الـــذي دفعهمـــا مـــع بدايـــة 2007 إلى إصدار بعض التعليمات المشددة على دخول وإقامة العراقيين الأمر الذي أدخل هذه الملايين في دوامة الحيرة، والارتباك زادها شدة وبؤسا إلغاء وزارة الداخلـــية العـــراقية بعض أنواع جوازات السفر، وعدم اعتراف بعض الدول بالجواز الصادر بعد التغيير المصنف(s).

المبحث الثالث

الضبابية

عـــندما توجه الصبي مزهوا إلى دائرة حكومية قريب موقعها من البيت، ومكان اللعب بقصد الاستحواذ على موجوداها مدفوعا بغريزته، وتشجيع الأم على فعل المزيد، تغير سلوكه، وأثار انتباه الآخرين، وقرهم إلى ذات السلوك، وعندما قفز الابن البكر من على سياج الدار المجاور لداره متجها صوب خزين النفط في حديقة جاره بقصد سرقته، وهو في هرولته منتشيا برجولته، وبمدح الأب أسس قاعدة لتغيير السلوك نحو الأسوأ له، ولكل أفراد العائلة المتفرجين. وغيرها من المواقف التي تم توضيح الكثير منها في سياقات العرض للعناوين المذكورة أعلاه، والتي سحبت الجمهور نحو الخطأ، وقربته بالتدريج إلى حافـــات الخلـــل، والمعاناة، وبعد تكرار حدوثها في عموم المجتمع العراقي، وفي كافة شرائحه الاجتماعية، وطوائفه المذهبية تغلف مفهوم الحرام نـــزولا:

من القائد السياسي، والإداري في المفاصل العليا بعد أن استغلا مواقعهما الوظيفية، والقيادية في منح حزهما، وجماعتهما عقودا لشراء مواد البطاقة التموينية، والإشارة إلى من اتفقا معه على التنفيذ بضرورة تحميل العقد المبرم نسبا إضافية يعود ريعها إلى الحزب فـــيكون الـــسعر عندها أكبر من السعر الدولي للمادة المحددة، الأمر الذي يضطر المنفذ للمـــساومة على النوعية "الأردأ" سعيا منه للحصول على مستوى سعر مقبول دون أن يكترث مثلا إلى تاريخ الصنع المنتهي لمادة الحليب المطلوب استيرادها!

وإن تسمم آلاف العراقيين فهو أمر طبيعي لا يدخل في مفهوم الحرام.

و لم يـــضع في الحسبان تعرض القمح المطلوب استيراده إلى الإشعاع أو زيادة نسبة برادة الحديد فيه!

وإن مـــرض آلاف العـــراقيين فهو كذلك أمر مألوف، و لم يدخل في سياق الحرام غير المألوف.

ويـــستغل في مجاله الموظف المختص وجوده ليربح هو كذلك لحسابه الخاص، وربمـــا لتوســـيع هامش ربحه مشاركة مع الأعلى، والأقل في تنظيم تراتبي للربح لم يكن مسبوقاً، وفي مجاله:

يقبل الضابط في لجنة الفحص، والقياس النوعي دروعا ضد الرصاص مطلوب شـــراؤها للـــشرطة غير مطابقة للشروط المكتوبة في العقد أي أقل تدريعا مما هو مطلوب في ساحة الاحتراب الداخلية، ويقبض على كل مليم يقل في التدريع عددا من الدولارات!

وإن اختـــرقت رصاصة إرهابي صدر أحد منتسبيه بسبب سمك التدريع غير الملائم لا يعتبر ما حصل من بين محددات الخيانة أو الحرام.

تلك هي الضبابية في التفكير، والمفهوم التي لم تكن مقتصرة على النـــزول من الأعلـــى كما ورد في بعض الأمثلة المذكورة أعلاه فهي بحكم الطبيعة، وخصائص الشخصية موجودة كذلك في الأسفل بين القاعدة الواسعة للمجتمع تصعد بطبيعة الحال متسارعة إلى الأعلى وفي مجالها:

1. يـــضع الفلاح إنتاجه من الفاكهة التالفة أسفل الصندوق أو في وسطه، ويقلده أو يـــزيد عنه بائع الخضرة فنا في العرض، يضعان أو يغشان باطمئنان بعد أداء فريضة الصلاة، لأن عملاً من هذا النوع لم يكن حراماً.
2. يغـــش الطالـــب في الامتحان، ويبيع المعلم، والأستاذ أسئلة الامتحان، ويبدل المـــصحح ورقـــة الامتحان، ويضعون معاً درجات السنة النهائية، ولم يحضر المعنـــيون بها الامتحان. ويفسرون جميعا ما يجري بمساعدة للطالب المسكين في محنته، ولا يضعان في حساباتهما أصلا موضوع الحرام.
3. يزيد بائع الوقود لتر البنـــزين، والنفط قدرا من الماء دون أن يلتفت إلى فتوى العلمـــاء، وتحذيرات المختصين، وإن تسبب هذا المزيج بعطل الجهاز أو إشعال حريق! وذهب ضحيته كل أهل البيت فإنه لم يكن من بين التحديدات الموجودة للحرام.

ضـــبابية واضحة المعالم زادها الشك الموجود في النفس عتمة بعد أن توسعت رقعته لأسباب عدة بينها:

1. ظروف الحياة الصعبة.
2. معالم الصراع الطويلة مع متغيرات عديدة للواقع غير المستقر.
3. العلاقة غير السوية مع الدولة، ومسؤوليها عبر تاريخها الطويل.

ضبابية غلفت الكثير من مفردات الحياة يمكن الاستدلال عليها من خلال الاستجابات الدارجة في التعامل مع ما يحيط من مثيرات ذات صلة بإبداء الرأي، والتقييم.

إذ نرى على سبيل المثال، وعندما يذكر أو يشار إلى أي مسؤول سياسي أو حكومي نسمع من أكثر الحضور تقييما يتجه نحو السلب أكثر منه إلى الإيجاب.

وتبدأ في مجاله عملية التجريح، والتشريح التي تفضي إلى الشك بقدرته، ومستواه، ونزاهته، وإمكانياته في النجاح وإنجاز ما مطلوب منه من مهام.

وهذه بحد ذاتها مشكلة ليست ذات تأثير مخل بشكل كبير في السياسة التي ينبغي أن يتحمل فيها القائد السياسي أو الحكومي تبعات التجريح في ظروف الانفلات الديمقراطي، وأن يترك الحكم على النتائج للزمن ولو بعد حين، لكن التأثير الأكبر لها:

عندما زحف الشك اضطرابا ليشمل محيط التعامل بين أصحاب المستوى ذاته، والأقران في دوائر الدولة، والأحزاب، والحركات السياسية، التي يمكن تلمسها في مجالها، وبشكل واضح في حال إسناد عمل إلى موظف ما، أو حصوله على ترقية أو مركز أعلى تبدأ على الفور جلسات الشك لتشوه التقييم المنطقي.

ويبدأ الأقران، والقريبون بالتفتيش في سجلات الماضي ليصلوا إلى استنتاج فوري مفاده أن التكليف خاطئ، والقابلية دون المستوى، والتاريخ الشخصي غير مشرف، والخبرة غير ملائمة فيضعون أنفسهم في ضبابية تربك التقييم.

وتزداد معالم الشك، والتجريح في كثير من الأحيان عندما يتحمس المعني في تنفيذ التكليف، أو يقفز خطوة لم يستطع الأقران قفزها إلى الأمام، لتتوجه نحوه سيول الاتهام باستغلال الفرص، والتقرب إلى المسؤول.

وإذا ما كان الأمر ذا صلة بالمال، وتحقيق أرباح سوف يتمحور الشك، والضبابية حول ميوله للتبذير، وتلقي العمولات، والتجاوز على المال العام، وغيرها من معالم الشك والتأويل، وإن كان البعض منها موجودا في بعض الأحيان.

وعندما زحف كذلك ليشمل الأعلى بالنظرة إلى الأدنى شَكّاً في التعامل، والتكليف.

إذ نـــرى علـــى سبيل المثال وفي حالات ليست قليلة أنّ الوزير يشكّ بقابلية وكلاء وزارته، والمدراء العامين.

ويشك الأخيرون بولاء الأقل منهم مستوى.

ويـــشك الأمين العام بولاء، وقابلية بعض أعضاء مكتبه السياسي حتى أصبح الأمر وبعد غياب المعايير الأصولية للتقييم فوضى، ومعاناة يشكو منها الجميع، ألماً نفسياً يعيشه الجميع.

إن خاصـــية الـــشك التي تعزز الضبابية أصبحت واقعا فعليا وإن لم يتنبه لها المجتمع، وجميع المسؤولين ستكون من بين المعوقات النفسية في طريق بسط الأمن، وإعادة البناء الذي باتت كل أركانه بحاجة إلى إعادة إصلاح وترميم.

لأن الذي يشك سوف لا يطمئن بمن يشك به.

وسوف يسحب من صلاحياته.

ويقيد حركته، ويكثر مراقبته.

وربما يكلف غيره في منتصف طريق التنفيذ.

الأمر الذي لن يسهم في وضع حجر واحد في أسس إعادة بناء العراق.

ولأن المشكوك به سوف يكون حذرا، يقدم خطوة، ويرجع أخرى إلى الوراء.

سوف لن يتحمل المسؤولية، ولا يقبل المجازفة.

وسيفتش دوما عن أسلم السبل، وأكثرها عونا له في تجنب لوم المسؤول.

وسيعود إلى توصية قديمة يرددها البعض في دوائر الدولة في أن لا يحرك ساكنا ولا يـــسكن متحركا ليعيش متفرجا لا يسهم بوضع حجر واحد في إرساء الأمن، وترصين أسس البناء المطلوب[1].

---

(1) إن الـــشك بحالاته الشديدة أحد معالم الاستدلال على بعض الأمراض العقلية، والاضطرابات النفسية مثل الاضطهاد(10).

وفي حالاته الوسط قد يؤشر إلى مصاعب في التكيف، وقدر من اللا سواء، وهو في ظروف العراق الحالية الصعبة التي ينتشر فيها بشكل ملموس بين العامة من الناس، وكذلك الخاصة يفـــسر في إطار خلل أوجدته بيئة منفرة يعيش فيها العراقي، مع كثرة التهديدات، والضغوط الموجودة من حوله، تسببت أو أوجدت بعض معالم المعاناة النفسية لا ترقى إلى حد الوصف بالاضـــطراب، لكـــنها معانـــاة أو خلـــل يمكـــن أن يتطور عند البعض حتى يصل مستوى

المبحث الرابع

التيه

خضع العراق إلى حكم القسر، والقسوة لخمس وثلاثين سنة متصلة، وقبلها سنوات قد يضيفها البعض، وقد يسقطها البعض الآخر من حساباته كسني وسمت بذات الصفة بسبب التفاوت في شدة القسر، والتعامل بمنطق الفردية، ومع ذلك فإن العقدين والنصف الأخيرة كانت كافية لأن يَتعوّد الجمهور العراقي على:

1. وجود الحاكم مرجعا وحيدا في كل أمور الحياة.
2. أجهزته الضبطية "الأمنية" الصارمة المتعددة رقيبا في كل شؤون الحياة.
3. الجهاز الحزبي، وبعض مفاصل الدولة المهمة التي ترسم للإنسان الفرد، والجماعة المستقبل في الحياة[1].

وبسببها خضع الجميع لضغط الخوف، وأضحت الاستجابة شبه آلية في مواقف، وإن لم تكن فيها السلطة موجودة من الناحية المادية.

وهذا يعني غياب مفردة الحرية إلى حدّ قد لا ينطق البعض بها لفظيا ولا يفكر بوجودها عقليا، بسبب الخوف من العقاب الشديد.

تلك الصورة المشوشة لعموم المجتمع العراقي لغاية 2003/4/8 تغيرت تماما بعده بيوم واحد، وكأن الجميع بين أسوار محكمة الغلق التي تهدمت فجأة أو أنهم

الاضطراب خاصة بالنسبة إلى الشخصيات الواهنة أو التي لا تمتلك كما كافيا من الطاقة النفسية للتعامل مع نفرة هذه البيئة، وتهديداتها، وضغوطها الشديدة، وشبه المستمرة.

وهذه معاناة تؤشر من جانب آخر إلى وضع نفسي قلق، غير مستقر مع كم من مشاعر العدوان يأخذ الشك "الخلل" أحد مساربها للتصريف.

(1) في ثمانينات القرن الماضي وما بعدها كانت الدولة من خلال أجهزتها الخاصة تلزم البعض من الطلبة، والشباب الذهاب إلى الكليات العسكرية المتعددة، والبعض الآخر إلى كلية الأمن القومي، وتختار قسماً منهم للدخول إلى بعض الدراسات التخصصية، وتلزم آخرين بالعمل في مجالات محددة، وترشح قسماً من الموثوقين للدراسة في كلية القيادة، والأركان، وتوفد إلى الخارج البعض حسب اجتهادها، ويتم التدخل في اختيار الزوجة لبعض المقربين، ويحرم أبناء منطقة أو عشيرة من استلام مسؤوليات مهمة بالدولة لمواقف منها قد اتّخذها بعض الأبناء، وتَحرِمُ مدن، وأحياء كاملة من مياه الإسالة الصالحة للشرب، ومن الكهرباء، وتُغني من تريد، وتُفقر من تريد حتى أصبح الإنسان في محيطها مُسَيَّراً بقدر كبير.

بين قضبان سجن واسع فتحت جميع أبوابه في ذلك التاريخ، فاندفعوا بسبب الزحمة على الأبواب، أو على الفتحات المهدمة في السور كل في الاتجاه الذي يراه كفيلا بتخليصه من ويلات الضغوط المؤلمة، بطريقة تنم عن الدخول في دوامة التيه في التوجه، والمسير تختلف بعض الشيء عن مجتمعات أخرى حصل فيها تهديم للأسوار، وفتحٌ للأبواب، ولم يحصل فيها التيه جريا فوضويا في جميع الاتجاهات بسبب:

1. بقاء السلطات الضابطة في الخارج قادرة على التوجيه، والسيطرة.
2. وجود قيادات مؤهلة لإرشاد الجموع إلى الأماكن الصحيحة.
3. إدراك المجتمع لحاجته إلى أجهزة ضابطة فيبادر سريعا لدعم وجودها بهدف القيام بمهام الضبط، والتوجيه، والسيطرة.

لكن الذي حصل في العراق في هذا الجانب:

1. غياب مفاجئ لتلك السلطات، وانتهاء الخوف كعامل ردع، وتأثير.
2. عجز المجتمع في الوقت نفسه عن تكوين سلطات ضابطة بديلة عن التي اختفت بشكل سريع، ومفاجئ.

إن هذا الغياب، وعدم الرغبة أو العجز في إيجاد البديل أشعر الجميع بنشوة التخلص من الديكتاتورية عندها:

راقب البعض الموقف عن قرب، وبقي في حال انتظار لا يفقه ما يمكن عمله فوضع نفسه في دوامة تيه.

وتوجه البعض الآخر إلى النهب، والأخذ بالثأر، والإيذاء بطريقة اختلطت فيها المشاعر فكونت حالة تيه ذاتي، وابتعاد عن الواقع الذي أرادت له قوى التغيير أن يكون.

وسار ثالث في الاتجاه المعاكس حاملا بندقيته بعد أن صحا من الصدمة قبل أن يرسم الأهداف، ويضع الخطط، ويؤمن الاتصال بالخارج، ويهيئ التمويل فسجل هو كذلك دخولا في دوامة تيه استمرّت عدة سنوات.

وقاد رابع سيارته في المسار الخطأ، وهكذا فعل الخامس، والسادس تائهين عن الوعي مدفوعين بوهم الحرية المطلقة، أو ما يعتقدونه نوعا من الحرية التي لم يته

الساعين إليها لأنها لا تسمح بارتكاب الخطأ، ولا تقبل التجاوز على حرية وحقوق الغـــير، ولا ترضى الأخذ بالثأر، واغتصاب أملاك الدولة، إنها تسمح فقط أن يُعَبِّرُ المرء عن رأيه ويحترم آراء الآخرين، ويفعل ما يريد فعله في الحدود التي لا تؤثر على الآخرين، ويتمتع بحياته ليس على حساب الآخرين.

في العـــراق ومثله العديد من المجتمعات التي تعاني ضعفا في فهم الحرية، وتدنيا في مـــستويات النضج العام هناك فروق بين التمنيات، ومساعي تحقيقها أصبحت واضحة المعالم في الوقت الراهن، وبسببها أو على أساسها ترغب الغالبية بالتغيير إلى مجتمع أفضل على سبيل المثال، وقليل منهم يشرك نفسه بوسيلة التنفيذ. كثير ينتقد حد التجريح، والأقل يقحم نفسه في عملية التقويم.

السواد الأعظم يؤمن بوحدة الهدف، ويختلف مع من يسعى معه للتوحيد على صياغة عبارة أو تقديم كلمة على أخرى[1]، وغيرها من معالم التشتت، والتشظي، والتـــناقض التي لا تعبر فقط عن الضعف البين في النضج، بل وكذلك عن التشوه الملمـــوس في نهـــج التفكير، والتحوير الحاصل في المفاهيم لنسبة غير قليلة سحبت العراقيين نتيجة التكرار عبر الزمن إلى التأييد ظاهريا، والرفض داخليا، وإلى الاتفاق آنـــيا، والاخـــتلاف موقفـــيا، وكذلك الرغبة في أن يذم، ويشتم، وينتقد، ويترك التضحية، والمجازفة للغير بدلا منه، فأسهموا أو أسهم كثير منهم دون وعي منهم في ما وصل إليه العراق في الوقت الحاضر.

إن مـــن بـــين المشاكل الشائعة حاليا هي أن وضع العراقيون أنفسهم وسط دوامـــة الهدم، والتدمير النابع من داخل ذواتهم المتعبة يقابله بصيص أمل في الخروج مـــن الـــنفق المظلم إلى مستوى أصبحت فيه التناقضات النفسية، والقيمية شديدة

---

(1) يلاحظ في اللقاءات التي كثرت بعد وضوح نتائج الانتخابات نهاية عام 2005 بين الأحزاب والحـــركات الوســـط باتجاه التوحد، والدمج، وتشكيل التجمعات، والائتلافات أن الاتفاق على المـــبدأ، والأهداف العامة سرعان ما يتم، والمرور على الثوابت سرعان ما يثبت التطابق في مجالهـــا، وعـــند العبور إلى المراحل اللاحقة أي التنفيذ نجد أن البعض في الجلسة الحاسمة يـــستمر في الجدال الحاد لأكثر من نصف ساعة على ضرورة تبديل كلمة بدلا من الأخرى، وقـــد يترك الجلسة محتجا أو غاضبا لتبديل عبارة يراها هي الأكثر مناسبة الأمر الذي يشير إلى وجود نوع من التشتت أو التيه يبعد البعض عن الغاية المتوخاة.

الـــتأثير في العموم من أبناء المجتمع، ضعفت بسببها أهداف سامية مثل الديمقراطية الـــتي قلـــت المطالـــبة بتحقيقها، أو تم نسيان أهميتها للعيش الآمن المستقر وسط الفوضـــى، والاضـــطراب، وكذلك مفاهيم العدالة، والمساواة، وتقدير الذات التي تلاشت وسط الزحام، والتجاوز[1].

وأخـــذت مكانها معايير أخرى للحياة قوامها المصالح الشخصية في الكسب الـــسريع، وإشباع الغرائز الآني، والسريع، والتطلع إلى الغير والمقارنة مع الغير حتى اعتادوا الجري حثيثا في الاتجاهات كلها التي يعتقدون أنها تؤمن سريعا تلك المصالح الشخصية، وإن تمت على حساب مصالح الغير.

إنـــه واقع يمثل شرودا أو هرولة تشبه هرولة التيه التي يؤديها جندي محبط نحو خـــصمه في المعركة الخاسرة لا بقصد التغلب عليه، وقتله بل والتمني لا شعوريا أن يحـــصل منه على طعنة ترديه قتيلا ليتخلص من محنة ترهقه، وهذا واقع زادته حالة التناحـــر، والاحتراب الطائفي شدة بسبب استنـــزاف جل الطاقة المتاحة لأغراض الـــتعامل معـــه فوضـــعت الجميع في دوامات مختلفة هائمين، منفعلين، غاضبين لا يعرفون ما يجري، ولا يمكنهم توقع ما سيجري فوصف حالهم بالتيه.

إن وضع العراق لا يختلف عن بعض المجتمعات المتخلفة التي تمر في تغيير سريع عـــن طـــريق الثورات، والانقلابات، والحروب التي تتأثر فيها العلاقة بين الحاكم، والمحكوم أو تمر عادة بمرحلة فوضى غير عقلانية تُشبَه على أساسها تصرفات الفرد، والجماعـــة بالتيه النفسي الذي نتلمس حصوله في مرحلة ما بعد التغيير على سبيل المثال أن من شتم الحاكم السابق سرا يرى نفسه بطلا يستحق الإشادة، والتعويض، ومن رفع صوته بالضد من ذلك الحاكم يعتقد أنه من يستحق المكافأة بسخاء، ومن

---

(1) فـــي عـــام 2005 قل تداول مصطلح الديمقراطية في الأدب السياسي، والشعبي بالمقارنة مع كثرتها عام 2003، و2004 وحل محلها العديد من المصطلحات ذات الصلة بالفساد، والقتل، والاغتـــيال، والاســـتغلال وغيرها إلى الحد الذي أصبح ذكر الديمقراطية في بعض المواقف خاصة بين الناس العاديين غير ملائم بل ويتهمها البعض منهم في إحداث حالة التدهور وعدم الأمـــان، وغـــياب الـــتداول لمصطلح الديمقراطية هذا بطبيعة الحال طبيعي بعد أن وجدت حاجـــات يـــراها الإنـــسان العراقـــي مهمة بينها الأمن الذي غطى على باقي الحاجات منها الديمقراطية.

سـجن لأسـباب غـير سياسـية يظـن أن الفرصة متاحة لأن يكون في مقدمة المضطهدين.

وفي نفـس المجـال يتصور من كون حزبا أن الوطنية حكر عليه، ومكاسبها حجـز مكـان مـع النخـبة على كراسي الصف الأول، وغيرها من الظنون، والتصورات أو بالمعنى الأدق الأوهام التي تدفع بأولئك الحالمين إلى الجري حثيثا من الداخل (مركز المشكلة) إلى الخارج (مجال الوهم) في عدة اتجاهات تنم عن دوامة تيه لا يستطيعون بدخولها تحديد ما يريدون، ولا تشخيص قدرة المجتمع على الإيفاء بمـا يريدون، عندها عم التشتت في الجهد اللازم لحل المشكلة، واكتشف بعضهم بعد حين أنهم كانوا أشبه بالتائهين أو السائرين بالاتجاه الخطأ، وأنهم قد عادوا إلى نقطـة الصفر، وخسروا طموحاتهم، وخسر الوطن جهدهم المتاح لتجاوز محنته في أحلك الظروف.

هـذه إحدى جوانب الصورة النفسية المشوهة لبعض ما يجري أو التيه في وقتـنا الـراهن، والتي بسببها، واضطراب الذات المفرط حاول من أتيحت له فرصـة الجلـوس في المقدمة أن يقوي ركائز كرسيه، وإن تقوضت كل ركائز الغير، ومن لم تتح له الفرصة المناسبة لتحقيق المكاسب لم يستسلم للأمر الواقع وبـات همـه فقط التقدم إلى الأمام بغية إشغال المكان. وفي وسط هذا الجري اللاهـث بقي الوطن في دوامة التيه، جريحا يئن من ألم الجريمة السياسية التي تجر وطنه إلى الحرب الطائفية، واحتمالات التقسيم، والجنائية البشعة التي ينتهك فيها عـرض فـتاة للتنكيل بوالدها الميسور، ويئن من فرط التيه الذي لا يجد بسببه مكانا لعيشه داخل العراق، وخارجه.

تيه يعيشه الجميع من مواطنين عاديين، وسياسيين مخلصين، وغير مخلصين، لم يدرك عديد منهم أنه من أعقد المشاكل النفسية التي تعيق تحقيق غاياتهم في الوصول إلى المكان المنشود، وإنه دوامة خطرة ستبتلعهم الواحد بعد الآخر في خضم أحداث تنـتجها في دورانهـا السريع يصعب السيطرة عليها، وَهُم في وسطها بعيدون عن المـنطق، والواقعية، وعن إمكانية إقناع الأجنبي الموجود على أرضهم أنهم قادرون على التعامل معه بما يؤمن مصالح بلادهم.

إن التـــيه النفـــسي هذا دوامة "آفة" اجتماعية تتكون في ظروف الشدة، وفي المجـــتمعات الأقل تحضرا، لا يمكن التخلص من آثارها السلبية إلا بتجاوز الشعور المفرط بالأنا (الذات)، والانتقال إلى النحن، ولا يمكن الجزم بالتخلّص منها إلا بعد أن نشاهد في العراق ثلاثة أحزاب أو أربعة تجمع في صفوفها كل محترفي السياسة، وتتقاســـم في توجهاتها كل هموم العراقيين، ويتجه الجميع إلى الإصلاح من داخل نفوسهم القلقة.

الفصل الثاني

الطائفية

إن الطائفية مفهوم يشير إلى الانحياز في الولاء إلى الجماعة أي الطائفة التي ينتمي إليها المعني، والتعصب بالضد من الأخرى.

الطائفة من الناحية الاصطلاحية تسمية أطلقت على فرق إسلامية تكونت في أغلبها إبان العصر العباسي لتعبر ظاهريا عن تحول تلك الفرق من ساحة العمل السياسي أو الثقافي إلى العمل الديني، وشملت أهل السنة، والشيعة بفروعها الاسماعيلي، والاثني عشري، والزيدي، ومن ثم الدرزي(11).

إن التوجه للعمل، والولاء على أساس الطائفة الذي وجد في ذلك العصر شاع التمسك به أو بالطائفة، والولاء لها في المنطقة العربية، والعالم الإسلامي، بشكل يفوق كثيرا الغرب المسيحي الذي ضعف تأثيرها في جوانبه تدريجيا بعد انفصال الكنيسة عن سلطة الدولة، وابتعاد الدين عن التدخل في السياسة.

أما الطائفية فهي الجانب الانفعالي لمصدر التسمية"الطائفة" الذي يشير إلى الانحياز في الولاء إلى الجماعة أي الطائفة التي ينتمي إليها المعني، والسير مع من فيها، والتعصب بالضد من الأخرى.

إن نشأة الطوائف، والغاية من ديمومة عملها لم تكونا كما أشار البعض إلى أنهما تحول في العمل من السياسة إلى الدين، بل على العكس من ذلك تماما هما تكييف الدين لأغراض السياسة إذ إنّ النية كانت عند معظم القائمين على إنشاء الطوائف في الأغلب تكوين مفاهيم ذات أسس دينية عقائدية تسحب الموالين لها إلى السعي لتعميمها على المجتمع المستهدف بوسائل الإقناع أو بحد السيف لإقامة سلطة الدولة الطائفية، وهذا استنتاج تؤيده أحداث التاريخ التي تشير إلى أن مجتمعات عربية، وإسلامية دعمت طائفة معينة وناصرتها في الحكم، وتبدلت إلى

أخـــرى علـــى النقيض منها بقوة السيف كما في مصر الدولة الفاطمية، أو بتأثير السلطة كما في إيران خلال المرحلة الصفوية، وغيرهما.

هـــذا ومع زوال تأثير المعتزلة، والاشعرية، والباطنية، والإسماعيلية، والخوارج بدا المسلمون منقسمين في الأعم إلى طائفتين أساسيتين هما السنة، والشيعة انقساما لم يخل كثيرا بمجرى الأحداث في العالم الإسلامي لأن كفتيهما في الصراع الدائر لم تكـــونا متعادلـــتين بمستوى يدفعهما إلى إدارة معالمه طائفيا "دينيا" بالمستوى الذي يمكـــن أن يُحسم فقهيا لمن يتفوق بمنطق الحجة، أو بقوة السلاح، وبدلا عنه تحول إلى صراع سياسي بين حاكم في السلطة، ومعارض من أجل الوصول إلى أدراجها، مركـــزه عادة في العراق، وأسلوبه الشائع نوع من التحدي، والاستفزاز يتأسس في كثير من الأحيان على ممارسة بعض الطقوس أو السعي لمنع ممارستها، مما أثر بشكل كـــبير علـــى مفهوم الوطن "العراق" الذي يتأسس على مشاعر الولاء إلى وجود جغرافية محددة، وتاريخ معين.

إن الصراع غير المحسوم طائفيا، والإدارة غير النـــزيهة دفعا إلى أن يعم الولاء في بعـــض مراحل التاريخ "بينها العقود الأربعة الأخيرة على وجه الخصوص" إلى الطائفة أسبقية أولى دون الوطن أسبقية مطلقة.

وهـــذا خلل، وتجزئة للولاء لا يحتملها وطن يكافح من أجل الخروج من محنة الحـــرب، والاقتتال[1]، ومنافسة من قبل الطائفة على الولاء أو السيادة لا يمكن أن

(1) هـــناك جدل في العراق حول موضوع الطائفية، ومدى انحياز الحكومات ما قبل التغيير إلى طائفـــة دون أخرى، وهو جدل أساسه طائفي إذ وعندما يُتهم صدام على سبيل المثال من قبل الـــشيعة بالانحياز إلى السنة في توزيع المهام، والمسؤوليات يرد العديد من السنة أنه قد قَتلَ مـــن الـــسنة الكثيـــر، وهو كان لا يفرق بالقتل بين الطرفين، وهذا صحيح، لكنه حكمٌ على السلوك يعد ناقصا من الناحية المنطقية إذ إنّ صدام الذي قاد حزبا علمانيا، وإن لم يكن متدينا قد وقع في وهم الولاء المجتزأ لأغراض حماية النظام خاصة إبان الحرب مع إيران، وخلال انتفاضة عام 1991 وما بعدها وعلى أساسه بدأ تغييرا في أسلوب إدارته للبلاد أولى خطواته الفرز بين العرب وغيرهم، ومن ثم إبعاد الشيعة عن مفاصل القرار بالمقارنة مع السنة، ومن بعد قرب التكارتة على الباقين من أهل السنة حتى وصل في تجزئته الولاء إلى عشيرته التي فـــضلها على أهل تكريت حتى أثار بأسلوبه للإدارة هذا مشاعر الطائفية بعد أن شعر الشيعة في العشرين سنة الأخيرة من حكمه بالحيف، وعدم المساواة.

يجاريهـــا الوطن، لأنها "الطائفة" تتحرك بطريقة مختلفة قوامها ملء الشعور بالانحياز إلى مفاهيمها، وتقاليدها، وطقوسها لمستوى تعزل فيه الوطن من الذاكرة، وتؤسس وجوداً لها بديلاً عنه بشتى الوسائل، والأساليب التي خبرتها طيلة مئات من السنين، وهذه هي لب الأزمة بعد أن توجه الجمع إلى الانقسام إلى طائفتين.

وســـعي الكـــثير مـــن أبنائه إلى التصرف، والحسم على أساس طائفي، أنتج بالتكـــرار أنـــواعاً مـــن السلوك زادت من الاضطراب الأمني، وقربت المجتمع من حافات الهاوية مثل:

الاخـــتلاف، النفرة، الفتنة، السكوت التي سيتم تناولها بقدر من التفصيل في ما يأتي.

المبحث الأول

الاختلاف

إن التكتل الذي ظهر واضحا في العراق ما بعد التغيير، والشعور بالتهديد من مصادر متعددة، وسبل التعامل مع شؤون الحكم، والحياة على أساس التوزيع "غير العادل" للوظائف، والمهام على افتراض التمثيل السكاني، ومشاعر الربح، والخسارة التي نتجت عن التغيير كونت خاصية الجدل الانفعالي، والاختلاف الموقفي في كل شـــؤون الحياة التي تطرح للنقاش حيث الوقوف المسبق بالضد في صفين متقابلين، الأكثر وضوحا، وتأثيرا في مجالها في الوقت الحاضر هي الصفوف المتقابلة من[1]:

---

(1) إن خاصية الجدل الانفعالي التي تُغذى بشكل دائم، وإذا ما استمرت على هذا الحال سوف لن تـــتوقف مـــستقبلا "تبعا لتطور الأحداث، وماهية الأهداف الموجودة" عند الصفوف المذكورة أعـــلاه لأنها وجدت لتؤدي وظيفة الاختلاف، والتناحر. وعلى افتراض أن الخلاف بين السنة والـــشيعة ينتهـــي عـــند العـــزل بين الطائفتين بأية طريقة يكتشفها الأجنبي، ويراها الطائفي العراقي مناسبة، فستتحول صيغ هذا الجدل، والخلاف الرئيسي بين جانبين أي الشيعة والسنة إلى خلاف، وجدل انفعالي من نوع آخر مثل:
شيعي من أتباع المرجع الفلاني وشيعي من أتباع المرجع الآخر.
شيعي مع الحوزة في النجف، والآخر مع الحوزة في قم... الخ.
وهكذا الحال مع السنة الذي ستنشأ بينهم أيضاً بؤر جدل انفعالي قوامها.

سني - شيعي، وأقل منه بكثير، عربي - كردي، كردي - تركماني.

وفي مجالهـــا نــــرى وبوضوح أنه وعندما يلتقي اثنان أو أكثر من الأصدقاء أو حـــتى من الأقارب في بعض الأحيان خلال جلوسهما في المكتب الذي يعملان به معـــاً أو في أحـــد المقاهي الشعبية التي انتشرت بشكل يفوق ما كان موجودا في الـــسابق، ويتحاوران عن مواضيع تخص الانتخابات مثلا، وأهميتها للعراق حاضرا، ومستقبلا يختلفان في تقدير تأثيرها على استقلال العراق.

وفي جدوى انعقادها في ظروف التوتر، وعدم الاستقرار.

ومصداقية المشرفين عليها في السماح للمؤهلين في حكم العراق.

ومن سير الحوار، وسخونة النقاش يتبين:

أن الخلاف الحاد بينهما لم يأت من الموقف الإيديولوجي لكل منهما.

ولا من القبول الضمني لمبدأ الانتخاب بالنسبة للأول، ورفضه للثاني.

جـــاء فقـــط لأسباب تتعلق برغبة الشيعة في إقامة الانتخابات، ورفض السنة إجـــراءها الـــذي بـــات يحرك كل منهما في الاتجاه المعاكس للآخر في كل مواد النقاش[1].

وإن مساحة الاختلاف بالوسع بلغت حدا لا يستطع فيها أحد إقناع الآخر، ولا يمكن أن يسلم في مجالها طرف بالمنطق الذي يطرحه الآخر.

سني سلفي، وسني مؤمن.

سني مع إقامة إمارة إسلامية، وآخر مع الحقوق المدنية...الخ.

وهـــذا افتراض يبين أن أصل الخلاف، والجدل الانفعالي نفسي وجد أو أُوجدَ لغايات الفرقة، والابـــتعاد، وتحقـــيق بعض الغايات إن لم يتنبه إليه المجتمع، ويتجاوز وقائعه سينسحب إلى مزيد من أوجه الخلاف تقسم العراق أكثر من ثلاثة كيانات متصارعة.

(1) القـــبول وعـــدم القبول مسألة من الناحية العملية لا تنطبق على جميع الشيعة إذ ظهر من بيـــنهم جماعـــات نادت علانية بضرورة تأجيل الانتخابات متفقة مع كثير من السنة الذين طلـــبوا ذلك باستثناء البعض القليل الذي أيد حصولها أو شارك فيها كتحصيل حاصل على الـــرغم من عدم اتفاقه على موضوع إقامتها، لكننا لو أخذنا مبدأ الأكثرية الذي تم الاعتماد علـــية فـــي رسم الصورة، والموقف في سياقات هذا الكتاب فيمكن القول أن غالبية الشيعة كانوا مع الانتخابات، وبالمقابل فإن غالبية السنة كانوا بالضد من حصولها في ذلك التاريخ على أقل تقدير.

وإنهما قد تقاطعا أو اختلفا على موضوع في غالبه فني، وفي حوار تقليدي لا يستدعي انفعال الغضب بسبب الانتماء الطائفي الذي دفع بشكل غير مباشر باتجاه الإحساس بالخسارة، والربح ما بعد التغيير.

دون أن يدركا أو يسألا نفسيهما معاً هل إن الإسلام قد أبقى موضوع الانتخاب للمجتهدين من مذاهبه لتختلف في الوقت الراهن كما هو حالهم في بعض المسائل الشرعية التي تحتاج إلى الاجتهاد؟

وهل أن أحد المذاهب يقر بالانتخاب، ولا يقر به الآخر أسلوبا لإدارة الدولة، والمجتمع في عصر بات فيه الانتخاب أحد معايير التحضر، والرقي، كما يتبين أيضاً أن:

1. الاختلاف الانفعالي بات خاصية عند أهل العراق أو دوامة من الدوامات يحصل تلقائيا في كل المجالات التي تطرح للنقاش أساسه طائفي.
2. الشعور التعصبي بالانتماء إلى المذهب هو الذي يدفع إلى تحديد الموقف من بعض المواضيع المطروحة تأييدا أو معارضة، مدحا أو انتقادا قبل الرجوع إلى المنطق وإلى الثوابت عند الجماعة، والطائفة، والمذهب، والدين.

وبالمحصلة يتبين كذلك من الجدل الحاد، وكثر الخلاف الذي تمتد جذوره في التاريخ العراقي لأكثر من ألف عام أن معظم دوافع الخلاف الانفعالي التي تحصل في وقتنا الراهن، والتي بدأت تمتد إلى خارج العراق[1] تعود إلى الولاء الذي اجتزئ من الوطن إلى الجماعة الفرعية"الطائفة" أراده الحاكم"السلطان" وَدَعّمَ وجوده منذ المحاولات الأولى لإنشاء دولة بمعناها السياسي بعد وفاة الرسول (ص) لتقوية موقفه في الحكم، وأراده من عارض السلطان، وعزز وجوده لتفعيل معارضته للحكم عندما كان السلطان ظل الله في أرضه قبل التبشير بالديمقراطية أسلوبا للحد من التمادي في الظلم الذي يفرضه الإنسان على أخيه الإنسان.

وإنه قد استمر مع المسلمين، وبينهم العراقيين لظروف، وأحداث عاشوها، ولضعف يعيشونه في النضج، والإدراك.

(1) بين عمرو موسى أمين عام الجامعة العربية في 2007/2/17 في تصريح متلفز أن أكثر ما يهدد المنطقة هو الاختلاف الحاصل ما بين السنة، والشيعة.

وإن التـــباين في الاجتهاد الذي أراده العلماء الأوائل بين المذاهب في الأديان تأسس على تفسيرات بعض معالم الشريعة، والحياة لتسهيل أداء الفرائض والعبادة، استغله الحكام كما ورد أعلاه، ويستغله طالبو الحكم في الوقت الراهن أسلوبا يعبر عــــن الرغبة في فرض الرأي بالقوة الأمر الذي يعيق بطبيعته التطور، ويدخل المجتمع في أتون الخلاف الذي تطور شكلا من أشكال الصراع إلى التناحر، ومن ثم العنف، واستخدام السلاح.

إن الاخـــتلاف هو السمة الغالبة في عراق اليوم، والتي تحول دون التفاهم لإيجـــاد حلول مقبولة لعديد من المشاكل التي تعصف بأمن البلاد وفي مجالها لو تجاوزنـــا مـــنطق الولاء للوطن الواحد، وقبول المشاركة اللذين يشكلان قواعد التفاهم في العيش داخل المجتمعات المتحضرة الآمنة، واقتربنا قليلا أو اتفقنا مجازا أن العـــراق كـــان وما يزال، وسيبقى في المستقبل ليس القريب من الآن أقواما مخـــتلفة، وطوائـــف متعددة، وحاولنا على أساسها وبروية، وتأن أن نناقش مع أنفـــسنا أوجه الخلاف المتأزم، والاتفاق النادر بين هذه الأقوام والطوائف. وفي مجالها نسأل:

هـــل تـــصل نقاط الخلاف، والتقاطع بين أقوام العراق، وطوائفه إلى مستوى القتل العمدي دون سبب جنائي كما هو حاصل في الوقت الراهن؟

وألا يمكـــن في خضم هذا القتل الغادر، والتعقيد، والتأزم من أن يجد العقلاء من بين طوائف أهل العراق نقاط تقارب، واتفاق تحول دون حصول ذلك؟

ولماذا لم يتعظ العراقيون من حوادث التاريخ، و لم يسعوا جميعا لحقن الدماء؟

وبالمـــنطق وعلى أساس الحوادث المثيرة للخلاف في الزمنين البعيد، والقريب، يمكن الإجابة عن تلك الأسئلة من خلال القول:

إن أوجه الخلاف بين طوائف، وأقوام العراق عبر تلك الأزمنة كانت مذهبية الطابع بعد أن تعمق العلماء بالاجتهاد في أصول الدين، وفقه الشريعة.

وأوغل العامة من أبناء القوم الواحد بالجهل، والابتعاد عن المنطق.

واســـتثمر الحكام ذلك لصالح القهر، والاستبداد، حتى تمسك البعض بصحة الاعتقاد.

ولم يكتف بذلك فتوجه دون وعي إلى التكفير، والانتقاد متجاوزا معنى الاجتهاد.

وسار أبناء القوم والدين الواحد إلى التجزئة مكونين طوائف متعددة بولاءات مختلفة، وانتماءات متناثرة، فيها نقاط عدم التلاقي تفوق كثيرا تلك الموجودة أصلا بين الأقوام المختلفة. وهي خلافات تؤدي إلى سلوك القتل عندما يعم الجهل، ولا يتّعظون من آثارها، وهم غارقون في دوامتها حد العمى، وفقدان البصيرة.

وما يهم العراقيين هنا ليست النشأة الأولى للخلاف المذهبي، وأسباب تكوينه، لأنه موجود في كل الأديان، ومتواجد في كثير من النفوس على الرغم من اختلاف شدته تبعا لعاملي التحضر، والقدرة على إدراك الحقيقة، لكن الذي يهمهم أساسا هو ما يتعلق بالعظة التي لم يأخذها غالبيتهم من حوادث الماضي في محنتهم الحالية إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن الخلاف في الرأي، والاجتهاد المذهبي بين الأقوام، والطوائف في العراق ما بعد الحكم الأموي الذي أرسى قواعد القتل بسبب الاختلاف، والعباسي الذي حاول استثماره لأغراض الانفراد بالحكم لم نجد أنه "الاختلاف" كان سببا أساسيا في إثارة الكره، والحقد حد إثارة الغضب الانفعالي الذي يدفع إلى القتل لمجرد الاختلاف"مع بعض الاستثناءات" بل وهناك دوافع أخرى أغلبها سياسية الطابع إذ نجد في التاريخ ليس البعيد على سبيل المثال أن جميع الحوادث التي سجلت عبر مراحله كدوافع قتل بسبب الاختلاف كان وراءها حكام، وأقوام يسعون إلى الهيمنة، ونهب الخيرات بدعوى المذهب والدين، وهم في طريقهم إلى تثبيت الحكم يسعون إلى دعم مذهب دون آخر، وتفضيل أبنائه على أبناء المذهب الآخر إلى حدّ إثارة الفرقة، والحقد التي يجد فيها الحاكم مجالا مناسبا للسيطرة، وبسط النفوذ.

ويجد فيها العراقيون من أبناء المذهب الحاكم أنهم قد كسبوا جولة، دون أن يدركوا أنهم سيخسرونها عندما يدعم الحاكم الأجنبي المذهب الآخر، ويعيد احتلال العراق سائرا على نفس النهج، والطريق، وقد يزيد قليلا في سعيه لتهديد الأضرحة، ودور العبادة بعمليات التهديم.

وهكذا تتكرر الأحداث، ويدفع العديد من العراقيين الثمن دون أن يعوا بأنهم جميعا من الخاسرين.

ومـــا ينبغي أن يضعوه في اعتبارهم، وهمْ في دوامة الاختلاف تذكر بؤسه، وتذكير القريبين على أنه دافع قتل كان وسيبقى هدفا غير عراقيّ.

وأن يـــدرك الـــسياسيون بأن هذا السلاح يتسع استخدامه، إلى الحدّ الذي يصعب إيقاف تأثيراته الكارثية التي ستشملهم ولو بعد حين.

ويفهمـــوا، ويعلموا الغير أن أدواته الفاعلة هم الجهلة والمارقون، وهم وقوده المدفوع ثمنه من قبل أعداء الدين، والطائفة، والمذهب من خارج العراق[1].

المبحث الثاني

النفرة

إن الوقـــوف بالـــضد يعـــني الاختلاف، والحكم المسبق بعدم الاتفاق يعني اســـتعداداً دائمـــاً للاخـــتلاف، كما أن الأفكار التي تكونت بسبب الأحداث، والمـــوروثات الحـــضارية بعـــدم التلاقـــي تحمل في طياها مشاعر بالضد أساسها الاخـــتلاف الـــذي بـــات يميز اللقاءات التي تجري على مستوى الناس العاديين، والـــسياسيين المشاركين في الحكم، وغير المشاركين تتعلق بجدل انفعالي حتى على المـــسلمات، والبديهـــيات وكما ورد في الموضوع السابق، والتي أسهمت مراحله المتقدمة في تكوين النفرة في النفس العراقية.

إن الـــولاءات المجتـــزأة خـــارج إطار الوطن هي عامل التأثير المشترك لكل الانفعـــالات المذكورة، والتي ستذكر لاحقا لأنها أسست مفاهيم الاعتقاد بصحة الرأي أحادي الجانب الذي يدفع إلى الانحياز بغياب المنطق، والاطلاع.

(1) مـــن الملاحظ في الشارع البغدادي، ومن متابعة بعض الوقائع، والأحداث أن غالبية المنفذين لأوامر القتل، والتهجير، والتجريف في بغداد، وخارجها هم شباب من المستويات التحصيلية المتدنـــية، تقتـــرب أعمارهم من المراهقة، ويقترب مستوى عيشهم من الفقر، وقد يكون هذا الاختـــيار فـــي التجنيد مقصودا لأنهم يتعاملون مع الأوامـــر دون تمحيص، ويضعون آمالاً على التنفيذ في الصيرورة عجزوا بقدراتهم الطبيعية عن تحقيقها.

وإن الانحياز، والمعارضة التي تتأسس على الاعتقاد بصحة الرأي كما هو سائد حاليا توجهات في النفس تكوّنُ بالتكرار نفرة، وابتعادا عن الوسط معظم الأحيان يحول دون الاتفاق على الحلول في ظروف الفوضى، والاضطراب.

إن التاريخ العراقي شهد انحيازات كونت نفرة تسببت في كوارث كان أهمها مـــا يتعلق بالعثمانيين، والصفويين الذين تبادلوا احتلال العراق، واستخدموا مشاعر الانحياز لتعزيز حكم، وتخريب آخر يدمر في طريقه كل ما هو موجود في العراق.

كمـــا أن الانحياز إلى طرف في السياسة يسحب إلى مناصرته قولا، ومشاعر، وفعـــلاً، وهـــذه تستثير الطرف المقابل فتكّون المقاومة فيحدث الاقتتال، وهذا ما يحـــصل في العراق الحالي، هذا وإن التأييد المطلق إلى جانب الحكم، والسياسة كما يحصل في الوقت الراهن ينتج رفضاً مطلقاً على الأسس النفسية ذاتها فيسهمان معاً في تعزيز النفرة.

إن النفرة ومن استعراض العديد من حوادث التاريخ، والاستجابات الحاصلة في مواقـــف الجدل الانفعالي يتبين أنها موجودة أو مكبوتة طيلة الأزمنة السابقة" إلا في بعـــض المواقف المتفرقة" وقد تحررت من مكامنها بطريقة الانفلات غير المسيطر علـــيه بعـــد التغـــيير لا يمكـــن إيقاف تأثيراتها الانفعالية بغياب الضوابط الثقافية، والأخلاقـــية، والتدخل السريع، والمباشر من الدولة التي تعجز بظروفها الراهنة عن القيام بهذه المهمة على انفراد.

والنفـــرة داء يـــصعب أن يبتعد أحد عن نارها المستعرة التي يزيد العديد من الأطـــراف الحطب في مواقدها خلال المرحلة الحالية بعيدا عن منطق الحوار المتأني، والـــنقاش المتحـــضر للتعامل مع انفعالاتها السلبية التي تحررت فجأة، لأن سعيرها سيحرق أولا أولئك القريبين من بؤرها، والداعين إلى اشتعالها وسيمتد أفقيا ليأخذ في طريقه الأخضر واليابس، والكثير من الضحايا الأبرياء.

والنفرة التي تعززت في السلوك خلال هذه الحقبة الزمنية كونت رغبة شديدة في إثـــارة المقابل"التناحر" اتسعت بشكل غير مسبوق في التاريخ العراقي الحديث متخذة أشكالا طائفية بطريقة أصبح الفعل المؤدى في مجالها وسيلة تحقيق لغايات لا تدرك أبعادها الطائفة، ولا تعي مخاطرها القريبة، والبعيدة على المجتمع العام للعراق،

والخاص للطائفة ذاتها إذ إنّ من يتوجه إلى تفجير جامع في حي تسكنه أغلبية شيعية على سبيل المثال، أو تديره جهة محسوبة على تنظيم سياسي ديني شيعي، لم يهدف عند توجهه إلى التفجير إلى تدمير الجامع، والتمهيد لإعادة بنائه سنيا أو تقليل عدد الجوامـــع، والمصلّين من أبناء السنة، بل وهو سلوك مدفوع بمشاعر عدوان موجهة بالضد قوامها النفرة.

وبـــنفس المستوى من الوضوح يكون من غير المنطقي أن من يوجه فورا بعد أي تفجير بجامع شيعي قاذفته للرمي على مسجد تحيطه أغلبية سنية، أو تديره إدارة الوقف السني بهدف تدمير المسجد، أو احتلاله، وتغيير معالمه، وأسلوب الصلاة فيه، أو تحويله إلى مدرسة دينية، أو متحف للتاريخ لأن ذلك غير ممكن في عصر النشر، والتوثـــيق، وحـــرية الإعـــلام، وغير مقبول من الناحية الشرعية، ويفسر في إطار الاستخدام المنظم للسلاح كأحد مخارج النفرة.

ومـــن الواضح للعيان أيضاً أن الهدف الأساسي للتفجير، والرمي هو إحداث أكبر قدر ممكن من الخسائر المادية، والبشرية التي تدفع الطرف الخاسر (نفسيا) إلى الانفعـــال غضبا بدرجة عالية، وبسرعة كبيرة مصحوبة بشحنة عالية من العدوان يفقـــد في حالها المعنيون القدرة على الضبط، والتركيز فيتّجهون باحتمالات عالية نحو أهداف بالضد للتخفيف من الأثر النفسي للعدوان، وبسلوك يحاولون أن تكون شدة التدمير فيه تفوق ما حصل معهم أو لاتباعهم.

وهكـــذا تُغَـــذى النفـــرة دوامـــة من الدوامات، ويدام مبدأ التناحر، وتزاد مستوياتهما من مصادر خارجية على الأغلب لإدخال الطرفين العراقيين الرئيسين أو أكثر أحيانا دوامة الغضب، والاحتقان، ومن ثم التنفيس فتتكرر الحالة ضمن محيط نفـــسي لهـــا، مطلوب أن تمتلئ الأجواء المتحركة في داخله بتلك المشاعر السلبية لتستقطب بتحركها العديد من الخائفين لمداراة خوفهم.

والحاقدين لتنفيس حقدهم.

والطائفيين لتحقيق مآربهم.

والجهلة لإثبات ذاتهم.

والمستفيدين لتوسيع هامش ربحهم.

وآخرين في مجتمع التغيير، وباستقطاب مثل هؤلاء، وغيرهم كبرت الدائرة في العقول، وأغلقت منافذ التأثير الإيجابي فيها، وفي بعض الأحيان انقسمت إلى دوائر أخرى في كل حي، ومنطقة، وشارع، أسهمت في:

1. تعميم الفوضى إلى الحد الذي فقدت فيه الأجهزة الضابطة الحديثة إمكانية السيطرة عليها، ودخلت أو دخل قسم منها طرفاً فاعلاً في بعض جوانبها.
2. استخدام أوسع للسلاح أوصل البلاد إلى ما يشبه الحرب الأهلية فقد خلالها الكثير من الأشخاص، والجماعات قدرتهم للسيطرة على المشاعر، والانفعالات فتوجهوا لأن يكونوا مساهمين فيها.
3. غياب واسع لتأثير السياسيين الوطنيين، واختفاء منظم للعقلاء المهنيين، وإغلاق لمنابر الفكر، وهجرة العلماء المقتدرين، وتهديم المدارس، والمعامل، والمكتبات التي أصبح بعضها مخازن سلاح، وسجوناً، وأوكاراً للمجرمين.
4. سيطرة الميليشيات على الشارع في الوقت الذي تريد، والمكان الذي تود، وأدخلت في صفوفها البعض من العسكريين المتطوعين، وكونت أفكاراً على أنها البديل عن سلطة الدولة كما تريد.
5. انتشار عمل العصابات، وتحول المجتمع للاستجابة إلى مطاليبها خارج سيطرة الأجهزة الحكومية المعنية.

وغيرها أعمال ستمهد إن لم تحكم الدولة سيطرتها إلى تكوين أمراء حرب في كل حي، ومنطقة، ومدينة، وسوف تدفع الجميع تحت ضغط الرغبة بالخلاص إلى قبول مخططات التقسيم لثلاث دول تستمر في مقاتلة بعضها إلى يوم الدين.

بل وسيقبلون أن تكون لكل مدينة دولة، ولكل عشيرة إمارة فيعيدون تاريخ أجدادهم في الأندلس، وأواخر حكم العباسيين.

إن النظرة إلى موضوع النفرة، وتطوره من الاختلاف إلى التناحر، ومن ثم إلى فعل القتل الانتقامي مسألة أدخلتها إلى المجتمع العراقي الذي يمتلك استعداداً موروثاً لتقبلها تنظيمات القاعدة بشكل مدروس، ومخطط له جيدا في أكثر من منطقة منها اللطيفية، وأبو غريب، وأماكن أخرى شرع المسلحون في محيطها بانتهاك حرمة الموتى، وتعميم القتل على أوسع شريحة لتشمل أحيانا حتى الرضع من الأطفال،

فأنتجت، وبشكل متفاوت بين العراقيين القريبين، والبعيدين:

قدراً من الرغبة في الانتقام عند البعض.

مستوى من السكوت عند البعض الآخر.

كماً من الاستهجان عند قسم منهم.

هرباً من الإدانة عند القسم الآخر.

طلـــباً للتهدئة من قبل المرجعية الدينية كان له أثر في تجاوز أزمة تناحر مسلح أو فصل من فصولها المرسومة.

وتُرْغَمُ عوائل تحت تهديد السلاح على ترك سكنها، والأجداد في الدورة وأبو غريب ومدينة الشعب وأماكن أخرى، لأنهم من الشيعة سكنوا في حي أغلبيته من السنة، أو إنهم من السنة استقروا مع إخوة لهم من الشيعة، بطريقة همجية أدت إلى أن يـــندب الـــبعض حظـــه العاثر على سكن أورثه الأجداد من زمن لم يكن فيه مستوى النفرة حد التهديد بالإجلاء، وأدت هذه أيضاً إلى:

شماتة البعض.

سكوت البعض الآخر.

استنكار قسم من الناس.

رغبة في الرد بالمثل عند القسم الآخر.

دعوة من المراجع الدينية، ومؤسسات المجتمع المدني، وبعض أطراف الحكومة إلى التحلي بالروية، والصبر لم تفلح تماما في الحد من اتساع التهجير الطائفي كأحد أنواع التعبير عن النفرة المدفوع أمر تنفيذها مسبقا.

ويتـــسلل إرهابي تكفيري متعصب من القاعدة بين جماعة تأويه، وأخرى تقدم له الدعم الإداري، والمعلوماتي اللازم، يرتدي حزاما ناسفا يفجر نفسه بين جمـــع مـــن الشباب الفقراء الساعين إلى التطوع في سلك الشرطة أو في إحدى صـــنوف الجـــيش الجديـــد، فيقتل العشرات، ويعوّقُ أجسام، وعقول المئات بأسلوب يفضي إلى إثارة:

الحيرة عند البعض.

الرغبة في القصاص عند البعض الآخر.

التشفي عند قسم من الناس.

والتبرير شبه المعلن عند القسم الآخر.

وتدخلٌ من قبل الجهات المذكورة للفصل بين الفعل، والمذهب لم يكن كافيا لحسم موضوع التهدئة، وعدم اتساع الانتقام كفصل متقدم من فصول النفرة.

وتستمر الأحداث، وتكثر الانتقادات:

ويسكت بعضهم.

ويتحرك قبل فوات الأوان بعضهم الآخر.

ويطالب بالحصة مناصب في الدولة، وسلطة إصدار القرار ثمنا لإيقاف التداعي، وحفاظا على أرواح العراقيين الأبرياء قسم من الناس.

ويحرض علنا في وسائل الإعلام، وفي المساجد القسم الآخر.

فصول ينتقل اللاعبون في ساحتها من فصل إلى آخر، وبعض العراقيين يتوهمون أنهم أبطالها، وقادها فتزداد الأمور سوءًا حتى تعجز المرجعية الدينية، والعقلاء من السياسيين، والعلماء عن إبطال فاعلية شحناتها النفسية بعد أن انتقلت إلى فصلها الأكثر خطورة يوم استهدفت صباح يوم 2006/2/22 حرمة الإمامين علي الهادي، وحسن العسكري عليهما السلام بتفجير مرقديهما في سامراء، والتي أشرت:

عدم التوقف عن الانتقاد، وتوجيه الاتهام عند البعض.

الخروج الغاضب إلى الشارع بدافع الانتقام عند البعض الآخر.

الحيرة في التفسير عند قسم من الناس.

السعي للغوص أكثر في دوامة النفرة عند القسم الآخر.

وأشرت أيضا:

أن من فجر المرقدين المقدسين لم يكونوا بعيدين عن تفجير بعض المساجد لأبناء السنة.

إن هذا الفصل من فصول النفرة لم يستطع السياسيون، والمسؤولون الحكوميون، وأجهزة الأمن في دوائرها، والعسكر في ثكناتهم السيطرة على نتائجه

الكارثــية" حــتى وقتــنا الــراهن" باتجاه التخفيف، والترضية، والتوافق المنطقي، والإصــلاح الفــوري فأسهم في جر البلاد إلى فصول أخرى أكثر دموية، وأشد انفعــالا، وبؤسا، وخسارة قربت من إشعال حرب سوف لن يسلم من شظاياها المتناثــرة حــتى الذين أخذوا من الغرب، والبلاد العربية قواعد للإسهام بفصولها المتعددة.

إن النفــرة، والتناحــر اللّذين يجران البلاد إلى احتمالات توسيع رقعة الحرب الأهلــية[1] غايــة تــسعى جهــات أجنبــية إلى تحقــيقها، ورغبة عند جهات عــراقية"مــستفيدة أو طائفــية" حققت حتى الوقت الحاضر الكثير في الطريق إلى أهــدافها على الرغم من وجود مقاومة جادة من أطراف رئيسة في الحكومة، ومن سياســيين جادين، وعراقيين وطنيين للحيلولة دون ذلك، لكن قوة دفعهم بالاتجاه المعــاكس إذا لم يــتدخل العنصر الخارجي لإيقاف سعيرها سوف لن تبقى "أي المقاومة الجادة" بنفس القوة لأن الطاقة تُستنــزف، ودائرة الحقد، والعدوان تكبر، ومصادر الدعم تتسع. والأدوات في الداخل تتوفر.

ومــع ذلــك فإن بعض الأطراف ما زالت في غفوة وشبه تخدير بعيدا عن ما يجري من حولها من تخطيط للتدمير.

إن النفــرة مسألة نفسية انفعالية مركبة استثارت سلوكا عدوانيا في الشارع العراقــي، والمنطقة "الفقيرة" والمحلة، والقرية كونت دوامة خطيرة يصعب الحد من تأثيراتها المباشرة بعد أن فاقت حدود المعقول إلا إذا:

---

(1) يخــتلف العراقيون، وغير العراقيين في تسمية ما يجري في العراق في الوقت الحاضر ففي الــوقت الــذي تحذر الحكومة، وغالبية القوى المشاركة معها في العملية السياسية من تعميم التسمية بحرب أهلية، وتفضل في أدبياتها الإشارة إلى حافات الحرب الأهلية، في حين تسمي المقاومــة، والقــوى المــسلحة بالــضد، والقاعدة، وغيرهم الموجودين في المعسكر المقابل للحكــومة، والــبعض من القوى المشاركة بالعملية السياسية ما يجــري حرباً أهلية واضحة المعــالم. ومــا ينطــبق على العراقيين في موضوع الاختلاف بالتسمية يمكن تعميمه على العــرب، وحتــى الأمريكان الذين انقسموا هم أيضاً إلى ديمقراطيين يؤكدون أن هناك حرباً أهلــية فــي عــراق يديره الجمهوريون، في حين يحذر الجمهوريون من تطور الأمور إلى مــستوى حــرب أهلــية إذا لم يدعموا رئيسهم في خططه لمكافحة الإرهاب، والحيلولة دون حصول الحرب الأهلية.

1. أدرك السياسيون خطورة الموقف، وتصرفوا بما يفيد العراق.
2. ابتعد رجال الدين عن التدخل بالسياسة، واكتفوا بالتوعية، والنصح، والإرشاد كما كانوا من قبل، وكما أراد لهم الدين منذ الأيام الأولى للتأسيس.
3. تفهم العموم من العراقيين الموقف، وطوقوا تلك الدائرة الرهيبة للنفرة، وأسهموا مباشرة في تفتيتها، أو توجهوا لإغلاق بيوتهم، ودواوين عشائرهم أمام الأغراب، والسلفيين الذين يغذونها كأضعف الإيمان، والأهم منها جميعا:

تفهم الجميع جسامة الخسارة. ونوايا أهل الخارج في تدمير العراق.

لأن النفرة التي تتسع رقعتها في العقل العراقي مؤدية إلى ارتكاب سلوك العدوان باتت تتغذى على الخارج من خلال:

دعم مالي منظم إلى جماعات، ومليشيات عليها أن تنفذ لتحصل على المزيد.

تأييد سياسي قوي يسمح بمد النفوذ، وزيادة التأثير يتأسس على التنفيذ الدقيق لديمومة الحصول.

قاعدة إيواء مريحة عند الاستهداف تحتم التنفيذ لإبقاء المجال مفتوحاً لمستقبل فيه كل الاحتمالات.

إعلام يغطي الأنشطة، ويُكبِر من تأثير القادة، ويغطي الأخطاء الحاصلة، ويقلل من قيمة الخصم في الميدان يقتضي التنفيذ لاستثماره إلى أبعد الحدود.

وغيرها أمور أخرى قد يكون بعضها خاصاً تضع العامل الخارجي في أعلى قائمة التأثير على مجريات الأحداث داخل العراق. وتحمله مسؤولية ما يجري، وتعزيز أنواع الانفعالات السلبية التي تحرك معالم سلوك التدمير في المجالات كلها.

المبحث الثاني
الفتنة

أكثـــر الحـــوادث التي قربت العراقيين من أحداث الفتنة هي تفجير المرقدين المقدســين للشيعة في سامراء المنوه عنه سابقا، وفي تفجيرهما يمكن الجزم أن لا أحد مـــن أبـــناء الشيعة يجرؤ على أن يمد يده، ويسهم في هذا العمل أو أن يمس الأئمة بـــسوء مـــن قريب أو من بعيد، وهو الذي اتخذهم شفعاء له في الآخرة، ومن غير المنطقـــي أن يُـــتهمَ أحد منهم بفعل ذلك على مستوى العلن أو حتى في السر بين دهاليز السياسة، وبنفس المستوى من الجزم يمكن التأكيد أن لا أحد من أبناء السنة يجرؤ أن يفعل ذلك أو ينوي فعل ذلك أو غيره من الأفعال التي تمس الأئمة الأطهار وهـــم حماة المرقدين، ومعنيون بإدارة شؤونهما منذ مئات السنين، ومن غير المنطقي تحمـــيلهم المسؤولية المباشرة، وغير المباشرة، ولا بقية السنة في عموم العراق. لقد حدث التفجير، واستثير العدوان، وأول أهدافه كانت المساجد التي دخلت طرفا في فتنة تجر سريعا نحو الحرب الأهلية خلافا للشرع، والمنطق الذي لا يمكن فيه لأحد مـــن كلا المذهبين تحديد مكان يلائم وحده شرعا عبادة الخالق، مسجدا كان أو حـــسينية، أو يقتصر العبادة في أحدهما دون الآخر، ويحرم التعبد بالمقابل في المكان الآخر، وفيه أيضاً لا يمكن أن يكون المسجد حكرا على السنة، ولا الحسينية كذلك بالنسبة إلى الشيعة، ولا يمكن أيضاً تقسيمهما حصصا على السنة، والشيعة كما هو حـــال في المناصـــب السياسية التي أفسدتها القسمة والمحاصصة، لكن بوادرها بعد الـــتفجير تؤشر حصولها بدرجات متفاوتة أسهمت مع غيرها من عوامل أخرى في تقـــريب العـــراق مـــن فتـــنة مقيتة[1]. لقد تطورت الأحداث سلبا بعد التفجير، واخـــتلطت المشاعر، وغاب المنطق عن نهج التفكير للبعض من أبناء الطائفتين على

---

(1) أدرك الـــبعض مـــن علمـــاء المذهبين خطورة الموقف بعد استهداف المساجد، والحسينيات، وكمـــبادرة مـــنهما لتخفيف الاحتقان، والتأزم الذي بدا واضحا في الطريق إلى إشعال الفتنة توجهـــوا إلى أداء صلاة جماعة مشتركة لبني المذهبين، وبشكل دوري في مرقدي الإمامين موسى الكاظم أحد أئمة الشيعة، وأبو حنيفة النعمان الرمز المهم للسنة، وكانت مبادرة شكلت في حينها إسهامة في التخفيف المهم، والمطلوب.

الرغم من أن علماء الشيعة، وعقلاء قومهم يقر أن السني في الأعظمية، أو العامرية، والـــدورة، وغيرهـــا لم يكن مسؤولاً مسؤولية اعتبارية عن تفجير رمز من رموز الطائفة الشيعية، وكذلك الحال بالنسبة إلى علماء السنة الذين لا يتهمون المسلمين الشيعة بتفجير المساجد، وحرق المصاحف الكريمة التي لم تكن "شيعية".

إن المنطقي في تطور الأحداث الخاصة باستهداف المساجد، والحسينيات يقع ضـــمن حـــدود النفـــرة التي تطورت شدتها إلى مستوى الفتنة التي يريد تأجيجها إرهابيون تمتد جذورهم إلى الخارج[1] بدوافع تقسيم المسلمين في العراق أولا ومن ثم في باقـــي الـــدول الأخـــرى لحـــسابات دولية بدأت تتضح بعض توجهاتها، وسيكتشف الزمن بعضها الآخر في المستقبل ليس البعيد من الآن.

وخطـــوتهم إلى ذلك ضرب الطرفين العربيين" السنة، والشيعة" ببعضهم بغية إضـــعافهم ليتسنى لهم إقامة إمارة تقدم رسائل للعالم مفادها أن الإسلام غير قادر على مسايرة العصر في الحكم، والحياة أو تقسيم العراق إلى عدة إمارات من ذلك الـــنوع، وأدواتهم إلى التنفيذ بعض المتشددين المتطرفين الذين جاؤوا من عدة بلدان عربية، وإسلامية لغسل الخطايا، وعلاج الاضطراب، يعاونهم قلة من العراقيين الذين لا يدركون عواقب أفعالهم المدمرة لبلدهم العراق.

والمنطقي أيضاً أن الأحداث التي جرت منذ عام 2004 وحتى وقتنا الراهن تثير غـــضب الفـــئة المستهدفة خاصة أولئك الذين لا يستطيعون السيطرة على مخارج غـــضبهم فيـــتوجهون إلى الـــشارع كاستجابة انفعالية ساعين إلى عمل أي شيء يـــستطيعون فعلـــه في الجماعة التي يعتقدون حسب مستوى إدراكهم البسيط أنها

(1) بعـــد حادثـــة تفجير المرقدين نـــزل إلى شوارع بغداد آلاف المسلحين بالبنادق، والرشاشات الخفـــيفة، والقاذفـــات، والعـــصي من المليشيات اكتسحوا غالبية مناطق الرصافة في بغداد، وبعـــض مناطق الكرخ، واحتلوا مساجد سنية، وفي أثناء هذا الانتشار حصلت أحداث اعتداء في أكثر من مكان، إنه انتشار يوحي منطقيا وكأن المعنيين كانوا في تجمع ينتظرون الإشارة لتنفـــيذ أمـــره، أو إنهـــم محصورون أو مكبلون من جهات أخرى كانت تحول دون السماح للانتـــشار حتى حصل الانفجار مكوناً شحنة انفعالية يصعب السيطرة عليها في تلك الساعات القلـــيلة مـــن قبل الجميع، فحصل أي الانتشار بطريقة تدلل على أن الفتنة مشاعر موجودة، إيقادهـــا ســـهل، وتوجيه مساراتها سهل، وإن القاعدة قد نجحت في تحقيق هذا الإيقاد، وإن السنة، والشيعة وقعوا في فخها ببساطة.

الخصم في الموضوع الذي أثار غضبهم كنوع من التنفيس عن ذلك الغضب[1].

إنها مسألة نفسية معقدة، لم يتيسر حتى الآن اتجاه منطقي للتعامل معها يتأسس أولا على الجري السريع من قبل المراجع الدينية، والسياسية الحاكمة، والإعلام النزيه لتحوير شحنات الغضب من فعل التدمير الموجه للجماعة المقصودة إلى سلوك يتمحور حول الاحتجاج السلمي المقرون بالتحرك البدني، والصراخ، والبكاء، وحتى اللطم الذي يكون كفيلا بإخراج شحنات الانفعال السلبي بأقل ما يمكن من الضرر المحتمل.

لكن النجاح في ظروف الغضب المركب لأحداث العراق ليس مضمونا بعد أن دخل الكثير من المعنيين بالتهدئة أو الذين يفترض دخولهم أطرافاً في التهدئة في دوامات الحث، والتحريض الذي يظهر في مجاله العديد من أولئك المعنيين على الفضائيات بين الحين، والآخر ليوجهوا الاتهام بارتكاب فعل القتل، والتفجير، وأعمال التخريب سريعا إلى أطراف في الحكومة، ومشاركين في العملية السياسية، وأحيانا بالضد من جماعات دينية مما يضعه هو، وجماعته، وحزبه هدفا لغضب عارم يجرى تعميمه على باقي أبناء الطائفة، وبسببها تنتشر الأعمال الخطأ، وتتعزز في النفوس مشاعر الخوف، والحقد، وتزيد نسب الخطر لإشعال فتنة أو توسيع أدواتها إلى حدّ لا يمكن تدارك آثارها الكارثية على عراق الحاضر والمستقبل، إلا إذا عاود البعض من السياسيين، وبعض رجال الدين المتورطين بالسياسة مراجعة حساباتهم، وأيقنوا تماما أن معالم التحدي، والاتهام وإن كانت فيها بعض جوانب الصحة فهي وقود غضب قد لا يتمكن أحد من السيطرة عليه حتى تحل الكارثة، وإن حلت سيسجل التاريخ حتما أن أبطالها سياسيّو فتنة، وضحاياها كل العراقيين بينهم السياسيون مثيرو الفتنة. وهذا ما تؤكده مجموعة من الأحداث التي يمكن تناولها كمؤشرات منطقية لدواعي إثارة الفتنة بينها على سبيل المثال:

(1) أعلنت السلطات الحكومية العراقية عام 2006 أنها قد ألقت القبض على أشخاص اعترفوا من سير التحقيق أنهم قد نفذوا عملية تفجير المرقدين بتخطيط من القاعدة، وهو إعلان يؤكد صحة الاستنتاجات الخاصة بإثارة الفتنة.

عندما يقتلُ إنسان في سيارته على الطريق العام لا لذنب قد اقترفه، أو لثأر قد أقحم فيه، بل ولاسم قد اكتسبه من العائلة الممتدة، والبيئة المحيطة، سيفسر القريبون هذا القتل، غدرا طائفيا، وسيندفع الشباب من الأهل، وأبناء العمومة، والعشيرة إلى التفتيش عن وسيلة لتفريغ العدوان الذي تكّونَ بعد القتل.

وعندما لن يجدوا ضالتهم في شخص محدد أو مجموعة معينة ليقتلوه أي يفرغوا شـحنات العـدوان سيتحول عدوانهم باتجاه الجماعة المقابلة أي الطائفة الأخرى، وسـينتظرون الفرصة السانحة لتفريغه، والانتظار في مثل هكذا حالات هو الخطوة الأولى نحو فتح أبواب الفتنة.

وعـندما تُقَطعُ أوصال الضحية، وتنتشر علامات التعذيب على جسمه قبل القتل، وما بعده لا يحتاج الأهل، وأبناء المنطقة، والطائفة تفسيرا للفعل إلا في إطار الحقد الطائفي الذي يسترجع في مثل حالاته كل النقد المكبوت في الذاكرة البعيدة، والانفعـالات الـسلبية المصاحبة، فتتكون بسببه شحنات من العدوان تبدأ لفظا بالـسب والشتم، وكيل الاتهامات، ولا تنتهي إلا بفعل الإيذاء للطرف المقابل في بعض الأحيان، والمسافة بين اللفظ، والفعل المرتقب، وإرهاصاتها وقود يفتح أبواب الفتنة مع أي قَدْحٍ للشرارة يحصل، وإن كان عن طريق الخطأ أو الصدفة.

وعـندما يتجول العسكر بسياراتهم في دوريات متفرقة بين الناس، ويشتمون عشيرة معينة أو طائفة محددة بمكبرات الصوت أو بشكل مباشر، سيحسب المتلقون من الشباب على وجه الخصوص أن هذا الفعل:

إهانة لمشاعرهم، واستفزاز لمعتقداتهم، واستهداف لحاضرهم، والمستقبل.

وسيحاولون بسببه التكتل، والتسلح، وحشد الجهد، وترويج الإشاعات التي تضخمه، ومن ثم الاستنفار للقيام بفعل مضاد يثبت لهم قبل الغير أن إهانتهم مكلفة أو غير ممكنة.

وأنهـم موجـودون على الأرض. وقادرون على القيام بما يعبر عن وجودهم طرفا في ساحة الصراع شبه المستمر.

وحـسابات من هذا النوع، وأعمال لتبريرها تحوي في داخلها مشاعر كره، ومقت سحبت المعنيين تدريجيا إلى ما يقارب الفتنة.

وعـــندما تُرحل عوائل من مكان مستقرها في ظروف عدم الاستقرار، وهي من طائفـــة معيـــنة، ستبقى في ذاكرة أبنائها دوافع الترحيل غير الإنسانية، فيحاولون مع غيرهم من القريبين أن يتصرفوا بنفس الاتجاه عندما تسنح لهم الفرص في مناطق أخرى، وسيعود الشباب منهم إلى ذات الديار في القريب العاجل لينتقموا من أشخاص قد لا يكونون هم سبب الترحيل[1]، والانتقام بمثل هذه الظروف فتح أكيد لأبواب الفتنة.

وعندما تذبح عائلة من طائفة مختلفة عن سكنة شارع في حي الأمين بصغارها والكبار، وتذبح أخرى بنفس الطريقة بحي الصليخ، سيفتش الجيران، وأبناء المنطقة، والمدينة عن طريقة يحمون بها أنفسهم، وعندما لن يجدوا وسيلة سوى حمل السلاح ســيحملونه، وأياديهم على الزناد، وحمل السلاح بهذه الطريقة هو الخطوة العملية لتأجيج الفتنة.

إن تكرار الأحداث التي تثير التوتر، والعدوان، وتدفع إلى سلوك الانتقام باتت كـــثيرة، ومـــتعددة في هذا المجتمع العريق، وكثرتها تدلل على أن دوامة الفتنة قد تشكلت في العراق، وأن عواقب تشكيلها أو الآثار السلبية للتشكيل لم تتوقف عند شـــخص هـــنا أو عائلـــة هناك، بل وامتدت لتدمر بدورانها الداعين، والمحرضين، والمـــستفيدين، وكثير من الأبرياء والمتقين، وهدمت معاولها بيوتاً، ومناطق عامرة، ومـــدناً مشيدة، بعد أن زحف سعيرها إلى الجار الذي انتعش بإيقادها، وإلى الأبعد منه يوم موّلها، وحرض على تشكيلها أو إيقادها.

وتـــدلل أيضاً أنها أي دوامة الفتنة فخ قد نصبه الغير لأهل العراق فوقعوا فيه ليخربوا بلدهم بأيديهم وإن كانت بإيحاء، وتحريض الغير لتصدق الحكمة البابلية لما قبل سبعة آلاف سنة يوم قالوا (يدمر الأبناء في غضبهم ممتلكات الآباء) (12).

---

(1) رُحلَـت عائلــة من منطقة الغزالية تحت تأثير التهديد بالقتل، وانتقلت إلى منطقة أخرى في مديــنة الــشعب، وصـــادف أن من بين أبناء هذه العائلة المُرَحّلة جندي في إحدى الوحدات العـــسكرية المسؤولة عن الأمن في منطقة الكفاءات القريبة من الغزالية أكد أهل المنطقة في أكثر من مرة أنه كان مسؤولا عن عمليات قتل، واختطاف، وقصف بالهاونات وقعت بالضد منهم، حتى أنّ أحدهم وفي أثناء روايته للموضوع قال لو كنا نعلم أن كل هذا يجري من عبد الــرزاق"الابن" لخرجنا جميعا نتوسل بهدف الحيلولة دون ترحيل عائلته، وإبقائها بيننا حماية لوجودنا، أو على الأقل نتفادى شرها.

المبحث الرابع

الصمت

غرق العراقيون في وحل الديكتاتورية، والرأي الواحد، والإعلام الموجه أكثر مـــن نصف قرن من الزمان كانت العقود الثلاثة الأخيرة هي الأقسى، ودفعوا ثمن صـــمتهم الجماعي من أرواح أبنائهم، وأموالهم كانت الحروب الثلاثة الأخيرة مع الغير هي الأغلى. وغضوا الطرف عن حروب داخلية قامت بها الدولة كانت أرقام الخـــسائر فيها هي الأعلى: دولة الرجل الواحد، والرجل الدولة الذي أدخلهم منذ توليه السلطة عام 1979 وحتى انتهاء حكمه عام 2003 في دوامة، يُمَنيهم بالخروج منها منتصرا حتى يدخلهم بأخرى أكثر تعقيدا، وفداحة، والجمع فيها صامت "مع استثناء يمثل من نطق، وقاد، وحاول، لكنهم قلة، بالمقارنة مع عدد السكان، وكم الظلم دخلوا حلبة النطق بالتقسيط فدفعوا حياتهم ثمنا للنطق" ينتظر الفرج، ويتأمل الخروج بأقل الخسائر، ويمني نفسه في أن تكون الأخيرة.

حتى حصلت الصدمة في انتفاضة عام 1991 التي أراد فيها قسم من العراقيين أن ينطقوا، لكنهم فشلوا في استثمار الفرصة بالنطق الصحيح"عدا الأكراد"[(1)] يوم

(1) لا يزال الغموض يكتنف بعض جوانب الانتفاضة على الرغم من أن قادتها، والمساهمين فيها ما يـــزال معظمهم على قيد الحياة، لأن الرواة فيها كُثر، والمتسلقين على أكتاف أبطالها الحقيقيين أكثـــر، وما زال الجدال حول من هتف أولا بشعارات دينية "شيعية" في محافظات الجنوب مثل (ماكـــو ولـــي إلا علـــي ونريد حاكم جعفري) وفيما إذا كانت الحكومة أي منتسبو المخابرات، والاســـتخبارات الـــذين نجحـــوا بالتسلل إلى جسم الانتفاضة فأسهموا في قيادة بعض جوانبها الانفعالـــية وهـــم من أطلق مثل هذه الشعارات التي تحتل حيزا في الوعي الشيعي سرعان ما تبـــناها الجمهـــور المنفعل بسهولة، وهذا هو الاحتمال الأكثر رجحانا. أو إنه جاء مطلباً لأهل الانتفاضـــة، نودي به يوم أتيحت الفرصة إلى المناداة، وهذا رأي ممكن أن يكون بالدرجة التي تلـــي الأول علما أن مثل هكذا شعارات ينادى بها من قبل الشيعة في الكثير من المناسبات التي يحـــس فـــيها المنادون بضعف السلطة. ومع ذلك فإن المحللين يميلون إلى أن تلك الشعارات، ومخاوف التدخل الإيراني، والقلق العربي كانت من بين الأسباب التي أثارت مخاوف الأمريكان فعدلـــوا من خطتهم في التدخل لحماية المنتفضين، والمساعدة في إنجاح خطوتهم كما حصل في كردســـتان العراق في انتفاضتها بنفس التاريخ التي لم تطرح فيها شعارات دينية فحضيت على إثرها أو لاعتبارات خاصة بحماية دولية من قبل الأمريكان أخرجت سلطة بغداد المركزية من المحافظـــات الكـــردية الثلاث من ذلك التاريخ وحتى سقوط بغداد على يد الاحتلال عام 2003 حيث حقق الأكراد نتيجة لها خطوات جيدة في تحقيق الأمن، والاستقرار.

تفـــرقوا جماعـــات، وعـــشائر، ونطق بعضهم بشعارات أثارت من كان صاغيا، فـــتحولت الانتفاضـــة من فرصة للنطق بالحقوق، وتأمين مستقبل أفضل إلى هزيمة تـــدمير للـــنفوس، وتعزيز للظلم كانت الأولى في التاريخ العراقي الحديث، ووقف غالبـــية العـــراقيين ضد صدام صمتا، وعزلة نفسية في حربه الأخيرة عام 2003، واعـــتقد بعضهم بضرورة استثمار الموقف أي ظروف الحرب من أجل توفير فرص أفضل لتحقيق الحرية، والديمقراطية اعتقادا بالتقاء المصالح، وسنوح الفرصة الوحيدة للتخلص من الظلم، والاستعباد واضعين نصب أعينهم أو متأملين مستقبلاً أفضل، وحـــرية أوســـع، وكرامة أحسن، وأماناً أشمل من ناحية ومدفوعين في مواقفهم، وآرائهم من ناحية أخرى بويلات التقييد الأعمى"الإسكات" لحرية الرأي، والتعبير لعـــشرات السنيين، دون أن يضعوا في حسابهم أن الطريق إليها أي الحرية لم يكن سهلا، أو بلا ثمن مدفوع.

ومع ذلك فإن آلاف الشهداء، والمشردين، والنكوص الحضاري الثمن المدفوع مـــن أجـــل الحرية بات حقيقة قد يقتنع البعض من المتفائلين أنها الوسيلة الوحيدة للـــتخلص مـــن آثـــار العبودية، وتحقيق الأمل بحياة أفضل كما حصل للعديد من شـــعوب العالم الآخر، على الرغم من الاختلاف الواضح بين العراق، وبين العالم الآخر فيما يتعلق بالأهداف الاستراتيجية للحرب، والنوايا بعيدة المدى للمحتلين.

وقـــد يقتـــنع الـــبعض الآخر بأن الأرواح البريئة التي تزهق يوميا في مرحلة الانـــتقال إلى الحـــرية مشعل ينير الطريق إلى التمتع الفاعل بمعطياتها الإنسانية كما حصل للكثير من دول العالم التي سارت على نفس الطريق.

لكـــن الذي لا يمكن أن يقتنع به المتفائلون، والمتشائمون، والوسط الواقفون علـــى التل، والرواد، والمؤيدون الذين يدفعون جميعا ثمن الحصول على الحرية هي تلـــك المحاولات التي تحصل بين الحين، والآخر لإسكات الأفواه المطالبة بالحصول علـــيها، والـــرغبة اللاشعورية في العودة إلى سابق العهد في اتباع الرأي الواحد، وتكميم الأفواه، وغلق المنافذ الإعلامية غير المسيسة، والتهديد بفرض العقاب على مـــن يحاول الخروج عن الصف خاصة عندما تأتي من البرلمان الذي يشرع القوانين التي ترسي قواعد الديمقراطية، وتمهد للتمتع بالحرية.

ومن الرقيب الذي يرصد أخطاء الحكومة، وتجاوزات المسؤولين في ظروف صعبة تكثر فيها الأخطاء، والتجاوزات كما حصل في الزوبعة التي أثارها البعض من البرلمانيين إبان التغطية الإعلامية لإقرار قانون الأقاليم في الشهر العاشر عام 2006 حيث تعالت بعض الأصوات من قبة البرلمان لمعاقبة فضائيات، وصحف لمجرد الاجتهاد في نقل جزء من الحقيقة، وهي محاولة انقسم فيها البرلمانيون في موقفهم من الموضوع على أساس طائفي واضح المعالم، وكما هو معتاد حتى شكلت هذه المحاولة سابقة إذا لم يتنبه إليها العراقيون، ولم يسعوا إلى أن يكونوا بالضد من اتجاهات العودة إلى الماضي[1]، وكذلك الحكومة، فتحاول عدم التأثر بالمواقف الفردية الطائفية، فإن الاستمرار بها سيعزز الرغبة بإسكات الصوت خطوة أولى لفرض الرأي الواحد بغلاف ديمقراطي قد يعيد العراق إلى نقطة الصفر، ويبدد دم الشهداء في غير طريق الحرية الذي تأملوه كثيرا قبل استشهادهم.

(1) يعد المجتمع العراقي مجتمعا مبتدئا في التعامل مع موضوع الديمقراطية، وما دام الأمر كذلك سيحتاج إلى مزيد من الوقت لكي يقتنع فيه المسؤول الحكومي الذي أدخل جل أعضاء حركته إلى الوزارة أن دخولهم بهذه الطريقة لا يأتي ضمن خطوات الديمقراطية، ولا يسهل تطبيقها، ثم إن فعله هذا يرسي قواعد خطأ سيطبقها الوزير الذي سيأتي من بعده إثر الفشل أو بعد انتهاء الفترة الانتخابية أو لأغراض التوافق، وحينها سيتسبب في رمي مئات المنتسبين خارج العمل، وكذلك الحال بالنسبة إلى عضو البرلمان فهو بحاجة إلى مزيد من الوقت لكي يقتنع، ويتعلم أن دوره ممثلا للشعب في إقرار القوانين لا يسمح له أن يكون وسيلة إسكات لأصوات الجماهير.

الفصل الثالث

التناشز المعرفي

في العراق سار الجميع بعدة اتجاهات، كونوا قيادات بدلا من أن تنتج زعيماً صنعت طالبي زعامات يفوق عددهم قدرة الذاكرة على الحفظ.

لقـــد أديرت الدولة العراقية، والمجتمع خلال العقدين الأخيرين تأسيسا على اعتقاد راسخ من خبرة التعامل، والاطلاع على بعض كتب التاريخ قوامه:

أن العراقيين في حياهم عصيّو القيادة، لا يرضون عن الحاكم الموجود ببساطة، وإن رضـــوا فإن ثباهم على مستوى معين من الرضا مسألة ليست دائمة، وهم لا يقتنعون بمن يديرهم بسهولة. فهم يبايعون الحاكم لفظيا، ويعارضونه عمليا أو حتى يرتدّونَ بمبايعتهم في أول فرصة يجدونها سانحة.

القلـــيل منهم متحمّسون لدولتهم مشاركون في همومها، والغالبية متفرّجون على ما يجري لها، منتظرون نهايتها.

وهـــذه تعـــد من الحقائق النفسية أو فيها من الحقائق ما ليس بالقليل، وعلى وفقها، وميول التفرد بالقرار أبقى الأعلى في المسؤولية والحكم خزينة الدولة في يده الشمال:

1. يُكرِمُ من يشاء بقصد زيادة مستوى الرضا، والاقتناع بحكمه شخصيا، وتقليل فسحة المعارضة في السلوك الجمعي عمليا[1].

---

(1) كانـــت رئاســـة الجمهـــورية بعد عام 1980 لا تخضع لقوانين الرقابة المالية المتبعة في العـــراق، وكـــان المحاســـب الموجود عادة قرب الرئيس، يرافقه في معظم جولاته يحتفظ بأموال نقدية كبيرة لاستخدامات الرئيس، وكان معظم الزائرين، والمراجعين إليه يعرجون على المحاسب لأخذ المقسوم بورقة تصله على الفور، ويندر أن يرفض أحد استلام المبلغ

2. إغواء أكبر قدر من المتفرجين "الواقفين على التل"من أجل النـــزول إلى ساحة المشاركة وقودا لديمومة الحكم.

ووضع أجهزة الدولة الأمنية، والعسكرية الضابطة بيده اليمين سيفا مسلولا:

1. يقتل من يشاء ممن يتكلمون بالضد لأن الكلام في غير صالحه يزعزع القناعة.
2. يطعن فيه من يفكر بالخطأ لأن التفكير في غير ما يريده يقلل مستوى الرضا.

والغايـــة لا تتعدى الغواية في الكسب، والتأييد.يسلطه على رقاب المتفرجين مهـــددا إياهم بالقتل، والإبادة الجماعية لأن التهديد بالموت المستمر ينشر الخوف، ويدفع بجموعهم إلى النـــزول من الأعلى مرعوبين ليشاركوا قطعانا بأعمال مطلوبة دون وعي منهم بالنتائج، والتفاصيل.

والمحـــصلة أنّه حقق نجاحا ولو مؤقتا لإرضاء الذات الحاكمة أي تَمَتعْ الحاكم الأعلـــى بميزات الحكم، واقتناعه بصحة طريقته في الحكم من جهة، وتأجيل فعل الـــضد مـــن وجوده لفترة غير قليلة من الزمن انتهت بفوضى الانفلات الانفعالي، والتدمير الشامل لوجوده من جهة أخرى.

ويـــبدو أن البعض من السياسيين المشاركين بالحكم لمرحلة ما بعد التغيير قد عـــاودوا العمـــل بـــنفس القـــناعات المذكورة أعلاه، وعاودوا الطرق على ذات الخصائص السلبية في الشخصية العراقية المبينة أعلاه، وبدأوا التعامل مع واقع إدارتها أحـــيانا بنفس الطريقة التي بدأها صدام قبل ما يقارب الأربعة عقود إذ توجه بعض أطرافها إلى توزيع الهدايا والهبات، وبينها قطع أراضٍ على موظفين كبار، وجرارات مكرمة على شيوخ عشائر اجتمعوا مع الحكومة في منتصف شهر كانون الأول عام 2004، وكان توزيعها بطبيعة الحال لا يتأسس على توجههم لزراعة الأرض، وسد حاجـــة العراق من الحبوب والخضرة، ولا سعيا لإبقائها وقفا لفلاحي العشيرة من أجل الصالح العام، بل لكسب الرضا، وتغيير القناعة، وتثبيت المبايعة قريبا من وقت الانتخابات وكما كان يفعل صدام.

المخـــصص عدا البعض الذين يعرفهم بالعفة حيث لا يأمر بمنحهم المقسوم تجاوزا لمسألة الإحراج، لكن الكثير كان يتحجج في مناسبة أو بدونها لتحقيق مقابلة يحصل مـــن خلالها علـــى المقسوم.

وبـــذا سجلت الحكومة إثما بحق الشخصية العراقية المطلوب التدخل لتغييرها إيجاباً.

وسُجلتْ بادرة قوامها أن السيف، والدينار الذي امتلكه صدام أسلوبا لإدارة الدولة، لو امتلكه أحد من رجال الدولة في عهدها الجديد لعمل مثلما عمل صدام في نـــشر الخـــوف، ودفـــع الجموع إلى تأييده قسرا تحت بند الحاجة الضرورية، والظروف الطارئة.

ويبدو أن الشخصية التي تعرضت إلى المسخ بتعزيز السلب فيها، ومحو الإيجاب مـــن خصائـــصها في العقود الثلاثة قبل التغيير لم تستفد من الفرصة المؤاتية للتقويم الذاتي بعد التغيير لأن شيوخ التسعينات[1] الذين تم إغواؤهم لأداء الدبكة "الرقص" أمام الحاكم حتى يوم التغيير تحول أغلبهم إلى جوالين "راقصين بفن التملق والكلام" بين القوى السياسية، والأحزاب، والكتل يعرضون وهما قوة العشيرة لمن يدفع أكثر من السياسيين، فأسهموا جميعاً والبعض منهم أي السياسيين بالتمهيد إلى مزيد من الاضـــطراب الأمني، والسياسي. إن الشيء الملفت للنظر خلال هذه المرحلة الزمنية الحرجة هو الميل للاعتراف شبه الشامل بين العراقيين، بغالبيّة شرائحهم، وطبقاتهم الاجتماعية، ومستوياتهم السياسية بأخطائهم طرفا في الأزمة، وبخصائصهم السلبية عـــاملا من عوامل الأزمة، وهو اعتراف جاء متأخرا، وتحت ضغط اليأس، والرغبة بجلـــد الذات يؤشر وجود اكتئاب عام، وأزمة نفسية، سيضيفان مزيداً من التأثير السلبي في المواقف، والأداء، وفي الوضع الأمني المضطرب، والملفت للنظر أيضاً تلك

(1) إن قـــوة العـــشيرة التي تعرضت إلى ضربة قاصمة في العراق عام 1958 لم تستعد عافيتها على الرغم من محاولة صدام إعادتها بعد انتفاضة عام 1991 يوم أعطاها دوراً في المسألة الأمنـــية لقـــاء ثمـــن مدفوع إلى شـــيوخ بات يتدخـــل فـــي تعيينهم، وتصنيفهـــم فتعرضت أعـــرافها، ومعاييـــرها القيمية إلى ضربة لا تقل عن الأولى عام 1958 تحولت على إثرها بعض العشائر، وفروعها إلى أجهزة أمنية غير مرغوب وجودها نفسيا الأمر الذي حولها بعد التغييـــر إلـــى وعاء لفض النـــزاعات، وتحقيق بعض الوجاهات دون أن تمتلك قوة التأثير بفـــرض الرأي، والقناعات من الناحية السياسية على وجه الخصوص إذ رشح شيوخ عشائر مزموقون في الانتخابات التي جرت في 2005/12/15 على سبيل المثال في قوائم هم على رأسها لم يجمعوا من الأصوات ما يؤهلهم للحصول على مقعد واحد في البرلمان على الرغم من سعة عشائرهم في عموم العراق، وتمتع شيوخها بسمعة، وتاريخ جيدين.

النوايا غير الحسنة عند أهل الرأي، وكبار القوم من السياسيين وقد دنت أو اقتربت للبعض من أهل الحكمة، والدين يُقلّبون على أساسها، ويتقلبون تبعا لمصالح الواحد، والفئة دون اكتراث بالغير، وبالمستقبل المنشود حتى أدخل الخطباء منهم الجنة معيارا للرفض، والقبول في موضوع الانتخاب على سبيل المثال فنادى البعض بها وعدا لمن يشارك به، وبالمقابل نادى الآخر بالحصول عليها وعدا لمن يقاطع، حتى تَحيّرَ الجمع المسلم من الأمر ومن الدعوة إلى الجنة في مثل هذا التناقض غير المحسوب فأصيب العقل بالنشوز، وهذه، وطبيعة الأخطاء التي تتكرر منسوخة من الماضي على مستوى الإدارة، والأمن في السيطرة، وانتزاع المعلومات بالقوة، وفنون التعذيب تؤكد أن التناشز المعرفي الذي بدأت معالمه في العشرين سنة الأخيرة قد زادت شدته في جوانب ستتم مناقشتها فيما يأتي أهمها الزعامة، المداهنة، الوهم.

المبحث الأول
الزعامة

لم تكن الهند أسوأ حالا من العراق مطلع القرن الماضي من حيث التركيبة الاجتماعية: أديان متعددة، وطوائف مختلفة، ولغات ممتدة، وتخلف متجذر، وفقر مدقع، لم تعقها عن تكوين دولة أرست دعائم ديمقراطية أصيلة تتلاءم، وتلك التركيبة المعقدة، ولم توقف عجلة تقدمها العلمي، والتقني لتكون إحدى الدول النووية، ولم تصل معالم الفرقة، والتناحر، والولاءات المجتزئة في العراق مع بدايات القرن الحالي" بعد التغيير على وجه الخصوص" كما كانت عليه الطوائف، والأقوام التي كونت يوغسلافيا "قبل أكثر من خمسة عقود" دولة تجاوز أهلها تحت مظلة علمها الواحد كل الضغائن، والأحقاد، والرغبات الخاصة لفترة محددة كونوا خلالها مجتمعا اقترب آنذاك من جيرانه الغربيين الأغنياء نسبيا في مجالات التطور، والاستقرار، ولم يكن العراق إلا واحدا من تلك المجموعة "الهند ويوغسلافيا" التي واجهت مصاعب، وتحديات فيها قدر من التشابه على أساسه يمكن المقارنة بالنتائج التي سجلت نجاحا لبعضها في التجاوز على تلك المصاعب، وتقديم الحلول العملية

لهـــا مـــثل الهند، وسجلت أخرى نجاحا مؤقتا مثل يوغسلافيا، و لم يسجل العراق الطرف الثالث في المقارنة ما يمكن عده مؤشرا لنجاح بالاتجاه الصحيح، وهي نتائج تعـــود أســـباب تحققها، والإخفاق في عدمه منطقيا إلى عوامل عدة أهمها الزعامة الرمزية التي برزت فاعلة في الهند، ويوغسلافيا، و لم تكن كذلك في العراق، أو بمعنى أدق وجود قاسم مشترك تعود إليه النجاحات في الدولتين المذكورتين ويرجع إليه الفـــشل في العراق هو الوجود النفسي لزعيم رمز استطاع في الهند "غاندي" إقناع العموم أن الخلاص من الواقع الصعب يتأسس على نضال عصامي ضد الاستعمار البريطاني، و كان هو من يتقدم العصاميين.

وإن القضاء على معالم الفرقة، والتناحر، والتجزئة، والتخلف، والتكفير يأتي فقـــط من السعي لأن يكون المواطن هنديا، فعاش فترة نضاله مثالا للوطنية الهندية دون أن يوصف بوذيا أو هندوسيا أو مسيحيا أو مسلما ولا من السيخ.

و كـــذلك الحال في يوغسلافيا التي إستطاع فيها تيتو آنذاك أن يكون زعيما أقـــنع الصرب، والمسلمين، والكروات أن العيش الآمن، والتقدم المضمون يأتي من عـــدم التأســـيس على مفردات الدين، والعنصر أعمدة لضمان الحقوق أو التجاوز علـــيها، و كان خلال فترة حياته مثالا لكل اليوغسلاف دون أن يحسبه أحد على قوم من الأقوام، حتى انتهت بموته تلك الدولة التي لم تجد بعده زعيما بنفس المواصفات.

وعلـــى العكس من ذلك في العراق إذ وبعد أن حصل التغيير، وتذكر الجميع حقـــوقهم ساروا بعدة اتجاهات وكونوا بحكم الطبيعة النفسية، والعوامل الأخرى الخارجـــية، والداخلـــية الكثير من القيادات التي وبدلا من أن تنتج زعيما للعراق، صـــنعت في مـــسارها طـــالبي زعامات يفوق عددهم قدرة الذاكرة العراقية على حفظهم في خلاياها الداخلية.

وبـــدلا من أن تستغل الفرصة المتاحة لتعزيز صورة المناسب من بينهم كزعيم للعراق وقعت في فخ الذاتية النفعية مهرولة إلى الأمام في محاولة لاستثمار المتاح من الجهد لإنتاج زعيم لها كطائفة أو قومية أو كتلة سياسية دون أن تتذكر العراق.

وجـــرى من أتيحت له فرصة العمل في الدولة هو الآخر إلى الأمام مستثمرا وضـــعها المالي، والإداري ليعزز دور مجموعته التي عول عليها في دفعه إلى الزعامة

دون أن يحسب حساب العراق فأسهما كلاهما بضياع فرصة تاريخية لإنتاج الزعيم الذي تحتاجه المرحلة، وزادوا من معالم التعقيد في العراق.

إن المقارنة بين المجتمعات الثلاثة في حقل الزعامة قد تكون الآن غير مجدية بسبب اختلاف الظروف، لكنها تلقي الضوء على مسألة الحاجة الملحة في العراق إلى الزعيم الرمز الذي يجتمع في دائرته العربي السني، والشيعي ومعهم الكردي، والتركماني، المسيحي، والمسلم، والصابئي، واليزيدي، وينصت إليه اليساري ومن في اليمين، ويحترم آراءه كبار السن، والشباب، بعد أن وصل خطأ الفرقة، والتشتت إلى مستوى الكارثة.

إن الزعامة الرمزية التي تُنتَجُ من تفاعل عاملي الحاجة الظرفية للمجتمع، والخصائص الشخصية للإنسان يصعب أن تولد في ظروف العراق الحالية بعد فشل من توفرت لهم الفرصة في أن يكونوا زعماء من استثمارها خلال نصف قرن من الزمان مثل عبد الكريم قاسم الذي سقط عام 1963 في خضم التصفيق الحاد، والهتاف الهستيري الذي أكبر في داخله الاعتقاد بأنه الزعيم الأوحد، ورمي بعد مقتله في مكان مجهول خوفا من الجماهير التي أسهمت في إظهار، وتكبير ذلك الاعتقاد.

ومن بعده بأربعين سنة سقط صدام حسين الذي أنشد له الجمهور، وهتف له العموم، وحيّاه العسكر دافعين به إلى تعزيز الاعتقاد بأنه الزعيم الخالد، وتفرّق من حوله أفراد الحاشية، ومفاصل القرار السياسي، والعسكري، والإداري، وأعدم بطريقة مثيرة، ودفن في أرض الأجداد يُخشى على قبره من النبش بعد رحيل الأمريكان.

وفي الأيام الأولى للسقوط توجه الجمع الخيّر إلى الأمام، وفي مخيلتهم أفكار للتخلص من بؤس التأليه الفاضح للزعيم الأوحد، يناقش بعضهم مساوئ الإفراط بالزعامة في منطقة تكثر فيها الدوامات، وتعم المأساة، ويؤكد البعض أن المستقبل ينبئ بنوع آخر من الزعامة ينفع في تقليل الهموم، ويعجل بإنقاذ العراق.

ويتصور البعض الآخر أن التجربة القاسية لأكثر من نصف قرن من الزمان ستغيّبُ حتما كل العوامل المساعدة لتعزيز الوهم في الزعامة التفردية التي أنهكت الجمع، ودمرت، وأنهكت شعب العراق.

لكن الأحداث لم تؤشر جدوى المناقشة، ولا صدق التنبؤ، ولم تدعم الوقائع أي أمل للغياب لأن العراقيين من جانبهم لم يستثمروا الفرص المتاحة لإنتاج الزعيم الرمز، أو بالمعنى الآخر فشلوا في ذلك إذ وبعد أن استفاقوا من الصدمة، وتخلص الغالبية من سلطة الخوف، وتوزع الجمع بين:

1. مؤيد، ومعارض.
2. منتقد، ومقاتل.
3. راغب بالبناء، ومخرب لأعمدته.
4. ساعٍ إلى التهدئة، ومساهم في إثارة الاضطراب.

تبين أن الرغبة بالزعامة هي القاسم المشترك لكل تلك التوزيعات، وكأنها وهم مكبوت سرعان ما ظهر، وانتشر بعد قليل من فترة السكون عن طريق العدوى الاجتماعية بين اللاهثين أو إنه خاصية كانت موجودة أصلا في دواخلهم، واندفعت إلى سطح التفكير مع الساعات أو الأيام الأولى للتغيير كنتيجة حتمية لسقوط الطوق الخارجي للخوف.

وتبين أن الكثير منهم قد توجه بسببها أي الرغبة بالزعامة إلى حلبة السياسة ينادون بأعلى أصواتهم لنصرة العراق.

والنصرة الأهم من وجهة نظرهم كانت في تأسيس الأحزاب، والحركات السياسية، والجمعيات، والنوادي، والتيارات، والاتحادات، والنقابات بشروط كانت ترتكز على المحور المركزي للزعامة، حتى زاد عدد الزعماء في فترة الأشهر الستة الأولى للتغيير عن الخمسمائة زعيم، وإن كان البعض منهم لا يحتكم على رعية إلا على القليل من أفراد العائلة، والأصدقاء، ومع ذلك يحدو الأمل أي الوهم بعضهم في أن يحصل على حصته زعيما للعراق أو قائدا للضرورة في غفلة من الزمن الصعب، ويتبين أيضاً أن الوهم بالزعامة خاصية سلبية في أعماق الشخصية لبعض العراقيين ما زالت موجودة رغم شدة المعاناة، وكثرة الخسائر بسبب سطوتها، ويتبين كذلك من تكرار حوادثها أن الشعور بالدونية بين البعض القريبين من الواهمين، والمحيطين بهم ما زالت سائدة في عقول الذين يأخذون على عاتقهم

تجـــسيد الوهم بالزعامة في الشخصية الحاكمة أو الساعية إلى الحكم[1] فتعيق حتما إنـــتاج الـــزعيم الرمـــز القـــادر على تهدئة الفوضى، وإطفاء النار المثيرة للفتنة، والاضطراب.

إن الزعامة في المجتمع العراقي معضلة فيها الكثير من المفارقات، إذ وفي الوقت الذي يريد الكثير أن يكون زعيماً نجد في الجانب المقابل يُكبرُ الجميع فيمن تتاح له الفرصة في أن يكون زعيماً، ويدفعونه حد الشعور بالعظمة فيجهزون عليه كصنم مطلوب تحطيمه لعدم جواز عبادته، حتى يمكن وصف الحالة هذه مجازا بالصنمية في الشخصية العراقية.

والـــصنمية الـــتي نقـــصدها هنا مصطلح أو لفظ قد يمثل قدرا من الانفعال، والتطـــرف في وصف بعض الخصائص الموجودة في الذات العراقية، لكنه ومع ذلك يمكـــن الاســـتدلال على معناه من خلال تناول بعض أنواع السلوك الجماعي عبر الـــتاريخ العراقـــي الحديث بدءاً من شكل التعامل مع فيصل الأول، الملك المعظم، والقائـــد الميداني للثورة العربية التي انطلقت من الحجاز إبان الحرب العالمية الأولى، والإنـــسان الحالم بدولة الوحدة المتمدنة من المحيط إلى الخليج، اختزل حلمه الكبير بدولة حديثة في العراق بايعه أهلها، وأقاموا له تمثالا، هرولوا نحوه في هستيريا تموز الدموي، وأسقطوه وسط الفوضى والزحام، فغاب عن التاريخ العراقي، ولو مؤقتا أحد أعلى التماثيل.

ومـــن بعد عبد الكريم قاسم بصفاته المتعددة التي أطلقها العراقيون له زعيما أوحدا، وعبقريا منقذا.

---

(1) إن نـــتائج الانتخابات الأولى التي أجريت في العراق عام 2004 أشارت بكل وضوح إلى أن هـــناك ثمانـــي وتسعين قائمة، وأحد عشر عنوانا لرأس قائمة من بين الذين رشحوا لخوض الانتخابات متوهمين أنهم يمكن أن يكونوا زعماء، وواقع الحال لم يسعفهم الحظ أن يحصلوا علـــى ما يكفي من أصوات تجلس الواحد منهم نفرا على كرسي البرلمان، وكان هذا من أهم مـــا جـــاءت بـــه الانتخابات بعد أن أكدت وجود الوهم كاضطراب اجتماعي يحتاج العراق الديمقراطـــي تجاوزه من ناحية، وتسببت من ناحية أخرى في صدمة لكثير من الواهمين لم تكـــن كافـــية لاستفاقتهم منها بعد أن عاودوا تكرار التجربة في الانتخابات التي تلت بعناوين يـــزيد عـــددها عمّـــا جاءت به تلك الانتخابات بسبب كثرة الأحزاب والحركات التي انشئت حديثا، أو التي تكونت عن طريق الانشقاق، وأضيفت إلى الأرقام الموجودة في الأصل.

قـــاد مجمـــوعة عـــسكر في الرابع عشر من تموز، أرست أولى قواعد الذبح الهـــستيري خـــارج أطر القانون، وأججت الصراع مع البداوة التي لا تتوانى عن التدمير المنظم لأعمدة الدولة، والمجتمع.

حـــاول جاهـــدا أن يكـــون نصيرا للعمال، والفلاحين، فأنشدوا له أملا في الخـــلاص مـــن الفقر والضياع، وسعيا إلى الدولة التي يحكمون فيها بقوة البندقية، وانفعال الجمهور.

وأوحـــوا إلى الملايـــين أن صـــورته مرســـومة علـــى القمـــر بقدرة رب العالمين.

وأقامـــوا لـــه أكثـــر من تمثال، أسقطه دعاة ثوريون، واشتراكيون لبراليون، وقوميون وحدويون، بنفس طريقته في التغير.

فغاب عن تاريخ العراق، ولو مؤقتا أحد أشهر التماثيل.

ومـــن ثم أحمـــد حسن البكر، ذلك البعثي الذي أقر أصحابه بعد 1968 أنه أضعف من أن يعتلي عرش العراق[1].

وأنه أقرب إلى العشيرة منه إلى المدنية التي يسعون إلى إقامتها، وإلى الطائفة منه إلى الوطنية التي يودون تجسيدها.

ورغم تلك القناعة لهم، ولبعض العراقيين التابعين فقد أقاموا له تمثالا أرادوا له أن يكون فاتحة عهد لآلاف التماثيل.

أسقطه عراقيون، وإن لم يعيروا يوما أي اهتمام لوجوده واقفا في مدخل مدينة المنصور، فغاب عن تاريخ العراق أحد أضعف التماثيل.

---

(1) إن شخـــصية أحمـــد حـــسن البكـــر أول رئيس جمهورية بعثي بعد 1968 قد تكون وسِمَت بالـــضعف تجنيا أو مبالغة بسبب الصراع مع التيار المتطرف في الحزب آنذاك، والذي يريد الإســـراع في التطبيقات الاشتراكية، والتغييرات الاجتماعية، تيار قاده صدام حسين، وحاول البكر الحد من جماحه بهدوء حتى وصِفَ من قبلهم بالضعف لتبرير توجهاتهم، وللتمهيد إلى إســـقاطه، والعقلانيـــين القريبين منه، وبالفعل كانت النتيجة إلى صالح مجموعة صدام التي أزاحـــته بطـــريقة مخابـــراتية، وتولت الزعامة منذ 1979 وأدارت العراق بمنطق الثورية المنفعلة فتسببت بكثير من الخسائر، والمحن لشعب العراق.

ومـــن بعد ذلك صدام حسين، الإمبراطور، والملك، والقائد الضرورة، وأكثر من خطط للخلود عن طريق النُصب، والتماثيل[1].

صفق له الملايين.

ورقص في حضرته الملايين.

وأدى لـــه التحـــية عسكر من صفوف القادة المعروفين، وأدوا الدبكة العربية خلافا لمعايير الضبط العسكري على مسرحه المشهور.

وسجل اسمه على مخترعاتهم من أدوية، ومعدات أطباء مشهورين.

وطالب فنانون إطلاق تمثال له في السماء من ذهب، وأموال التبرعات.

وتفـــنن مهندســـون في المعمـــار في تزيين قصوره، والمقرات تأكيدا لخلوده، والبقاء.

وكـــتب أســـاتذة جامعيون آلاف الرسائل عنه أو أهدوها له تعزيزا لسموه، والوجود.

وتـــبرع تجـــار، وصـــناعيون له بملايين الدولارات، وبآلاف الجداريات والتماثيل.

وتمـــنت عجائز فقدن أولادهن في حروبه الخاسرة مقابلته هستيريا أو رياءً أن يأخذ المزيد مما تبقى من فلذات الأكباد.

حتى اعتقد مع نفسه، وعزز المحيطون به هذا الاعتقاد بأنه الأقوى، والأجدر، والأخلص، والأفهم، والأوفر حظا في الزعامة، والخلود.

---

(1) يعد صدام حسين أكثر زعيم عربي وربما عالمي صفق له الجمهور، وغنى باسمه، ورسم له اللـــوحات، ونـــصب الجـــداريات، وقـــدم له الهدايا من الصور والرسوم، والتحف النادرة، والأســـلحة القديمـــة كما يريد. كان أكثر زعماء عصره غراماً بإقامة التماثيل ليبرر إقامتها لشخـــصه بهيـــئات مخـــتلفة تصدرت الشوارع، والساحات وزينت الملاعب والقصور، وفي ســـياقها أقام تماثيل لرفاق كان هو السبب في إزاحتهم عن الطريق، وشيد عشرات لعسكريين استشهدوا في حروبه، يرى علم النفس من زاوية التمثال رغبة منه بالخلود عن طريق وجوده وإن كـــان حجـــرا أو معدنا لا ينطق، رؤية لم تصدق، ونظرية لم تتحقق لأن جميع التماثيل المـــشيدة على أرض العراق الواسعة قد تهدمت بساعات وأيام حتى أرخ رسميا للتغيير يوم سقوط أحد أفخم التماثيل في 2003/4/9.

وبدفـــع منه، ورمزية الصنم في عقول المذكورين شيدت له أكبر التماثيل التي تهاوت بنفس الطريقة التي سبقتها يوم السقوط.

فغاب عن تاريخ العراق، وربما إلى الأبد أعتى التماثيل.

ويعاد المشهد من جديد فيتجمع في 14 تموز عام 2005 ساعون إلى إقامة تمثال لعـــبد الكـــريم قاسم مكان تمثال الغريري، وأقاموه بالفعل، وآخرون سيطروا على اللوحات الجدارية التي كانت وقفا لصدام فاستبدلوا الوقف بصورة عالم دين بنفس الحجم، وفنون التزيين لأن التمثال محرم من وجهة نظر الدين.

وآخـــرون يحـــتل الـــصنم في داخلـــهم حيزا قليلا وهم من بين المثقفين، والسياسيين البارعين أضافوا على ألقاب المناصب العليا بعد التغيير إضافات تعزز التعظـــيم كخطـــوة أولى قـــد تفـــضي إلى إقامة التماثيل إذا ما تعطلت خطوات الديمقراطية مثل:

فخامة السيد الرئيس.

دولة السيد رئيس الوزراء.

معالي السيد الوزير.

ألقاب لم تكن موجودة في عصر التماثيل.

وهـــذه بمخـــتلف مسمياتها، وظروف حصولها في العراق يمكن تفسيرها من الناحية النفسية على أن الصراع على أرض العراق ما زال مستعرا بين:

1. الواقع، والخيال.
2. العقلانية، والانتهازية.
3. الماضي، والحاضر.
4. الـــساعين إلى العمـــل، والبناء من جهة، والغارقين في وهم التصفيق من جهة أخرى.

وتُفَسر من الناحية النفسية أيضاً على أن امتدادات الوثنية، وعبادة الأصنام في الـــذات العراقية لم تمحَ من الذاكرة البعيدة رغم تحريمها البين منذ البدايات الأولى للإسلام.

المبحث الثاني

المداهنة

انــتهت الخطوة الأولى لانبثاق الحكومة، ومجلس الرئاسة عام 2004 بسرعة، وســهولة نــسبية لم تكــونا متوقعتين فجنبتا المجتمع العراقي أو أجلتا احتمالات التقاطع، والفرقة آنذاك، وغزارة النقد، والتجريح بالمقارنة مع طريقة إخراج مجلس الحكــم، خاصــة فــيما يتعلق بالإيغال في الطائفية، والمحاصصة التي حالت بعض الأسماء، والتخصصات، والرغبة في التخلص من ضغوط المرحلة دون اتهامها الإصابة بذات الاضطراب المؤلم.

وأُعلنتْ الحكومة على الملأ فتنفس العديد من العراقيين الصعداء تأكيدا منهم على انتهاء فترة من الزمن كانت صعبة، وسعيا منهم للتعلق بآمال عسى أن تكون قابلة للتحقق في الزمن القريب.

لكــن بعض المتابعين الواعين لما حدث، وخلال مراحله الأخيرة التي عرضت عــبر الفــضائيات شعروا بالإحباط بعد أن دفعهم إليه عريف الحفل الخاص بأداء القــسم لهــذه الحكومة بتعمده المداهنة، وإكبار المسؤولين الجدد في نظر الجمهور بطــريقة أعــادت سريعا إلى الذاكرة تجربة خمسين سنة من ذاك المدح الرخيص، والإعلاءْ غير المبرر. والقلق من معاودة تطبيقه على الرؤساء، والحكام الجدد وهم ما زالــوا في بداية الطريق، أو بالمعنى الأصح ما زالت خلايا الأنا في داخلهم لم تُصبْ بسرطان العظمة.

لأن الــذي شوهد وإن لم يرقَ إلى ما كان يحدث أيام صدام، وما سبقه بداية يؤشر إلى أنّ اضطراب تضخيم الذات العمدي ما زال موجودا في داخل الكثير من العراقيين.

وأن التلذذ بالنظر إلى الأعلى ما زال خاصية في السلوك.

اضــطراب قد يدفع العديد إلى البدء من نقطة الصفر في محاربة الديكتاتورية، والتــسلط لــيجدوا ثانــية بعــض الــشعراء يغيّرُونَ اتجاهاتهم ليتغنوا بقائد هو الآخر مقدام.

وبعض الأطفال يساقون إلى الشدو بعبارات تبدلت فيها الأسماء ليكون القادم هو أيضاً فارساً مثل غيره من الفرسان هماماً.

وبعض الشيوخ يفتشون عن صيغة ارتباط بدوائر الرئاسة الجديدة تقدمهم إلى القاعة الكبرى ليعلنوا على أرضها الولاء المطلق بدبكة لم تتبدل فيها الحركات.

وسيجدون البرقيات، والتهاني، والكثير من مظاهر السلوك السلبية التي لم يتعظوا منها، و لم يتذكروا نتائجها يوم أكبروا صدام درجة تلو أخرى حتى ظن نفسه القائد الأعظم، والمفكر الأوحد، والمهندس الأفهم، والكاتب الأكبر، وبالمحصلة اتّخذ قرارات اعتقدها بضوء شعوره بالعظمة صحيحة فدفع هو حياته، ودفعت عائلته أمنها واستقرارها، ودفع الشعب حاضرهم، ومستقبلهم ثمنا لتلك العظمة التي عززوها هم في نفسه المستعدة للتعزيز.

إن المداهنة، والتعظيم التي تعود جذورهما إلى الحضارة الوثنية لن يتحمل تبعاتهما كاملة الرئيس، ولا غيره من المسؤولين لأنهم بشر يشعرون عادة بالرضا، والنشوة عندما يمدح أحد خطواتهم، ويستحسن قراراتهم، بل يتحمله بالدرجة الأولى المجتمع والمحيطون، لأنهم من يصب أو يراكم انفعالات هذه المداهنة في عقل المسؤول الأعلى، ويزيده كماً لدرجة أنّه يدفع لاحقا من لديه الاستعداد النفسي إلى الشعور بالتفوق، والعظمة، عندها تبدأ مرحلة الديكتاتورية، والتسلط التي لم تنته في العراق لأن المتابع لو دقق في معظم الأحزاب السياسية لما بعد التغيير سيجد أن كل أمنائها العامين لم يتبدلوا.

وفي الدوائر الحكومية يتدافع العديد من أجل الوقوف على قمة هرمها، وفي طريق التدافع والزحمة يداهن من يوصله أولا، ويصفه بعديد من الصفات العظيمة.

والمداهنة على هذا الأساس دوامة محنة لأن المتلقين لم يدركوا آثارها المستقبلية، و لم يتوقعوا أن مفرداتها قد تغرق العراق ثانية في بؤس الاضطهاد.

والشواهد في تاريخ العراق كثيرة منذ الزمن الأول للملكية يوم رفعوا سيارة الملك فيصل الثاني، وصفقوا لقاتله، ونعتوه بصفات، وألقاب تقترب من التأليه، وتركوه يخطئ ليُقتَل شماتة، وانتقاما لكي لا يكون شاهدا على المأساة.

ومن بعده عبد السلام محمد عارف الذي صفق له الجمهور بطلا وحدويا ثمّ دفعـــه إلى التجاوز، وارتكاب الخطأ ليُقتَل حرقا في طائرة سمتية لكي لا يشعر أحد بالمأساة.

وفي العقود الثلاثة الأخيرة الشاهد الأوثق حيث المناداة للبكر أبا قائدا يسكت عن خطأ المنادين، وتجاوزهم ليُقتَل من قبلهم خفية بجرعة سم معسول.

والسلـــسلة مستمرة كان آخر القائمة الطويلة فيها حتى عام 2007، ويتمنى العراقيون أن يكون آخرها صدام حسين الذي منحه الجمهور، والمقرّبون المحيطون كـــل الألقاب التي يمكن التفاخر بها، وحاول الانتهازيون المستفيدون في زمنه فعل المعقـــول، وغـــير المعقـــول تعبيرا عن عظمته التي سحبته إلى الاحتماء بحفرة تحت الأرض، ومـــن ثم الموت شنقا بتهمة إبادة الجمهور الذي سبق وأن رفعه درجات فوق المعقول.

إنـــه التاريخ القريب الذي لم يُمحَ من الذاكرة، و لم يحوره الأفاقون عسى أن تكون وقائعه درسا لتجاوز محنة المداهنة، والتعظيم، وعبرة للحكام الجدد في أن لا يكونوا من بين ضحاياها التي تمتد طويلا في جذوره أي التاريخ.

لكـــن الشواهد، ومعالم السلوك لا ترجح احتمالات التخلص منها بسهولة، ويـــسر، لأنها تحتل في خلايا العقل الجمعي حيزا ليس قليلا، وتؤدي في الوقت ذاته وظيفة الطمأنة للذات القلقة من ظلم الأعلى في كثير من الأحيان.

إن المداهـــنة تزداد عند البعض أحيانا لتصل إلى مستوى الوسواس الذي يدفع من يعانيه إلى تكرار سلوك المدح أكثر من المألوف بهدف التخلص من قلق لا يعي مـــثيراته النفسية، وبعد أداء المدح، والمداهنة يشعر بخفض التوتر الذي يحصل مؤقتا أي لا يدوم إلا قليلا من الوقت ليعود بعده المعني إلى تكرار السلوك نفسه، وهكذا هـــو الأمر لجميع أنواع الوسواس وأكثرها إيلاما بالنسبة للمصاب تلك التي تتعلق بالأفكار التسلطية التي يعتقد بسببها أن ما يفكر به هو الصحيح.

وأكثـــرها خطرا بالنسبة لمن يحيط به من أفراد، ومجتمع عندما يتسلم مقاليد الأمـــور في جماعة يحاول أن يثبت في مجالها أنه الأصوب في الرأي والتفكير، محاولا إجبارهم على الالتزام بمعاييره للوقت، وسبل العلاقة، والتحرك، وغيرها من معايير

وأنـــواع مـــن السلوك تجعلهم يعيشون حياة صعبة أو منفرة تدفع قسماً منهم إلى المداهنة، وأحيانا الغلو في جوانبها إلى الحد الذي تتكرر فيها أو تصبح مثل الأفكار، والسلوك التسلطي الذي يؤديه المعني للتقليل من القلق في داخله، والتخفيف من أثر النفرة في الشخص المقابل أي المسؤول وتدفعه في الوقت ذاته إلى التمادي، والتكرار فيصبح عندها موسوسا بالمداهنة.

كـــذلك عـــندما يـــتقدم في مفاصـــل الإدارة، والسياسة ويكون في مصافي المسؤولين فيحاول من خلال موقعه أن يثبت صحة أفكاره، ودقة آرائه وإن كانت غير منطقية، فيفرط في الكلام ويكرر في عباراته لساعات يعود بعدها معتقدا أنه لم يوصل ما يريد إلى من حوله فيعيد ثانية ما قاله إذا ما سنحت له الفرصة بذلك.

ويغـــالي في الانـــتقاد إذ يؤسس على بعض الهنات البسيطة أو غير الموجودة أفكـــارا عـــن الهدم، والتجاوز، والتخريب معتقداً أن الزملاء يرتكبونها وأنه المعني بتقويمها فيسارع لمعاداة الواحد منهم تلو الآخر في سعي محموم يعجز بمحصلته عن إقناعهم بالخطأ غير الموجود إلا في تفكيره المضطرب، ويعجزون هم عن التقليل من شـــدة قـــناعاته فيلجأون إلى المداهنة وسيلة للتخلص من مواقف النقد، والتجريح فيزيدون من توجهاته غير الصحيحة.

إن خطـــر الوسوسة السياسية، والإدارية لا يتوقف عند الإفراط في الكلام أو الانـــتقاد، وإنمـــا في استعراض الشخصية، وتغليفها بغلاف الإخلاص، والوطنية، والنـــزاهة التي يحاول من خلالها استمالة البعض إلى جانبه لتغطية ذلك الإفراط من جهة، ومحاولة استخدامهم لطعن أو تسقيط من يعتقد أنه لا ينسجم، وأفكاره من جهة أخرى.

وعلـــى هذا الأساس نجده جادا في تجميع الأخطاء، وإثباتها بالأساليب المتاحة بيـــنها الكـــذب، والمخادعـــة ليقنع نفسه أنه الصحيح، وأن أفكاره، ومشاريعه، وطروحاته هي التي يجب أن تسود ليخفف من شدة القلق الذي يعانيه.

ومـــع ذلـــك فخبرة السياسة التي تتأسس على المرونة، والمناورة التي عادة ما تكون غير موجودة عند الموصوفين أعلاه من جهة، وقِصرْ نفسهم أو عدم قدرتهم علـــى المطاولـــة لتحقيق أهداف السياسة من جهة أخرى حدّتْ كثيرا من إمكانية

وصولهم إلى المراكز العليا لاتخاذ القرار في المجتمعات الديمقراطية، وبمعنى أدق يمكن القـــول إنّ وصـــول هؤلاء إلى المراكز العليا في القرار السياسي تتناسب طرديا مع خطوات تطبيق الديمقراطية، وهذا واقع حصل بالفعل في العراق بعد 2003 وما زال يحصل إذ دفعت تطبيقاتها المقبولة نسبيا إلى اقتصار تحرك المعنيين على الانتساب إلى حزب أو حركة ليخرجوا منها محتجين على عدم تقدميتها على سبيل المثال ليدخلوا أخرى يبذلون جهدا مضاعفا في مجالها ليتركوها منتقدين انحرافها نحو اليمين، وبعد الفشل في تخفيف القلق من ذلك التقلب يهرولون إلى الأمام باتجاه تكوين جماعة أو حركة خاصة بهم، وعلى حسابهم الخاص، ويعاودون الانشقاق عليها بدعوى عدم مواكبة الموجودين فيها حركة العصر، ومعنى الاشتراكية، فنجدهم يدخلون حزبا، ويخرجون منه عاتبين.

يقودون انشقاقا على الحزب الذي سعوا مع غيرهم لتكوينه، وهم غاضبون.

إن المداهـــنة خاصية، وبالقدر الذي تسهم في تخفيف القلق فإنها تُكبِّر الحاجة إلى وجودها عند السياسي، والإداري المقابل فتكون مثيرات جديدة للقلق، وهكذا يـــستمر وجودها في حلقة لا يمكن الخروج منها بسلام إلا بالتطبيقات الصحيحة للديمقراطية.

المبحث الثالث

الوهم

يقترب الإنسان إلى السواء على مُدَرجٍ للصحة النفسية، ويبتعد عنه تبعا لمقدار اقترابه من الواقع أو ابتعاده عنه أو بمعنى آخر حسب درجة الوهم التي يعيشها حتى يوصـــف المرء أنه مضطرب عقليا عندما يزداد الوهم حدا يؤكد فيه أنه مُراقبٌ من مخلـــوقات كونـــية أو أنّـــه يسمع أصواتاً تناديه ولا يسمعها آخرون غيره(13)، ويوصف مضطرب أو مرهق نفسيا عندما يكون مستوى الوهم عنده إلى حد يعتقد فيه أنه غير محبوب من أقرانه، أو أنه الأحسن بينهم، وهكذا تمتد قائمة الأمثلة عن الوهم "الابتعاد عن الواقع" الذي يعيشه البعض من الناس في عموم الكرة الأرضية، وســـبل التـــشخيص التدرجي بالاضطراب، والانحراف، والإرهاق في كل مجالات

الحـــياة بينها السياسة التي تصنف بالنسبة للعراقيين أعلى أولويات حياهم التي يبين الواقع أهم يعيشون في مجالها أوهاما وإن لم تصل على المدرج المذكور إلى مستوى المـــرض لكنها عمليا تؤشر ضغوطا على العقل، وقدرا من الاضطراب في الصحة النفسية تؤيد وجودها:

1. ردود فعل العديد منهم أو استجاباهم الانفعالية في تعاملهم مع بعضهم البعض في الحياة اليومية.
2. الاستحواذ على الحديث الدائر في نقاشاهم الجارية.
3. المعنويات الهابطة لنسب غير قليلة منهم.
4. المستويات المتدنية للأداء.
5. الرغبة الشديدة في التقليل من شأن الغير، والعزل، والتسقيط.
6. الميل إلى الإيذاء، وعرض مشاهده، والاستعداد للسكوت عن حوادثه المتكررة.

أمـــا طبـــيعة الأوهـــام السياسية التي تشكل ضغوطا على العقول العراقية، والاضـــطرابات الشائعة في أدائها هذه الأيام فهي كثيرة، ومتشعبة بينها على سبيل المثال:

1. النظـــرة إلى الـــتعددية الحزبية من النافذة الذاتية التي يعتقد البعض ممن ركب موجتها أنه، ومعه عدد قليل من الأشخاص المريدين يشكلون حزبا سيكونون بتـــشكيلته قـــادرين على المساهمة في حل مشكلة العراق التي نأت عنها دول مـــشهود بقـــدرها العالـــية للتعامل مع الأزمات، وتخلت عنها الدول العربية المـــشهود لها بتعقيد الأزمات، ويعتقد البعض الآخر ممن أسهم بتكوين موجتها من الأحزاب الكبيرة أنه، ومن معه من المتحالفين قادرون وحدهم على حلها دون أن يكلفـــوا أنفسهم، ويقيسوا مستوى التعقيد، وعلى أساس هذا الرأي، والاعـــتقاد يمكنـــنا القول إنّهم، ومن معهم يعيشون وهما يشكل ضغطا على قدراهم في العمل، والتفكير، ويتسبب في عديد من الاضطرابات التي تزيد من تعقيدات الأزمة أكثر من التقرب إلى حلها كما يتوهم المعنيون.
2. التعامل مع مواضيع مهمة مثل الدستور الذي يرى البعض في مواده التي أقرها الـــشعب العراقـــي بالتصويت فرصة للسيطرة على حاضر العراق، ومستقبله،

وضـــرورة التمـــسك بها جميعا دون تغيير، ويرى البعض في وجودها خطوة تفقدهم مكاسب كانت موجودة، وتمهيداً للتقسيم في غير صالحهم، والعراق، ويرى البعض الآخر أن إقراره في هذه الفترة الزمنية مسألة غير منطقية.

وعلـــى وفقها يمكن الجزم أن أصحاب تلك الاعتقادات واهمون جميعا بمستوى مـــن الـــشدة الـــتي تـــشكل ضغطا على تحركهم السياسي في تقديم الحلول، والمساهمة في خطواتها، وعلى ردود فعلهم منها، وعلى تعاملهم مع نتائجها في المستقبل القريب، والبعيد.

3. العـــودة إلى معـــايير الماضي سبيلا للنهوض بالعراق، والوقوف على التل دافعاً للـــسلامة هـــذه الأيام، والاعتماد على الأجنبي أساسا لإعادة البناء، والقتل، والاغتيال أسلوبا لتجاوز الأزمة المستعصية.

وغيرهـــا الكـــثير من الآراء، والاعتقادات التي يشكل وجودها ضغوطا تنتج الاضـــطراب، وتـــبين النظـــرة التشخيصية لمستويات تكرارها أن العراقيين أكثر الشعوب معاناة من هذا النوع من المشاكل.

وأنهـــم على هذا الأساس الأحوج إلى إعادة بناء حالهم النفسي قبل الشروع بإعادة البناء المادي الذي تأخر بسبب ما يعانونه من الوهم.

والوهم في المجتمع العراقي لا يتعلق بأحداث الحاضر، وتصوراته عن ما يجري بـــل وارتـــبط كذلك بالماضي، ومقارنته بالحاضر بعد أن أدخلت الظروف المحيطة العديد من أبنائه في وضعية المقارنة بين حالهم وما يحيط بهم من أحوال. وبما كانوا عليه في السابق وما هم عيه الآن.

خاصـــة عـــندما يواجهون مواقف صعبة تدفعهم إلى التفتيش في الذاكرة بين أكـــوام المكبوتات عن أحداث ترجح كفة الحاضر أو مواضيع تبرر أفضلية الماضي أملا في الحصول على جرعة نفسية تديم المعنويات، وتحافظ على التوازن.

إن من طبيعة الإنسان أن يقارن وضعه الحالي، وكذلك ما يحيط به من ظروف بما سبق عندما يستمر في العيش لفترة طويلة تحت الضغوط الشديدة، وهي مقارنة سلبية ينبش من خلالها في ذاكرة الماضي، يستجلب من بين وقائعه تلك الأحداث، والممارسات، والذكريات الإيجابية، ويضع في مواجهتها في الوقت نفسه مشاكل،

وعراقيل، وأساليب تعامل الحاضر وهناته السلبية، دون أن يحاول المرور على التبرير كآلية نفسية تعمل على التخفيف من شدة الضغوط، وتعيد التوازن.

هكـــذا هو حال العراقيين الذين يعيشون ظروفاً صعبة، وهكذا هي مساعيهم في استجلاب الأبيض من الماضي، وغلقهم الطريق على تبرير الأسود من الحاضر، وكـــأنهم في هـــذه المـــساعي يندفعون إلى تطويق حالتهم النفسية بطوق اليأس أو الاكتئاب في وقتنا الراهن بعد أن باتوا يمنون أنفسهم بذكريات الماضي في التجوال بـــشوارع بغـــداد بعد الساعة السادسة مساءً دون التعرض إلى الغدر أو التسليب، والسفر بين المحافظات بسيارتهم الخاصة دون مواجهة القتل أو الاختطاف.

والتـــنقل بـــين ضفتي دجلة بلا سدود كونكريتية، والنوم على السطوح بلا أصـــوات للانفجـــارات، أو رصاصات تسقط طائشة من الأعلى فتميت النائمين، والذهاب إلى الدوام الرسمي، والعودة منه بلا آهات، والمشي في الشوارع الرئيسية، والفـــرعية بعيدا عن الدبابات، وغيرها الكثير من الذكريات أو المقارنات التي يندر أن ينهـــي موضوعها أحد بتحميل مسؤولية غياب معالمها منطقيا إلى النظام السابق الـــذي أرســـى قواعد الخطأ والتجاوز، وَقَبِلَ الدخول في حرب خاسرة كنوع من التبرير الذي يخفف من شدة الضغوط.

إن حال المجتمعات التي تعاني استمرار الضغوط، وتعميم المقارنة السلبية كما في العراق ليس في التعطيل المجرد لآلية التبرير، بل وما يؤديه هذا التعطيل من توسيع رقعة الوهم، وهبوط المعنويات العامة، وتدني مستوى الأداء، والبقاء في وضع الحياد الـــسلبي، والمـــيل إلى ارتكاب فعل الخطأ المضاد للدولة، والمجتمع أو عدم الميل إلى تجنـــبه. وكذلك في ما يتسببه هذا التعطيل من تحول تدريجي لاتجاهات الناس من التأييد غير المشروط للحكم القائم. إلى الترحم غير المحدود على الحكم السابق، وما يتبعه من إرهاصات.

والمسألة الأعقد من كليهما هي عدم التنبه من قبل السياسيين المعنيين لما يجري وما آلت إليه الحال النفسي، ومخاطر الوهم، وتردي الحال.

إن الـــوهم آلية دفاع نفسي سلبية تعززت في عقول العراقيين خلال الخمس والـــثلاثين سنة التي سبقت التغيير بعد أن تعلم المواطن العادي أن يكون قريبا من

سـلطة إصـدار القرار ليحقق مبتغاه، وبتقربه يحصل على ما يريد وإن كان مخلا بالمـصلحة العامة، وَدُفِعَ العراقي أن يكون مادحا الحاكم، ومتملقا المسؤول ليحقق مـصالحه الضيقة، وبمدحه يختزل الزمن عشرات السنين ليقفز إلى الوزارة وزيرا أو إلى المؤسسة مديرا عاما، وإن كان مخلا بمعايير الوطنية، وتعلم أن يكون عربيا قبل أن يفهم العراقية، ومدنيا قبل أن يتجاوز تحديدات القرية.

وَدُفِعِ إلى الاقتناع بالدينار سيّداً في عالم الفقر، والشقاء الذي صنعه بيده.

لقـد تم ذلـك كلـه تحـت دعوى وشعارات الوطنية، والقومية، والعدالة الاجتماعية، وغيرها من الشعارات التي التصقت بجدار الذاكرة العراقية لثلاثة عقود متصلة، لكنها ومع أول اختبار في الصراع مع حدث التغيير تبين أنها وهم، فالبعض مـن العـرب يحاولـون نقل ساحة صراعهم مع الأمريكان إلى العراق بعيدا عن التزامات القومية.

وأهل المدينة عاد بعضهم إلى القرية هاربا من استحقاقات العيش فيها بسبب مساعي التجاوز على إنسانيته.

وأحداث تتكرر بدعوى التحرير أبطالها من الخارج، وأدواتها رجال وجماعات مـن الـداخل يسارع بعضهم إلى زيادة الهدم، والتخريب، والقتل، وتنفيذ خطط الأجـنبي، ويغالي البعض الآخر في مجالها جهلا دون الحاجة إلى الارتباط بالأجنبي كما في حالة المزارع الذي شهر بندقيته في تموز 2004 على فنيين جاؤوا ليخرجوا طائـرة عراقية كانت مخفية في أرضه بغية إرجاعها إلى نادي للطيران يريد الهواة أن يُحـيوه بعـد الممات، وحجته في ذلك أن تجاراً أعطوه أربعمائة ألف دينار (200 دولار) ليستفيدوا من معدنها بعد أن صهروا مثله في شارع الشيخ عمر، وإن كانت كلفـة هذا النوع من الطائرات المخصصة للتدريب بحدود مليوني ونصف المليون دولار.

إن سـلوك الفلاح هذا، وإمعان القاتل، والمختطف، وتجاوز الموظف، وخيانة الشرطي، وخطأ السياسي، وانفعال المتظاهر في الشارع معالم إخلال بمعنى الوطنية لم تتوقف تأثيراتها السلبية عند التخريب المادي، والنفسي فقط بل وستتجاوزه كثيرا إلى تخـريب البلد الذي بدأ أعمدته من الأطباء، والمهندسين، وأساتذة الجامعات،

والـتجار، والعسكريين، والوجهاء يشعرون بقلق العيش في محيطه مندفعين إلى التوجه نحو الهجرة إلى الخارج في رحلة عذاب يكون الخاسر فيها عراق يراد تفريغه من البناة الحقيقيين.

ومع ذلك فالأمر لم يصل في هذا الجانب إلى الطريق المسدود رغم مؤشرات الخطر الموجود إذا ما تمت الالتفاتة سريعا إلى جملة أمور بينها:

1. إدراك مؤسسات الدولة، والمجتمع المدني تعقيدات الواقع، ومصاعبه، والتعامل معه على أساس الحاجة إلى إعادة ترميم شامل في كل المجالات.
2. تخصيص جهد ملموس للتعامل مع إنسانية الإنسان العراقي، ومحاولة التقرب منه في البيت، والشارع، والوظيفة، ومساعدته نفسيا على العبور، والتعامل السليم مع الضغوط، إذا ما علمنا أن القفز على مشاعره، والآخرين معه في ساحة العمل سيبعدهم عن المشاركة معه في تحمل المسؤولية، وهم الأحوج إلى ذلك، وإن استعرض البعض في ساحاتها، أو صفق لبعض قادتها.
3. المساواة في النظرة إليه أي العراقي، ومن معه بعيدا عن مقاسات الأفضلية الحزبية، والقومية، والمذهبية.
4. الأخذ بعين الاعتبار أن أكوام الخطأ التي تجمعت في النفس العراقية كأساس لعملية المقارنة بين حاضرها، وزمن صدام لا يمكن إزالتها بسهولة في وقت قريب.
5. العمل على إعادة المعنويات إلى مستوياتها الطبيعية بالتأسيس على الاعتراف بالخطأ خطوة أولى تليها مباشرة خطوات حثيثة نحو التغيير الجذري المفترض في أساليب إدارة الدولة، والمجتمع. لقد غابت مفاهيم، وتكونت أخرى، وضعفت قيم، وتحورت أخرى، وعاش عراقيو هذه الأيام محشورين في زوايا الفعل الخطأ شبه الحتمي في أحيان ليست قليلة يتوهم كثير منهم أنهم وليكسبوا لقمة عيش يمر كسبها في عملية غش واضحة المعالم، وليحموا أنفسهم، وعوائلهم لابد لهم من الاشتراك مع الشقاة في الشارع، والمحلة.

وليحصلوا على ترقية سريعة في سلم الوظيفة لا مفر من الاشتراك مع الأعلى في التدليس، والتزوير في طريق تكون نهايته مزيدا من التدمير.

إن الوهم الذي يقود إلى التدمير في مجتمع مهيأ أصلا للتدمير[1] كّونَ خاصية الإهمال في العمل، والحياة التي يلاحظ في مجالها على سبيل المثال:

1. يُقتلُ موظف في الوزارة غيلة فيتقبل أهله العزاء دون أن يتفاعل مسؤولو الوزارة مع الحدث، أو أن يفكر واحد منهم في أن السؤال مسألة وإن خففت من شدة الحزن فإنها تنعش معنويات الزملاء الموظفين فيعتزون بعملهم، وتقوى روابطهم بالوظيفة.
2. ينقطع متخصص عن عمله في المؤسسة كيفيا دون أن يسأل المعنيون عن الأسباب أو أن يتحسب واحد منهم في أن المساءلة وإن تسهم معنويا في الحد من عمليات الانقطاع اللاحقة فإنها ستساعد على الحد من رغبات الآخرين في الانقطاع، وتدفع إلى الاستمرار.
3. يَتْركُ جندي في الجيش الجديد وحدته أثناء المواجهة المسلحة دون أن يُشكَلُ مجلس تحقيقي عن الأسباب، والظروف التي دفعته إلى الهروب، أو أن يحاول الآمر المباشر العودة إلى الماضي من خبرته السابقة، ويستنتج أن المجلس التحقيقي يضمن حق الجيش ماديا، ويردع الآخرين نفسيا.
4. يتمرد قائد شرطة في المحافظة البعيدة عن بغداد أو حتى القريبة منها على أوامر المراجع العليا فيصدر وزير الداخلية أمراً باستبداله بقائد آخر لا يتمكن من الوصول إلى المقر الجديد بسبب استحواذ المتمرد وزبانيته القريبين من العشيرة، والمنطقة دون أن تفكر تلك المراجع بآلية تستبدل فيها ما وُضِعَ بعد التغيير من ضوابط لا تتلاءم، والواقع العراقي أو أن تفكر بأسلوب ردع يحول دون التكرار لحوادث التمرد وعدم تنفيذ الأوامر.

---

(1) ورد في خطاب لصدام حسين في تسعينات القرن الماضي أن الطامعين في العراق سوف لن يتسلموه إلا ترابا، وكان الكثير من العراقيين يتندرون، ويتعجبون من هذا التشبيه غير المنطقي من وجهة نظرهم، إلا أن الذي حصل بعد الاحتلال هو تفاعل الكثير من الخصائص، والأخطاء، والأساليب التي وجدت خلال المراحل السابقة وخلقت مكونات ذاتية للتدمير، أصبح فيها الإنسان مهملا، غير جادٍ، متفرجا، لا يأبه بالوطن، عدوانيا، طامعا فأسهم من حيث لا يدري بالتدمير على وفق مفهوم التراب الذي أراده صدام حسين، وأصبحت فيه الجماعة، والأجهزة الموجودة، والقوانين، والقيم غير فاعلة في الحد من الميل إلى التدمير فتحققت نسبيا نبوءة صدام فيما يتعلق بالتسليم على أساس مفهوم التراب.

5. يُنحـــر كل منتسبي مركز الشرطة في المدينة وضح النهار ليس لأنهم من حزب الحكـــومة أو من مؤيدي قوات الاحتلال، ولا أحد من الناس القريبين من ذاك المركـــز أو البعيدين عنه يلفظ كلمة لماذا! أو يسأل نفسه كيف يمكن أن يحل مشكلة بينه، وبين الجار العاق إذا ما غابت سلطة المركز؟
6. يتسرب إلى الخلف غالبية المنتسبين لفوج من أفواج الحرس الوطني أثناء الهجوم على أحد الأهداف التي تحسب الحكومة أنها مهمة ولا أحد من سلسلة المراجع يدرك أن الإعداد المعنوي للمهاجمين غير موجود أو أن ينبه المعنيين إلى ضرورة وجوده في ظروف أصبحت فيها المعارك الجارية نفسية قاسمها المشترك ما يتعلق بالمعنويات... الخ من الأمثلة التي لا حصر لها في عراق اليوم التي تؤشر:

وجـــود إهمال بعضه متعمد بقصد الإعاقة، وإسقاط الحكومة، وبعضه الآخر نفسي بسبب الضغوط، والتعب، والإعياء.

أن أجهـــزة الدولة المعنية تتعامل مع الفرد، والجماعة تعاملا ماديا متوهمة هي أيـــضاً أنها وطنية جاءت بعد الديكتاتورية، وما دامت كذلك على العراقي أن ينفذ أوامـــرها، وأنهـــا قـــد رفعت من دخله فما عليه إلا أن يستجيب لخططها، وأنها ديمقـــراطية فـــلا بد والحالة هذه أن يشارك في مشاريعها، وأنها أزالت عنه ضغوط الشك، والملاحقة الأمنية، فما عليه إلا أن يؤيد توجهاتها.

وقـــد ألبـــست عسكره الجديد بدلات من غير الزيتوني، وقبعات غير البيريه المعروفة، وسمحت بارتدائهم النظارات السوداء تيمنا بالغير القادم من خلف البحار، فما عليهم إلا أن ينفذوا أوامرها، وغيرها من معالم وهم أو افتراضات قد لا يشك بـــدوافعها من الناحية النفسية التي لا تكفي وحدها عوامل يمكن تجسيدها واقعا في العقل الجمعي العراقي إذا ما أخذنا في مجالها بعين الاعتبار أن:

1. المـــشاعر الوطنـــية قد تأثرت سلبا ما قبل التغيير الأمر الذي حال دون تقدير الكثير من العراقيين لوطنية الحكومة.
2. مـــستويات الدُخـــول التي تم رفعها لا يتحسس وقعها المعنيون بعد شهور من حـــدوثها في ظل الارتفاع الواضح بمستويات العيش، والوجود البين لضغوط الأمن، وتهديد الوجود.

3. الملاحقـــة، والسجن التي كانت موجودة نسي أيامها الكثيرون عندما أحسوا أنهـــم يـــسيرون في أرض زرعت بالعبوات الناسفة قد تنفجر في كل لحظة من الليل، والنهار.
4. الـــزى العسكري الجديد غير كاف لإنتاج الضبط، وتحسين الأداء لأنه أشعر العـــسكر بالتجاوز على تاريخ جيشهم الذي زاد عن الثمانيين سنة من الخبرة، والمعرفة.
5. العـــراق أصـــبح ساحة معركة، والمعركة صراع إرادات، وأفكار، ومطاولة، وقـــناعات لا يمكن أن تكسب الحكومة الحالية أو التي ستأتي من بعدها الجولة الحاسمـــة في مجالها إلا إذا غيرت من تعاملها مع الإنسان العراقي، وتوجهت إلى صـــيغ جديدة تعالج فيها الإهمال أحد أهم معالم الهدم في البلاد، بعد أن تطور ليقترب في أن يكون خاصية، أو حالة يعاني منها العراقيون الآن ترتبط بشكل مباشر بالظروف غير الطبيعية الضاغطة، والتي أنتج تكرار وجودها لفترة زمنية طـــويلة مـــا يسمى بعقابيل العيش تحت الشدة (PTSD) نوع من الاضطراب النفـــسي يعانـــيه بالفعل الكثير من العراقيين من بين أعراضه الإعياء الحاصل، والـــذي لم يجد الواحد منهم في داخله قدرة على المبادرة أو فعل شيء إلا في اللحظات الأخيرة المطلوب فيها التنفيذ أي القيام بالفعل المطلوب تحت ضغط الضرورة (14)، وهذا نوع من الإعياء النفسي تسبب في وجود الإهمال أو زاد مـــن تكـــرارات وجـــوده في المجتمع الذي لا يمكن أن يبنى بوجوده كما هو مطلوب بأي حال من الأحوال.

إن مجالات الوهم الحاصلة في الوقت الحاضر لا تتوقف عند ما ورد أعلاه فقد امـــتدت إلى جـــوانب أخرى ذات صلة بالأمن، وإعادة البناء بينها البقاء في دوامة الانـــشغال دون التنبه بشكل كاف إلى ما يجري في المحيط من أخطاء، ومن حاجة إلى الـــتدخل لتجاوز الأخطاء أو التقليل من آثارها الجانبية إلى المستوى الذي بات فـــيه الكثيرون متشائمين من مستقبل دولتهم التي شاخت مبكرا حتى أصبحت غير قـــادرة على مواجهة مشاكل كثيرة بسبب سعة الوهم، وعدم كفاية الأداء المتاح لإنعاشـــها أو إعطائهـــا الجـــرع المناسبة للبقاء، وهناك أدلة كثيرة تدعم موضوع

الانـــشغال، وأثره السلبي على ضبط مقاليد الحكم، وتعزيز بقاء الدولة وفي مجالها يستدل المتتبع أن جميع العراقيين منشغلون، وإن اختلفت طبيعة الانشغال:

بـــين من دفعته معالم النضال ليكون في أعلى مصافي القرار الذي يستنـــزف جل وقته بالتفكير، والعمل على الخروج من أزمة، أو تفادي الوقوع في أخرى.

أو التفتـــيش بـــين الخبرات المكبوتة، والأفكار المزاحة عن ما يسعف الحال لتوســـيع هامش المنفعة الذاتية، والحزبية، وانشغاله بهذه الطريقة لا يفسح له المجال لأن يعطـــي الدولة ما تريده، ولا يسمح له بتطوير أدائه بما يتناسب، وحاجتها إلى إعادة البناء، وتفادي احتمالات الموت.

وبـــين مـــن ألزمته الأقدار ليكون عاطلاً في أسفل التدرج الاجتماعي الذي يقحمـــه قـــسرا في دوامة الانشغال بمساعي الحصول على عمل خارج المحاصصة الطائفية، والحزبية، أو الحلم ببيت، وعائلة، وأطفال مثل كل المناضلين.

أو التفتيش كل الوقت عن وسيلة تديم البقاء، وعن بقايا تسد الرمق من أجل الـــبقاء، وانشغال من هذا النوع لا يدفع المنشغلين إلى التوجه للمساهمة في الترميم، وإعـــادة البناء بعيدا عن احتمالات الموت في غرف الإنعاش، بل وعلى العكس من ذلـــك قـــد يُولد بعض مشاعر العدوان في داخلهم نحو أولئك المنشغلين في الأعلى يمكن أن تحرك الكثيرين باتجاه المساهمة بالتعجيل في عمليات الهدم، وليس البناء.

وأدلـــة أخـــرى مثل الشعور باليأس، والإحباط العام التي تدفع إلى الانشغال بالتفكير في كيفية التعامل، والخروج من الحالة التي تكونت عند الأعلى بسبب عدم قدرته على التعلم السريع، واكتساب الخبرات اللازمة للعلاج أو حتى حسم الموقف لـــصالحه، والاطمئـــنان على مستقبل كتلته أو حزبه، ومن خلاله مستقبل الدولة، والحكـــم، ويـــأس في حالـــته يستنـــزف جل طاقته النفسية، المطلوب حشدها، والاحتياطـــي المـــتاح مـــنها لتوفير قدر من الأداء يتناسب، والحاجة إلى البناء أي الحيلولة دون الموت.

إن أي أداء دون توفـــر قدر كاف من الطاقة النفسية سوف لن يتوقف تأثيره الـــسلبي عـــند عدم الإسهام الجاد في البناء، وإنما سيعجل حتما بالهدم في ظروف التوتر، وعدم الاستقرار، وهي مشاعر يأس تكونت أيضاً عند المستويات الوسطى،

والدنـــيا إثر الفشل في تأمين حياة أفضل، والتخبط في الانتقال من الحياة المقيدة إلى الأخرى الحرة، وإثر الصراع في المقارنة بين الحاضر، والماضي.

ويأس عند هذه الطبقات، وبمستوى عال من الشدة سيشغل جل تفكيرهم في كيفية الخلاص، ويمنعهم من المشاركة في إعادة البناء، وهم الأيدي العاملة له، وربما سيدفعهم إلى الامتناع عن دعم، وإسناد من يريد البناء في الظروف الصعبة.

وأدلـــة أخرى تتعلق بدوامة الوهم، وتدني مستوى الأداء، والانشغال وغيرها تـــؤكد عـــدم وجود فلسفة واضحة للدولة في التعامل معها يحول دون نقلها أي الدولـــة، وعمليتها السياسة إلى غرفة الإنعاش، وتجنيبها الموت الحتمي إذا ما بقيت هذه الأدلة ماثلة للعيان.

المبحث الرابع
التجزئة

إن إحدى أكبر المشاكل التي أصابت عراقيي هذا العصر هي ما يتعلق بوعيهم الـــذي ســـعت حكومات قبل التغيير إلى تقييده بوسائل ضبط قسرية زادها شدة مساعي التدخل لتحوير توجهاته لما يخدم مصالح البقاء، والاستمرار.

إذ إنّـــه وبعـــد عـــام 1958 اتجه الوعي العراقي على سبيل المثال من الوعي الجماعي المحدود إلى الوعي المجتمعي العام، أي من الشعور بالانتماء الفاصل للعائلة، والعـــشيرة، والطائفـــة، وغيرها من عناصر الفصل، والتجزئة في المجتمع الأكبر إلى الانـــتماء وبشكل تدريجي للمجتمع المدني الأوسع (الوطن) بصفته مجتمعاً إنسانياً شاملاً يلائم الحياة العصرية آنذاك.

وبعـــد أن حققوا خطوات ملموسة بهذا الاتجاه، وتحولوا نسبيا إلى الكلية في الـــتفكير، والـــسلوك، واقتربوا على ضوئها بقدر مقبول من العالم الأكثر تحضراً، عـــادوا ثانية بسبب الإجراءات الأمنية لفرض سلطة الضبط السياسي، والاجتماعي القـــسرية، وتعميم العقوبة درجات إلى العائلة، والقريبين، والشك بنوايا الطائفة، والمـــنطقة التي طبقت، وغالى بتعميمها صدام حسين بعد عام 1979، وأسس عليها الحكام، وبعض القوى السياسية المشاركة بالحكم ما بعد التغيير.

وبسببها عاد العراقيون في هذا الجانب إلى نقطة الصفر، أو ما قبلها بقليل، ليتمحوروا حول الجماعة الأصغر بديلا عن الوطن مجتمعا أكبر، عندها بات وعي العديد من أبناء هذا المجتمع مفصولاً مجزّأً، يفتش في داخله عن انتماء يشبع حاجته إلى الأمن.

إن الانتماء الحصري هذا إلى الجزء دون الكل، والنكوص في مجال الوعي إلى الماضي لنصف قرن من الزمان نزع عن العراقيين كليتهم، وجعلهم أجزاءً متناثرة، تجاوزت آثارها السلبية كثيرا وجهات نظر الفرد ودوره في المجتمع، وأصابت الغالبية بقصور الرؤية العامة لما يتعلق بمشكلتهم جميعا، مشكلة الواقع الحالي للعراق، ومستقبله بعد أن عادوا من جديد يفكرون بالعشيرة وحقوقها، والطائفة واستحقاقاتها، قبل التفكير بدولة العراق كحضن آمن للجميع.

إن ظروف الماضي، والتغيير، وأسلوب إدارة الدولة والمجتمع للمرحلة التي أعقبته دفعت إلى أن يكون أهل العراق "بنسب ليست قليلة" متجهين إلى التقوقع جماعات صغيرة، أو مجرد تراكمات من البشر، وليس جماعة فيها نوع من التجانس المعقول، ولها قوانينها، وضوابطها، وعاداتها، وطقوسها، وأفعالها، ووقائعها التي تمتلك مرجعية اجتماعية تسمح بحصر الأفكار، والكلام، والأفعال باتجاه تحقيق الأهداف، والطموحات للغالبية المشتركة، كما إن تطور الأحداث، وعمق الغوص في دوامة التجزئة، والفصل، والتحويل لم تترك الجماعة الصغيرة على سجيتها العراقية الأصيلة، وتقاليدها الشائعة التي يمكن توجيهها أحيانا باتجاه السيطرة، وضبط السلوك وطنيا.

كما إن التدخل في العديد من خصوصياتها جعل اهتماماتها، ورغباتها، وحتى همومها، وأساليب إشباع حاجاتها الضرورية، والعامة تتضارب داخل محيطها، وخارجه مع المحيط القريب، فتمزقت الجماعة، وانغلق البعض من أفرادها على أنفسهم، وامتنع البعض الآخر من التفاعل الإيجابي مع الأحداث المروعة للعراق.

فأصبحت الجماعة كئيبة، فاترة الشعور، ولفظية في عديد من توجهاتها.

وابتعدت عن المشاركة بالطاقات، والهمم، والقدرات إلا ما يحقق مصالحها الذاتية، وعطّلَتْ أحيانا بعض مجالات الإدراك الحسي.

وحـــورت الأفكـــار، والمشاعر، والإرادات كأحد مقومات وجودها جماعة مـــتفاعلة، لأن الواقع يبعدها عن المشاركة التي تؤكد وحدتها كجماعة، وأصالتها كمرجعية وطنية، إلا ما يتعلق ببعض الجوانب التي لا تساعد على تعزيز فعل التأثير.

إن الابتعاد عن المشاركة أو المشاركة المشوشة بطريقة فوضوية وصاخبة أحيانا انعكست آثارها السلبية ليس على قدرة الجماعة "وإن كانت صغيرة" في أن تصون وحدتها، أو تحافظ على كيانها فقط، بل ودفعتها أن تتجه بالتدريج إلى أن لا تعمل إلا بـــضغط خارجـــي "أي من الدولة، وبعض المصادر الخارجية دول ومنظمات، وجماعات" يسعى بعضها إلى تعزيز هذا السلوك.

لكـــن الذي لا يريده العراقيون الوطنيون، وينبغي أن يتنبه إليه الجميع هو أن هذا النوع من السلوك الذي اقترب من مستوى الاضطراب قد انتقل إلى الأحزاب، والكـــتل الـــسياسية سواء في مجال التجزئة، أو في إطار الاتكال على الغير كعامل ضغط لتحريكهم نحو أهدافهم في فرض الأمن، وإعادة إعمار العراق.

المبحث الخامس

القرابة

العـــراق مجـــتمع شـــرقي، أو بالمعنى الأقرب إلى الواقع عربي مختلط تجمعاته السكانية في مدن الوسط، والجنوب ذات الكثافة السكانية العالية تقع على حافات الـــصحراء العـــربية التي شكلت غالبية قيمه الممتدة منذ مئات السنين، ومع ذلك انفتحت على الحضارة مذ مئات السنين أيضاً فكوّن هذا العيش، والانفتاح تناقضاً "صراعاً" بقي شديدا بين:

حاجة الإنسان إلى العيش وفقا لمقتضيات العصر الحالي.

وبين الالتزام بتقاليد العصور الماضية من حيث العادات، والتقاليد.

وهو نوع من التناقض الاجتماعي لو تناولناه من وجهة النظر التاريخية نجد أن مجتمعات أخرى، وبينها الغربية قد عانت منه قبل أكثر من قرنين خاصة فيما يتعلق بتفضيل القريب على الغير، نهجا في العمل، والتفكير، وسلوكا للضبط، والسيطرة تجاوزته كل تلك المجتمعات، وأعيدت فاعليته في هذا المجتمع "العراقي" بعد ثمانينات

القـــرن الماضـــي التي قوضت إجراءات الحكومة في التعامل مع المجتمع على أساس القـــرابة جهـــود حثيـــثة لعديد من السنين حاول فيها قادة، ورواد اجتماعيون، ومثقفون بعد الستينات التخلص من وجوده وآثاره، وحققوا آنذاك نجاحا ملموسا في الحـــد مـــن تأثيره، وأرسوا قواعد نقد صريح لتطبيقاته في الأدبيات، ووسائل الإعلام خففت من غلوائه كثيرا.

إلا أنه وعلى الرغم من انتهاء حكم صدام، وحصول المنتقدين على فرصة الحكم والإصلاح بقيت رواسبه راسخة في عقول البعض، وكأنه داء ابتلى به العراق مؤشراته أحداث، ووقائع، وأنواع سلوك بعيدة عن المألوف بينها على سبيل المثال:

ســـائق أحد السياسيين المرموقين أو أكثر من سياسي، ومسؤول حكومي هو ابن عمه.

آمر الحماية الخاصة ابن أخيه أو أخته.

مرشحه للوزارة صهره، ولوكالة الوزارة زوج شقيقته.

ومن بعدهم يقف أبناء العمومة والعشيرة، ومن ثم الطائفة، والقومية في صف طويل، يتقدمهم الأقرب.

وجهتهم صوب السياسي أو المسؤول (القريب).

غايـــتهم الاستفادة الذاتية من كيانه الوظيفي أو موقعه السياسي إلى المستوى الذي يمكن عده في ظروف العراق الحالية داءً باتت أعراضه صفقة يحاول:

طـــرفها الأول "السياسي أو المسؤول" الارتكاز على الولاء المفروض للأقرباء بغـــية ســـد النقص الحاصل في الكفاءة المطلوبة من وجهة نظره لدعمه في العمل، وتأمين حمايته التي لا يطمئن في موضوعها إلا للقريب بعد أن اخترق أو تجزأ الولاء ليقترب من القرابة ويبتعد عن الوطن[1].

(1) لقد أثبتت محاولة اغتيال السيد عبد السلام الزوبعي نائب رئيس الوزراء في داره اثناء تأدية صـــلاة الجمعة 23 آذار 2007 من قبل أحد أفراد حمايته المتهم فيها أولا وهب الزوبعي أن القرابة ليست هي العامل الوحيد للطمأنة، وأن هناك تأثيراً للدين، والولاء المذهبي، والانتماء العقائـــدي، والجانب المادي قد يفوق أحيانا الولاء القرابي، والتي تشكل جميعها مجالا للخرق الأمنـــي لم يحسبه السياسيون جيدا في الظروف الصعبة التي يعيشها العراقيون والتي تساعد كثيرا على الخرق حتى ضمن العائلة الواحدة.

ويحـــاول طرفها الثاني "الأقرباء" استيفاء ثمن المجازفة بالتواجد مع القريب أي السياسي مكاسب مادية، ومعنوية "الجاه، والسلطة" تفوق استحقاقاتهم القانونية.

أما إذا نظرنا للموضوع من الناحية القيمية نجد أنه تعزيز لقيم القرابة القبلية، ورابطـــة الدم التي تنم عن عودة إلى الماضي البعيد التي كانت فيه القبيلة بديلا عن الدولـــة في الـــتعامل، وحـــل المشاكل لأفرادها، وهي من بين القيم وإن يحس في وجـــودها المرء بقدر من الاطمئنان خلال مرحلة تصاعد حدة الاحتقان، والتهديد الطائفـــي في الوقت الراهن، لكنها بوجه العموم قيم تنتج سلوكا متخلفا يظهر في صـــورته العراق الحالي كأنه تركة "وليس وطناً" يسعى الأبناء إلى تقاسمها حسب قربهم من المُوَرِثْ، سياسياً كان أو مسؤولاً حكومياً، وإذا ما نظرنا إليه من الناحية السياسية نجد أنه خطر ينهش في جسم العراق زاد من التجزئة في الوعي، والإدراك، والـــولاء إلى الوطن المطلوب تقليل معالم التجزئة في محيطة ليعيد له هيبته، وسلطة تأثيره التي تجمع ولا تفرق، تقرب ولا تُبْعِد.

هـــذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن القرابة التي أصبح تأثيرها ملموسا في جوانب الحياة السياسية، والإدارية في السنوات الأربع الأخيرة تُذَكِر العراقيين:

بالعريف الذي أصبح وزيرا مثل علي حسن المجيد ابن عم صدام حسين الذي بـــدأ حياته جندياً ثم ضابطاً صف إلى رتبة عريف بالقوة الجوية، ومنح رتبة فريق أول ركن، وشغل عدة مناصب قيادية بينها وزير الدفاع، وبالشخص العادي الذي أصبح مليارديرا بقليل من السنين، وأقوى من الوزير مثل حسين كامل حسن المجيد مـــن أبناء عمومة صدام حسين، وزوج ابنته الذي التحق بالحماية جندياً بسيطاً لا يملـــك شـــيئا، فتقـــرب من العائلة وتزوج الابنة الكبرى، وحضي على منـــزلة، وحضوه كبيرة عند صدام، والعائلة "باستثناء الابن الأكبر عدي"، تسلّم على إثرها مناصـــب بيـــنها مـــسؤول الحمايات، والأمن الخاص، ووزير الصناعة والتصنيع العـــسكري، ووزير الدفاع، وأقرب الناس إلى صدام بعد أولاده في الزمن الماضي، لكـــنه انشق على صدام في وقتها بسبب صراعه مع عدي، وقيل بشكل محدود بين أوساط مقربة من حسين كامل نفسه إنّه بسبب محاولة للانقلاب على صدام كان خطط لها مسبقا، واستعجل فيها الهروب من بغداد إلى عمان بسبب ظنه أن صدام

قد كشف أمره، هذا وإن وجدت مثل هذه المحاولة في الأصل ولو باحتمالات قليلة فإن دوافعها النفسية خلاف مع عدي.

إن داء القـــرابة وبالنظـــر إلى جملـــة الأحداث التي استهدف فيها مسؤولون سياســـيون، وحكومـــيون تـــؤكد أن الأقـــرباء الموجودين في الحمايات الخاصة، والوظائـــف المـــتقدمة لا يسهمون أكثر من غيرهم في الاستبسال، والدفاع عندما يتطلب الحال ذلك في مواقف الاستهداف، وفائدهم التي يعتقد وجودها في الحيلولة عـــن حـــدوث الخرق الأمني لاعتبارات القرابة، والحياء الاجتماعي، بالمقارنة مع الغـــريب هي غير منطقية في ظروف يسهل فيها التجنيد، والشراء بمغريات المال أو بالتهديد، لكن لهذه الإيجابية التي يفترضها المسؤولون الحكوميين، والسياسيون جانباً ســـلبياً إذ إن القـــريب الذي يقدم هذه التضحية ينشط للحصول على المكاسب الـــسريعة علـــى حـــساب سمعة قريبه المسؤول والوطن، ومع ذلك فإن الحرب، وأحداث التغيير أكدت أن القرابة التي أسس عليها صدام معايير للتقرب من موقعه أسهمت مع عوامل أخرى في إيجاد خلل في نظامه السياسي، وفي دفاعات جيوشه التي انهارت بسبب اختفاء العديد من القيادات التي كان أعلى هيئاها أقارب، حتى شـــكا صـــدام، وعائلته من سلوكهم ما بعد التغيير، وسيسهم استمرارها ما بعد التغيير في إعاقة مشاريع إعادة البناء الاجتماعي، والنفسي بسبب الجري نحو استيفاء الثمن، وتكرار أخطاء الماضي أو العودة إليه في التعامل.

الفصل الرابع

التدليس السياسي

إن التردي في العمل السياسي نتيجة لعوامل خارجية وداخلية تدليس عجز المعنيون عن حله فتسبب في وجود مفاهيم أعاقت خطوات إعادة البناء.

إن العملية السياسية التي جرت في العراق بخطوات حشدت لها جهود كبيرة من قبل الأمريكان على وجه الخصوص لم تكن ناجحة كما هو مطلوب وإن تم التقيد حرفيا بخطواتها من حيث التوقيت، ومراحل التطبيق، بدءاً من مرحلتها الأولى التي وجدت مع حكم مدني للسفير بريمر لم يلتفت فيها، وأجهزته التنفيذية، والعسكرية، والأمنية إلى واقع العراقيين وطبيعة مجتمعهم(1) وخبراتهم في التعامل مع المحتلين.

ولم يعر اهتماما إلى شكل العلاقة التي تربطهم مع العرب، وامتداد الثقافة، والمعرفة المشتركة التي غُذيت بها العقول بشكل مُركَزْ لعشرات السنين.

(1) في 2003/4/26 عقد مؤتمر سياسي موسع في بغداد شارك فيه ممثلون عن قوى معارضة قادمة من الخارج، ووجهاء، وشيوخ عشائر، وشخصيات معروفة من الداخل، وفي أثناء الدخول إلى قصر المؤتمرات مقابل فندق الرشيد كانت هناك مفرزة أمن أمريكية بملابسها العسكرية تدقق، وتفتش المشاركين الداخلين في تسلسل للمسير يطول عشرات الأمتار، وفي أثناء التفتيش طلب أحد جنودها من شيخ عشيرة مدعو للمشاركة في المؤتمر أن يرفع كوفيته" اليشماغ" والعقال وعندما تردد الشيخ قليلا في رفعها تماشيا مع التقاليد العراقية التي تعتبر العقال شرفاً لمن يلبسه لا يمكن رفعه إلا في حالات خاصة قد لا يلبسه ثانية إلا عند حلها أو تجاوزها، تلقى بسبب تردده نظرة يفهمها من خبرته الطويلة في التعامل مع سلطة الأمن فرفع عقاله صاغرا، وأعاد وضعه على الرأس بإشارة من نفس الجندي مكتفيا بعبارة دارجة في اللهجة العراقية الجنوبية "جا خربت" وهذا الجندي الذي نفذ بدقة سياقات الأمن، وقواعده كما هو موجود في المجتمع الأمريكي، وغيره من المجتمعات الغربية، وكما تقتضي الحاجة أوقع حكومته في ورطة عدم تفهم الطبيعة العراقية التي سحبتهم إلى عديد من المشاكل أطرافها كانوا مؤيدين لمجيئهم أو ساكتين غير معارضين.

و لم يلتفت كذلك إلى إرهاصات العلاقة مع الجار، والحروب التي تركت آثارا نفسية خاصة مع إيران، والكويت.

إن بريمر الذي جاء بعد أسابيع من حكم الجنرال جي غارنر أعطى انطباع أن الأمـــريكان ينوون التركيز على الطبيعة المدنية للاحتلال، وينهون سيطرة العسكر لأنهـــم يمثلون سيطرة البنتاغون في حين جاء بريمر بقوة دفع من الرئيس الأمريكي، ومن ثم وزارة الخارجية التي يرتبط بها، وصلاحية الاتصال بالرئيس مباشرة لأغراض إدارة العراق.

إن بريمر الذي أحاط نفسه بالعديد من المستشارين(15) وأمر أن يحاط الوزراء العــراقيون، والمسؤولون الكبار بالمستشارين لم يضع في حسابه حاجة المجتمع إلى الــضبط، وإعادة الترميم النفسي قبل المادي في كثير من الأحيان بعد توجهه لإلغاء قــوانين، وتــشريعه أخرى بناء على وجهات نظر أمريكية فيها المسافة في العيش، والتحضر، ونهج التفكير بينهم، وبين العراقيين مئات السنين لا يمكنهم بطول فترتها إيجاد خبرة مشتركة تصلح للتطبيق في كلا البلدين بنجاح مقبول[1] وإنه"بريمر"هو أول مـــن أرسى المحاصصة طريقة في توزيع المسؤولية، والمهام منذ الساعات الأولى لاســتلامه المــسؤولية حيث التوزيع السريع للمناصب العليا بين الأحزاب الرئيسة المــسماة بالفاعلــة آنذاك، والتي أخذت أو التقطت الفرصة سانحة، وبدأت جهدا حثيــثا لتوســيع مجالات امتدادها بين الدوائر الحكومية، والمؤسسات الرسمية حتى

(1) جلــب بريمــر شخــصاً أمــريكياً أو أكثر في كل مجال من مجالات الإدارة كان في البداية المــسؤول الأول ثم رافقه عراقي في المسؤولية التي انتقلت إليه لاحقا، وفي مجال الشرطة مثلا جلب أحد مدراء الشرطة "من أصل عراقي" يشيد له زملاؤه بالكفاءة والجدية، وكان دائم التحــرك في شوارع بغداد وجد في تحركه أن مسألة التعامل مع واقع الجريمة، والضبط في الشارع العراقي وفق السياقات الأمريكية مسألة صعبة أو مستحيلة، لأن السيارات المخصصة للشرطة بلا أجهزة تغذيهم بالمعلومات، وشبكة الاتصال مضطربة، والطلب من المتهمين أن لا يــتكلموا إلا بحضور محاميهم غير منطقي، ثم إن إطلاق سراح متهمين لعدم وجود الأدلة جعله يواجه الكثير من الوجوه الملقى القبض عليها وقد أخفيت الأدلة التي تدينهم بشكل جيد، عــندها اعتــرف أن البيــئة لا تــسمح بذات التطبيقات في كلا المجتمعين. وعندما سلمت المسؤولية إلى العراقيين عجز المستشارون الأمريكان أن يحولوا دون العراقيين بإعادة تطبيق الأساليب القديمة "القسر" في الاستنطاق، والحصول على المعلومات.

أصبحت تلك الدوائر بالمحصلة النهائية أشبه بالكانتونات السياسية تعود إلى هذا الحزب أو ذاك ويتحرك فيها المسؤول الحزبي بحرية تحول دون السماح للقادم الجديد أن يأخذ مكانه المناسب إن لم يكن من الحزب وإن كان يحمل اختصاصا نادرا، حتى أخذت المقابلات منذ تلك الفترة تتجه إلى أن يسأل المتقدم عن أصله، وطائفته، وموقفه من النظام السابق بطريقة تثير الحيرة، والاشمئزاز(1).

ومن ثم مجلس الحكم الذي شكله بريمر على نفس مفهوم المحاصصة من شخصيات غير متجانسة في انتماءاتها الطائفية، وولاءاتها القومية، والوطنية، وفي تاريخها السياسي إذ يجلس الأعضاء الخمس والعشرون بينهم المناضل ذو التاريخ الوطني الطويل، وبجنبه آخر جلس على أساس الإشغال المفروض للكرسي الذي خصص للطائفة أو العشيرة من شخص جاء عن طريق الصدفة أو نيابة عن آخر لم يحضر عن طريق الصدفة أيضاً فكان المجلس من الناحية العملية خطوة باتجاه التعويق في عملية الترميم، وفرض الأمن، وإعادة الترميم.

إن المعضلة في العملية السياسية هي الرغبة في الاستحواذ، والميل إلى التعويض، وقلة الخبرة لدى السياسيين المعتمدين، وحتى المنتخبين ومن ثم التدخل الأمريكي الذي يأمر القائمين عليها للأخذ بمبدأ التوافق في العمل بطريقة تلزم المكلف بتشكيل الحكومة قبول ترشيح الآخرين المعتمدين في هذه العملية وإن كانوا من غير المؤهلين مهنيا لأنهم يمثلون طائفة أو شريحة في المجتمع ينبغي تهدئتها في الظروف الصعبة، وهذه معضلة

(1) صحيح أن بريمر الذي يتحمل مسؤولية الأمر بتنفيذ مبدأ المحاصصة سيئ الصيت في العراق، لكن بعض الحوادث تؤشر أن العراقيين هم أول من خط حدود هذا المبدأ إذ إنهم في المؤتمرات السياسية للمعارضة العراقية التي عقدت قبل الحرب مثلا كانوا يتوقفون كثيرا أمام اللجان المشكلة، والمسؤوليات الموزعة لتشمل عربا وأكرادا، وتركمانا، شيعة، وسنة على أساس التوافق، وكانوا يواجهون أزمة في موضوع السنة لقلة عددهم في المعارضة آنذاك مما يضطرهم التفتيش بين الحضور عن سني أصبح عملة نادرة لتكليفه بمسؤولية حتى يقال إنّ التمثيل هو لجميع العراقيين، ويوم تشكل لجنة لأداء مهمة، أو وفد للتفاوض لا يشمل سني يثار الكثير من النقد عن تسلط الشيعة، والأكراد على مقاليد المعارضة العراقية وإلى مستوى التدخل المباشر للأمريكان بهدف حسمها، حتى أضحى هذا المبدأ أي التوافق سنة من سنن العمل المعارض انتقلت إلى طبيعة الإدارة لما بعد التغيير، والتي جسدها بريمر على أرض الواقع خيارا وحيدا على الأغلب.

انتقلت آثارها حتى بعد الانتخابات الشاملة لعام 2005 حيث كان يفترض أن تشكل الحكومة من قبل الكتلة الفائزة بعدد من الأصوات تكفي للتشكيل أو تتحالف مع كتل أخرى لتأمين الأغلبية الممكنة للتكليف لمدة أربعة سنوات حسب الدستور العراقي.

لكـــن الـــذي جـــرى وبعد تردي الوضع الأمني، وعزوف غالبية السنة عن المـــشاركة بالعملـــية السياسية ألح الأمريكان، واقتضى موقف الترضية، والسحب باتجاه المشاركة إلى العمل بمبدأ التوافق الذي أعطى الأحزاب، والكتل السنية فرصة ترشـــيح ممثلين عنهم في الحكومة المنتخبة، وهكذا سار الأمر الذي نجح في إشراك العديد من السنة في العملية السياسية لكنه ومن الناحية العملية تسبب في إعاقة سير الحكومة بسبب وجود مرشحين غير أكفاء، وغير مؤهلين لتمثيل أهل السنة فعليا، وأوجد تقليدا يُقَيِّد هامش حركة رئيس الوزراء في التعامل مع الأحداث التي تحيط به، والتي تتطلب منطقيا صلاحيات واسعة، ونوايا حسنة لم تتوفر في حال الحكومة الحالية، والحكومات التي سبقتها من قبل[1].

إن التـــردي الحاصل في العمل السياسي كنتيجة حتمية لعوامل خارجية غير مقـــدور على التعامل معها من قبل العراقيين في الوقت الحاضر، والأخرى الداخلية الـــتي عجـــزوا بخبرهم القليلة وولاءاهم المجتزأة عن إيجاد حلول تناسبها تسبب في وجـــود مفاهيم يرقى بعضها إلى مستوى القيم أسهمت في زيادة التردي، وأعاقت خطـــوات الحكومة، والأحزاب في قيادة عملية إعادة البناء، وفرض الأمن، بعد أن أسست خطأً على مفاهيم خاطئة مثل:

التسويف، الافتراض، النكوص، الاستغفال والتخبط.

---

(1) إن مبدأ التوافق الذي اضطر السياسيون المعارضون لنظام صدام حسين العمل ببعض جوانبه إبان مرحلة نضالهم من أجل التغيير لم يكن بطبيعته الفنية سيئاً تماما، وإن التدخل الأمريكي لفرضـــه "الـــتوافق" عـــندما تقتضي الضرورة خلال الفترة التي سبقت التغيير والتـــي كان للأمريكان فيها تأثير كبير على غالبية القوى والأحزاب السياسية العراقية المعارضة آنذاك لم يكـــن مشبوها في كثير من الأحيان، لأن الذي يراقب سلوك العديد من قادة الأحزاب والكتل السياسية والبعض من الموجودين في مفاصل القرار العليا في الدولة حـــيث السعي المحموم للاســـتحواذ علـــى المناصـــب والسلطة بعد التغيير يصل إلى قناعة تامة أنه لو لم يفرض الـــتوافق مبدأ للإدارة لما حصل سني على مكان في العملية السياسية، ولما بقي مسيحي في وظيفته أو نافس صابئي أو يزيدي مسلماً آخر على وظيفة مطروحة للمنافسة.

المبحث الأول

التسويف

يـؤكد الأمريكان أن المعضلة الأمنية في العراق ذات جذور سياسية، ويشير سفير الجامعة العربية في العراق السيد لماني قبل استقالته من المهمة التي كلف بها في العـراق على أنها مشكلة ذات طابع سياسي، ويدرك العراقيون، وبينهم السياسيون المعنيون أنها كذلك جذورها سياسية، والأدلة على هذا كثيرة تتعلق معظمها بطبيعة الفـشل في حـل المعاضـل، ووضع العراقيل، والقيود فلو أخذنا من بينها تجربة الانـتخابات التي تكررت مرتين خلال الأربعة سنوات معيارا لهذا التأكيد، وحللنا سـلوك الـسياسيين فيها سوف ندعم تأكيد الأمريكان، وإشارة الجامعة العربية وإدراك العراقيين، إذ إنّ الذي جرى في أثنائها، وتكرر بنسب متزايدة:

1. محاولات التحايل الحثيثة لابتلاع الصغار من قبل الكبار في الدقائق الأخيرة من الاتفاق على تشكيل التكتلات بطريقة التسويف غير المسؤولة.
2. جلـسات لإتمام الصفقات في الغرف المغلقة لم تتغير حتى أماكن الجالسين في زواياها في كل الظروف، والأوقات توحي بالتسويف واللا مسؤولية.
3. المسافة البعيدة بين النوايا، وسبل التطبيق في عقول العديد من السياسيين بقيت على حالها ممتدة بسعة تحول دون التطبيق، وتحمل المسؤولية.
4. المؤامـرات ما فتئت تحاك بين المتنفذين لتحقيق النوايا، والرغبات، وبين بعض المـوظفين، والمـشرفين لتفعـيل عمليات الإيحاء، والعزل، واقتناص أصوات المـستقلين، وكـبار الـسن، والجهلة، والأميين بأسلوب يؤكد السير باتجاه التسويف، واللامسؤولية.
5. بقاء الشك أساساً للتعامل، والمتشككون لم يتجاوزوا شكوكهم في احتمالات الإضافة، والتبديل، والاتهام بعدم تحمل المسؤولية.

والأنكـى مـن ذلـك كله موقف المزورين الذين حققوا نجاحات في إيهام المفوضية، والكتل السياسية بتقديمهم شهادات أكاديمية أعلى من الحد الأدنى المقبول للترشـيح في الانتخابات الأولى، عاودوا الترشح ثانية يصاحبهم آخرون تشجعوا

بسبب عدم اتخاذ أية إجراءات بصددهم، ومعهم عسكر لم يستقيلوا من الخدمة حسب قوانين، وضوابط الانتخاب، مستغلين تواطؤ الكتل، والأحزاب، وكذلك صمت الجمهور، وحياء الصحافة في بعض الحالات[1].

والتسويف مشكلة "دوامة" مرتبطة بعديد من المشاكل ذات الصلة بالجذور السياسية بينها:

1. عدم قدرة الجمهور على التفريق بين مساعي البعض غير القليل من السياسيين، والمتنفذين لتحقيق الذات الشخصي أو الحزبي" الفوز بأي ثمن". وبين الواجب الوطني لدعم المساعي التي تبذل لإرساء قواعد النظام، والديمقراطية في بلد يراد له أن ينمو، ويتطور في كل المجالات.
2. الصمت الذي تعوده العراقيون عبر تاريخ التعامل السلبي الطويل مع الحاكم، الذي أكسبهم عادة التنحي في المواقف الصعبة.
3. وقوع مسؤولية توعية الجمهور، وإكسابهم القدرة على التفريق، وكذلك إنزالهم من على منصة التنحي بغية المشاركة في خطوات البناء على عاتق السياسيين بينهم أولئك المزورين، والمصابين بداء الذات المفرط، الأمر الذي وضع الجمهور المتعب في دائرة الحيرة، وصراع الأضداد سوف لن يخرج أحد منها إذا لم يبادر هو نفسه في الخروج عن طريق توسيع هامش الاطلاع، والتثقيف الذاتي، وعدم قبول التجاوز، والتزوير، وإن كان من القريبين، والمحسوبين على ذات الاتجاه، وبالتالي القرار على الأصلح في التمثيل والانتماء "وهذا أمر صعب في الوقت الحاضر".

إن القبول بواقع الخطأ، والتجاوز، والتزوير، تحايل على الذات، وعدم تحمل المسؤولية "التسويف" دفع ثمنه الكثير من العراقيين بضمنهم المتفرجين، والمزورين، والوصوليين ومرضى الذات الأمر الذي كوّن بالتدريج حالة عجز من العامة يقابله

---

(1) إن قوانين الانتخاب، وضوابط المفوضية لا تسمح للعسكر الترشيح ضمن القوائم الانتخابية، ومن يرغب بالمشاركة ينبغي أن يستقيل من الخدمة ومع ذلك شارك ثلاثة ضباط برتبة فريق يتقاضون رواتب كمستمرين في الخدمة بالانتخابات التي جرت نهاية عام 2005 وبعضهم على رأس قوائم انتخابية، وعندما نوقش الأمر من أحدهم بطريقة عرضية مع وزير الدفاع آنذاك رد أنهم في الطريق إلى إحالتهم على التقاعد.

تمـــادي بالخطأ من قبل الخاصة في الحكومة، والأحزاب أشبه ما تكون شاملة وجد فيها أهل بغداد صعوبة في أن يُسمعوا أصواتهم المنادية بالحد من الكتل الكونكريتية الـــتي خـــنقت شوارعهم وأزقتها، وكثير من الساحات العامة، وشوهت أشكالها، وكاســـتجابة لأصـــواتهم المبحوحة، سارع المعنيون في الدوائر الحكومية، وبعض المقـــرات العـــسكرية، ومراكز الشرطة إلى نصب المزيد منها في منتصف الشوارع مـــؤكدين رغبتهم في القضم، والتجاوز حتى على الشارع العام، لتزيد من بشاعة المناظـــر المفزعة، وتَتضاعفُ من الازدحام القاتل، وتعزز الحقد، والنقمة في النفوس التي تعد جميعها من دعائم اللا استقرار.

الحالمـــون مـــنهم بالقدرة على أن يَحُولوا بكوابيس أحلامهم دون إصرار شـــرطي الحمايـــات الخاصة، وجندي الحرس الخاص على فتح الطريق بالرمي العشوائي لدوريته العادية، إلى موكب وكيل وزارته، والمدير العام، أو إلى رتل يـــنقل مـــواد عادية إلى وزارته، وربما إلى مجموعته العائدة إلى البيت بعد انتهاء ساعات الدوام الرسمي، وكاستجابة لأوامر الدولة، وتوجيهات وزيري الداخلية، والدفاع بمنع الرمي العشوائي، والإصرار على معاقبة المخالفين بادر الرماة المهرة إلى تغـــيير عتلة الرمي في بنادقهم الآلية من المفرد إلى الصلي ليزيدوا من كثافة الـــنار، ويقللـــوا شـــدة القلق الذي يعيشونه، ويرفعون في الوقت ذاته خوف الآخـــرين مـــن حـــولهم، وكذلك من استخفافهم، وعدوانيتهم التي تعد من مؤشرات اختلال الأمن، والاضطراب.

المـــتفائلون مـــنهم في عاصـــمة السلام غير متمكنين من التمهيد بتفاؤلهم لانـــسيابية الشوارع وتقليل الزحمة رغم ترحيبهم كثيرا بقرارات المديرية العامة للمـــرور بـــتحديد ســـير المركبات فرديا، وزوجيا، وبأوامر المرور في منع سير سيارات الحمل خلال ساعات الدوام، وبمحاسبة المخالفين، وسائقي السيارات التي لا تحمل أرقاماً.

وكاســـتجابة للرغبة بتخفيف الهموم بقليل من التفاؤل ضاعف السياسيون، وموظفـــو الدولـــة، وكذلك المعنيون بشؤون الأمن، وحفظ النظام عدد سيارات الحمايـــة من حولهم لتكون على شكل مواكب لا يكتفي القائمون عليها بإطلاق

الـــصفارات المـــثيرة للإزعاج[1] بل ويسارعون إلى قطع الشوارع وإيقاف المرور، والسير في الاتجاه المعاكس، وتحوير الطرق، وإجبار الناس على التوقف، والانتظار، بإصـــرار يعيق كل إجراءات، وقوانين المرور، في منظر يصوب فيه منتسبو المواكب عـــسكريون كانوا أو مدنيون أو منتسبو شركات الحماية الخاصة أو أعضاء مليشيا حـــزبية بـــنادقهم، ومسدساتهم إلى القريبين في الشارع، ويسمعونهم أحيانا بعض العبارات النابية، فأصبحوا بتصويبهم، وصفارات سياراتهم، وزعيق بعضهم مصدر تهديـــد لكـــل المتفائلين، وغير المتفائلين، والتهديد بطبيعته إشاعة للفوضى، وخرق للأمن العام، وتسويف، وخرق للمسؤولية الوطنية.

إن المشكلة في بغداد وباقي محافظات العراق لما يتعلق بالسياسة، وإعادة البناء، والأمن ليست ذات صلة فقط بالأوامر الصادرة على الرغم من أهمية صدورها من أعلى سلطات القرار الأمني، والعسكري، بل وبالتمادي في المخالفة، وسبل التنفيذ التي تشهد خللا في المسؤولية الاعتبارية أي تسويفا يتحمله بشكل عام:

1. الآمـــر المباشر الذي يتغاضى عمدا أو دون عمد أي سهوا عن تجاوز رجل في معيته على القانون.
2. وكـــيل الوزارة الذي يسكت عن عملية قطع السير، وغلق مداخل، ومخارج الطريق الذي يسلكه، وعن عدد الاطلاقات النارية التي يطلقها أفراد حمايته منذ البداية حتى الوصول، وعن شتم الجمهور.
3. الـــسياسي، وموظف الحكومة بالمستويات العليا الذي ينتعش بسير موكبه في الاتجاه المعاكس.

---

(1) بسبب حوادث الاغتيال الشائعة، وطبيعة الحرب الجارية في بغداد، وسبل الاقتتال لا يمكن أن يتـــنقل سياســـي أو حكومـــي دون حماية تتكون من عدة سيارات "موكب" فيها مسلحون من الـــشرطة، والجـــيش أو مـــن الحمايات الخاصة التي يكلفهم المعني بهـــا بعـــد أن يتقاضى رواتـــبهم مـــن الدولة، ومن كثرتهم بدأت شوارع بغداد تغص بمواكب في كل الاتجاهات إذ وعـــندما تؤخـــر زحمة الشارع الموكب يضطر إلى السير بالاتجاه المعاكس، أو حتى الرمي بالهواء لتفريق الناس، وباقي السيارات ليحصل على فسحة للنفاذ، وتهدئة القلق من احتمالات تلقـــي طلقـــة أو عبوة ناسفة. كما إن متطلبات الأمن فرضت في عدة أحيان أن يرسل القائد الحكومـــي أو الـــسياسي موكـــبه إلـــى مكان، والذهاب هو بسيارات أخرى إلى مكان آخر فتضاعفت أعداد المواكب لتشكل عبئاً مرورياً، وأمنياً، ونفرة اجتماعية واسعة المعالم.

4. أمانـــة العاصمة التي لم تستطع حتى هذه اللحظة بسط سيطرتها، وفرض النظام على شوارعها، وأزقتها وساحاتها المتعددة.
5. الـــبغداديون الـــذين يـــرسمون وحدهم مستقبل عاصمتهم، وأمنها، بالتعاون، والالتـــزام، والنقد، والرفض الموجب، والانتخاب الصحيح للأصلح في تحمل المسؤولية الوطنية.

إن الـــنهوض بالعملية السياسية، والعمل على تجاوز الأخطاء، والسعي لفرض الأمن حاجات نفسية إنسانية لا يمكن الحصول عليها من خلال الإجراءات القسرية المتـــبعة في الـــشوارع العامة في الوقت الحاضر، بل وبالحد منها، واتّباع إجراءات وقائـــية أساسها، تنفيذ المعنيين لأوامر قادتهم، وفهم السياسيين لطبيعة مسؤولياتهم، وتقـــيدهم بالنظام، وأن يدرك الجميع أن الخطأ سيجر إلى خطأ آخر وأن التمادي، والإصرار على الخطأ سيخل بالأمن ويزيد من معالم التوتر، والاضطراب.

إن الانـــتخابات التي توصل حكومات تدير الدول في المجتمعات الغربية وفقا لبرامجها المعروفة مسبقا، والتعيين الذي يجلب حكومات مختارة من دون برامج معلنة في الكـــثير من المجتمعات العربية والإسلامية، يشتركان معا في الغالب في ما يتعلق بتوزيع المسؤولية أو تراتبها بغية تسهيل وقع الحياة، وتحقيق الأهداف العامة.

فالحـــزب أو مجموعة الأحزاب الفائزة بأعلى الأصوات في الغرب على سبيل المثال تتحمل مسؤولية تشكيل الحكومة، وتنتخب رئيسا لها يتحمل جل مسؤولية إدارة الدولـــة والمجتمع، وفي أغلب دول الشرق العربي المسلم على وجه الخصوص تُعـــيّنُ الحكـــومة التي تُحمَّلُ قدرا من المسؤولية، ويبقى رئيسها القائم بالتعيين هو المسؤول الأول عن ما يجري في دولته.

وبالنظـــر إلى طـــريقة توزيع أو تحمل المسؤولية بين المُجتَمَعينْ المذكورين أي الغـــربي، والشرقي يمكننا القول إنّها في الأولى موزعة حسب الأصوات الانتخابية، يلتـــزم بهـــا المعنـــيون، ويحترمونها تبعا لوطنيتهم الجيدة، ولحاجتهم إلى دعم تلك الأصـــوات الـــتي يمكن أن تتخلى عنهم في الوقت الذي تشعر أن هناك خللاً في تحملها، وبالمحصلة تقدمَ الغرب مراحل عن غالبية دول الشرق، وعاش الإنسان فيه متمتعا بإنسانيته.

وإنها في الثانية تُحَمل أو تمنح لمن يعتقد صاحب السلطة أنه قادر على تحملها، ويخــدم بقــاءه فيها إلى النهاية، ويلتزم ببنودها التي تمنحه أي الأعلى فرصا للتمتع الأفضل بالحياة.

وبالنتــيجة تأخـــرت دول الـــشرق العربي المسلم خطوات عديدة عن دول الغرب، وعاش الإنسان فيها إحساسا بالدونية.

أمــا العــراق اليوم فيصعب أن يحسب مكانه في توزيع المسؤولية بعيدا عن التــسويف حسابا منطقيا، إذ إنّ المُحتل وبعد أن اختار من يتحمل جل أعبائها من الأحزاب، والشخصيات بدأوا "المُختارين" توزيعها بطريقة الحصة، فأصاب الحزب الفلاني عددا من المناصب، والحزب الآخر مثله أو أقل منه، فوضعوا أنفسهم بسبب هذا التوزيع في دائرة المسؤولية الذاتية المغلقة دون أن:

1. يحسبوا ظروف العراق، وتاريخه الطويل في عدم الرضا.
2. يأخــذوا بالاعتــبار ظروف التغيير التي جعلت الإنسان فيه مشوشا مضطربا منتقدا لكل أمر، وقرار، وسلوك.
3. يتوقفوا في طريقة توزيع المسؤولية الممتدة عند حدود المستويات العليا للدولة.

فــتوجهوا إلى نفـــس الـــصيغة لمجلس الوزراء، ومن بعده لوكلاء الوزارات، ورؤساء الهيئات، والدرجات الخاصة، وهكذا ما زالوا مستمرين في سباق مع الزمن لمــلء المفاصل المهمة قبل النهاية المفترضة لفترة تحميلهم المسؤولية، فوقعوا في خطأ كبير زاد من تعقيدات الأزمة. إذ جعلت هذه الطريقة غالبية الأحزاب، والحركات السياسية خارج دائرة المسؤولية الاعتبارية لا تكتفي بعدم تحملها دفاعا عن قرارات وإن كانت صحيحة، بل ومتحمسة لانتقادها في كل مناسبة يمكن فيها الانتقاد.

وجعلــت الكــثير مـــن أبناء الشرائح الاجتماعية لا يتغاضون عن الأخطاء المرتكبة، بل يفتشون عنها في كل مكان.

إن هـــذه الطريقة في توزيع المسؤولية بالإضافة إلى أنها فتحت الباب على مصراعيه أمام الانتهازيين لأن يتسللوا إلى مفاصل الدولة المهمة، وجسدت معنى الطائفـــية، لم يـــشعر فيها العموم أن من حُمل المسؤولية كان قادرا على ملء الفراغ السلطوي فضعفت معالم الثقة، وستضعف أكثر، وسيجد الكثيرون" ولو

بعـــد فـــوات الأوان" أن لا حـــل أمـــامهم سوى العودة إلى معايير الانتخاب الـــصحيحة في تحميل المسؤولية. وإلى أعمدة الديمقراطية المعروفة برصانتها ليس فقط للتعامل العملي مع الأزمة بل، ولكسر احتكار المسؤولية بعيدا عن التهاون والتسويف من جهة، والسعي لتغييب الكثير ممن حُمل إياها عن طريق الخطأ من جهة أخرى.

المبحث الثاني

الافتراض

افترضت حكومة بغداد عام 1980 أن جيشها قادر على تدمير الجيش الإيراني وإســقاط النظام الحاكم، فأمرته بالهجوم قبل أن تقيّم بشكل دقيق "تقيس" قدرات الإيرانيين فأوقعت نفسها في مأزق الافتراض، ووضعت الحجر الأساس لمعالم التأزم في العــراق. وافترضـــت أيـــضاً أن ستة جيوش كانت قد بنتها بأموال، وأجساد العــراقيين ســتقاتل الأمــريكان عام 2003 قتالا يدوم عدة أشهر يفسح لها مجال تفــاوض قــد يــنقذها من الشرك المنصوب، فقبلت المجازفة قبل أن تقيس العامل النفــسي في الــرغبة بالقــتال، فورطت نفسها بمجرد افتراض أنهى آخر صرح لها كأقــوى حكومات العراق، ودمر البلاد، وهذه لم تكن وحدها الافتراضات التي أسست عليها الحكومة قرارات أفسدت خططها في الدفاع، والهجوم.

ولم تكـــن هي وحدها من حكومات العراق في التاريخ الحديث، ولا صدام وحـــده في هذه الحقبة من التاريخ من وقع في خطأ افتراض أفسد التفكير، وأخل بسياقات اتخاذ القرار.

فكـــان قـــبله البكر قد افترض أن صدام مخلص له، وللنظام بسبب كونه من نفس العشيرة، والمنطقة فدفع حياته، ومستقبل العراق ثمنا لذاك الافتراض.

ومن قبلهما عبد الرحمن عارف الذي افترض هو الآخر أن عبد الرزاق النايف وكيل مدير الاستخبارات العسكرية العامة، وعبد الرحمن الداوود آمر لواء الحرس الجمهـــوري المسؤولين عن أمنه، وحماية النظام هما أكثر الموالين له بسبب أصولهما المناطقية، والعشائرية فدفع بكرسيه، والحكم، وحاضر العراق ثمنا لهذا الافتراض.

وكـــذلك الحـــال بالنسبة إلى أخيه عبد السلام في افتراضه أن طائفية القيادة السياسية، والعسكرية ستحول دون نجاح الانقلابات على حكمه قبل التعرف على قياس الأثر السلبي للتوجهات الطائفية في حكم العراق.

وعـــبد الكـــريم قاسم في افتراضه المراهنة على الشعب في مسألة الدفاع عنه زعـــيما أوحدا، وعن جمهوريته التي خلصتهم من عبودية الإقطاع كما يعتقد دون الـــركون إلى المـــنطق أحد وسائل الاستدلال، والقياس فدفع حياته ثمنا لافتراضه، وأسهم في إرساء قواعد الديكتاتورية في العراق.

ومـــن قبلهم جميعا نوري السعيد السياسي المخضرم الذي افترض أن توجهه، والعـــراق إلى أحـــد القطبيين العظيمين "أمريكا" بعد الحرب العالمية الثانية دون أن يأخذ بالاعتبار"يقيس" ردود فعل الانجليز أصحاب النفوذ الأصلي في البلاد، فأوقع نفـــسه، والنظام الملكي في العراق في محنة كان ثمنها حياقما معا، ودخول العراق ساحة التوتر، والتدمير، والاضطراب لأكثر من نصف قرن من الزمان.

...الخ من أمثلة للافتراض إذا ما تجاوزناها وما مضى من أيام زمان ومن نقد للتاريخ، وشخوصه كعادة أهل العراق، وتمسكنا بالحاضر خطوة باتجاه التقويم نجد أن:

1. الشخـــصية القيادية العراقية هي ذاقما لم تتبدل رغم مجاهرقما بمحاربة الماضي، وأخطاء من سبقها من الحكام.
2. افتراضـــات القـــادة، والسياسيين الذين سبقوا ما زالت ماثلة بالمعنى ذاته، وإن اختلفت بعض أشكالها بالتكرار.
3. خاصية الافتراض بلا قياس أبقت عقلية الحزب القائد سائدة بعد أن استبدلتها بعـــد التغـــيير بستة أحزاب افترضت أنها الأقوى، والأخلص، والأكفأ لقيادة، واستثمار التغيير في العراق، وأبقت صيغ اتخاذ القرار في مفاصل الدولة فردية، وإن اســـتبدلت فيها الفروض من الضرورة الثورية إلى الحاجة الأمنية، وأبقت كـــذلك المتملّقين وجودا من ذاك النظام مثالا لتقديم المشورة وإن نُسخوا بعد التغـــيير بأعداد كبيرة تبدل فيها الزي ليناسب الأصل طائفيا، وقوميا، وأبقت العراقيين في حيرة من أمرهم لا يصدقون ما يجري من تكرار للتجاوز، والخطأ

بسبب الافتراض، وتركت الكثير من الأسئلة على ألسنتهم أولها هل يعقل أن العراق الذي يتغنون بتاريخه العظيم، وأمجاده العديدة يعجز كل سياسييه الذين تزيد أعدادهم على ما هو موجود في الدول المجاورة، وأساتذته الذين يتفوقون على أساتذة الدول في المنطقة، وشيوخه المتلوّنون أكثر من تلون الشيوخ في الدول المجاورة وغير المجاورة، وعماله الكسالى، وفلاحوه المتكاسلون، وطلبته المتواكلون أن يعملوا بالمنطق، والقياس وسيلة تجنبهم، والبلد الجريح تكرار الاتكاء على الافتراض كأسلوب في الحكم، والقرار، وكذلك احتمال إعادة العراق إلى نقطة الصفر في العداء إلى الدولة والنظام؟

إن الافتراض آفة سحبت قيادة حزب البعث الحاكم ما بعد 1968 إلى التأسيس عليه باتخاذ خطوات كان لها الأثر الكبير في تحديد مستقبل الحزب، والعراق مثل تسييس القوات المسلحة بافتراض أنها الدرع الحامي لوجودهم في الحكم حتى أصبح على أساسها ضابط الصف ضابطا لأنه عضو قيادة فرقة في الحزب، فهبطت قيمة الضباط، وتدنت مستويات كفاءتهم المهنية، وتردى انضباطهم، وتدهورت ثقتهم بأنفسهم، وقياداتهم الأعلى وهيئات ركنهم، فاهتموا بالسياسة أكثر من شؤون القتال، فخسروا المعركة التي يفترض أن يقاتلوا فيها عن الحزب، والعراق.

وكذلك رقيّ الجندي إلى رتبة نائب ضابط، وضابط إن كان من أبناء العشيرة، والمنطقة أو بدرجة حزبية متقدمة على افتراض التهيئة اللازمة لقيادة عقائدية مستقبلية فوضعوا بالحساب أمن القائد، وفرص الكسب، والتحصيل فانهزموا في معركة يفترض أن يموتوا فيها عن قائدهم، والعراق.

وفي الاتجاه نفسه منحت رتب لمدنيين أدخلوا الجيش لأنهم قادة حزبيون وهم لم يحملوا التحصيل المدرسي الذي حدده القانون للحصول على الرتبة العسكرية، فتعممت كلمة رفيق بدلا من سيدي، وحل الانضباط الحزبي بدلا من الضبط العسكري، فضاعوا، وضيّعوا الجيش العراقي في أول مواجهة جادة مع خصم قوي في الميدان.

وتتكرر الحالة، ويعود فعل الافتراض نشطا في العقول لما بعد التغيير يوم اعتقد البعض من المنتسبين إلى الجيش العراقي الجديد من الجنود المتعاقدين، وضباط الصف

الأحداث أهم مشمولون بخطوات إعادة البناء الديمقراطي للعراق التي دفعت الواحد منهم أن يقرر المكان الذي يخدم فيه، والسلاح الذي يحمله، والعدو الذي يحاربه[1].

إن مشكلة العسكر الحالي لا تتعلق بالافتراض، والنوايا المبيتة التي أقحمت أنواعاً من السلوك تعد دخيلة على المعايير، والقيم العسكرية، وصفات لا تنسجم وتاريخهم العريق، وخصائص لا تعكس طبيعة عيشهم، وأسلوبهم في التعبير، بل وبتفاعلها مع ما تبقى من التراث، والعادات والتقاليد، وجنون العظمة في العلو، والتأليه، وإثبات الوجود لتنتج حالات هستيرية يفترض فيها البعض من العسكر أنها وسيلة تعبير عن تأييد الحاكم تفوق سياقات الضبط التقليدية فتدفعهم لأن يكونوا منساقين مع غيرهم في تأدية الرقص، أو الهوسات، بطريقة توحي وكأنهم غير قادرين على التحكم بمخارجها، وإن كانوا من بين العساكر المهيوبين، ويفترض بوجودها الأعلى أنه تعبير عن الطاعة، والحب والاحترام.

استعراض يفترض فيه المرء قدرة فائقة في الإقناع فيتجه إلى التمادي في تقديم فروض الطاعة، والولاء فيتدافع مع الآخرين بقصيدة شعر رخيصة، أو أهزوجة يتيمة، أو بطولة في معركة خاسرة، ويفترض بحصولها الأعلى أنه التعبير الحقيقي عن الولاء.

---

(1) في إحدى تجارب توزيع مجموعة من الجنود بعد إكمال تدريبهم في شهر مايس 2006 على الوحدات المطلوب إكمال النقص فيها من الأفراد حسب خطة توزيع وزارة الدفاع رفض بعضهم هذا التوزيع لأنه يضعهم في منطقة غير منطقة سكناهم، وعشيرة غير عشيرتهم، وتمرد البعض الآخر حتى خلع بزته العسكرية أمام الفضائيات التي دخلت إلى المعسكر أو أدخلت لأغراض الحرب النفسية غير المدركة أبعادها من قبل العراقيين. وهذه في الواقع ليست المرة الأولى خلال السنوات الثلاث التي يتوجه فيها جنود للعصيان، وليست المرة الأولى التي يخل فيها متدربون بمعايير الضبط، والالتزام، لكنها المرة الأولى التي تصور فيها مثل هذه الأحداث من فضائيات تبثها للعالم أكثر من مرة، وكأنها تريد أن تثبت للعراقيين، وغيرهم أن هذا الجيش الجديد ليس هو جيش العراق، وأن جنوده ليسوا جنودا أكفاء لمقاتلة الإرهاب، وأن مستقبل العمل فيه غير مضمون، والتعويل عليه بحفظ الأمن غير موثوق. وأيا كانت النية من البث فإن الذي يهم فقط هو أن ما حدث عصيان يستحق التوقف عند جوانبه ذات الصلة بالتدريب الذي ينبغي أن يشمل مواداً عن الضبط أكثر مما هي عليه الآن، ويتضمن مفاهيم الوطنية التي يجب أن تلقن لعموم المنتسبين لأنها تصدعت، ولم يتذكرها المدربون، والمتدربون حتى وقتنا الراهن، وتتخلله محاضرات عن مخاطر الإرهاب التي باتت تدق جميع الأبواب.

إنهـــا حالة، ونوع من الافتراض محصلتها خسارة للقيمة الاعتبارية، وتغليف للسلوك يبعد المجتمع بالتدريج عن الواقعية.

ويسحبه بالتدريج أيضاً إلى التسويف، واللا أبالية، وعدم الالتزام، ومع ذلك فإنها خسارة اجتماعية في مسيرة الشعوب غير المتحضرة، لم ترق آثارها السلبية إلى مـــستوى الخـــسارة التي تتكبدها الجهات العسكرية، عندما يرقص منتسبوها من المـــراتب، والضباط، والقادة، في استعراض لبطولاتهم الوهمية أمام الحاكم الأعلى، لأن الـــراقص مـــن الضباط يفقد هيبته في السيطرة، وإصدار الأوامر بعد أن أسهم شخـــصيا في تغيير النظرة إليه من قائد في ساحة الحرب، والتدريب إلى راقص على مسرح السياسة غير المضمون، والراقص منهم أسهم أيضاً في التقليل من قدرته على إيقاف رقص منتسبيه عندما لا يحتاج إيقاعاته "الرقص" في ساحة القتال.

ولأن الـــراقص مـــن ضباط الصف، والجنود، يتوجه برقصه إلى كسب ود الأعلى على حساب رضا الآمر المباشر بطريقة تخل بالعلاقة الضبطية بين الطرفين، ولأن حركاته في الرقص تأتي على الأغلب لأغراض الكسب، والتغطية على معالم النقص في القدرة والأداء، ومحاولة لإبعاد القائد الأعلى عن التدقيق بها، والاستفسار عن معطياتها في أغلب الأحيان.

وهـــذه معـــالم ســـلوك تكررت بعد التغيير سكت عنها السياسيون، وكبار موظفي الدولة لعدم إدراكهم تأثيراتها السلبية في تشكيل جيش مهني قوي قادر على حمايـــة الديمقـــراطية يعبر عن قدرته بالاستعراضات العسكرية، والتدريب، وتقديم الايجازات، التي تسهم جميعها في إعداد منتسبيه مهنيا، ونفسيا لأن يكونوا مقاتلين أشـــداء في ساحة الدفاع عن وطنهم، كما هو حال الجيوش التي تحظى بالتقدير، والاحتـــرام، وليس بالهوسات، والدبكات، والرقص الجماعي، التي عاود ممارستها عـــسكرنا الجديـــد بطريقة تذكرنا بأيام كان فيها العسكر فرقا تؤدي مهام إنعاش المعـــنويات المضطربة للحاكم، أكثر من توجهها للدفاع عن البلاد، فأسهمت من حيث لا تدري بإحلال الخراب.

إن العـــودة إلى بعض أخطاء الماضي ذات الصلة بالافتراض تجاوزت الرقص، والدبكات، وكتابة التقارير إلى مستوى السعي الحثيث لتسييس القوات المسلحة من

خـــلال تجنـــيد آلاف المنتسبين من المليشيات، والأحزاب السياسية في الوحدات العـــسكرية، وكسب ود العديد من الضباط في المفاصل القيادية بافتراض أن الغلبة الـــسياسية أو الطائفية في هذه القوات ستسهم في تحقيق أهداف الكتلة، والطائفة، والحـــزب، دون أن يفتـــرض أولئك السّاعون إلى التسييس أن ما يجري سيشعرهم بقـــوة السيطرة التي تسحبهم إلى اتخاذ قرارات قد تثير الطرف المقابل من العراقيين فيجدون أنفسهم بمواجهة حرب أهلية أطرافها المؤثرون غير عراقيين.

وقـــد تثير قوات الاحتلال التي تراقب كل حركاتهم وإن سكتت عن بعضها لأغـــراض التكتـــيك فتـــتدخل بقوة تنهي نفوذ الحركة، والكتلة، والطائفة إذا ما اعتقدت أن خطوات المذكورين تتقاطع، وأهدافها الاستراتيجية.

إن انتقال الخطأ، والغلو في مسألة الافتراض يتحمل تبعاته السياسيون الجدد الذين حلموا إبان فترة نضالهم بالضد من الديكتاتورية بدولة مسالمة لا معسكرات فيها، ولا عسكر يتدربون، وكتبوا ذلك بأدبياتهم، وقدم بعضهم النصح إلى المحتلين بهذا الاتجاه.

وافترضـــوا أنه بنهاية الدكتاتورية سينعم المجتمع العراقي بالاستقرار الذي لا يحـــتاجون فـــيه دوائـــر أمن ولا استخبارات، ولا وكلاء يتجسسون، وأصروا في مجالسهم، وصحفهم على أن تكون سمة النظام الجديد بهذا الاتجاه.

وحـــصل التغيير الذي شطب العسكر، ومهنيتهم من على الخارطة السياسية للبلاد ومن التاريخ، وصعد إلى المفاصل العليا بالدولة كثير من الحالمين، فوجدوا في الواقع العملي للإدارة:

أن الأحـــلام مجرد انعكاسات لرغبات ذاتية مكبوتة كما فسرها فرويد المتهم بيهوديته من قبل غالبية الكثير من الحكام.

وأن بعـــض افتراضاتهم الخاصة بالعسكر خطأ يصعب تصحيحه في ظروف التوتر، والاضطراب، فبادر معظمهم بتوجيه النقد، والاتهام لقوات التحالف التي أخطأت في التعامل مع الموضوع. دون أن يلتفتوا إلى الماضي القريب، وإلى تلك الأحـــلام، ومفـــردات النصح، والإرشاد، وإلى عمليات الإقصاء التي مارسوها عمـــدا لرفاق لهم من العسكر حاولوا أن يكونوا في نفس عربات القطار المتجه إلى بغداد.

إن مقتضيات السياسة، والأهداف بعيدة المدى، واضطراب الوضع الأمني بعد فترة وجيزة من التغيير، وغياب القوى الضابطة اضطرت المحتل إلى إعادة بناء عسكر جديد، وقوى أمن داخلي غير التي كانت موجودة أيام زمان.

وأتيحت الفرصة إلى بعض الحالمين أن يكونوا من بين البناة، والمخططين، وبدأوا خطواقم بالمقلوب، إذ أنشأوا وحدات مقاتلة قبل المقرات، ومن ثم كونوا مقرات قبل القيادات، و لم يكتفوا بذلك إذ توجه البعض منهم إلى تطبيق مفردات أحلامه على الواقع فألغى كل سياقات العسكر، ورمى بنظريات كلاوزفيتز وليدل هارت، وشجاعة عمر علي، ومهنية عرفان عبد القادر وجدي، وخبرة آلاف الضباط المخلصين في سلة المهملات، وبدأوا عملهم انحيازا بالضد من مهنية العسكر بضوء تلك الأحلام حتى تكونت إدارة مدنية لشؤون العسكر بعض أفرادها:

1. لم يسبق لهم أن خدموا جنودا في الجيش.
2. لم تتح لهم فرصة التفريق بين الدبابة، وناقلة الأشخاص المدرعة.
3. لم يدركوا أثر الإخلال بضوابط العسكر، وقيمهم المهنية على القدرة القتالية المطلوبة للتفوق في معركة الأمن، والاستقرار(1).

إن منطق الحاجة إلى بناء دولة عراقية إن كان موجودا بالفعل سوف لن يسمح باستمرار خطأ الافتراض إلى الأبد رغم جسامة الخسارة، وسوف يدرك

---

(1) بسبب سيطرة المدنيين من السياسيين، وقلة خبرتهم في التعامل مع العسكر، وميادينه المهنية، وبسبب التدخل الأجنبي في الموضوع التحق بالمؤسسة العسكرية، والأمنية ما بعد التغيير أشخاص ساقطون، وآخرون مجرمون، وأميون، وانتهازيون منحوا رتبا، ودرجات بينهم على سبيل المثال شخص كان محكوماً بتهم تزوير لخمس وأربعين عاما، أطلق سراحه بعفو من الدولة قبل السقوط، وبعده منح رتبة نقيب يرى فيها عام 2005 أنه مغبون كونه من المتضررين فبدأ السعي للترفيع إلى رتبة مقدم، وحصل عليها فعلا في ظل غياب المعايير. وملازم في الجيش السابق حكم علية بالسجن، والطرد لسرقته جهازاً من وحدته وهو الآن برتبة عقيد في الشرطة يتوسط له قائد سياسي معروف ليصبح عميداً على الرغم من معرفته الدقيقة بأوليات سرقته، وتجاوزه على القانون. وغيرهم عشرات وربما مئات يشكلون ركنا من أركان المؤسسة العسكرية والأمنية، أو طريقة من طرق بنائها ديمقراطيا، وبما تنسجم، وأحلام البعض من السياسيين.

بـــسببه الحالمون أن أحلامهم أضغاث أحلام سيفيقون منها حتما، وسيجدون أن الحكـــومات التي لا ترسي قواعد صحيحة لعسكرها الوطني سوف لن تحصل على الأمن، والاستقرار.

والدولـــة التي يقود عسكرها سياسيون غير متمكنين ستكون عرضة لأطماع الغير، ولكثر التدخل في شؤونها الداخلية.

وسيجدون أيضاً أن أمنهم الشخصي سيكون عرضة للتهديد بغياب العسكر المهـــني رغـــم كثرة أعداد الحمايات الخاصة، وركوب السيارات المصفحة، عندها سيترحمون على عسكر موسى الكاظم، وعلى أولئك الضباط الذين أرسوا قواعده المهنية التي أفسدها السياسيون.

المبحث الثالث

النكوص

عندما يواجه الإنسان موقفا ضاغطا لا يمتلك الطاقة الكافية لتحمله، والتعامل الـــصحيح معه قد يرجع في سلوكه للتعامل مع حالته إلى أحد مراحل الطفولة التي شـــهدت انفعالا مشابها يرى التحليل النفسي فيه نكوصا مرضيا يسلك فيه المعني ســـلوكا كان موجودا أيام الطفولة، فيبكي على سبيل المثال عندما لا يحصل على شـــيء يـــريد، وينفعل غاضبا إذا ما منع من عمل شيء يرغب في تحقيقه، وهكذا تتكـــرر الحالـــة في مشهد يكون فيه سلوك المعني بالنكوص المرضي أقرب للسلوك الطفـــولي منه إلى المنطق الذي يحكم الراشدين في تصرفهم، وتعاملهم مع مفردات العـــيش، والحـــياة، هذا على المستوى الفردي، ويبدو أنه وعلى المستوى الجماعي يعاني الناس في المجتمعات البشرية نفس الحالة إذ وعندما يواجه مجتمع ما مواقف لا قدرة له على تحملها جماعيا ينكص أفراد "الأقل قدرة على التحمل" ضمن جماعات أو شرائح يمثلونها إلى الماضي الحضاري للتعامل مع المواقف الحالية.

وهـــذا ما يفسر لنا التسارع في العودة إلى سابق العهد في معالجة حال العراق في بعـــض الأماكن، والحالات من الناحيتين الدينية، والسياسية وكما هو مبين في بعض الأمثلة الآتية:

1. إن بعض العراقيين خلال هذه المرحلة، وكلما واجهوا أزمة أو شدة يخرج منهم من يضغط على الشباب في أن لا يلبسوا مثلا السراويل القصيرة، ويؤمرون بالعودة إلى الجلباب الذي لبسه الأجداد قبل مئات السنين، ونرى الآلاف قد لبسوه، عندها يصبح هذا اللبس الذي لا ينسجم، ومتطلبات العمل، والعصر نكوصا نفسيا للتعامل مع حالة لم يكن فيها السروال عائقا أمام الفقه لحل الأزمة.
2. وعندما تضيق الحالة، وتشتد الضغوط المؤلمة يخرج من بين الصف من يعتقد أن الحامي الحقيقي للدين من التدنيس، والضياع في دوائر الدولة، ومدارسها، والجامعات هو التقيد بلبس الحجاب، فيأمر بلبسه لعموم البنات حتى المسيحيات منهن، وعلى أساسه انتشر لبس الحجاب بسرعة تحت موجبات التوجيه أو طواعية كنوع من تفادي المشاكل، والحصول على الاطمئنان كنوع من التعامل مع القلق العام، وكأن على الحجاب تتوقف الصراعات الطائفية، والاحتقانات الدينية، عندها يصبح الإلحاح في لبس الحجاب على حساب الرغبة، والحرية نكوصاً نفسياً إلى الماضي الذي لم يكن فيه الحجاب عائقا أمام النشر السريع للدين الإسلامي في المعمورة.
3. وما ينطبق على الدين في المثالين السابقين، وأمثلة أخرى كثيرة لا مجال لذكرها في موضوعنا هذا يمكن تعميمه على السياسة التي لم يتمكن المجتمع من إنتاج وقائع لها قادرة على التعامل مع أزمة التغيير، والاحتلال، وإعادة البناء الديمقراطي، وبدلا من التفكير بالحلول العصرية المنطقية للتعامل مع هذه الحالة الآنية توجه البعض من السياسيين إلى طرح مشاريع تفرق بين المجتمع الواحد، وتقسم البلد الواحد، وسلك الجميع سلوك الفرقة، والتشظي فأسسوا أحزابا، وجماعات يصعب جمعها في أهداف مشتركة لكثرتها، وتعدد غاياتها، والفرقة، والتشظي نكوص إلى أيام العرب الغابرة، وعصور الدويلات الصغيرة، والإمارات، وغيرها التي أدت في نهاية المطاف إلى أفولها.

إن النكوص إلى الماضي حالة "دوامة" مرضية في التعامل الشرعي أو الديني مع مواقف الحياة الضاغطة في عراق اليوم التي تحتاج إلى التهدئة، والتسامح،

والانفــتاح، وتقليل المعاناة في ظروف البلد الصعبة لأن الإصرار عليها، والعمل علــى تطبــيقها بقــوة السلاح، والتهديد باستخدامه ستكوّن أعباء، وضغوطا مــضافة قد تدفع الشباب للنكوص إلى المرحلة العمرية التي يتمردون فيها على ســلطة الــدين، والدولة فيسلكون العكس من أوامر الدين، ونواهيه الشرعية الــصحيحة، عــندها سيجد من استخدم البندقية لفرض الحجاب، والسروال، وإطــلاق اللحــى، وغيرهــا أن الآخرين في الصف المقابل قد امتلكوا البندقية لاســتخدامها في التخلص من أوامرهم في الظروف الصعبة، وسيجد المتطرفون أنهــم يدفعــون حياتهم، وربما حياة القريبين منهم ثمنا لأفكارهم التي لا تنسجم ومتطلبات العصر، والسعي إلى التطوير التي تتحقق فقط عن طريق الحوار الجاد، والحجة الصحيحة، والرغبة الصادقة في الإصلاح.

إن الــذي يجــري في موضوع المغالاة في العودة إلى الماضي لبناء الحاضر فخ منصوب سيكتشف المسلمون، وبينهم العراقيون بعد عشرات السنين أنه قد نصب لهــم بإمعــان في أتــون حرب عالمية ضد الإسلام كانت بعض أدوات التدمير في ســاحتها أولــئك الذين استخدموا البندقية، والسلطة السياسية لفرض مفاهيمهم السلفية، وأفكارهم المتخلفة على الشباب في غير أوانها.

إن دوامة النكوص في جوانب الحياة العراقية امتدت لتشمل أوضاعاً اجتماعية بيــنها التدخل العشائري في الجوانب السياسية، والاجتماعية التي لم يكن ينقصها الــتدهور الحاصل في الأمن، والإدارة، وأسلوب التعامل في مجالات الحياة العامة، وبــسببها، وعوامل أخرى مساعدة بدأت الدولة العراقية تقع في الخطأ نفسه الذي وقــع فــيه النظام السابق يوم أعاد للعشيرة أو أعطاها دورا في التأثير على مقاليد الأمــور يفوق قدرتها، والحاجة الفعلية إلى تأديته، إذ ومن خلال التوجه للكسب، وزيادة المؤيدين، والمريدين أعطى السياسيون، والمسؤولون الحكوميون الجدد شيوخ العشائر وجاهة للتدخل طرفا في شؤون الأمن، وأغلبهم لم يكمل الخدمة المكلفية في الجيش لاعتبارت التصنيف، والتكليف العشائري إبان العهد السابق، وطرفا آخر في السياسة، ومعظمهم لم يقرأ كتابا خارج التلقين في الخلايا الحزبية التي أدخلوا إليها في الزمن السابق.

إن الـــدور الـــذي أعطـــي للعشيرة[1] في ظروف عدم الاستقرار دفع بعض العـــشائر إلى المـــضي قدما في حل مشاكلها مع بعضها البعض حد الاحتكام إلى القتال في الأحياء السكنية للمدن، والريف الأمر الذي يثير العديد من التساؤلات لا تتعلق بقضايا الحكم، والسياسة، والمنافع، والاستغلال، وغيرها من أمور فنية لم يعد العراقـــي المـــثقف يتوقف عندها بسبب إدراكه لحقيقة عدم جدوى التوقف، بل وبسبب أمور أخرى بينها:

1. الـــدور الـــذي يراد للعشيرة، وشيخها أن يلعبه في عراق مفروض انتقاله من الـــتخلف إلى التحضر، والعشيرة نظام متخلف يحول دون حصول ذلك، ومن الديكـــتاتورية إلى الديمقـــراطية، والشيخ المعول عليه طاغية مستبد لا يسمح بذلك.
2. الـــتعويل على الشيخ عنصرا فاعلا في الحزب، والحركة، ومستشارا مرموقا في تنظـــيمات الـــوزارات الأمنـــية، وحضورا ملموسا في كل موائد الكسب، والانتخابات، وهو الذي لا يفك الخط في بعض الأحيان.
3. تقـــريبه أي الـــشيخ أحد الأعمدة المرموقة لإعادة البناء الاجتماعي المخرب، وبيده معول تهديم أخرجه منها في كل المجتمعات البشرية[2].

---

(1) أعطـــيت العشيرة في الوقت الحاضر دوراً كبيراً في السياسة بدأت تزحف على أساسه لتحل محـــل الدولـــة حكَمـــاً في المنازعات، واستخدام القوة في تنفيذ المآرب، والمهام إلى مستوى حدوث معارك استخدمت فيها أسلحة متوسطة، وخفيفة بين عشائر معروفة مثل المعركة التي دارت بين عشيرتي، البهادل، وعبادة في مدينة العمارة يوم 2006/5/12 وغيرها معارك في أماكن أخرى من البلاد، وامتد على هذا الأساس تدخلها إلى الحد الذي أصبحت فيه طرفا في نقـــل شرطي من مركزه إلى مركز آخر قد يخلق أزمة قتال فعلية إذا ما كان الآمر الذي أمر أو نفـــذ الـــنقل من عشيرة أخرى، كما هو حال الشرطي من قوة التدخل السريع في العمارة الـــذي قاد احتجاجا مسلحا في الشهر الرابع عام 2005 بسبب نقله من مكان عمله في الداخل إلى خارج مركز المحافظة من قبل آمره الذي ينتسب إلى عشيرة أخرى غير عشيرته.

(2) يـــصعب أن يستثني النظام الجديد دور العشيرة بعد أن أعادها العهد السابق إلى الصدارة في السنوات العشر الأخيرة من حكمه، لكنه من الخطأ إعطاؤها الدور الذي تكون فيه عائقا أمام الـــتقدم، والرقـــي بسبب أفكارها المتخلفة، ثم إن التنظيمات الحكومية المعنية بالعشائر زمن صـــدام تمتلك معلومات، وسياقات تعامل وشراء ذمم لا يمتلكها المعنيون في الوقت الحاضر على الرغم من سعيهم لتكوين مكاتب للعشائر في وزارتي الداخلية والدفاع، ومفاصل حكومية

إن الإجابة على النقاط المذكورة أعلاه، وأخرى غيرها لم يعد صعبا عند النظر إلى محـــور التحرك ذي صلة بالعملية السياسية التي يريد أطرافها كسب الأصوات علـــى حساب حاضر العراق والمستقبل، وفي خضم سعيهم للكسب توجهوا بكل الاتجاهـــات دون التـــيقن من التأثيرات السلبية للتوجه إليها كما في حالة العشيرة والـــشيخ. وذي صـــلة أيـــضاً بالعملية الأمنية التي يود المعنيون بها السيطرة على المـــتغيرات المؤثـــرة فيها، وضبط جوانبها في الوقت الحاضر على حساب المستقبل الـــذي ســـتنفتح فـــيه الكثير من الثغرات في الأمن النفسي، والاجتماعي والتي لا تـــستطيع الأجهزة الأمنية بمفهومها الحالي للتعامل مع الخرق، والتجاوز، السيطرة عليها وإن امتلكت مزيدا من الأسلحة، ووسائل المراقبة، والتشويش.

إن شـــيخ العشيرة، وجمهوره من أبنائها الملتزمين بضوابطها، والسائرين على نهج شـــيخهم في شؤونها، وعلاقاتها، وقيمها لا يصلحون في أغلبهم للمشاركة في العملية الـــسياسية في الـــوقت الراهن باعتراف السياسيين الذين عولوا عليهم في الانتخابات الأخيرة عام 2005 بعد أن تبين لهم أن أولئك الشيوخ قد وعدوا غيرهم ونكثوا الوعد خلافـــا لقيم العشيرة، وقد قبضوا ثمن وعود أعطوها لأكثر من واحد على النقيض من شـــيم العشيرة، ولا يصلح معظمهم كذلك طرفا في المعادلة الأمنية الحالية لأن الحزب الـــواحد قد أوصلهم بقصد أو من دونه إلى التعامل مع الموقف الوطني المطلوب على وفق المبلغ المالي المدفوع، وبسببه ستبقى نفوسهم جائعة، وجيوبهم مفتوحة كل الوقت، ويـــوم لا يجدون من يصب المزيد فيها من المكرمات سيقومون، وأزلامهم بزرع عبوة ناسفة، أو هدم برج كهرباء، أو تفجير أنبوب نفط هنا أو هناك.

أخـــرى تحـــورت بالـــتدريج إلى أن يكون فيها شيخ العشيرة مطـــالبا بالهبات، والمكرمات، ويكـــون فيها مسؤول المكتب في الوزارة ناصحا اجتماعيا على العكس من التعامل إبان حكم صـــدام الـــذي كـــان فيه موظف المكتب آمرا لأكبر شيخ قبل التسجيل في سجلاته، ورضيً بالتـــصنيف الذي حدده، والدرجة التي وضعها حتى أصبح بالفعل منظمة أو دائرة أمنية شبه رســـمية حققت غاية النظام السابق في الاستخدام الأمني مقابل ثمن مادي، لكن الأمر مختلف فـــي الـــوقت الحاضر بعد أن كثر الشيوخ في غياب الجهة الرسمية للتصنيف، وركب عديد مـــنهم موجة السياسة في الحصول على الموقع، والمكان فتمردوا على المكاتب التي وجدت لاستثمارهم فأصبحوا عالة على الدولة، وسيكونون من بين المعيقين لتطورها، وإعادة بنائها ديمقراطيا.

مـــن هذا يمكن القول إن النهج المتبع في إعطاء دور للعشيرة أو توسيع دورها أو ما يسمى بالعشرنة خطير في هذه الأيام التي قد تنتقل فيها هذه العشيرة أو تلك لأي سبب من الأسباب خصما للحكومة فتجر البلاد إلى مزيد من الخراب[1].

المبحث الرابع

الاستغفال

عند النظر إلى العراق في ظروف الانتقال أو التوتر التي يعيشها من أقصى شماله إلى آخـــر نقطة في الجنوب نسمع أن شخصا كان يعمل نادلا لابن الرئيس السابق في قـــصره الخاص قد تقرب مباشرة بعد التغيير إلى أحد المسؤولين في الحكم يأمر أكثـــر مـــن أوامـــره السابقة، وينهي بطريقة تفوق قسوتها ما كان جاريا في زمنه الـــسابق، وعند التفكير في هذا السلوك، وبالعودة إلى معطيات علم النفس، ومعالم عدم السواء يمكن القول إن هذا النادل الفاسق وجد في التقرب من المسؤول الجديد فرصة في أن يستغفله لتجاوز حالة الخوف التي بات يعيشها أول أيام التغيير، ووجد المـــسؤول في تملـــق النادل مجالا مناسبا للتعويض عن جوع نفسي كامن، وفرصة لإشـــباع الغرائز أي استغفال الذات، ونسمع أيضاً أن مترجما عند قوات الاحتلال حصل على حضوة عندهم استخدمها في إغناء أشخاص بالتوسط لمنحهم عطاءات مجزية، وإذلال أشخاص وشى بهم تلفيقا بقصد الانتقام، وإذا ما أريد تفسير سلوك المترجم هذا نجد أنه نوع من الاستغفال ممزوج بقدر من الخيانة، والفساد، ونسمع كـــذلك أن انـــتهازيين سارعوا إلى التقرب من أحزاب عرضوا مساهمتهم الداعمة

---

(1) هـــناك العديـــد من الوقائع التي تؤشر احتمال انتقال البعض من العشائر إلى الصف المواجه للحكـــومة من خلال الوقوع في فخ التناحر المنصوب من القاعدة، وجهات أجنبية أخرى أو مـــن خلال انحياز أحد الشيوخ لأسباب مختلفة أو حتى بالصدفة كما حصل بداية عام 2007 فـــي مـــنطقة الـــزركة بين النجف، والديوانية التي تسكنها عشائر عربية وجدت نفسها وسط معـــركة طـــرفها الأول القـــوات الحكومية مدعومة بقوات متعددة الجنسية، وطرفها الآخر مـــسلحون مـــن جند السماء بقيادة الكرعاوي كما قيل في حينه، وبسببها تكبدت تلك العشائر خسائر كبيرة يمكن أن تدفعها تحت قيمة الأخذ بالثأر إلى أن تكون طرفا في الصف المعادي للدولة، إذا لم تتحسب جيدا لموضوعها.

بكلمات بسيطة مختزلين زمن الكفاح بالضد من حكم البعث، وصدام في قليل من الأيام رغم أن خزائن البعض منهم ما زالت مليئة بمكرماته المهينة، وهذا سلوك ينم عن رغبة بتعويض النقص الموجود في الشخصية وجد الانتهازي في الظرف السائد فرصـــته لأن يتقدم الصفوف بطريقة الاستغفال، ووجد فيه الحزب بنفس الطريقة كادراً مطيعاً نشطاً يسد به الفراغ العددي الذي يعاني منه وسائر الأحزاب.

إن هذا الواقع لا يتوقف عند تلك الأمثلة الثلاثة، فالساحة مليئة بأخرى غيرها بمستوى يثير القلق عند العراقيين الأمر الذي دفع العديد منهم إلى التساؤل الجاد عن جـــدوى التغـــير، والانـــتقال في التعامل الصحيح مع القيم، والأعراف. إن تواتر الأحـــداث، والأمـــثلة المذكورة يبين أنه، وفي أيام التغيير، والانتقال، والفوضى لا يمكـــن الـــركون إلى القياس الدقيق، ولا إلى العقلنة في الحكم على القياس حيث الاســـتمرار شبه القسري للتوجهات الشاذة بينها الاستغفال لتحقيق الذات، ويتبين أيـــضاً أنها مرحلة لا ينتهي عندها القياس بشكل مطلق لأن الضمير، والحاجة إلى المعـــنى الدقيق للعدالة، والعودة في الاحتكام إلى ما تبقى من القيم الإيجابية، والرغبة في الـــتخلص مـــن الـــضغوط تدفع جميعها ولو بعد فترة زمنية ليست قصيرة إلى تحقيقهما" القياس والحكم العاقل" بطريقة مختلفة kHk أو غير تقليدية يمكن تشبيهها ولو نظريا في وضع العراق الحالي بفعل الغربال، أي وكأن العراق بما فيه من أرض، ونـــاس، وأحداث كدوامة فيها غربال كبير، وكأن الجميع حكاماً، ومحكومين في داخلـــه يتحـــركون بـــلا توقـــف ولا استقرار، وكأنه هو الذي يتحرك في كل الاتجاهات، وحركته مع حركة الجميع ستفضي بطبيعة الحال إلى سقوط الكثير من بين فتحاته الواسعة ببطء قد يتسارع في حال تحسن الأحوال، وسيكون البعض من السياسيين الذين وصفوا بالنفعيين، وأسسوا على الاستغفال، والمسؤولين الحكوميين الـــذين عملـــوا على أن تكون وزاراتهم، ودوائرهم مراكز استغفال للاستقطاب الحـــزبي، والطائفـــي وبؤر للرشوة، والفساد أول الساقطين، وسيكون الانتهازيون المـــستغفلون، وجماعة النادل، ورفاق الليل آخر من يسقط شأنهم في كل زمان. في السنوات الأربع الماضية تكررت حوادث في الإدارة العامة، والسياسة تعطي انطباعاً للمتلقـــي، والمراقب أن هناك نوعاً من الاستغفال "دوامة" منتشر بشكل واسع في

المجتمع بدأه الأعلى بمستوى لا يقل في درجته عن ذلك الذي يقوم به الأدنى عندما تتاح الفرصة إلى فعله بينها على سبيل الإيضاح:

1. شـــرطة حمايـــة المنـــشآت المعنـــيون بحماية وزارة الصحة وبعض دوائرها، ومؤسساتها يتمردون في أواخر نيسان 2004 على قيادة الوزارة التي لجأت إلى تخفـــيض رواتبهم بسبب قلة التخصيصات في الميزانية التي جاءت نتيجة لكثر التعييـــنات الـــتي قامت بها الوزارة "استغفال الدولة" خارج الملاكات المحددة تأسيـــسا علـــى الحاجة التي تقتضيها حالة الأمن المتردية، ولم يكتفوا بتمردهم وبتـــرك العمـــل، والـــذهاب إلى بيوتهم أو الاحتجاج على ما جرى بتقديم الطلـــبات، والمطالبة من الجهات العليا بإسقاط الوزير، بل دخلوا في نوبة شتم عارمـــة، وهـــتاف سمـــج، وتحطيم الأثاث الموجود، وبعض أجهزة المكاتب، والعـــيادات في منظـــر مؤلم افتعله بعضهم، وانساق إليه بعضهم الآخر بقصد اســـتغلال الظـــرف السيئ "استغفال" والحصول على المكاسب بالطريقة التي يعتقدونها مناسبة، وإن اضطرب الأمن في وزارتهم وفي كل مكان.
2. ضباط عينوا في ملحقيات عسكرية في عام 2004 توجه أحدهم إلى التسابقَ مع الزمن فركب طائرته متوجها إلى دولة الاعتماد قبل أن يستكمل الاستعدادات الإداريـــة، والإجـــراءات المالية "استغفال"، قضى جل وقته لأكثر من شهرين ســـائحا في الشوارع لعدم وجود مقومات الإدارة للمباشرة بالدوام، عاد إلى بغـــداد بعـــد أن اســـتنـــزف مـــا استلفه من أموال بقصد استغفال وزارته، والحصول على المزيد، وتفويض بالصرف يعيده إلى منصبه بأسرع وقت ممكن، ولتغرق الوزارة ويضيع العراق.
3. تـــسابق دبلوماســـي آخر في نفس العام بطريقة نسي "أستغفل" فيها موظفة من موظفيه، وهو في طريقه إلى دولة أوروبية الأمر الذي دفعها سيدة في مقتبل العمر إلى أن تطـــرق أبـــواب البعض من الموظفين في الوزارة، تشكو حال تأخرها عن الركب، وتطلب العون من أهل الكرم، والشيمة، والقصد من الفعل بالنسبة له بطبـــيعة الحـــال الإســـراع باستلام المنصب بطريقة الاستغفال لعدم اطمئنانه للظروف المحيطة، ولقرارات الوزير، وإن ترك انطباعا سيئا بين المنتسبين.

4. ويستلم آمرو وحدات من الدولة نثرية تزيد على عدة ملايين من الدنانير يوميا لأغراض الطعام، [1] يتفقون على أساس الاستغفال مع لجان يشكلونها لصرف جـــزء من المبلغ لأغراض الإطعام بالمستوى الكمي الذي لا يكفي الموجودين، والنوعـــي الـــذي لا يتفق، والقياس المحدد أصلا حسب الأوامر، والتعليمات، ويبقون الفائض من التخصيصات هبات يتقاسمونها فيما بينهم بقصد الاستغلال "الاستغفال" المناسب للفرص دون أن يتحسبوا إلى القانون، وأثر الفساد.
5. ألـــوية مغاوير، وأخرى للتدخل السريع، وثالثة للطوارئ في الداخلية، وغيرها مـــن التـــسميات التي تلقي الضوء على طبيعة الواجبات الوطنية التي يؤدونها، يغيب بعض منتسبيها مع بداية الشهر أو في منتصفه، و لم ينشر غيابهم في أوامر القـــسم الـــثاني"استغفال" حتى يتم صرف رواتبهم في نهايته فيتقاسمه مع الآمر ضـــابط الرواتب، وبعض المعنيين بنوع من الغبطة، والفرح، وقصدهم في هذه الحالـــة لا يـــتعدى الـــرغبة في التحصيل، والكسب بأسلوب الاستغفال على حساب الدولة التي يمكن أن يغرقها الفساد.
6. ضـــباط بـــدرجات عليا يعمل بعضهم في منصب داخل وزارة الدفاع، وآخر في دائرة أخرى خارجها، ويتقاضى على أساسها أكثر من راتب، رغم أن التعليمات الـــصادرة مـــن الدولة لا تسمح الجمع بين الوظيفتين، ولا تجيز الاستلام الرسمي لـــدخلين في عملية استغفال للحكومة، وللذات المتعبة تعبر عن قصد الاستفادة الممكنة من دولة يعتقدون أن استمرارها قد يكون غير ممكن[2].

---

(1) عانت وزارتا الدفاع، والداخلية حتى عام 2006 وأقل منها بعد تلك السنة من مسالة الأسماء الوهمـــية في موجود وحداتها القتالية فهي في الوقت الذي تدفع رواتب سبعمائة منتسب لأحد الأفـــواج مـــثلا تجده في حال التكليف بمهمة قتالية لا يحتكم آمره إلا على ثلاثمائة شخص، وعـــندما يسأل عن الباقين يتحجج بمنحهم الإجازات أو دخولهم الغياب الرسمي، حتى شكلت العديد من اللجان، ولم تستطع السيطرة على تهافت البعض من الآمرين لتسجيل أسماء وهمية فـــي القوة القتالية، وبعد أن سيطرت الوزارتان على التعيين من خلال عدم صرف راتب أي منتسب لا يمتلك موافقة تعيين من الوزير وأمر إداري بالتعيين من وكيل الوزارة لجأ هؤلاء الآمرين إلى وسائل أخرى لإبقاء بعض الأسماء الوهمية في سجلاتهم بينها التزوير.

(2) موظف بدرجة مدير عام يعمل في وزارة الدفاع عام 2005، وفي دائرة أمنية ممثلا لوزارة الـــدفاع يحـــصل علـــى راتب من كل منهما، وعضو جمعية وطنية استمر طيلة وجوده فيها

7. كثير من عسكر الجيش السابق، وقليل من المتقاعدين التحقوا بالجيش الجديد، يستلمون بعد التحاقهم منحا، ورواتب تقاعدية وكأن الآمر يخص دولتين، وجيشين، وزمنين والقصد ذاته كما ورد أعلاه، وعندما تناقش أحداً منهم عن هذا الاستغفال، والتمادي به يقول: "ألا تعلم أنّ فلان في المنصب الفلاني الأعلى هو أيضاً كان متقاعدا، ويقبض من هنا، ومن التقاعد؟" ويختم حديثه بالعبارة الشعبية (هسة هي باقية عليَّ). إن المشكلة في الوقت الحاضر ليست في قصد الاستغفال الذي يضع كل فريق، وشخص من المذكورين أعلاه تبريرا له بهدف التخفيف على الذات، بل وبفعل الخطأ الذي يعزز سلوك الاستغفال للنفس، وللمؤسسات، والمجتمع الذي يعد الناس عن دولتهم، وعن الصح في نفوسهم فيزيد بمستوى الاضطراب الذي لم يتوقف عند حدود معينة، والخراب الذي امتد عميقا في النفوس، وكذلك التبرير الذي أخذ مساحة كبيرة من العقول، واللوم الذي تعود إلقاءه عليةُ القوم، وعامته على الحكومة، ورجالات السياسة، وعلى التغيير، وطريقة الوصول إلى الديمقراطية دون أن يقفوا عسكرا ومدنيين، عمالاً وفلاحين، أُجراء وموظفين، علماء وباحثين، وآخرين أمام مرآة العقل" الضمير" ويلوموا أنفسهم على السكوت عن الخطأ أو المشاركة به. ويقروا في دواخلهم على أقل تقدير أن الاستغفال الذي شاع هذه الأيام بسبب الجهل وعدوى الفساد سيزيد من نسبة الخراب الذي سيمتد بكل الاتجاهات حتى تصلهم آثاره:

1. طلقة تأتي عن طريق الخطأ.
2. قنبرة هاون تنفجر نتيجة التقصير.
3. عمارة تتهدم نتيجة الغش.
4. مرضاً ينتشر بسبب العدوى، والتقصير.
5. انفعال غضب في زحمة الطريق.

باستلام راتبها، وآخر من وزارة الدفاع باعتباره ضابطاً، وفي حالته يعرف الوزير، ويعرف المعنيون بصرف الرواتب بموضوعه لكن لا أحد منهم يجرؤ على اتخاذ أي إجراء لحماية أموال، وكرامة الدولة.

... الخ من آثار جانبية لخراب بدأه البعض من أهل البلاد، وسوف لن ينتهي إلا بوعي وتكاتف الجمع الخير، وبثورة ضمير من أهل العباد.

إن الاستغفال الذي توضح فعله في السلوك العام بعد التغيير كان موجودا لما قـبله، وكـذلك هو موجود في معظم المجتمعات البشرية، يرتبط ظهوره بمستوى النضج، والمشاعر الوطنية، والولاء العام للدولة السائد في هذا المجتمع أو ذاك إذا ما أخـذنا بنظر الاعتبار أن الكثير من مفردات الحضارة، ومعالم التكنولوجيا، وأنواع الـسلوك قد نشأت، وتطورت من خلال الخطوات المتتالية التي خطتها البشرية إلى الأمـام، وجاءت تلك الخطوات في معظمها إثر النضج، والإدراك الفعلي للحاجة اللّـذين يـسهمان من جانبيهما في دفع مجتمع معين لهضم مرحلة آنية، والتهيؤ أو الاستعداد لمتطلبات مرحلة مقبلة بأقل ما يمكن من الاستغلال النفعي الخاص.

إن تـدني مستويات النضج التي تعزز التخلف، والسلوك الخطأ يمكن اتخاذها أساسـا لتفـسير سلوك الاستغفال النفعي الموجود حاليا بمستوى تكرار غير قليل، وعلـى نفس الأساس يمكن تحديد علاقته المعوقة لمشاريع إعادة البناء، والانتقال إلى الديمقـراطية التي ستكون سلبية على الرغم من كثر المناداة بها من قبل الأحزاب، والحركات السياسية، والشخصيات المستقلة قبل التغيير وما زالت تدرجها في أعلى أولوياتها وأدبياتها كأحد الحلول المناسبة لتطبيق تلك المشاريع لأن:

1. العموم من أبناء العراق غير قادرين على التنازل ديمقراطيا عن ذاتيتهم المتضخمة لـصالح الغـير وإن كانت في عداد الأغلبية، وغير قادرين أيضاً على التعامل ديمقـراطيا حتى هذه اللحظة مع الزوجة المتحررة، والابنة المراهقة، والموظف الأدنى، والطالب المختل، والزحام في الشارع، وفي الحقوق، والمسؤوليات، ولا يمكنهم تقبل النقد عن أخطائهم المدمرة مثل الاستغفال النفعي.
2. العديـد من السياسيين الداعين إلى الديمقراطية "مع بعض الاستثناءات القليلة جـدا" غير قادرين على التنازل عن مساعيهم الخاصة في الاستغلال، والتعامل ديمقـراطيا مـع الرفض المحتمل لانتخاب أحدهم أمينا عاما للمرة العاشرة، أو الـتفكير بالاستقالة ديمقراطيا عندما يفشل في موضوع سياسي يتعلق بالعمل الوظيفي أو الحزبي.

وهـــذا واقع أو مستوى لم يكن حكرا على المجتمع العراقي بسبب ظروفه غير الطبيعـــية مـــنذ أكثر من نصف قرن من الزمان كما ورد أعلاه بل ويشمل عموم الحضارة العربية، والإسلامية الحالية التي تتشابه كثيرا في النظرة إلى الحكم، والتعامل مـــع الإنـــسان كأحد أهم أعمدة الديمقراطية، وعلى هذا الأساس يمكن القول إنّ مـــستوى النـــضج، والاستعداد "الحراك الاجتماعي" للتخلص من ذاتية الاستغفال النفعـــي، والعـــبور إلى تقبل الديمقراطية لم يكن كافيا في وقتنا الراهن للدفع باتجاه التقـــبل تلقائيا، وبما ينسجم ومتطلبات عصر لم تدخله حضارة المنطقة بعد، وعلى وفقه سوف لن يكون الانتقال إلى الديمقراطية في العراق سهلا كما يتأمل البعض، وسوف لن تكون الانتخابات التي أجريت، والتي ستجرى مستقبلا هي الفيصل في تعزيز الديمقراطية وإن كانت الخطوة الأولى على طريقها الطويل.

إن الديمقـــراطية الـــتي تقل فيها فرص الاستغفال النفعي"مع بعض الاستثناءات" عمـــت المجـــتمعات الغربية، وأخرى غيرها عن طريق النضج أدى النقل الحرفي لجميع خطـــواتها للعراق بغيابه إلى زيادة هامش الاستغلال، والاستغفال، وسيؤدي الاستمرار علـــى نفس الصيغ الحالية إلى مزيد من التعقيد، والوقت، والثمن المدفوع حتى تكون حقيقة يقبلها الغالبية تلقائيا، ويسلكون على أساسها مع أنفسهم، وغيرهم.

وبعكـــسه فأمـــر تحقـــيقها ســـيكون فقط بفرضها من الأعلى بقوة السلطة الحاكمـــة، وهذا غير ممكن وإن توفر مجازا بعض القادة، والمصلحين غير التقليدين، والنوايا الطيبة لكل أطراف المشكلة من عراقيين، وغير عراقيين.

المبحث الخامس

التخبط

نشأت الجماعات البشرية، ونظمت عيشها تبعا لعلاقة نفسية تبادلية النفع بين حـــاكم، ومحكوم، قوامها حاجات الثاني، وقبوله للأول، وتطورت هذه الجماعات لمستوى تكوين دول، وتجمعات بشرية، ومجتمعات حديثة متقدمة، ومع ذلك بقيت الحاجـــة، والقبول طرفاً من طرفي معادلة تنظم العلاقة بين الحاكم أو الحكومة من جهـــة، والمحكوم أو الجمهور الذي يقرر وجودها انتخابا في المجتمعات الديمقراطية،

ودعما لشرعية البقاء في غير الديمقراطية من جهة أخرى، وعلى أساسها أي المعادلة تسعى الحكومات إلى تأمين حاجات الجمهور الضرورية لإدامة العيش، وتحقيق مستوى من الرفاه يفضي إلى قبول استمرار الحكومة في إدارة الدولة والمجتمع، وبعكسه وفي حال اختلال تلك المعادلة في غير صالح الجمهور سيتم إسقاطها منتصف الطريق أو السعي إلى عدم إعادة انتخابها ثانية" في المجتمعات الديمقراطية"، والاتجاه إلى أخرى يأملون في برامجها الانتخابية القدرة على تجاوز الخلل، والعودة إلى حال القبول.

أما في المجتمعات غير الديمقراطية فإن الجمهور غير القادر على تقرير مصير الحكومة عن طريق سحب الثقة، وإعادة الانتخاب كمحصلة لعدم القبول سيلجأ إلى أساليب أخرى سلبية في الغالب ترتكز على الاحتجاج المبطن، والإعاقة العمدية، وعدم تحمل المسؤولية، وضعف الأداء، وربما التخريب، وفي أحيان ليست قليلة تكوين اتجاهات، ومشاعر عدوان بالضد من الحكومة كرغبة في التدمير قد يرتد قسم منها إلى الذات الجماهيرية فيعيش المجتمع حالة الفوضى، والاضطراب.

وفي العراق هذا المجتمع الذي يتأرجح بين نوايا الديمقراطية، وبقايا الديكتاتورية، ويئن تحت وطأة الاضطراب، لم تلتفت الحكومات المتعاقبة منذ التغيير، وحتى وقتنا الراهن إلى طبيعة تلك المعادلة لأسباب عدة منها:

1. ظروف العمل المسلح، واستمرار القتال بالضد من الدولة الذي حال منطقيا دون تحقيق الكثير من مشاريع الحكومة في تأمين الحاجات الضرورية للعيش، مثل الأمن، وتحقيق قدر من الرفاه.
2. قلة الخبرة في التعامل مع الجمهور إذ إنّ الحكومة العراقية في السابق لم تنشئ مؤسسات كافية لتسهيل إدارة المجتمع، واعتمدت بدلا منها على الصفوة أو النخبة المؤمنة، وعندما رحلت رحل معها غالبية المعنيين فتركوا برحيلهم فراغا لم تستطع الكوادر الجديدة ملأه في الفترات القصيرة التي تستلم فيها المسؤولية، وتسلمها في غضون أشهر لا يمكن خلالها تكوين خبرات للتعامل مع مجتمع مليء بالتعقيد.

3. الاعـــتقاد الخاطـــئ لدى العديد من السياسيين المعنيين بحكم البلاد في الوقت الحاضـــر أن مجـــرد التخلص من صدام حسين، ورفع الحصار، والانفتاح على العالم الآخر على سبيل المثال حاجات يكفل تأمينها قدرا من الرضا، والقبول في المعادلـــة النفسية لإدارة الدولة والمجتمع، حتى وجدوا بعد تحقيقها جميعا أن الناس قد انفتحت نفوسهم أمام حاجات عديدة مطلوب تأمينها لتحقيق القبول مثل الحصول على عمل.

تحقيق العدالة، والمساواة.

تأمين الكهرباء، والماء، ومستلزمات العيش كما هو مطلوب.

فرض السيطرة، والحزم، والأمان، وحماية الحدود.

تحديد صيغ التعامل مع الأجنبي.

وغيرها العديد من الحاجات التي لا يمكن تأمينها جميعا في القريب العاجل من أجـــل التحقيق النسبي للقبول، الأمر الذي يلقي على عاتق الحكومة أعباء التوجه الحتمي لإعداد خطط الإقناع بإمكاناتها المحدودة في تأمين الحاجات، وبظروفها التي تحـــول دون التأمين، وبعكسه فإن الجمهور العراقي الذي تعود عدم القبول كأحد خصائـــصه النفـــسية سوف لن يكتفي بعدم إعادة انتخاب من انتخبهم نهاية عام 2005 بعـــد أن توجه قسم ليس قليلاً منهم إلى الرفض المسلح لأسلوب الديمقراطية التي حالت دون تأمين الحاجات، والعيش بسلام.

وفي ظل هذا التخبط، والعوز المؤثر في موضوع تحقيق الحاجات تبين أن:

1. عـــراقيين يُقـــتلون بعد تعذيب وحشي، ورمي عشوائي لجثثهم على أرصفة الـــشوارع، وبعـــض أعـــضاء البرلمان العراقي المنتخب في ظروف غير طبيعية يجوبـــون الدول العربية، والعالمية سعيا منهم لتأمين دعم مالي، وإسناد طائفي لأشخاصـــهم، وأحـــزاب يكونون معها قوة تنافسُ الآخرين في شوارع بغداد المضطربة فيزيدون بجولاتهم من هول الأزمة، والشعور بالعجز من القدرة على الإصلاح.
2. آخـــرين يُختطفـــون في وضح النهار بالجملة وسط بغداد، وفي أكثر مناطقها ازدحامـــا، ورصدا من قبل الشرطة، وقوات متعددة الجنسية، يَقتلّونَ، ويُقتَلون

علـــى الهوية والاسم، وبرلمانهم المنتخب عاجز أن يشرع قانونا يلزم الحكومة بتنظـــيف أجهزتها الأمنية من عصابات تسللت، وجماعات تجندت فيسهمون بعجزهم هذا بتعظيم الكارثة.

3. طوائـــفَ يتبادل بعض أبنائها الجهلة، والمهووسين، والعملاء المشبوهين تهجير العـــوائل، وإرهـــاب العلماء، والعقلاء قريبا من مقر البرلمان في بغداد، وبعض أعـــضائه المنتخبين يحرّضونَ على الفتنة الطائفية، والانتقام، وأخذ الثأر علنا في مؤتمـــرات خارجـــية، وفضائيات مشبوهة، وفي ندوات، واجتماعات داخلية فيصبونَ الزيت على نارها المتقدة.

4. الديمقـــراطية الـــتي أوصـــلتهم أي الـــبرلمانيين إلى مقاعده الفارهة في الزمن الخطـــأ أوصـــلوها بتخبطهم إلى أن تكون وسيلة تفتيت، وتدمير منظم لهذه الـــبلاد بـــدلا مـــن أن تكـــون أداة تـــرفيه وإسعاد لأبناء الأمة، ومع ذلك يستكثر عديد من الأعضاء حضور جلسات برلمانهم لإرساء قواعد الديمقراطية، والسعي لإنقاذه من الكارثة فيقدمون صورة عن العجز الحاصلَ في كل مجالات الحياة.

كل ذاك حاصل تحت قبة برلمان يفترض أن يؤسس أعضاؤه المنتخبون قواعد صحيحة، ومعايير قيمية مناسبة لحاضر أفضل، ومستقبل مضمون.

وأكثر منه قد حصل بالفعل خلال السنة المنصرمة حول رواتبهم، وحماياتهم، والمخصصات، والتدافع والتناحر.

وغيرهـــا معالم سلوك غير توافقي مع الكارثة التي يواجهها العراق قد يكون بعـــضها مـــبررا من قبلهم، وأحزابهم في إطار التفرغ، والحاجة والظروف الأمنية، والرغبة في استثمار الفرص المتاحة.

لكن غير المبرر في هذه الأيام الصعبة هو توجه العديد منهم إلى الحج في موسم عـــام 2006 وبالمستوى الذي أفقد البرلمان القدرة على التصويت"العجز، والتخبط" في ظـــروف تحتـــرق فيها البلاد، وينجر فيها الأبناء إلى حافات الهاوية، لأنهم وفي عملهم هذا لا يمكنهم الادعاء أمام الخالق وباقي الناس بوجوب الفريضة التي سمح ســـبحانه بتأجيلها لأسباب تقل في وجوبها عن الحاجة الماسة إلى البرلماني في بغداد

ليـــصوت علـــى قانون يخفف من أزمة أو يقوّمْ أداء يقلل من محنة أو يقدم مقترحاً ينقذ روحاً، أو يعيد عائلة إلى سكنها.

وهـــذه جميعا ثوابها يفوق حتما حجة مدفوع ثمنها أو فرصة حج استلبت من عراقي في عمر الشيخوخة ينتظر الغفران.

إن الحج الجماعي لأعضاء البرلمان الذي تم عام 2006 والبلاد في دوامات محنة تخبطٌ في إدراك المسؤولية لا يمكن تبريره، وسلوك لا يمكن كذلك تفسيره إلا باتجاه أن هـــذا العدد الهائل يشعر بارتكابه الإثم بحق العراق، وتوجّهه إليه أي الحج سعي للـــتكفير، وإن صح هذا بالفعل فإن من يشعر بالإثم إلى هذا الحد لا يصلح أن يمثل أبـــناء بلده في المراقبة، والتشريع، أو إنه حج مدفوع الثمن حاول البعض استثمار فرصته في تذكرة طائرة بالدرجة الأولى، وسكن بفنادق ممتازة، وطواف بالصفوف الـــرسمية، واســـتقبال وتوديع مثير، واستثمار الفرص بهذا القدر لا تقبل فيه الحجة حـــسب تعالـــيم الدين الإسلامي، ولا يصلح صاحبها طرفا في حل الأزمات التي تعـــصف بالـــبلاد أو أن هؤلاء البرلمانيين يحسبون فترة الحج أيام ترويح بعد شعور بالتخـــبط يتخلصون فيها من ضغوط العيش تحت تهديد الهاونات التي تطال المنطقة الخـــضراء، أو خطر العبوات الناسفة على حافات طرق التنقل إليها في كل مكان يمـــرون به، وإذا ما كان الأمر كذلك فيصح القول إن من لم يتقاسم هموم شعبه، ويعش خطر أبناء بلده في ظروف أزمته لا يصلح أن يكون طرفا في المساهمة بحلوله، ولا يـــصلح أن يكون رائدا في طريق بنائه وإن منى نفسه بحسن العبادة. إنه عجز، وتخبط بكل ما في الكلمة من معنى يشترك في حصوله الجمهور من الناس العاديين، والقادة السياسيين، والعسكريين أسهم في دخول البلاد دوامة العنف التي لا تنتهي إلا بتجاوز مجموعة أزماته أي الخروج من الدوامات التي وُضعَ فيها بينها التخبط، والـــنهوض من جديد بطاقات جديدة قوامها الثقة، والاعتماد على الوطنية العراقية الـــتي ستكون كفيلة في التوحيد، وحشد الجهد المتاح لتجاوز ما يحصل من تدميرٍ للبلاد.

لكـــن هذا تخبط لم تؤشر وقائع الحاضر أن هناك نوايا لتجاوز آثاره السلبية، لأن الكـــثير مـــن العـــراقيين استمروا في غيهم، وكذلك الأمريكان في محاولاتهم،

وأخطائهم لفرض واقع محدد في ظروف معقدة لم يحسبوا فيها جيدا تعقيدات الأزمة حيث المصالح المتشابكة في الخارج، والتناقضات المتفاقمة في الداخل، واستحقاقات التغيير حيث الرغبة السريعة للتخلص من معاناة الماضي، والعيش بعيدا عن الضغوط المقلقة.

بسبب ذلك، وكمحصلة لعدم التحسب، والإصرار على صحة الفعل "التخبط" وبعد أن أفاق العراقيون من صدمة التغيير، وبدلا من أن ينسجموا مع واقعه، ويلتزموا بضوابطه، ويتأملوا أهدافهم من خلاله، وجدوا أنفسهم أمام الحرية غير المقيدة يسكن البعض أماكن الغير دون قيود، ويقتص البعض من الغير بلا حدود.

ويخالف البعض الآخر عمدا قيم المجتمع وتقاليده بلا قيود.

ووجد البعض عيونه شاخصة على الأمريكان أو على بعض السياسيين، والوزراء يسجل الأخطاء، ويكيل الاتهامات، ويكتب التقارير التي تزور المعلومات.

ووجد البعض الآخر عينه الثانية صوب مقاولات إعادة الأعمار، يفتش بين المقرات الحزبية التي ملأت شوارع بغداد، وبين ثكنات الأمريكان، وسماسرة الوزارات يسفه عروض الغير، ويعرض الرشوة، ويقدم مقترحات الدعم من صافي الأرباح.

وكأن الجمع المذكور يسير على طريق التخبط، وفي سيره لم ينس قسم منه أن آمرا له قد صفعه وهو جندي قبل عشرين عاما بسبب إخلاله بالضبط، فبات الوقت مناسبا لمطالبته بفصل تلك الصفعة مبلغا من المال وإن كان الآمر قد أفقره صدام ليمثل في صفعته تدنيا، وتخبطا في أخذ الحق بلا حدود.

ولم ينس الآخر أن شرطيا قد ألقى عليه القبض متلبسا بسرقة جاره، فبات الوقت مناسبا لرد الاعتبار زورا عن طريق المطالبة بقدر من المال تدفعه ورثة الشرطي الذي مات من عشر سنوات بطريقة تمثل انحطاطا قيميا، وتخبطا في التعامل مع الواقع المتاح.

وغيرها تجاوزات توحي وكأن الجمع قد دخل دوامة التخبط دون إدراك ولو بسيط لحقيقة أن التخبط خطأ يسحب إلى خطأ آخر سيدفع ثمنه القائم عليه ولو

بعـــد حـــين، وإن العـــراق سيعيد عافيته ثانية، وسيفتش عن الجناة الفعليين، وإن الأهـــداف، والتطلعات لا تتحقق إذا لم يتخلص العراقيون من تخبطهم ويسيروا في الاتجاه الصحيح.

إن التخبط واقع حاصل عند البرلماني، وعند الموظف الحكومي، والجمهور في حـــياته العامة أيضا، وهو تخبط كوّنَ حالة تشكي عند الجميع نرى فيها على سبيل المثال أن الموظف، والعامل وغيرهم يشتكون فقدان قناني الغاز تارة، وعودة توفرها في شـــوارع بغداد وأزقتها تارة أخرى بعد ارتفاع أسعارها إلى ما يقارب الخمسة وعـــشرين ألف دينار بعد أن كانت قبل التغيير بمائتين وخمسين دينارا، وهم محقّون في شـــكواهم مـــن هذا التخبط، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن الغاز يصل بوفرة وسهولة إلى من يدفع الثمن المطلوب دونما عناء.

ويـــشتكي متقاعد عراقي قد باع مدفأة الغاز قبل سني التغيير، واعتمد النفط للتدفـــئة والطبخ أن النفط قد ارتفعت أسعاره هو الآخر لأكثر من عشرين ضعفا، وإن ســـائقي العربات المتجولة لا يكتفون بتبرير ارتفاع الأسعار، بل يسل بعضهم سكينه ليهدد من يشكو الارتفاع بقتله، ودفع ديته من أرباح النفط المسروق، وهو محق في شكواه لأنه أُهمل في السابق والآن بطريقة مازالت تتخبط فيها الحكومة غير القادرة على إصدار تشريع ينصفه.

ويـــشتكي صـــاحب سيارة أن جل وقته يتبدد في الوقوف ساعات طويلة في طوابير محطات التزود بالوقود، وأن العامل في المحطة لا يكتفي بعدم إعادة ما تبقى مـــن المـــبلغ المطلـــوب للسائق الذي أرهقه طول الانتظار، بل يهدده بالحراس أو الأشقاء القريبين المستعدين لتنفيذ فعل القتل إذا ما أصر "السائق" على تجاوز أدب دفـــع خوّة تحت الاكراه، والشاكي محق في شكواه إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن التـــزاحم على الوقود أزعج أنواع التخبط التي عانت منه شوارع بغداد، ويشتكي العموم من انقطاع التيار الكهربائي شبه الدائم، ومن البرمجة غير المستقرة مؤكدين أن أربـــع ســـنوات بعد التغيير، ورغم سعة العمل الإرهابي في التأثير، لا يمكن أن تقـــنعهم بمشاريع إعادة تأهيل الكهرباء المنوه عنها، وتضع في أعلى مخيلتهم صوراً للتخبط شبه المقصود.

إن المواطنين العراقيين في شكواهم المذكورة، والأخرى غير المذكورة لا يمكن أن يقتنعوا بتبريرات درج على ذكرها البعض من المسؤولين الحكوميين، ولا يُصَدِقونَ حجج الوزراء، والمسؤولين بقدم المكائن والمعدات، ولا بالأعمال الإرهابية التي يقوم بها الأعداء بقصد التحريض على العصيان، لأن المكائن وإن كانت كذلك بالفعل كان يمكن إدامتها، أو تبديل بعضها في غضون السنوات الأربع.

إن كثرة التشكي ولو كان البعض منها غير منطقي في ظروف عدم الاستقرار يعبر من جهة عن حجم التخبط في الإدارة العامة، ويكّون من جهة أخرى إيحاءً مضادا للسياسيين، ولسلطة الحكم القائمة، وللوزراء المعنيين يزيد من أعمال العنف التي لا يمكن التكهن بآثارها المستقبلية إلا في حالة توجه السياسي الذي يواجه موقفا لا يستطيع حله، والوزير الذي يفشل في تجاوز معضلة في وزارته إلى الاعتراف بالفشل كما يفعل أقرانه المتحضرون، ويخطو خطوة إلى الأمام كما يخطوها العظماء يترك فيها موقعه لآخرين يمكن أن يكونوا أكثر كفاءة في تجاوز أزمة الخطأ في وقت لا يتحمل فيه العراق مزيدا من الأخطاء.

الفصل الخامس

الفساد

إن مؤشرات الأحداث لا تطمئن في موضوع الفساد لأن من حُمِلّوا المسؤولية قد غالى بعضهم في الولوج إلى جوانبه.

عُيِنَّ الأقرباء في السلطة، ومُنح المعارف، والأصدقاء وغيرهم مكارم من أموال الدولة، وأراضٍ سكنية، ومزارع لزيادة ولائهم في دعم السلطة، واُعتُمِدتْ الدرجة الحـــزبية، والانـــتماء القبلي، والمناطقي أساسا لتقييم الولاء العام للسلطة، فوُسمت أنظمة حكم، وأداء أجهزتها بالفساد.

وبـــسببه "الفـــساد" وأخطاء في الإدارة ابتعدت الغالبية العظمى عن شؤون الحكـــم حد العزلة، فأسهموا بعزلتهم هذه، ومواقفهم المضادة في كثير من المجالات في إضـــعافه حتى أضحى الحاكم الذي اعتاد التدخل في نقل ضابط من وحدة إلى أخرى، وفي ترقية موظف، وفي الاطلاع على مخالفة تقع في أقصى الشمال العراقي أو في الجنوب غير قادر على ضبط السلوك العادي لأفراد حمايته، ولا السيطرة على تـــوجهات أبـــنائه، ولا التحكم في انضباط، ومعنويات جنوده، فكان فساد أفقد الدولـــة سيطرتها، وأسس نوعا من العزوف عن التأييد، والرغبة في التدمير عمت المجتمع العراقي، ومهدت إلى السقوط.

لكن الفساد الذي عرف البنك الدولي أنشطته بإساءة استعمال الوظيفة العامة للكـــسب الخاص (16) لم يتوقف تأثيره كما هو مفروض عند عتبات القصور التي تهدمت.

ولم تنـــته امـــتداداته كما كان متوقعا عند المفاصل القيادية للحزب التي حلت.

ولا يمكن الحد من تفشيه كما هو متأمل عن طريق النوايا، والشعارات التي ما زالت وسيلة كسب، وإقناع.

لأنه آفة مدت جذورها عميقا في بيئة عراقية لم تختلف معالمها بشكل ملموس بين الأمس واليوم، فكان لها أثر في نشره، وإنبات أنواع منه لم تكن موجودة في السابق.

ولأنه سلوك مكتسب انتقلت معالمه إلى أفراد في المجتمع لم تختلف تطلعاتهم، ورغباتهم بين الأمس، واليوم، فكان لهم السبق في قيادة، وتوجيه أرتال الفساد، وإيجاد فروع وبؤر له في كل مكان من العراق.

ولأن السياسيين الذين تسلموا المسؤولية العليا لإدارة الدولة، والمجتمع حديثا لم يدرك بعضهم "بافتراض حسن النية" ماهية الفساد، وأخطاره الكبيرة على تطلعاتهم في الحكم، وإقامة المجتمع الديمقراطي الجديد، فأسهموا بسبب عدم الإدراك، وقلة الخبرة، وارتكاب الخطأ في تعميمه توجها عند الكثير من أبناء البلاد، ومع ذلك بقي الغريب في أمره هو أنّ:

1. العديد من العراقيين يتكلمون عنه كآفة، ويسكت البعض منهم إذا ما اقتربوا من نفعه في كثير من الأحيان.
2. كل المسؤولين الذين تعاقبوا على حكم العراق بعد التغير يستنكرون حدوثه كارثة ستدمر العراق، ويتجاوز بعضهم خطوطه الحمراء بسلوك يتوجهون على أساسه إلى:

إصدار الأوامر بترقية القريب درجة وظيفية عليا.

منح الصديق رتبة عسكرية رفيعة.

تعيين مستشارين من أفراد الحركة، والطائفة، والحزب.

تسهيل الحصول على مكاسب خارج الضوابط.

وغيرها الكثير من الأنشطة التي تندرج تحت تعريف الفساد، وهم لا يقرون مع أنفسهم أن ما يفعلونه هو الفساد.

3. المشرعين المعنيين بإصدار القوانين التي تَحُد من الفساد، وبمراقبة سلوك الحكومة في مجاله يستلم بعضهم رواتب عدد من أفراد الحماية كانوا قد أعطوا أسماءهم،

ووثائقهم للدائرة المعنية، وقسم منهم قَبلَ لنفسه أن يستولي على المبلغ المستلم لصالحه، و لم يعين أحدا في الحماية أو قَبلَ القسم الآخر أن يعطي لمن في حمايته أقــل من الراتب المخصص فعلا دون أن يحس مع نفسه أن عمله هذا نوع من الفساد.

4. الــبعضَ من أفراد البرلمان، ومن قبلهم أعضاء في الجمعية الوطنية السابقة طرح في أولى اجتماعاهم مقترحا بزيادة أفراد الحماية رغم مكوث أغلبهم في المنطقة الخــضراء، ومقترح من هذا النوع لا يمكن أن يفسر إلا في إطار السعي لزيادة المبلغ المخصص للحماية لإضافته إلى دخله الإجمالي، وهو غير راغب بتصنيف مساعيه هذه بأحد جوانب الفساد.

إن الفساد قد انتشر في جسم الدولة العراقية فأدخلها في دوامة خطيرة لم يعد فيها:

1. أحد من المتابعين في العراق من لم يسمع عن مستوياته المادية حيث:

الرشوة، والتسابق على الفوز بالعقود.

الاستحواذ على الوظائف.

الكسب غير المشروع.

الإعاقة العمدية للعمل، والتزوير.

التبذير بالمال العام...الخ.

وغير المادية حيث المحاباة، خيانة الأمانة، ضعف الولاء للوطن، المحسوبية، اللا مبالاة.

وغيرها أعمال فساد باتت منتشرة على طول البلاد وعرضها.

2. أحــد مــن الواعين، والعارفين بما يجري، وببواطن الأمور لم يدرك أيضاً أن الفساد دوامة إذا ما زادت سعتها في أي مجتمع ستسهم في التسريع بانهياره شبه المحتوم.

3. أحــد مــن الراشدين يسأل عن دوافع هذا التفشي، وعن أسباب عدم توقف مجرياته بعد زوال نظام كان هو الفساد.

لكن الذي لم يقترب منها السائلون الواعون، والمتابعون كأسباب حقيقية لهذا التفشي الخطير في هذا المجتمع المطلوب النهوض به من جديد هي الظروف المحيطة التي وُضع فيها الإنسان العراقي سابقا، وحاليا والتي دفعته لأن يعيش تحت ضغوط شديدة عززت أو ضخّمت في داخله رواسب كانت موجودة، وبدرجات معينة للذاتية، وتفضيل المصالح الشخصية، وعدم الشعور بالمسؤولية.

إنه تعزيز لفعل الخطأ مهد إلى حدوث الفساد، مضافة إليه تلك الأساليب غير الصحيحة التي اتبعتها الأنظمة السابقة لإخضاع العراق برمته إلى تغيير أشبه بالمقنن أراد القائمون عليه أن يكون هذا الإنسان العراقي الجديد:

1. كاتب تقارير عن الأهل، والجيران بشكل جيد.
2. مدّاحاً للأعلى في الوظيفة المشهور.
3. شخصاً يبدي رأيا بوجهين، ويظهر بشخصيتين، ويسهل عليه التبرير.

وهي معالم تغيير نجحت في أن تمسخ الشخصية الوطنية، وتترك أثرا سلبيا في السلوك قوامه قبول الخطأ، وتبرير قبوله، ذلك الأثر أي الفساد الذي لا يمكن محوه بالتمني أو عن طريق النوايا الطيبة لعدة سنوات مقبلة.

إن النظرة الموضوعية لمسألة الفساد في العراق بالنسبة للمهتمين، والسياسيين، والأشخاص العاديين لابد وأن تتم من زاويتين:

الأولى. مدى الانتشار بين الأفراد، والجماعات.

الثانية. القدرة الفعلية للدولة الحالية في الحد من تصاعد شدته.

وهما زاويتان يتبين للناظر من خلالهما أن الانتشار واسع جدا وبما يفوق معظم المجتمعات البشرية(17) وقدرة الدولة محدودة في الوقت الحاضر للحد من سعة انتشاره، وهي نظرة تدفع إلى التأكيد على أن الفساد بات اضطراباً اجتماعياً أصيب به العراقيون من الماضي نتيجة للضغوط، ورغبات التغيير شبه المقنن للسلوك، انتقل سريعا من زمنهم إلى الزمن الجديد بسبب:

1. الغياب شبه الكامل لأجهزة الضبط الاجتماعي التي حُلتْ.
2. نشوة التحرر المفاجئ من سلطة الخوف الضاغطة التي حصلت.

كمـــا أن الإصابة به قد شملت الكثيرين، لكنها إصابة قد تبقى لدى البعض كامنة في النفوس، لا يشعر المصاب بوجودها، وكذلك قد لا يرصدها المحيطون به، إلا بعـــد أن يكـــون في دائـــرة المسؤولية يمارس دوره في الأمر، والنهي، والتمتع بالصلاحيات الواسعة من غير حدود.

إن الفـــساد وبـــضوء هـــذه التأكيدات كارثة حلت بين العراقيين، فأوقعت المجتمع، والدولة في دوامة محنة يتحمل مسؤولية حلولها منطقيا، من حكم البلاد في الـــسابق، ومهـــد لحصولها بهذا المستوى الخطير، ومن جاء بعده، وعزز من سعة انتشارها لأنه لم يتحرك في مجال الحد منها بشكل صحيح، ولم يحاسب أحدا سار على خطاه.

إن مؤشـــرات الأحداث، وأساليب التعامل لا تطمئن في موضوع الفساد لأن مـــن حُمِلّـــوا المسؤولية حديثا قد غالوا في الولوج إلى جوانبه، وكأن البعض منهم يـــسابق غيره سعيا لتعويض فرص لم تستغل من فتات الفساد، أو يتحدى من كان قبله في تسجيل أعلى الأرقام من أعمال التجاوز، والفساد.

إن العراقيين الذين يراقبون الموقف، ويتابعون خطى السير في موضوع الفساد يتـــندرون من فرط شؤمهم على حالهم في موضوعه، وفي سياق تندرهم يتذكرون أنهـــم وعبر الأزمنة كانوا يقرنون الوضع السيئ، وبالتحديد مستوى الفساد بحال الـــسمكة التي تصل رائحة التعفن فيها إلى الذيل، فتوجه البعض منهم وعند اشتداد الانفعـــال، واليأس في التندر والحوار عن جوانب الخطأ، والفساد إلى التعبير بالقول أن التعفن" الجيفة" وصل الذيل.

لقـــد أصـــيب المجتمع العراقي بسبب ظروف الاضطراب الأمني، والسياسي، وفقـــدان الـــسيطرة على ما يحصل في غالبية المدن، والريف، وتعزيز الشعور لدى الكـــثيرين من احتمال التطور السلبي للأحداث. والتعرض إلى مزيد من الحرج في جوانب العيش بالتوجه المحموم لتوسيع هامش الكسب الخاص على حساب الصالح العـــام الذي دفع الكثيرين من موظفي دوائر الدولة، ومؤسساتها أن يعملوا وكلاء للقطاع الخاص. ودلالين إلى بعض المقاولين.

وبائعـــي معلـــومات في أكبر عملية فساد عرَّضتْ خزينة الدولة إلى خسائر بمليارات الدولارات(1).

ومع ذلك فإن الصراع بين التعفن أو الفساد من جهة، والعفة من جهة أخرى في مجتمع مثل العراق لم يحسم تماما لصالح الأول.

والأمـــل في إيقافه موجود فقط إذا ما تحمل جميع من في السلطة، وخارجها المسؤولية في شم رائحته، وتيقنوا أن الثمن الذي سيدفع لاستمراره سيفوق كثيرا ما يمكن تحصيله بأي حال من الأحوال(2).

إن الحقيقة المرة التي يتداولها الناس في المجتمع العراقي، أو الكارثة التي بات الجميع يدرك ماهيتها تتمحور حول الانتشار الواسع للفساد حتى صنف العراق مـــن بـــين أكثـــر الـــدول انتـــشارا للفـــساد بأوجهه المختلفة مثل الإساءة، المحاباة، التزوير، التجهيل، التعويض، التردي والتي سيتم تناولها في مباحث هذا الفصل.

---

(1) لعـــدة أســـابيع فـــي النصف الثاني من عام 2006 جرت مناقشات لاتخاذ قرار في الخطوط الجـــوية العـــراقية حول شراء محرك لإحدى طائراتها المستخدمة نوع بوينغ 737 أو إيجار واحـــد أو تصليح العاطل وأخذ النقاش الفني، والإداري وقتا طويلا وغير مسبوق في تاريخ الخطوط ذات السمعة الجيدة، لأنه نقاش كان محكوما بتوجهات بعض المعنيين للحصول على أعلـــى نـــسبة عمولة لو تم الإيجار، وأقل منها لو تم الشراء، وخلاله كانت الطائرة المعنية جاثمـــة علـــى أرض مطار خارج العراق فبلغت كلفة أرضية وجودها هناك أكثر من سعر المحـــرك الجديد، هذا ويؤكد موظفو التسويق في الخطوط أن ما يقارب ثلث ركاب الطائرة أحيانا يعفون من دفع أجور تذاكر السفر لأنهم من الكتلة أو الحزب، والأقارب.

(2) حـــدث أن أخـــتطف موظفـــون كـــبار في السني الأخيرة، وكذلك مقاولون، ورجال أعمال، وسياســـيون، وخـــلال اختطافهم يتم مساومتهم من قبل الخاطفين على دفع أموال طائلة ينكر المعنـــيون أحـــيانا وجـــودها لديهم، وإمكانية تدبيرها، ويرد عليهم المختطفون في كثير من الأحـــيان بتأكـــيدات، ومعلومات دقيقة عن المبالغ التي تم الحصول عليها من مقاولة، أو من رشـــوة أو مـــن دعم خارجي، وغيرها من منافذ تجميع المال بطرق شرعية، وغير شرعية تـــضطر العديـــد من المختطفين إلى التسليم، وتسديد ما هو مطلوب أو دفع حياته ثمنا لعدم التسديد، وأحيانا حتى عند التسديد عندما يتعرف على الخاطفين.

المبحث الأول

الإساءة

تصنف الإدارة بالسيئة ليس بمعيار المقارنة مع حدث حصل في السابق، وآخر يحدث الآن، وإنما بمعايير الشفافية الدولية، ومدى احترام الإنسان، وتقديره، والقدرة على تلبية الحاجات الفعلية للمواطن على رأس قائمتها الأمن والرفاه. هذا وإن الإدارة السابقة التي لم تعترف بالإساءة، والفساد في أوساط العائلة الحاكمة، ولم تقر بتحمل مسؤولية حصولهما اعترفت أكثر من مرة بوجود سوء، وفساد في جسم الدولة حاولت تطويق بعض حلقاتهما في المفاصل المهمة لكنها لم تنجح بسبب:

1. عدم قدرتها تقديم نفسها، ومجموعتها التي تتحمل المسؤولية الأعلى في إدارة المجتمع مثالا للسلوك الصحيح، وقدوة للغير في التعامل القويم.
2. الظروف البيئية المحيطة من حصار، وعوز شجعت في إيجاد مبررات الفساد.
3. تركيز الجهد الرئيسي للدولة على الحرب التي أدركت حتمية وقوعها.

عندها انسحبت تدريجيا إلى الهدم أكثر من الإصلاح حتى فقدت سيطرتها على عديد من الجوانب بينها ما يتعلق بالفساد، ومع ذلك المستوى الشامل لانتشاره لم يجرؤ أحد من قياديي الحزب، والموظفين بالمستويات العليا أن يساوم تاجراً على منحه عقدا بعمولة يتفق عليها مباشرة كما قام به البعض من الوزراء، والمسؤولين الحاليين[1].

---

(1) في نيسان 2005 حضر رجل أعمال معروف لقاء في فندق الحياة بعمان، وفي مجرى حديثه قال لحضور من السياسيين: ماذا دهاكم، جماعة النظام الجديد تساومون مباشرة، وعلنا على نسب عمولة في منح العقود، وتقديم التسهيلات، وتفرضونها غير معقولة على العكس من المسؤولين السابقين الذين يتركونها في حال حصولها إلى السائق أو المرافق، ويضعونها معقولة لا تثير الاستغراب، هذا ويتواجد في فنادق الدرجة الأولى بعمان حتى عام 2007 عديد من الوزراء العراقيين ومدراء مكاتبهم، ومعهم في الفنادق ذاتها الكثير من التجار، ورجال الأعمال تُعقدُ من خلالهم عديد من الصفقات، وتمرر أمور على مرأى، ومسمع الجميع.

أو أن يجلـــس أحد السياسيين في مكان عام بطريقة توحي بالإساءة إلى الغير، وعدم الاكتراث بالحالة النفسية للجمهور، والاستهزاء بمقدراته[1].

و لم يجـــرؤ أحـــد في زمن صدام "عدا الابنين المدللين" أيضاً أن يدخل نوادي الدرجة الأولى، وتحتك حمايته مع الحضور بشكل مباشر وبما يثير ردود الفعل كما فعل البعض من السياسيين الجدد[2].

إن السلوك الخطأ لبعض السياسيين لا يلغي بطبيعة الحال الصح عند الآخرين الوطنـــيين، ومع ذلك يرده المختصون إلى طبيعة الإنسان التي تحدد سلوكه في بيئة ساعدت على حصوله، داعمين رأيهم هذا بحقيقة قوامها:

في زمن الحكم السابق الذي تم فيه التغاضي عن الخطأ، والتجاوز أحيانا بهدف ممارســـة الإذلال، والسيطرة النفسية على المخطئين، وتسهيل تسييرهم، والسيطرة عليهم بقيَ البعض نـــزيها حتى آخر يوم قبل السقوط.

وفي هذا الزمن الذي يسعى العراقيون أن يكون زمنا للحرية، والعدالة، والمساواة، والنـــــزاهة، وإعادة البناء الديمقراطي بأقل ما يمكن من الأخطاء تحول بعض دعاته إلى مفسدين يسيؤون لإنسانية الإنسان العراقي المتعب، وبقي آخرون نـــزيهين.

---

(1) جلس في حديقة نادي الصيد أحد السياسيين المعارضين لنظام صدام المعروف بكثرة ظهوره علـــى شاشات التلفزيون بعد ظهر يوم 2004/2/16 وحيدا في شمس الشتاء، وعلى طاولته زجاجة ويسكي ينتظر الغداء ومن خلفه اثنان من حرسه الخاص يحملون الغدارات الأمريكية الصنع، وعلى أعينهم نظارات سوداء داكنة، يلتفتون شمالا، ويمينا في حركات يَتَحَدّونَ فيها من يمر قريبا من الأعضاء المنتمين إلى النادي، ويفسحون فيها المجال إلى قائدهم أن يتأمل معنى الانتصار على الظلم في العهد الجديد.

(2) دخـــل أحد السياسيين الجدد ليلة 4 – 2004/6/5 نادي العلوية ليجلس بين الجالسين أو قريبا منهم، وأفراد حمايته الخمسة يشهرون أسلحتهم، وأصابعهم على الزناد يتجولون بين مجاميع الأعـــضاء، والضيوف، وكأن في تجوالهم، وتحركهم، وإهانتهم لمن يكون في الطريق اتهاماً لــــه، وللموجودين من أعضاء النادي، والضيوف أو شكاً في استهداف الأمن الشخصي للسيد المـــسؤول. لقـــد حير الأمر كل من قصد النادي هاربا من هموم الحياة، واضطراب الأمن، وكـــل من تأمل نهاية المأساة في الزمن الجديد، وتحورَ النقاش الجاري فيما بينهم، من التطلع لمـــستقبل أفضل بعد التغيير إلى التفتيش عن الأسباب التي تدفع البعض ممن قاتلوا صداماً، واعترضـــوا على سلوكه إلى ارتكاب أخطاء لم يكن صدام قد ارتكب مثلها أو أخرى لا يقل تكرارها خطورة عن تلك التي كانت ترتكب في عهده السابق.

والمحـــصلة أن ما جرى، ويجري من تجاوزات تسيء إلى الناس، والذوق العام مـــن قبل البعض من السياسيين الجدد ناتج عن قصور في شخصياتهم، وضعف في إدراكهم لجملة من البديهيات العامة منها:

1. أن الأخطـــاء الـــتي ترتكب من قبلهم، وغيرهم سيمهد تكرارها إلى المزيد من التدمير.
2. أن المقاتل الشجاع في ساحة الحرب ضد صدام قد لا يصلح أن يكون سياسيا ناجحا أو قائدا مثاليا.
3. أنهم لم يتعظوا من خطأ الحزب القائد يوم سار على فلسفة قوامها أن للإسهام في التغـــيير الـــثوري ثمن هو التوزيع الشامل للمشاركين فيه على المناصب في معادلـــة لم يـــتمكن منتـــسبوه على أساسها من المحافظة على وجودهم فيها، والحكم.
4. أن أي نظـــام حكـــم لم يكن فيه المسؤولون السياسيون، والإداريون قدوة في التضحية، والاستقامة، وتحمل المسؤولية سوف لن يكتب له البقاء.
5. أن الإســـاءة للآخرين دوامة سوف تتسع رقعتها، وتسهم مع غيرها في تدمير السياسة، والسياسيين(1).

لقد امتدت مواضيع الإساءة كثيرا، وتشعبت جوانبها لمستوى أخلت بطبيعة العلاقـــة بين المسؤول، والرعية، وأساءت إلى الذات العراقية بمستوى من القبح بتنا نـــسمع فيه طوال الوقت أو بات المسؤولون في حكوماتنا يتعمدون إسماعنا أن حيا ســـكنيا كبيرا قد بنيَ، وجسرا بطابقين قد شيِّد، ومؤسسة للصناعات العملاقة قد افتتحت، وجيشا عظيما يقاتل، وحزبا فريدا يكافح، ودولة قومية تحكم، وحكومة وطنية تدير، وإننا الأقوى، والأحسن، والأكبر، والأخلص، والأوفى.

---

(1) إن الحـــزب الـــذي تنتمـــي إليه الشخصية السياسية المذكورة في نادي الصيد لم يحصل في الانـــتخابات التي جرت أواخر عام 2005 على ما يكفي من أصوات لإيصال أمينه العام إلى كرســـي البرلمان رغم كونه أي الأمين العام من المعارضين الأشداء، والقدامى لنظام صدام، وخـــصص للدعايـــة الانتخابـــية الكثيـــر من الأموال، أما المثال الثاني في نادي العلوية فقد أستوزر في أول وزارة، وخرج منها في جعبته أكثر من اتهام بالفساد.

وعند التفتيش عن آثار معظمها يجد المفتشون أنّها شبه معدومة مما يسيء لكلا الطرفين المدعي، والمتلقي في آن معا.

ويكّـــونُ في ذاكرة البعض اعتقاداً بوجود إساءة متعمدة لأن ما يقولونه غير صـــحيح، وما يدعونه هراء، وهم الأكثر مكرا، وغشا، وخداعا، وكذبا من بين الأدعياء.

وبالنهاية دفعوا أبناء البلاد بالتدريج إلى الاستخفاف بكل معتقداهم، وكذلك بمفردات التعظيم، والتكبير، وساهموا في وضعهم نفسيا في حالة الاغتراب، وكذلك في إجـــبارهم علـــى وضع الحكام في خانة المتسلطين فتشوهت بسببهم، والوضع المذكور كثير من المفاهيم، والأفكار، واختلت بعض من جوانب الصحة النفسية.

وفي نفس المرحلة الزمنية جُبِلَ العراقيون على سماع أو مشاهدة حي يقصف، ويقام حي للمسؤولين.

وعمارة تتهدم، وتشترى أكبر منها خارج البلاد.

وأملاك تصادر، وتتضاعف أملاك البعض من المسؤولين.

شباب يدفنون أحياء، وآخرون يرقصون في بيوت الدعارة حتى الصباح.

وتعـــودَّ الأبـــناء أن يناقشوا ببرود انفعالي ثروة تتبدد، ونفطاً يوزع بالمجان، وجيشاً ينتحر في معارك غير متكافئة معظم الأحيان.

وبالنتيجة أسيء إلى معايير الوطنية، وتعززت في السلوك معالم اللا مسؤولية.

وقبلوا المساهمة في قتل الرفيق الذي نطق بالحق وسط الظلم، والاستبداد.

وكتـــبوا تقريـــرا عـــن الجـــار، والصديق، وكذلك القريبين وشاركوا في استعراضات تسويق لجثث الأطفال.

وكرروا الشدو مع الأعلى بالنصر، أكثر من مرة، ومع كل نكسة يبشر فيها بآخر معركة فيها الفرج قريب.

وتعـــودوا السير بين أكوام الزبالة، والعيش على وفق برمجة الكهرباء، وشرب المـــياه الملـــوثة، ومشاهدة الموت، وقصص الاغتصاب، ونتائج الاغتيال، وعذابات الاختطاف.

وتحملـــوا الجوع، والعطش، والعوز، وبرد الشتاء، فكان قبولا، وتعويدا تحت الـــضغط، والاكـــراه، وتكرارا لمشاهدات مفزعة دفعت الكثير منهم بالتدريج إلى الإحساس بالقلق الدائم، والخوف من المجهول.

وتعايشوا بعد ذلك الخوف، والتصدع، والخلل مع مواقف التناقض فيها:

دموع الفرح الممزوج بالحسرة تنهمر مع إنـــزال التمثال.

ومـــشاعر الحزن تدمي القلوب على دبابة عراقية معلمة بعلم العراق تم حرقها بهدف الوصول إلى التمثال.

واستبـــشروا بأجنبي جاء للتحرير، وأسفوا على رجالهم الذين لم يتمكنوا من إنقاذ البلاد.

وشعروا بالخلاص مع كل صاروخ يهدم ركنا في قصر الحاكم الديكتاتور.

وأحسوا بالأسف على ما ضاع من ثروهم، ومستقبل الأجيال.

وشهدوا شهادة زور على قتل الجيش، وبيع أسلحته خردة للمنتفعين، وإماتة الأمـــن، وتسليم خبرته إلى الإرهابيين، واغتيال الإعلام ودفع ملاكاته إلى الصف المقابل من المنتقدين.

فكان تعايشا، وشعورا متداخلا، وشهادات ملوثة تسببت جميعها في الإساءة إلى نهج التفكير، وكونت هدما في الذات العراقية، واضطراباً نفسياً يفوق في مقدار تأثيره في حاضرنا، والمستقبل كل الهدم الذي حصل في البنى التحتية المادية.

ســـيحتاج إلى إعادة ترميمه وقتا، ومبالغ تفوق كثيرا ما رصده العالم لإعادة البناء.

ومع كل هذه المؤشرات للفوضى، والتداعيات النفسية لم يتحرك أحد في هذا الجيل ليسأل عن مرحلة ما بعد الفوضى، والاضطراب؟

أو ما ستؤول إليه الأمور بعد هذا التمادي في الخراب؟

وإن سأل فسوف لن يحصل على الجواب.

لأن المعنـــيين، وبـــدلا مـــن تقديم الحل، والجواب هرولوا إلى الأمام خلف أهـــوائهم، ومطالبهم، وتطلعاهم في شارع كئيب دون أن يفكروا بمستوى التلوث في النفوس.

وزادوا من شراء دروع واقية للشرطة، وأفراد الحمايات، قبل أن يحسبوا ما في داخل الشرطة من إساءة تضعف المعنويات.

هذه جميعها، وأخرى غيرها إساءات، وإن كان البعض منها غير متعمد يمكن وضعها ضمن أنواع الفساد الاجتماعي الذي لم يدرك طبيعته المسؤولون، ولم يحسبوا ما يمكن أن يتركه من خراب في النفوس يصعب قياس آثاره على المدى البعيد.

المبحث الثاني

المحاباة

اتّسمت المرحلة التي سبقت التغيير بالتفرد في القرار في الأمور المهمة، وبينها ما يتعلق بالأمن، والعسكر تنظيما حيث الارتباط بالرئيس شخصيا، وإدارةً حيث الاختيار في أعلى مفاصلها واحد من بين أفراد العائلة الممتدة أو الموالين له، وكان يُعَيّنْ لمعاونتهم خبراء، ومتخصصون، مهنيون مشهود لهم بالكفاءة، والإخلاص، ويدفع إلى تقويتهم، ومنحهم الصلاحيات اللازمة بقصد التأمين الجيد للنظام، وقد نجح في هذه الغاية لحين مواجهته الدولة الأقوى في العالم فقوضت كل أعمدة أمنه، وأُسسها المهنية، وبالمقارنة بين تلك المرحلة، وما بعدها في هذا المجال يجد من يقارن أن الحكومات المتعاقبة، وبموافقات أمريكية توجّهت لتشكيل دوائر أمنية، ومؤسسات عسكرية مهمة، وأمرت في إيكال قيادتها للمقربين حسب مقتضيات الحصة، وتلتفت إلى ضرورة تطعيمها بالخبراء والمختصين[1] في غالب الأحيان. إن الطريقة التي كانت متبعة في موضوع الأمن والعسكر لم ينكر أحد

---

(1) يمكن الإشارة هنا إلى أن مسألة عدم تطعيم الأجهزة والمؤسسات الأمنية والعسكرية بالخبراء الاختصاصيين، والكفاءات المهنية في الوقت الراهن لا يمكن تعميمها على الجهاز الوطني للمخابرات التي حرص الأمريكان المشرفون على تشكيله بعد التغيير على جلب بعض منتسبي المخابرات السابقين إلى صفوفه خاصة في الشعب، والأقسام التي كانت تتعامل مع موضوع إيران، أما باقي الأجهزة، والمؤسسات فلم يلتفت أحد إلى موضوع الاختصاص أو يرغب بوجودها لاعتبارات تتعلق بالمسائل الذاتية لمن مسك القيادة العليا في مجالها حتى بعد ما يقارب الثلاث سنوات، والنصف بعد تشكيل معظمها.

أنهـــا أسهمت في الماضي بفرض هيبة الدولة، وبسط سيطرتها على المجتمع بالقوة المفرطة لعشرات السنين، وهي في الوقت الحاضر طريقة تسهم في إضعاف الهيبة، وإشاعة الفوضى، وقد تُسرع إن لم يتم تدارك الخطأ في مجالها في حدوث الانهيار، والـــسبب بطبيعة الحال يعود إلى شكل السلطة التي تشرف على الأجهزة الأمنية، فهي في السابق كانت مركزية، بيد الرئيس شخصيا أو من ينوب عنه من القريبين إلـــيه القادرين على مراجعته في كل الأوقات، بينما في المرحلة التي أعقبت التغيير أصـــبحت بأيدي أطراف متعددة دفعت الظروف أن يعتقد كل طرف منها أنه الجهة المؤهلة أن تبت في الأمر، وهي المرجع لما يبت به فتشتت القدرة، وقل فعل الـــتأثير. إن العراق في هذه المرحلة واجه وما زال يواجه أزمة حشد الجهد لكل الجماعـــات الموجودة، ويواجه من خلالها أزمة اختيار الأشخاص المناسبين لبعض الأمـــاكن المناســـبة لـــيس في مجال الأمن، والجيش وإنما في كل مفاصل الإدارة المهمـــة[1] بسبب التسابق الجاري بين الكتل، والأحزاب للتنسيب على أسس لا صـــلة لها في أحيان كثيرة بركائز الاختيار، والتصنيف المتبعة في كل دول العالم مثل:

1. التاريخ الوظيفي الذي يمكن التأسيس عليه في حساب السلب، والإيجاب.
2. الكفاءة الشخصية التي يتم الرجوع إليها في موضوع تقييم الأداء.
3. الخبرة العملية التي يشار إلها في موضوع الإنجاز.
4. الولاء المفروض للوطن الذي يمهد إلى الحيادية المهنية.

---

(1) مـــع بدايات تأسيس الدولة العراقية في عشرينات القرن الماضي تأسس مجلس الخدمة بتنظيم بـــسيط تطور مع مقتضيات العصر، والحاجة إلى الاختيار الصحيح للتوظيف، وتأمين اكبر قـــدر من العدالة فيه، واستمر العمل به منذ العهد الملكي إلى الجمهوريات المتعاقبة، وآخرها في عهد صدام الذي أوقف العمل به في ثمانينات القرن الماضي بعد أن أخذ الحزب، وديوان الرئاسة على عاتقهما البت في خطط التأهيل، والتوظيف على أسس كان بينها الولاء الحزبي علـــى أعلى قائمة المتطلبات، وبعد التغيير لوحظ ارتباك واضح المعالم في عملية الاختيار، والتنـــسيب إلـــى الوظائـــف الحكومية التي تحول الأمر فيها إلى ما يشبه السباق بين الكتل، والأحزاب، ومع ذلك قدم أساتذة، ومختصون، وكذلك أحزاب مشاريع لإعادة العمل بالمجلس المذكـــور ليعيد تنظيم العملية، ويحول دون الارتباك، لكن الحكومات التي جاءت جميعها لم تعر الموضوع اهتماما لأنها جزء من عملية السباق.

وهـي ركائـز قد استبدلها المتسابقون مع بدايات تشكيل الأجهزة الأمنية، والعسكرية بمعايير الإملاء الحتمي للشواغر المتاحة على أساس الرفقة من الحزب، والحـركة، أو الإخـوة مـن الطائفة والقومية تعزيزا لمبدأ المحاباة في تقاسم التركة لـوارث مـشهور بالتقتير. واحتمالات شعورهم بالحيف أو الحقد على الحاضر، والمستقبل، أو تناسي وهم في لجة المحاباة.

إن المـشكلة اليوم ليست فقط في الجري السريع، والقبول المستسلم للواقع الـذي دفع لقيادة أول رئاسة أركان للجيش الجديد على سبيل المثال ضابطاً لم يتخـرج مـن الأركان، ولم يعمل آمر فوج طيلة خدمته العسكرية التي قضاها مترجما.

ولا بتعيين سفير للعراق في دولة أجنبية لم يكمل الدراسة المتوسطة.

ولا بمـنح شـرطي لم يجتز الدراسة الابتدائية رتبة عقيد، وتعيين عقيد خريج الكلـية العسكرية برتبة نقيب التي حصلت جميعها نتيجة المحاباة، والظلم الموصوفة سابقا، وبسببها، وجملة أخطاء في سياقها ضاعفت من عدد المشاكل، والمعاناة التي باتت تواجهها الدولة، والمجتمع متمثّل بعضها بالآتي:

1. معـالم اليأس، والإحباط بين شرائح المجتمع المختلفة التي باتت تسببها المحاباة، والـتي لم يـدرك السياسيون الجدد آثارها المستقبلية على وضعهم السياسي، وعلى حاضر العراق ومستقبله.
2. وَهـمُ القرابة التي يعيشها البعض من المتسابقين، والتي شَكَتْ عائلة صدام من خيانتها بعد صدمة التغيير.
3. وَهـمُ التعنـصر الطائفي، والقومي الذي أُقحم في معادلة الحكم، وتسبب في نشوء الاحتقان، والتناحر، وعيش البلاد في دوامات محن خطيرة.

إن المحابـاة دوامة يصعب تجاوز آثارها حاليا وسط هذا التناقض، والتعقيد، ويصعب صياغة الحلول الفوقية لها إلا إذا أدرك علية القوم، وبينهم السياسيون هول آثارهـا، وقادوا توجها للخروج من طوقها، والتوجه بدلا منها إلى إدارة الدولة، والمجـتمع تـبعا لمـبادئ الحاجة الضرورية للاستفادة من كل الطاقات النـزيهة الميسورة، والتي تنفع وحدها في إعادة البناء، والتعمير.

إن التفـــضيل، والتقـــريب تيمنا بالمحاباة التي وُجدت أسسها قبل التغيير، وشـــاع العمل، والتعامل بها بعد التغيير وسَّعتْ هامش الانحراف عن الأهداف الـــتي تـــسعى الحكومة إلى تحقيقها بضوء برامجها الانتخابية، والحاجات الآنية، ووسمت عملها من نواح أخرى بعدم التجانس، والإنسجام نظرا لكثر الجماعات التي تحابي، والمطلوب محاباقما، وتشعب أهدافها الخاصة على حساب الهدف العام للدولة.

وهذا أمر يحدث على العكس من المألوف في العمل السياسي إذ وعندما تتخذ دولة ما على سبيل المثال قرارا لخوض معركة سياسية بالضد من دولة أخرى يعمل كـــل المعنـــيين في جهازها بالاتجاه الذي يقوي موقف الدولة في موضوع المعركة المذكـــورة، وتستنفر كل القدرات الموجودة لتصب جميعها بما يضمن حشد الجهد لـــنجاح تلـــك المعـــركة لـــصالحها، وبأقل الخسائر من مصالحها، وتستثمر كل الإمكانـــات المادية، والطاقات البشرية المتاحة من أجل التأثير في المعركة السياسية باتجاهين:

الأول إيجـــابي قـــوامه دعم أفراد الطاقم السياسي، ومنتسبي الحكومة ماديا، ومعـــنويا لـــيكونوا بمسافة اقرب إلى تفكير، وتوجهات الشخص الأول في سلسلة إصدار القرار، وأن ينفذوا بمستوى أداء أحسن لأوامره.

والثاني سلبي مؤداه العمل على تقليل معنويات أفراد الخصم، وتدمير قدراقم المادية ليدفعهم أن يكونوا بمسافة أبعد عن رغبات، وتوجهات مراكز قرارهم، وأن يؤدوا بمستوى أقل كثيرا من متوسط أدائهم المعهود.

وهـــذا موضـــوع لم تتنـــبه إليه الدولة، و لم يدرك تأثيراته السياسيون بسبب تفـــرقهم إلى جماعـــات تُحابي أو تُحابى، إذ وبدلا من أن يتوجهوا إلى حشد كل الجهود المتاحة من داخل الجماعات، وخارجها. ويوحدوا مواقفهم المعلنة من قضايا بات الحسم فيها أمرا صعبا. والانسحاب من ساحتها انتحارا مؤكدا.

تـــوجه البعض منهم إلى النقيض من ذلك، والعمل بمعيار الفرقة التي نفخت فيها المحاباة، والولاءات المجتزأة، وأكبرت المسافة فيما بين جماعاقما لتكون في داخل كل واحدة منها أهداف غير أهداف الدولة. ورؤيا غير ما تراه الدولة.

حسابات خارج حسابات الدولة.

إن هـــذه الفـــرقة في الأهداف، والتناقض بين الجماعات السياسية المتنفذة في المـــصالح، والغايات، وكذلك في الأهداف المطلوب تحقيقها أدت بالمحصلة إلى عدم الاســـتفادة من الإمكانات المتاحة للبلد في التعامل مع أزمات "دوامات" شديدة، وهو الأمر الذي لا يمكن تفسير حصوله في مجال:

1. الاخـــتلاف الشرعي للأفكار في مجتمع يعيش أهله حالة من التشتت، والتناحر تفوق آثارهما تأثير الاختلاف(1).
2. الـــتفاوت الطبيعـــي للاجتهاد في وقت يجتهد فيه الجميع دونما فائدة من تعدد الاجتهاد.
3. عملٌ في الديمقراطية، والديمقراطيون يتوحدون مع رأي الحكومة في الأزمات أو يتركون مواقعهم لمن يؤيدها عمليا.

مما يدفع إلى القول إن فعل الفرقة الذي يسير عليه أعضاء الحكومة أو بعضهم تجنياً على أحد مبادئ الحزب والسياسة تفسر إحدى غاياته بالسعي الحثيث لمحاباة الجمهـــور في التقـــرب من المعني في الحزب، والكتلة سعيا لكسب التأييد، ومن ثم تكـــوين جمهـــور يُكبرْ الحزب في الشارع، ويؤمن له الأصوات اللازمة للفوز في الانـــتخابات دون أن يدركوا أنهم بتناقضاتهم هذه قد يرهقون الجمهور، ويدفعونه لأن يكون غير قادر على منح صوته لهم منطقيا.

(1) إن أكثـــر الأمثلة وضوحا لاختلاف الأهداف، والرؤى بين الجماعات بعيدا عن أهداف الدولة مـــا جرى في التعامل مع موضوع إيران، وعلاقتها بالوضع العراقي، والموقف منها بعد أن تبين، وعلى مستوى العلن: أن وزيرا في الحكومة يضعها في مصاف العدو الأول، ويضعها آخـــر فـــي نفس الحكومة من بين الأصدقاء الحميمين المطلوب تقوية أواصر العلاقة معهم. فيدفعان كلاهما الأول، والثاني والموجودان في الحكومة نفسها إلى وضع حكومتهما في حالة الحـــرج السياسي، ووضع الشعب برمته في تناشز معرفي. وكذلك في موضوع الموقف من المواجهات العسكرية التي تحصل أحيانا مع جيش المهدي إذ يتبين في مجاله: أن البعض من الوزراء يصفون أفراده بجماعة من الخارجين على القانون ينبغي القضاء عليهم بكل الوسائل المـــتاحة. فـــي حين يحاول وزراء آخرون في الحكومة ذاتها الاحتجاج على استخدام القوة بالـــضد مـــنهم، والدعـــوة مـــن موقعهم إلى الانسحاب من المعركة الدائرة معهم إلى خارج ســـاحتها. فيتسببون بمواقفهم هذه بضرر معنويّ للمقاتلين في ساحة المعركة، وإحباط نفسيّ لعموم المواطنين.

المبحث الثالث

التزوير

كثــر الحديث في أدبيات المعارضة العراقية قبل التغيير عن الديمقراطية حتى تخــيل الكــثير أن مشكلة العراق أصلا في التعبير اللفظي للديمقراطية، وخسرت حكــومة صدام المعركة وسقط العدو اللدود على يد أكثر الدول إيمانا بتطبيقاتها العملية، فتقدم السياسيون المنادون بها ليحتلوا المفاصل العليا في الدولة سعيا منهم "حسبما يفترضون" لتطبيقها "الديمقراطية" بطريقة التقليد، والاتكاء على الأجنبي في التنفــيذ فوجدوا أخطاء في التطبيق أوصلت إلى حكم البلاد تشكيلات مختلفة المــصالح، والتطلعات تمتد من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين مرغمة على العمل معــاً تحت فرض التوافق بدءًا من المنادين بتطبيق الشريعة الإسلامية سبيلا وحيدا للخــلاص، إلى العلمانيين الذين لا يؤمنون بتدخل الدين في السياسة، والقوميين العــرب الــذين يفكــرون بأمجــاد الأجداد إلى غيرهم من الكرد، والتركمان، والآشوريين، والكلدان الذين يعتقدون بأولوية العراق وإلى المناضلين الذين ضحوا فعلا من أجل التغيير إلى الوصوليين الذين أقحموا في المعادلة كنوع من التزويق ثم من الشيعة الذين يعتقدون أنهم ظلموا لعشرات من السنين إلى السنة الذين يخشون احتمالات الظلم في العهد الجديد، وهكذا تشكل تركيب غير متفاعل في الحكم، مــثل فتقا في عباءة الديمقراطية المهلهلة، وبدلا من أن يُرتِقَّ أولئك غير المتفاعلين الفتق توجهت أكثر من مجموعة منهم إلى تقوية جبهتها بما يمكن الحصول عليه من الــداخل(1)، ومــا يمكن كسبه من الخارج، لقد توزعت التركة بواقع الحال بين جماعات محددة توزيعا غير عادل، والمواطنون العاديون يتفرجون على مآلها فكان

---

(1) عــندما تــتاح الفرصــة لمراجعة وزيري الدفاع، والداخلية في مكتبيهما يمكن أن يصادف المــراجع عنده أو في غرفة مدير مكتبه بعض ممثلي الكتل، والأحزاب المشاركة في الحكم "عــدا الأحــزاب الكردية" وهم يحملون أضابير تحوي قوائم أسماء يراد إعادتها إلى الخدمة حــسب قانــون الــسياسيين، وآخــرين مفقودين يراد منحهم الحقوق التقاعدية، وقوائم ثالثة لأشــخاص يــراد تعيينــهم في سلك الشرطة أو الجيش، ومن يستغرق وقتا أطول في زيارة الوزيــرين قــد يــسمع خلال جلوسه نداءات من رؤساء كتل سياسية، وأحزاب لتعزيز تلك الطلبات مع إيحاء بضرورة تمشيتها، وقد يستنتج في أثنائها ضجر الوزير.

تــوزيعا بائــسا شكل طعنة في خاصرة الديمقراطية الواهنة، وبدلا من أن يعترفوا بالخطــأ، ويحتــرموا حاجة، وإنسانية باقي العراقيين، سارعوا الخطى إلى الأمام حاملين معهم أكداس الخطايا، والآثام حتى وصلوا الاستحقاق الثالث للديمقراطية أي المؤتمر الوطني عام 2004 الذي أراد له الأمريكان، وبعض السياسيين أن يكون خطوة في الطريق إلى تعلم الديمقراطية، فحدث العكس من ذلك، إذ وبدلا من أن يــتوجهوا دعــاة، ومتحمــسين إلى التطبيق البسيط للانتخاب في مجاله كأساس لترسيخ دعائمها الأولية تعمد:

1. مسلم من بينهم ينادي بتطبيقات الشريعة الإسلامية في الحكم كما كانت قبل آلاف الــسنين وتــوجه إلى تزويــر الانتخابات التي يشرف عليها في إحدى محافظات الجنوب بغية ترجيح كفة جماعته.
2. عــضو سابق في مجلس الحكم لا يقل عن الأول حماسة في التطبيقات الشرعية وأغلــق كافــة الأبواب المؤدية إلى قاعات الانتخاب في محافظة أخرى يشرف عليها ليفتحها بعد منتصف الليل لمنتسبي تنظيمه السياسي.
3. تنظــيم سياسي واسع الانتشار تشكيل تنظيمات رديفة لتنظيمه بهدف احتكار الأصوات.
4. مــشرف على الانتخابات في محافظة إعلان أن الصراع بين القوى، والأحزاب داخل المحافظة غير منطقي، وأن تمثيل أهل المحافظة الذي أفرزته الانتخابات غير مجــد، فاســتعاض عنه أي الانتخاب بالقرعة، وسيلة أفضت فقط إلى وصول المحسوبين على حركته السياسية.
5. تكــتل سياســي معروف التهديد باستخدام السلاح في المحافظة إذا لم يقتصر التمثيل فيها فقط على جماعته.
6. مــشرف في محافظة أخرى إرسال حقائبه إلى بغداد مقفلة، وعاد ليحتكم إلى المــسؤولين فيها لحسم الخلاف الذي أثارته أحزاب معينة فوجد أن حقائبه قد فقدت، وفيها كل الاستمارات الأصلية للترشيح.

إن مــا جــرى في هذا الموضوع وبضوء تلك الأحداث يمكن تفسيره بتزوير سيميت الديمقراطية، وجريٌ لتحقيق مكاسب سياسية غير شرعية في خضم أحداث

أنــستهم حقــيقة كون المكاسب التي حصل عليها من قبلهم سياسيون في العهد السابق بنفس الطريقة لخمس وثلاثين سنة لم تمكنهم من الوقوف بالضد من التغيير لأيام معدودات.

إن دوامـــة التزوير شاملة تتعدى مسألة الانتخابات إلى كل المجالات[1] حتى أخــذت مناحي مختلفة بينها التحوير، والفبركة التي شاعت كثيرا في هذه الأيام إذ نرى على سبيل المثال وبعد أن أنصفت الحكومة المتضررين من نظام الحكم السابق "حــسب المصطلح الجاري" بإعادة حقوقهم تعيينا في دوائر الدولة لمن لم يكن قد حصل على وظيفة كان يستحقها في حينه، واحتساب الفصل من الوظيفة التي كان يشغلها لأغراض الترقية، والتقاعد لمن كان موظفا، وإنصاف لمظلوميتهم باعتبارهم متــضررين، وقــد حددت الحكومة ضوابط لإثبات الضرر، وتاريخا لانتهاء هذه العملية، وهذا حق لها في إدارة الموضوع إدارة صحيحة تمهد إلى قدر من الإنصاف، لكن الذي جرى:

1. استثارة لكل من في مخيلته فكرة يمكن توظيفها في مجال الاستفادة من القرار.
2. جــري نحـــو الفرصة السانحة لمن ترك الوظيفة في سبعينات القرن الماضي لعدم جدوى الاستمرار بها اقتصاديا بالمقارنة مع ما يقدمه القطاع الخاص في حينه.
3. عـــودة مـــسرعة إلى الدوائـــر القديمة بعد أن تحسن الدخل المعاشي الشهري للمـــوظفين بعـــد التغـــيير، تُنبش فيها السجلات بعد الدوام الرسمي، وتخرج الأوليات في المساء خارج أوقات الدوام الرسمي لتُثبتُ فيها ملاحظات محددة أو تقيـــيمات خاصـــة تفيد أو تدعم المعنيين في طلب الإعادة السياسية لقاء ثمن مدفوع في غالب الأحيان.

---

(1) إبـــان العهد السابق كانت هناك في مدينة الثورة "الصدر" شوارع بعضها متخصص بتزوير شهادة الجنسية العراقية، وأخرى لبطاقة الأحوال المدنية، وثالثة للشهادات الجامعية، وأخرى لجوازات السفر وباقي الوثائق الحكومية عجزت أجهزة الحكومة آنذاك ورغم مقدرتها الفنية العالـــية عن السيطرة على أنشطتها المتشعبة، والتي امتد كثير منها إلى ما بعد التغيير بتوسع اكبـــر بدأ بعرض علني على الأرصفة للكثير من جوازات السفر، وأرقام السيارات، وشهادة الجنـــسية، وبطاقات الأحوال المدنية، والوثائق الحكومية المتعددة الجوانب في الباب الشرقي ببغداد، وعديد من الساحات، وعلى أرصفة الشوارع.

4. الــتوجه إلى الأحزاب السياسية بمختلف أيديولوجياتها، وأهدافها لغرض إغواء مــن في الإدارة بالحــصول على كتب تأييد نضالي مفبركة لقاء ثمن، حتى أنّ بعض الأحزاب حددت قيمة الكتاب في مثل هكذا حالات بمائتي دولار، وقد تــزيد أو تــنقص حسب مكانة الأحزاب، ومدى معرفة قياديها لما يجري في ذاتــيات أحــزابهم أو تــوجه عن طريق الانتماء بطريقة الرغبة العارمة لخدمة الدولة، والحزب، لكنه بطبيعة الحال، وقد أثبتت الوقائع أنه انتماء في كثير من الأحيان مؤقت أو مرهون بالحصول على كتب تأييد من تلك الأحزاب بطريقة الفبركة السياسية المقننة لمواقف نضالية بالضد من النظام السابق كثير منها غير موجود في الأصل(1).
5. المــراجعات الحثيثة لدوائر، ومؤسسات وزارة الدفاع للعديد ممن ترك الخدمة العسكرية يوم اشتد القتال في حروب كثرت فيها أعداد القتلى، والإصابات في ثمانينات القرن الماضي وما بعدها، و لم يجد البعض بداً من النجاة فيها آنذاك إلا التوسط أو التحايل على القانون، والخروج من الخدمة العسكرية لأسباب تتعلق بعــدم الكفاءة، أو الزيادة على الملاك، وتيقنوا ما بعد التغيير أن الفرصة مثالية لــتعديل رواتــبهم، فتوجهوا إلى الوزارة، وبأيدي الكثير ما يؤيد إضطهادهم سياسيا بعضها مفبرك في الأصل.

لكــن الهــرولة لم تكن باتجاه الداخلية، والدفاع فقط بل وامتدت باتجاه كل الــوزارات لتثبــيت المواقف قبل انتهاء فاعلية القرار، وكذلك باتجاه من أعدم أو سجن أو سفر من العائلة ليستنسخ ابن العم، والخال، والخالة، وأبناء أبنائهم شهادة

(1) في وزارة الدفاع شكلت عام 2005 لجنة خاصة لدراسة موضوع تنفيذ قرار مجلس الوزراء الخــاص بالمتــضررين الــسياسيين، وقامت بالبت في كثير من المعاملات، ومنحت رتباً، ورواتــب، وأحالــت على التقاعد حسب بنود القرار، وصدق عليها الوزير بأوامر وزارية، ويــبدو أن لكثــرتها، وحصول تجاوزات، وفبركة في مجالها أعيد تشكيل اللجنة عام 2006 حسب قرار جديد لمجلس الوزراء، وقامت بإعادة دراسة الكثير من الأضابير، وألغت العديد مــن القــرارات الخاصة باللجنة السابقة، وبأوامر الوزير السابق، ومع ذلك فاللجنة الجديدة تتعرض إلى ضغوط شديدة من قبل الأحزاب، ولو أتيحت الفرصة للتدقيق في قراراتها سيجد المدقق أن معاملات ليست قليلة ينبغي أن يعاد النظر بها للمرة الثالثة.

وفـــاة الشهيد المعدوم أو مقتبس حكم المظلوم، ويعود مهرولا بها إلى الجهة المعنية مؤكدا أنه من المتضررين بسبب القرابة، وتعامل النظام السابق مع درجاتها السبعة، متناســـيا تلك البراءة من الشهيد التي قدمها للأجهزة الأمنية يوم إعدامه، والتهرب مـــن واجـــب الـــزيارة للمظلوم يوم سجنه، والإهمال المتعمد لواجب السؤال عن المنكوب يوم تسفيره.

إن الفـــبركة التي حدثت، والهرولة التي جرت في هذا الموضوع احتوت على عديـــد من المفارقات التي تخل بوضع الدولة، وأساليب إدارتها مثل الكذب الصريح علـــيها كجهـــة معنية بتنفيذ قرارات الإعادة السياسية، وكذب على المؤسسات السياسية المعنية بالترشيح للتمتع بفوائد هذه القرارات، وكذب من بعض الأحزاب علـــى الدولـــة، والتوسع في موضوع الكذب دوامة تربك الإدارة، وتقلل من هيبة الدولة.

التزويـــر المـــتعمد لوثائـــق ثبوتـــية، ومستندات أصولية من قبل الأشخاص المـــستفيدين، والأحـــزاب الـــتي تهدف إلى الاستفادة، والتزوير من الجرائم المخلة بالشرف قانونيا.

الإهانـــة العمديـــة للنضال الذي سقط على أعتابه الشهيد، وتقليل من قيمة العمـــل الذي أعدم بسببه الشهيد عندما يستخدم اسمه وسيلة للغش بقصد الحصول علـــى ما لا يمكن الحصول عليه في حال عدم استخدام اسمه الذي يفترض أن يبقى نجما ساطعا في كل الأحوال.

الـــضحك المفـــرط على ذقون أهل، وأقرباء الشهداء، والمتضررين الذين يتم الاتكاء على أسمائهم في الفبركة، والتزوير، والضحك على الدولة التي تُستَغْفل علنا في هـــذا الموضـــوع، إذا ما وضعنا في الاعتبار أنه وبعد إنجاز مثل هكذا معاملات عادة ما يتفاخر المعني بإنجازها بطريقته للفبركة، والتزوير.

وفـــيها أيضاً خسائر للدولة التي تكون ملزمة بدفع الزيادات مليارات الدنانير من ميـــزانيتها، وتكـــديس لآلاف الموظفين في بطالة مقنعة وهي في الطريق لإعادة البناء، وإجحـــاف بحق المتضررين الحقيقيين لأن كثرة الطلبات تضعف القدرة على التدقيق، وتقلل من فرصة الوصول إلى الحقيقة التي بات تزويرها أو فبركتها من أسهل الأمور.

لقــد أدت الدولة ما عليها من التزامات يوم أصدرت قرار الإنصاف، وبقي التــزام المواطن نحوها ناقصا، أو مختلا عندما سلم ذوو الشهيد شهادة الوفاة لمن لم يكــن متــضررا بالفعل، وزود الحزب كتب تأييد بذلك لغير المستحقين، وقبلت معــاملات غــير أصولية، وأجريت وساطات غير قانونية، حتى باتت هذه المسألة الإنــسانية التي أريد لها أن تنصف، وتعيد الاعتبار، سبيلا لفساد سوف لن يتوقف الــضرر بــسببه عند تحميل الدولة عبئاً مالياً، بل وسيمتد ليخل بالمعايير القيمية، والإنــسانية لمجتمع مطلوب منه أن يُوجد قيماً عليا للأمانة والالتزام، ويرمم أخرى للاســتقامة، والــصدق، والاحتــرام تــساعده في عملية التحول، والانتقال إلى الديمقراطية.

المبحث الرابع

التجهيل

احتج طالب على أستاذ جامعي في علم الاجتماع بكلية الآداب جامعة بغداد عــام 1969 بــسبب محاضرة انتقد فيها ذلك الأستاذ القدير بعض معالم السلوك البدائــي عــند العرب، فأشاد التنظيم الحزبي بالطالب، ونقله من مؤيد إلى نصير، ووضــع في ذات الوقت علامة سوداء على الأستاذ تسببت في إحالته على التقاعد قــبل بلــوغه السن القانونية بعشر سنين فكانت الخطوة الأولى في طريق التجهيل، وتــردي العملية التعليمية في العراق لمستوى باتت فيه الجامعة بعد عدة سنوات من ذلك التاريخ تخرج شباباً غير متمكنين من تخصصهم، غير آبهين بوطنهم.

ورَفــعَ عريف فصيل في الجيش تقريرا عن آمر فصيله بعد ذلك التاريخ بعشر سنين يتهمه بالخيانة، والتقصير بسبب عدم موافقة الضابط الشاب على ترك الجنود ســاحة الــتدريب قــبل الوقت بغية التهيؤ للمشاركة في احتفالية المولد الخاصة بالــرئيس، فمُنحَ العريف رتبة أعلى وأحيل الضابط على التقاعد، فبدأت خطوات مؤدلجة لتحوير أسس الضبط، وتحريف معاني العلم العسكري في التهيؤ، والتدريب حتى أضحى بسببها، وأمور أخرى العقيد عامل بناء، والعميد سائق تكسي انتهت في داخلــهم معاني المهنية العسكرية، وحَجبَ فلاح أجير في مزرعة القيادي الحزبي

الماء عن أرض جاره الفلاح الفقير ليروي بها أرض سيده المتخم فتخلفت الزراعة، وضاعت معايير المواطنة، وَهجرَ آلاف المزارعين أرضهم إلى المدينة ليزيدوها بؤسا، وتخلفا.

كل ذلك، وغيره قد حدث في الثلاثين سنة الماضية، وأسهم مع عوامل أخرى في زيادة مساحة الخطأ، والتمادي في حصوله، والجهل بالحقوق، والواجبات، والالتزامات الوطنية التي مهدت إلى قبول فكرة التغيير، وتمني حصوله، والاتكال على الغير في تنفيذ الفكرة بعد أن بقيَّ الطالب، والأستاذ، العامل، وصاحب العمل متفرجين على ما يجري، بل ومتمنين أن تنتهي الحقبة المرة، وتبدأ أخرى أكثر فائدة لهم، وللأجيال من بعدهم، وإن لم يدركوا أبعادها بسبب سعة التجهيل.

وانسحب العسكري من ساحة المعركة دونما قتال عسى أن تعود للضبط سطوته، وللجيش سمعته الطيبة، وللعلم العسكري مقدرته كما كان في السابق، وإن لم يعِ تبعات الانسحاب بسبب قلة معرفته ببواطن الأمور.

واستغل الفلاح الذي يتضور جوعا موقف السقوط، واستباح المزرعة التي يعمل فيها، والمجاورة لها ثمنا لإفقاره طوال تلك السنين، مؤكدا نهاية الظلم ولو بعد حين دون أن يفهم أثر التجاوز، والاستغلال على تكوين الفوضى التي ستجبره وأهله على ترك المزرعة، والمنطقة بسبب توجهات التطهير.

لقد حصل التغيير الذي يحتم المنطق حصوله، ومر العراقيون بمراحل تفكير، وأنواع سلوك شابها التمني مرة، والقلق والاضطراب مرة أخرى، وهم في هذه الفترة الحرجة خرج من بينهم من يسلك ذات السلوك المؤدي إلى التجهيل، ولو بعناوين غير العناوين السابقة، إذ يشكو طالب علوم رئيس قسمه إلى الجهة المسيطرة على الجامعة لأنه لم يبدأ محاضرته في الكيمياء الحيوية بالبسملة، ويقابل موظف في إحدى الوزارات عراقيين محتاجين وظيفة من أجل العيش فيسألهم قبل القرار على قبولهم في الوظيفة المرتقبة عن الطائفة التي ينتسبون، ويقدم ضابط شرطة طلبا للعودة إلى الخدمة بسبب فصله منها سياسيا، فيشير عليه من يستلم الطلب بضرورة الانتماء إلى الحركة السياسية المعنية خطوة أولى قبل القرار بالعودة دون أن يعوا ومرجعهم أن:

1. الطالب على خطأ لأن التدخل بهذه الطريقة تحجيم لحركة الأستاذ ويمهد لمزيد من التجهيل. ولأن الالتزام الديني لا يأتي بالتهديد والاكراه، ولا يفتح آفاقاً جديدة لعلم لا يتعلق بجوانب الشريعة، والدين، والحملة الإيمانية التي أوجدت في السنين العشر الأخيرة قبل التغيير لم تمنع عموم العراقيين من الوقوف ضد الحاكم الذي أمر بتعميمها رغم فرضه تدريس المفردات الدينية، وبنائه مئات الجوامع في عموم العراق.
2. الموظف قصير النظر هو أيضاً على خطأ لأن الشعور بالظلم لا يعوض بظلم الغير، وتحميل المسؤولية الوظيفية، وإعادة البناء إلى طائفة واحدة يعني نشر الجهل، والتخلف بين أبناء الطوائف الأخرى، وهو أمر لا يمكن أن يحمي أو يبني العراق.
3. بعض منتسبي الحركة أو الحزب الذين أتيحت لهم فرصة المشاركة بالحكم، وتسلّم بعض المسؤوليات القيادية التي تؤهلهم الإشراف على جوانب الحكم كذلك هم على خطأ لأن أساليب الضغط غير المباشر للانتساب إلى جانبهم ستجلب لهم الانتهازيين، والوصوليين غير العقائديين، وتفتح في صفوفهم أبواب الجهل التي تسهم في أفول نجمهم لأنها لا يمكن أن تزيد من رصيدهم في قلوب العراقيين.

لقد انتهى حكم البعث للعراق في 2003/4/9 بالقوة، وزاد الأمل في أن يتمتع الشعب بالحرية المسؤولة، ويعيشوا نعمة الأمن، والرفاهية، وَمنّوا بذلك أمنيات اختير لتحقيقها "مجازا" عراقيون من خلال المشاركة في الحكم بمرحلته الأولى مجلس الحكم والثانية "الحكومة المؤقتة، والثالثة المنتخبة مؤقتا، والرابعة المنتخبة لأربع سنوات، لكن العراق الذي وُضع فيه الوطن، والمواطن على حافة بركان لا فائدة في مجاله في الوقت الحاضر على أقل تقدير من مناقشة الطبيعة الأساسية للأمنيات، ولا جدية تحقيقها، لأن جسامة الأحداث، وتفاقم الأزمات يحول دون ذلك منطقيا، وبدلا منه، ولتجاوز التيه في مسالك الجدل يمكن التوجه لتقييم تطلعات، ورغبات البعض من الّذين اختيروا لمناصب الحكومة العليا فيما إذا كان مناسبا لتحقيق الأمل في حياة أفضل للعراق، والمساعدة على تجاوز فترة التجهيل التي

دامت منذ العام 1980 إلى 2003 واستمرت، وما زالت مستمرة إلى 2007، والتقييم الذي يعطي تصورا في هذا المجال يتعلق بخطوة الاختيار التي اتخذت في العملية السياسية كبديل عن الانتخاب عامي 2003، و2004 وفي مرحلتيهما الأولى مجلس الحكم، والثانية الحكومة المؤقتة يمكن الجزم على أنهما غير موفقتين بسبب اعتماد الحصة التي جلبت ممثلين عن الأحزاب، والحركات من الدرجة الثانية، والثالثة بطريقة تكليف لم تأخذ بالاعتبار الجانب المهني، والعلمي، وهذا بدلا من أن يساعد الحكومات المتعاقبة لتتقدم نحو الأحسن، ورأب الصدع الحاصل في جوانب المعرفة، والرقي، والتطوير الاقتصادي، أسهم في تفاقم الخطأ الذي زاد مستوى التجهيل دوامة أخرى[1].

وانتظر العراقيون انتهاء المراحل المؤقتة في التعيين حتى نهاية عام 2005 التي جلبت حكومة منتخبة وجدت نفسها وسط التحديدات نفسها الخاصة بالمحاصصة بعدما دفعت الأحداث المسلحة، وموقف البعض من المشاركة بالعملية السياسية، ونتائج الانتخاب إلى الاحتكام للتوافق فلسفة في إدارة الدولة، وتوزيع المسؤوليات بدلا من السير بالطريق الواضح للعملية الديمقراطية التي يتحمل المسؤولية فيها أقوى الفائزين في الانتخاب، وبسبب هذا الاحتكام أعيدت نفس الأخطاء، وأُطفِئ الأمل في النفوس، وزاد مستوى الإحباط في ثناياها.

إن العراق في الوقت الحاضر بحاجة ماسة إلى التوافق في الإدارة، واتخاذ القرارات الاستراتيجية، لكنه وعلى الرغم من هذه الحاجة فإن التوافق قد استخدم بطريقة غير صحيحة دفعت بالأحزاب، والكتل المعنية به أن تقدمَ إلى شغل المناصب، وتحمل المسؤولية أشخاصاً من الدرجات الثانية، وأحيانا الثالثة أوصلت

---

(1) كان هناك قول شائع قوامه أن المصري يكتب، واللبناني يطبع، والعراقي يقرأ يؤشر مستوى المعرفة الجيد للعراقيين وضعتهم بعد مصر من حيث القدرات العلمية، والتحصيلية، وتصدير الكفاءات للفترة التي امتدت حتى نهاية تسعينات القرن الماضي، لكننا نلاحظ أنّه بعد الحصار، والهجرة، والاغتيال شهد العراق ردة في مستويات المعرفة، حتى يلاحظ في البرامج التلفزيونية التي تعدها بعض الفضائيات العربية التي تعتمد على سباقات المعرفة بين الطلبة، والشباب، وغيرهم يأتي العراقيون في الوقت الحاضر بالنهاية من حيث الترتيب الفرقي معظم الأحيان.

وزراء، ووكلاء وزراء، وأعضاء برلمان غير مؤهلين، وبعضهم لا يملك شهادة تؤهله رسميا لملء المنصب أو خوض الانتخاب، وهذا أمر من الناحية العملية سحب العراق إلى حافة التجهيل غير المقصود بقيادة عراقيين معنيين بالتطوير.

إن الجهل أوقع العراق في العديد من المشاكل ذات الصلة بالعلاقات الخارجية، وكيفية التعامل مع موضوع الاحتلال، والتوازن مع الجيران، وغيرها، والداخلية التي تتعلق بالإنسان، وحاجاته الأساسية بينها الأمل في مستقبل أفضل أجهضت على يد البعض من المسؤولين بعد ارتكابهم أخطاء لا يمكن ارتكابها[1]، وتوجههم إلى اختيار غالبية موظفي الدرجة الأولى من بين الأعضاء الحزبيين، والمؤيدين لهم، وأبناء المدينة متجاوزين حقيقة أن الأمل في مستقبل أحسن لا يأتي من التركيز على مدينة بعينها أو قومية بحد ذاتها، وإن شمر أهلها عن سواعدهم، وتطوعوا جميعا من أجل إيقاد شمعة في نهاية النفق المظلم.

إن الانحراف نحو الذاتية النوعية التي سلكها الموظفون الكبار للدولة بسبب الجهل والتقصير في إدراك، وفهم الواقع دفعت البعض منهم إلى التوجه للانتقاء في تكوين العلاقات العامة على أساس الانتماء السياسي، والطائفي، وبسببها نجد على سبيل المثال أن غرفة الموظف الكبير الفسيحة قد غصت بأشخاص ممسوخين، وانتهازيين مستعرضين، وعندما تمر على هيئاتهم وهم يقدمون الولاء، والطاعة، ويمنونه بالمشاركة في تكوين المستقبل المشرق لا تجد من بينهم أستاذ جامعة منصفاً، ولا مهندساً مختصاً، ولا فناناً مقتدراً، ولا عسكرياً منضبطاً، ولا موظفاً متقاعداً أميناً، ولا مسناً يشار إليه بالبنان في المحلة والمنطقة. وتوجهٌ من هذا النوع يقود إلى أكبر دوامة تجهيل في العصر العراقي الحديث.

---

(1) في عام 2005 كان لوزير الداخلية ستة وكلاء على عدد الأحزاب السياسية الفاعلة، وُزعوا على طوابق بناية الوزارة على أساس طابق لكل وكالة، تبين بعد فترة أن كل واحد منها أخذ اسم الجهة السياسية التي تحتله، ومن ثم اكتسب الموظفين فيه الطابع المظهري للحزب، والطائفة التي ينتمي إليها الوكيل مثل إطلاق اللحى، والتقيد بأوقات الصلاة التي تختلف من طابق لآخر حسب اختلاف المذهب الذي ينتمي إليه الوكيل، واستمر الحال لباقي وزارات الدولة التي قسمت لتكون مثلا الصحة صدرية شيعية، والخارجية للأكراد، والتعليم العالي إسلامية سنية، وهكذا تقسيمات أوجدتها فلسفة التوافق في مجتمع يصعب فيه التوافق.

كما يسحب هذا الانحراف البعض إلى التعلق بوسائل الإعلام يستعرضون من خلالهـــا، ويصرحون فيها بطريقة تنم عن الجهل، والتخلف فيغلقون كل الأبواب أمام الأمل، ويفتحونها واسعة أمام الجهل متجاوزين حقيقة أن الأمل شعور يدركه الجمهـــور من أفواه المعنيين، ومن استعداداهم للتوحد في الرأي، والاتجاه، وحسن التعـــبير فيسهمون بتعلقهم هذا بتعميم مشاعر الإحباط التي تعيق بطبيعتها مساعي التطوير.

إن عملـــية التجهـــيل التي ربما تكون مقصودة في بعض جوانبها إذا ما وضع جنـــبها في التحليل تلك التوجهات المسعورة لقتل الأساتذة، والعلماء، والمختصين، وتهجير الأطباء، والأدباء، والفنانين، والتجار، والصناعيين، غايتها مجهولة، ونتائجها السلبية عديدة بينها:

الإخـــلال بالتوازن بين المسؤولية الوطنية للنهوض بواقع الحال نحو الأفضل، وبـــين الـــسلطة التي يفترض أن تمتلك قدرا معقولا من الصلاحيات الملائمة لتنفيذ قرارات النهوض بالواقع كما هو مطلوب.

وهـــذا تـــوازن إذا ما اختل لصالح إحدى الكفتين يؤدي إلى وجود خلل أو اضطراب في النتائج "المخرجات" كما كان جاريا في المرحلة الزمنية السابقة للتغيير عندما يتم التعمد في بعض الأحيان إلى إسناد منصب مهم إلى شخصية مهزوزة أو قلقـــة لا يمكنها "تبعا لخصائصها النفسية السلبية" تحمل أعباء المسؤولية الملقاة على عاتقهـــا فتتجه كنوع من تعويض الضعف إلى أخذ موافقة الأعلى في هرم الرئاسة بـــصغائر الأمور، وكبائرها، وهكذا يكون الموظف المذكور تابعا إلى هرم الرئيس، ويكـــون الـــرئيس مـــن خلال تبعيته الأقوى، والأكفأ، والأعلم فيسد حاجته إلى العظمة.

وهـــذا خلل في التوازن بين الكفتين المذكورتين لم يكن يتوقف عند توجه المعنيين بالنظام السابق إلى تعيين بعض الشخصيات الضعيفة، بل وتعمد في بعض الأحـــيان مـــنح قـــسم مـــن خاصتهم من المسؤولين القريبين سلطة قوية أي صـــلاحيات مطلقة تفوق كثيرا حاجة المنصب إلى ذلك القدر من الصلاحيات، فيحصل الأعلى بنتيجتها:

على تخفيف من عبء الخطأ من على كاهله.

وإضافة قدر من القوة لتعزيز عظمته.

وبالمحصلة حدث خلل في إدارة الدولة، والمجتمع بين التوازن المطلوب لكفتي المسؤولية، والسلطة أضر كثيرا بالعراق في السنوات العشر الأخيرة على وجه التحديد، وترتب عليه انهيار سريع لأعمدة المجتمع خلال أزمة حرب التغيير عندما وجد الضعفاء في اشتدادها أنهم غير قادرين على:

1. اتخاذ القرار المناسب للتعامل مع موقف صعب يتطلب حتمية اتخاذ قرار لم يتعودوا في تاريخهم الوظيفي السابق اتخاذه على انفراد.
2. إيجاد المعني ليتسلموا منه التعليمات بعد أن تطلب الموقف الأمني تواجده في أماكن بديلة، ونظم اتصالات محدودة.

فآثروا التنحي تماما عن المسؤولية عن طريق الغياب أي التسرب إلى الخلف نحو العائلة والمحلة، والعشيرة.

فسمحوا بتصرفهم هذا تحت ضغط الخوف الشديد للعديد من القادة في وقت الأزمة اتخاذ قرار بترك الساحة لغيرهم، فتسببوا في زيادة مساحة التجهيل، وإثارة الفوضى، والاضطراب، وتسريع عملية الانهيار.

إن المشكلة في هذا الجانب تتمثل بالفترة الزمنية الطويلة التي أديرت فيها البلاد على وفق تلك المعادلة المخلة، والتي تجاوزت العقدين، ونصف من الزمان كانت كافية أن تترك آثارا سلبية كبيرة باتجاه الجهل، والتجهيل، أو تعويدا على الخلل في التنحي عن تحمل المسؤولية التي تزيد من مساحة التجهيل.

أو المغالاة في طلب تحملها في ظروف صعبة لا تسمح بالانفراد لتحملها فتدخل أطرافها في دوامة التجهيل.

تلك مفارقات، وأطراف معادلات اجتماعية لم تع الحكومات المتعاقبة أبعادها بعد عملية التغيير بسبب نقص الخبرة فزادت من فسحة التجهيل.

إذ وبدلا من أن تتجه إلى معالجة هذا الخلل باختيار من يتحمل المسؤولية في المنصب المحدد، وتمنحه الصلاحيات المناسبة توجهت إلى توزيع التكليف توزيعا مخلا دفع بالبعض ممن لا يعون طبيعة المسؤولية أو غير المؤهلين لتحملها إلى المراكز المهمة

فأعاقـــوا بعدم تحملهم المسؤولية كل الخطوات اللازمة للنهوض إلى الأمام وإرساء قواعد التنوير، والتقدم، وضغط الزمن اللازم إلى اللحاق بالعالم الآخر، أو بالقريبين من العالم المحيط على أقل تقدير.

ومع هذا التوزيع غير الملائم لم تتجه أي الحكومات المتعاقبة إلى اتخاذ خطوات للتقليل من الأثر المخل.

وتقـــديم بعـــض أنـــواع العـــلاج التي تَيَسرَ قسم منها بحدود مقبولة من خـــلال الانفـــتاح العالمي المتسارع على العراق في الأشهر الأولى لما بعد التغيير مثل:

1. توصيف مفاصل الإدارة في أجهزتها المختلفة.
2. تحديد الصلاحيات الممنوحة.
3. إعداد خطط لمسح الحاجة إلى الوظائف، والدرجات المؤثرة، وسبل سد النقص فيها.

لكنها وكما ورد أعلاه لم تقدم خطة في هذا المجال.

وعلى العكس من افتراض التقدم فإنها أبقت التحرك مفتوحا في بعض الأحيان لشخصيات تحمل الكثير من خصائص الماضي السلبية لتنقله إلى الحاضر، وتسهم في زيادة التجهيل.

أو أعطـــت المجـــال أكثر من اللازم لشخصيات تبغض كثيرا معالم الماضي، فحاولت جاهدة التعويض عن الإحساس بالبغض من خلال المغالاة بالاجتهاد غير واضح المعالم في مواضيع الإدارة، والتطوير.

فكـــان اجتهادها مخلا في قوانين التوازن بين المسؤولية، والسلطة زاد من حالة التجهيل، ومهد لحصول المزيد من الدوامات.

وأســـهم ولو بشكل غير مباشر بتقويض ما تبقى من أعمدة البنى التحتية التي يحتم وجودها لأغراض إعادة بناء العراق.

المبحث الخامس

التعويض

في الــدول غير العربية التي تقدمت كثيرا عن غيرها من المجتمعات الأخرى في شمــال، وجــنوب الكــرة الأرضية فيما يتعلق بفهم الديمقراطية، وتطبيقها يُكَلف الفائــزون بأعلــى الأصــوات في الانتخابات التي تجرى لتشكيل الوزارة، ويقبل الآخــرون النتائج برحابة صدر، ويبقون في الصف المعارض للحكومة رقباء عليها، دون أن يــناقش أحــدهم أو يتطرق إلى الثمن الذي يستحقه في المقابل عددا من المقاعــد الــوزارية، ووظائف في الدرجات العليا، وفي الدول الغربية الديمقراطية، والأخــرى التي تقترب نسبيا في نضجها الديمقراطي من الغربية في آسيا، وأفريقيا، وأمــريكا اللاتينــية يسعى الفائزون الذين لا يؤَمّنونَ أغلبية مطلقة في البرلمان إلى تأمينها بالاتفاق مع آخرين خارج كتلهم النيابية عن طريق الائتلافات التي تتأسس علــى بعض جوانب الفهم المشترك للأهداف، والبرامج المتفق عليها لحسم الأمور، وتقلــيل العــرقلة التي يمكن أن تحدث في الطريق إلى تنفيذها أي البرامج السياسية المطلــوب تطبــيقها، وفي حالتها تتكون أغلبية تسهم في قيادة الحكومة، والتشريع لــصالح استمرارها، وأقلية تراقب حركتها، وتنتقد ما تعتقده غير صائب في مجالها، وتجهد نفسها في سبيل تعزيز فعل التقويم كلما كان ذلك ممكنا.

دون أن يفكــر أحد من بين أعضائها باستحقاقاته، ومجموعة مقاعد وزارية كمؤشــر للتمثيل العام في المجتمع، والدولة، ولا وظائف عامة، وامتدادات للتأثير لإثبات سعة التمثيل الحقيقي.

أمــا في العــراق الذي يعد أهله ساعين إلى تطبيق الديمقراطية، فقد انحرفوا، والكثير من السياسيين في خطوات السعي الأولى عن طريقها بسبب:

1. تعقــيدات حياتهم العامة بما ورثوه من مفاهيم، وقيم تفضي إلى سلوك مُحافظْ في الرأي، والاتجاه، ونهج التفكير، وإلى التقيد بالشكليات، والارتباط بالماضي تــصارعت أحيانا مع مفاهيم التحرر، والانطلاق، والانفتاح التي تتأسس على بعض جوانبها الديمقراطية تسببت في ظهور معوقات أثارت نوعاً من الارتباك،

وأحيانا مقاومة بالضد من التجديد في موضوع الديمقراطية، وسبل تطبيقها.

2. تناقـضات التركيبة الاجتماعية، وتشعب أهدافها الخاصة على حساب العامة كونت مواقف مع، وأخرى بالضد "صراع" عرقلت أو أعاقت الخطوات التي كان يفترض أن تطبق للديمقراطية.
3. الاخـتلالات النفـسية نتيجة العيش الطويل تحت ضغوط الحروب المتكررة، والحـصار، وفقدان الأمن، أوهنت الإنسان العراقي، وأضعفت طاقته النفسية اللازمـة أو الكافـية لقـيادة، وتحمل أعباء النهوض بالديمقراطية، وتطبيقاتها الجديدة على المجتمع.
4. اضطراب المشاعر الوطنية نتيجة التفريق في التعامل، والشك في الولاء قللت من الدافعية التي يفترض أن تكون موجودة لقيادة مسيرة الديمقراطية، وتقبل النتائج العرضـية لتطبيقاتها، والتغلب على اليأس الذي قد يظهر بسبب بعض أخطاء التطبيق الإعتيادية.
5. ضعف الإدراك الصحيح لماهية الديمقراطية بين العموم، أكثر من الاجتهاد غير الصحيح في وسائل، وسبل التطبيق في محاولات لإبعادها عن معناها الذي تسير عليه الدول الديمقراطية، وشوه سلوك العديد من القائمين على التطبيق، فأسهما أي الضعف، والتشويه في الإرباك، والتعويق.
6. الجهـد المـبطن للإعاقة في جوانب التطبيق الموجود بين مفاصل مشاركة في الدولة، والحكم لإغراض الإفشال، ولتحقيق غايات، ومكاسب خاصة، شتت جهد الدولة، والقوى السياسية، وحرف المسيرة عن السعي لتطبيق الديمقراطية الذي يحتاج جهدا كبيرا.

إلى القـتال في سـاحتها بالضد من أعداء بعد أن كثروا، ويكثرون بما يفوق قدرة الدولة على توفير الجهد اللازم في كلا الاتجاهين.

إن الساسة العراقيين وسط هذه الانحرافات، وجدوا أنهم بمواجهة انحراف آخر لا يقل عن الأوّل تأثيرا بالسلب يتعلق بالثمن الذي وضعه البعض، وبينهم سياسيون في الطـريق إلى تطبـيقها تعويضا في كثير من المجالات إذ يلاحظ وطيلة السنوات الأربع:

توجه من قاتل صدام مطالبا بالثمن المدفوع للتضحية دورا في العهد الجديد.

ومن صمد، ولم يصفق للقائد الضرورة أيام الشدة سعى للحصول على الثمن اللازم للصمود مكانا في الصف الأول.

ومن نافق خلسة في حضرته اشترط الحصول في طريقه لنفاق الديمقراطية على مكاسب شخصية كتعويض يفوق تلك التي حصل عليها أيام زمان.

ومـــن وضـــع خطط الحروب، والغزوات وأدى التحية بقوة خارج الضوابط العـــسكرية ســـارع هو الآخر لاستثمار الفوضى واضعا جهده، وخبرته في خدمة الحكومة الجديدة أو بالضد منها تبعا للمكاسب، وكم التعويض.

إن انحـــراف المطلوب، والسعي للكسب، والرغبة في تعويض الخسارة دفعت الحكومة، وسياسيي الصف الأول، والكثير من أبناء الشعب العراقي، وربما البعض مـــن الأمـــريكان إلى التيقن أن الديمقراطية بالمفهوم الغربي غير ممكنة التطبيق، عليه حاولوا أن يجدوا سبيلا للديمقراطية يشترك في حكم البلاد من خلالها:

الرابح والخاسر.

المؤيد والمعارض.

القادر وغير المقتدر.

تولـــيفة للديمقراطية أساسها التعويض المدفوع "المشاركة" وإن كانت من بين جـــرعات الدواء الموصوفة لبعض أمراض الحاضر، فإن كم الخسارة في الطريق إلى تحقيقها فادحة لأن التطبيق يمر عبر مزيد من الخلل، والتعقيد في كل مجالات الإدارة العامـــة للبلاد نأخذ النظام الوظيفي واحداً منها على سبيل المثال، وفي مجاله يمكن التأكيد.

أن بريمـــر الذي أدار العراق بعد التغيير، ومن بعده الحكومات المتعاقبة بسبب طبـــيعة توليفـــتها غير المتوافقة قد تجاوزوا على سياقات الانتقال السلمي المفروض لـــلإدارة إلى العهـــد الجديد، ومؤشرات هذا التجاوز غياب الخطط، والإجراءات الخاصـــة بالمحافظة على النظام الوظيفي أو ترميمه بخطوات، وأفعال اعتاد القائمون بالتغـــيير في المجـــتمعات الـــتي خـــضعت للتغيير وبينهم الثوريون، والانقلابيون، والمصلحون اتباعها للمحافظة على انسيابية العمل، والترميم مثل:

1. السيطرة المباشرة فقط على المفاصل الوظيفية العليا، وإسناد مسؤولية قيادتها إلى أشخاص موالين كفوئين.
2. إبقـــاء المفاصـــل الأقل لمن كان يشغلها في السابق مع العمل على تنفيذ برامج التطهير، والتعويض تدريجيا.

وهذه إجراءات يراد باتخاذها المحافظة على ديمومة العمل، ونقل الخبرة الوظيفية إلى الجـــيل الجديد، تفاديا لحالة التصدع، والانهيار، حتى أصبحت بديهة لجأ إليها العسكر المصري عام 1952، والعراقي عام 1958 في انقلاباتهم على الملكية، وعمل بموجبها حزب البعث في انقلاباته عام1963 و1968.

لكـــن الذي حصل في العراق خاصة في الأشهر الأولى للتغيير أشبه بالتوقف، والقطـــع لفتـــرة زادت عـــن عدة أشهر في مجالات مهمة مثل الأمن، والعسكر، والـــبحث، والتطويـــر، والتصنيع، وبعض الجوانب الاجتماعية، وبدلا من الانتقال بـــضوء الخطـــوتين المذكـــورتين أعلاه حصل تدافع، وضغط شديد نحو الوظيفة، والإدارة مـــن قـــبل جموع من خارج الجهاز الوظيفي تحت تأثير التحقيق السريع للذات في الطريق إلى الحصول على المكاسب:

وظائف، ودرجات عليا.

إمتيازات في التحصيل، والنفوذ.

مـــستثمرين الفرصة المتاحة، ساعين إلى التعويض النفسي، والمادي عن سني الحرمان.

إن الـــتدافع في المجـــتمعات المتخلفة على وجه الخصوص تجرى فيه أو خلاله أنواع من الاستعراضات، والادعاءات.

وتستخدم أشكال من المكائد، والتلفيقات.

ويكتب الكثير من التقارير، والبيانات.

كـــل ذلـــك، وغيره يجري من أجل التسقيط، وتسهيل عملية الوصول، التي تحول دون القيام بإجراءات الغربلة الصحيحة.

والتدقيق في السلوك التوافقي مع الوظيفة، والنظام الجديد.

والتغاضي عن بعض الارتباطات بالماضي القريب.

والتفتيش في السجلات عن المتخصصين، والمهنيين الملائمين.

المـلء التدريجـي للفـراغ بهدف السيطرة، وضبط مجريات العمل، وتجنب التردي، والانهيار.

إن تلـك البديهيات التي لم يتجاوزها المتحضرون من اليابانيين، والألمان بعد خسارتهم الحـرب العالمـية الثانية، وفرض التغييرات الجذرية على مجتمعاتهم في التخطيط، والإدارة من قبل الدول المنتصرة في الحرب.

و لم يخل بها الانقلابيون المتخلفون في دول أفريقيا، وأمريكا اللاتينية.

ولا الثوريون الاستبداديون في آسيا، ودول العالم الثالث.

بينما لم يحسب حسابها سياسيو العراق بعد 2003/4/9 بعد أن سارعوا إلى:

إعادة بناء هياكلهم السياسية قبل التفكير في هياكل الإدارة العراقية.

اسـتغلال الـتوقف الحاصل في إعادة ترميم الإدارة العامة في الدولة بتسريع برامجهم الإدارية للحزب، والحركة.

تقديم ترشيحات لملء الفراغ الوظيفي من غير المناسبين.

إبـدال طـواقم مكاتـب الوزراء، والدرجات العليا بالوزارة مع كل عملية استيزار.

توسيع النفوذ في الوزارة، والمؤسسة لإيجاد قاعدة جماهيرية للوجود.

إن تلـك الأخطاء، والتجاوزات التي ارتكبت من قبل العديد من الأحزاب، والسياسيين تسببت في:

1. إشـغال بعض المناصب من قبل أشخاص غير متخصصين انتشروا بين قاعدة وظيفـية متخصـصة، أسهموا من حيث لا يريدون في حالة التردي، وعدم الاستقرار.
2. دخـول الـسلم الوظيفي أميون، وانتهازيون لا يمكنهم الحيلولة دون حصول التردي، وربما التمهيد إلى الانهيار.
3. غـياب ملموس للمهنيين، واستبدالهم بجهلة، ومتخلفين لا يمكنهم المساهمة في إعادة الترميم، ولا الحيلولة دون التردي، والانهيار.

4. سيطرة الوجوه الجديدة "قليلي الخبرة" على دوائر الدولة العليا أو ما تسمى بالعقل المفكر للحكومة.

وعلى هذا الأساس يواجه العراقي في الوقت الراهن جملة مصاعب، ومتاعب تزيد من همه النفسي، وقلقه، وكذلك في بؤسه، والشقاء مثل:

1. أخطاء التقدير التي تتعلق بمسائل مهمة مثل الإخلاص، والولاء، وخدمة الدولة، والوطنية، وغيرها.
2. إعاقة تنفيذ أوامر، وقرارات تنصف مظلوماً أو تنقذ حياة مطلوب.
3. تأخير بالبت في بعض قضاياه المهمة[1].
4. فقدان معاملات ضرورية لعيشه، واستقراره، ودراسة أولاده، وتقاعده، وترقيته.
5. ضياع حقوق والتزامات.

إن تلك المصاعب التي يواجهها المواطن في الجانب الإداري، وغيرها الكثير قد يكون بعضها مقصوداً كنوع من الفساد لأغراض الهدم، وخلق حالة التردي تمهيدا للانهيار، وبعضها الآخر جاء عرضا للأسباب المذكورة فيما سبق يمهد لذات الحالة التي وضعها المناوئون للدولة كأحد أهم الأهداف.

إن الوظيفة في علم الإدارة ليست تخصصا فنيا فقط، ولا جسدا يملأ الفراغ، بل تأهيلاً مهنياً، ومجموعة الخصائص السلوكية، والمعرفية التي تكتسب أثناء الممارسة العملية لتنتج الشخصية الوظيفية التي تؤدي مهامها حسب ما تقتضيه المصلحة، ومواصفات المنصب المطلوب.

---

(1) قدمت سيدة عراقية بداية عام 2005 طلبا لمعادلة شهادة حصلت عليها لمستوى الماجستير بالعلوم السياسية من جامعة أوروبية معروفة لتدعيم وضعها الوظيفي بدرجة يفترض أن تحافظ عليها بمستوى الماجستير، وما زالت معاملتها في دائرة البعثات لم يبت بها إيجابا أو رفضا حتى فقدت السيدة المذكورة، وظيفتها بسبب هذا التأخير. كما تُقدم معاملات المضطهدين سياسيا لإعادة حقوقهم إلى لجان شكلت في الوزارات، بعضها تُفقد، الأمر الذي يتطلب من صاحبها إكمالها ثانية أو ثالثة، وبعضها الآخر تُركن على جنب وتقدم بدلا عنها أخرى يمتلك صاحبها النفوذ والتأثير، حتى أصبح سياق بين أصحاب المعاملات في هذا الجانب، وجوانب أخرى قوامه استنساخ معاملاتهم، والاحتفاظ بأكثر من نسخة يمكن تقديمها عند الرد بفقدان المعاملة.

وعلـــى وفق هذا المفهوم الذي أُخلَ به في عراق اليوم يمكننا القول إنّ البلاد ستواجه في المستقبل القريب مصاعب في الإدارة العامة يمكن أن تمهد مع غيرها من عوامل إلى نوع من الانهيار، الذي سيستخدم وسيلة من وسائل الحرب الدائرة على أرض العـــراق لا يمكـــن الحيلولة دون حصوله ثمنا مدفوعا في ظل الحرب القائمة بالـــضد مـــن الإرهاب إلا إذا غيرت الأحزاب الحاكمة، والمشاركة في الحكم من فلسفتها في الاستحواذ.

وأنهت فكرة العزل إلا للمجرمين.

وأعدت خططا لتأهيل الجدد.

وشرّعتْ قوانين للثواب، والعقاب.

وتجاوزت معنى الثمن في تحديد علاقتها بالدولة، والوطن.

ووظفت جهدها السياسي لخدمة العراق بلداً للجميع.

وآمنت بوجود الآخر، والرأي الآخر ضمن ثوابت وطنية تحكم الجميع.

الفصل السادس

العدوانية

الاستمرار بالقتل أحد مسارب العدوان سوف لن ينهي المشكلة، بل وسيزيد من دوامات المحنة التي يعيشها العراقيون.

العدوانـــية مـــيل للإيـــذاء يوجه إلى الغير أو إلى الذات، وشائعة في السلوك البـــشري بـــين الـــناس، وفي كل الحضارات، وعبر كل الأزمنة التي امتدت أولى خطواتها في تاريخ الأديان السماوية مع قصة آدم، ومقتل أحد أبنائه على يد أخيه، واســـتمرت كذلك لتأخذ سلوكا غريزيا يزداد حدة لمستوى القسوة، والتشويه في بعـــض الأزمنة، والأوقات الأمر الذي يؤكد أنها وجدت مع الإنسان، واستمرت معه، وستبقى كذلك ما دام وجوده مستمراً في الحياة، قاسمها المشترك الأعظم:

الحـــروب الـــتي تـــدور بين الشعوب والأمم وما يجري في ساحاتها من قتل، وتعذيب، وإعاقة، وإذلال، وفرض شروط، وغيرها.

إيذاء الغير الذي يحصل من القريب، والأخ، والصديق، وكذلك غير القريب، بـــصور، وأشكال متعددة تمتد واسعة من القتل، ولا تنتهي في حدود الغيبة، والنميمة، والإزاحـــة، والتـــسقيط، والتآمـــر، والإقلال من القيمة، وأشكال العقاب، وغيرها، وكذلك إيذاء الذات التي تمتد هي الأخرى من اللوم لتنتهي عند الانتحار(18).

إن العدوانـــية الـــتي شَذَّبَت بعض مخارجها الأديان، والقيم السائدة، والقوانين الوضعية، والسلطات الضابطة لها حدود يمكن عدها مقبولة على وفق نسب تكرار في مجـــتمع مـــا تقـــارب في متوسطاتها ما يحصل في عموم المجتمعات البشرية الأخرى، وكـــذلك أســـاليب التنفيذ، إذ إنّ حوادث القتل العمدي التي تُمثل أحد مسارب العـــدوان عندما تتكرر في لبنان على سبيل المثال بنسب تقارب تكرارها في السويد،

وجنوب أفريقيا، والصين تكون حدود حصولها في لبنان مقبولة، وعندما يكون القتل باستخدام مجرد لآلة حادة، أو إطلاق نار أو بوضع السم في الطعام، وغيرها الدارجة كأساليب في التنفيذ يمكن تصنيفه بالقتل المألوف لأنه أسلوب أو مسرب يتكرر منذ فجـــر التاريخ يمثل شحنة من العدوان تتضاءل أو تنتهي مؤقتا في موقف القتل، لكن غير المألوف الذي يمثل انحرافا في السلوك العدواني، وكما كبيرا من العدوان لمستوى الشذوذ أو المرض في بعض الأحيان عندما يُمثِلُ القاتل بجثة قتيله أو يقتطع جزءاً من أعضائه، وعندما يحصل فعل القتل، وتتسع دوامته لأبسط الأسباب، أو يتخذ شكل الانـــتقام، وينفذ بطرق مختلفة كما يجري في العراق في الوقت الراهن، عندها يصنف العـــدوان انحرافا في السلوك، ومؤشرا من مؤشرات الاضطراب، وعموما فمسارب العـــدوان الـــتي ترصـــد في العراق اليوم يمكن درجها تحت عناوين القتل، والنفرة، والإزاحة، وجلد الذات، والتجريف، التي ستناقش في العناوين التي ستأتي.

المبحث الأول

القتل

عـــاش العراقيون فترة طويلة من زمنهم الماضي لم يألفوا عمليات القتل العمدي، والاغتـــيال إلا لأغـــراض الثأر، وغسل العار، وبعض أنواعه الجنائية التي لم تزد نسب تكرارها في مجتمعهم عن تلك التي تحدث في المجتمعات القريبة، وتتكرر بصورة متفرقة أو بـــين فتـــرة وأخـــرى تكاد المسافة الزمنية بينهما أن تكون ممتدة نسبيا، وذلك لأسباب تعود على الأغلب إلى واحدة أو أكثر من عوامل الردع الآتية:

1. العامـــل الديني الذي يتأسس على إيمان راسخ بتحريم قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق.
2. العامل العقابي من خلال فرض القضاء عقوبات رادعة تصل حد الإعدام على القتل العمد.
3. العامـــل الإنـــساني أو الحضاري حيث النظرة بقدر معقول نسبيا إلى إنسانية الإنسان قيمة، وإلى وجوده حاجة عامة.

إن عوامل الردع المذكورة تَوقفَ تأثيرها بعد 2003/4/9، ونتيجة لهذا التوقف أو التعطيل انطلقت الانفعالات السلبية المكبوتة من مكامنها، وتفاعلت مع عوامل الـــسياسة المظللة داخليا، والنوايا المبهمة خارجيا، وأخطاء الإدارة العامة، والتعامل النفسي، والمعنوي غير الصحيحة، فأنتجت بتفاعلها مجموعة دوامات فوضى أكثرها إيلاما، وتأثيرا تلك التي تتعلق بأعمال القتل العمدي، والاغتيال شبه اليومية، والتي لم يـــستثنِ الفاعلـــون في مجالهـــا الناس العاديين، والقادة الحكوميين[1] من عسكر ومدنـــيين، والبعثـــيين الـــسابقين، والسياسيين الوطنيين، والعلماء الاختصاصيين، وغيرهم.

إن عملـــية القتل العمدي وسط الشارع العراقي، وأمام المنـــزل الخاص، وفي أمـــاكن العمل والحياة العامة، وبغض النظر عن الدوافع، والأسباب التي تعددت، وتداخلت لم تكن مبررة، وهي وإن حاولت مؤسسات الدولة، والحكومة الحد منها بإجـــراءات، وخطـــط أمنية لكنها لم تحقق إنجازات تتناسب، والرغبات الموجودة بسبب:

1. تعطـــل أو ضـــعف كفاءة عوامل الردع خاصة العقابية بعد أن شُلت أدوات فرض، وتنفيذ العقاب في فترة تحوّل وانتقال هي الأحوج إلى فرضه شديدا على الجميع.
2. تـــسارع الـــبعض إلى التجاوز على هذه السلطة، واستبدالها بقوانين العشيرة، وأحيانا العصابة لفرض الرغبة الذاتية في حل بينه القتل والاغتيال.

لقد رافق هذا التجاوز توقف في مجريات التطوير، والتنوير في هذا البلد الذي عانى طويلا من العزلة والامتهان ووُضعَ الجميع تحت ضغط التهديد المباشر، والنظر إلى الواقـــع المحيط من زاوية الذات الخاصة التي يسعى البعض إلى تحقيقها من خلال القـــتل، والاغتيال. لكن الاستمرار بمسلسل القتل، والإيذاء كأحد أساليب الرفض

(1) أول حادثـــة اغتـــيال لمـــسؤول حكومي رفيع المستوى كانت للسيدة عقيلة الهاشمي، عضو مجلـــس الحكـــم، ومـــن بعـــدها رئـــيس مجلـــس الحكم الدوري السيد عز الدين سليم يوم 2004/5/17، كمـــا إن غالبـــية الساسة الكبار قد تعرضوا إلى محاولات اغتيال كان البعض منها فاشلا.

والاحـــتجاج أو كمسرب من مسارب العدوان سوف لن ينهي المشكلة، ولن يغير الأمر الواقع، بل وعلى العكس من ذلك سيزيد من وقع المحنة التي يعيشها العراقيون بعـــد أن جعـــل الأمريكان أرضهم ساحة حرب للإرهاب لا يمكن التنبؤ بنهايتها عمليا، ولا بإحصاء عدد خسائر أطرافها[1]، ولا يمكن التكهن أيضاً بالآثار الجانبية التي ستتركها على الفرد، والمجتمع لعشرات السنين المقبلة.

إنهـــا دوامة محنة ستضاف من جانب آخر إلى مجموعة المحن التي عاشوها طيلة نصف القرن الماضي من الزمان لا تنتهي أو لا تخف شدتها إلا إذ عملوا هم أنفسهم على أن لا تكون أرضهم ساحة حرب جديدة، وأن لا يكونوا هم وقودها.

وأن يدركـــوا أن إعـــادة البـــناء بعد الهدم ضرورة لا تتحقق مع فعل القتل والاغتيال.

لقـــد سبق فعل القتل نوع من التناحر، والتضاد كما ورد سابقا تطور ليأخذ شـــكل العنف حد القتل، والتعويق وسيلة لفرض الواقع المطلوب فرضه، وللتنفيس عـــن مـــشاعر العـــدوان، والمقت، والكره بعد أن احتلت حيزا كبيرا من تفكير الشباب، وعديد من الشيوخ في المناطق الفقيرة التي تقوى فيها العشيرة، ويزيد فيها الاحـــتقان الطائفي، ويقل التحصيل العلمي، والثقافي حيث التدخل السافر لكبار الـــسن، والشيوخ في التحريض لأخذ الثأر، والانتقام من الغير الذي شجع الشباب لأن يتمادوا في سلوكهم المخالف للقوانين الوضعية، والمعايير الاجتماعية، وهذا أي الاســـتخدام المنظم للعنف مسألة معقدة لم يحسم علماء النفس والاجتماع دوافعه الفعلـــية عـــند الإنسان، ولم يقرروا فيما إذا كانت الوراثة هي المسؤول الأول في نـــشأته، وتعزيزه في النفس البشرية أم البيئة هي المعنية بوجوده، وترسيخ دعائمه، لكـــنهم ومع ذلك الاختلاف اتفق غالبيتهم على أنه نتاج تفاعل للوراثة، والبيئة في آن معـــا أي أن من يقوم بتنفيذ فعل القتل لإنسان خارج سياقات الدفاع القسري

(1) لم يتم الاعتراف رسميا بإحصائية محددة للخسائر البشرية بين العراقيين إذ إنّ للأمم المتحدة إحـــصائيتها، وللحكـــومة العـــراقية أيضاً إحصائياتها، وللجهات الأخرى البحثية، والسياسية إحـــصائيتها التـــي تبـــين أن الخسائر كثيرة، ومصادر التوثيق مضطربة، تحكمها في بعض الأحيان معايير سياسية، ودينية طائفية(19).

عــن الــنفس، يكــون قد فعل ذلك على الأغلب نتيجة لما موجود في جيناته من اســتعدادات لاســتخدام العنف تفاعلت في ظروف الحدث "وقت ارتكاب فعل القتل" مع:

1. المترســب في تركيبته النفسية من معايير متدنية عن الإنسان تعلمها المعني من محيطه الاجتماعي، وقيم اجتماعية سلبية يراها ملائمة للتعامل مع موضوعه من خلال بيئته الحاكمة.
2. المــيل لاســتخدام العنف لحسم موضوع الصراع مع الغير خبرها بالتكرار في حياته العملية.

وهذه شبه مسلمة عند النفسانيين أو غالبية مدارسهم الحديثة تفسر إلى حد ما الذي يجري في العراق في هذا الجانب حيث التوجه السريع لاستخدام السلاح حد إطلاق النار على المقابل لأمور لا تستحق أحيانا حتى العتاب الشديد، تطورت مع الأيام عندما غابت السلطة الحكومية الضابطة كعامل ردع وتقويم.

وتصدعت السلطة الأبوية كعامل ضبط وتوجيه.

وسمــح عمدا أو دون عمد ببقاء السلاح في حوزة الإنسان كوسيلة للدفاع، وحــسم الــصراع حتى وصل الأمر أن يقتل حارس في مدرسة ابتدائية أحد أولياء الأمــور، وولده الصغير لمجرد إصرار الأخير أن يدخل ابنه المتأخر عن الحضور إلى الحصة الأولى من الدروس.

ويقــتل سائق سيارة أجرة شرطي المرور وهو يؤدي واجبه عندما حاول منعه من الاستمرار في القيادة عكس السير.

ويطعن بائع خردة زبوناً احتج على السعر الذي وضعه أضعافا لما هو مألوف.

وينحــر دائــن مال من أدانه المال بعد مطالبة الأخير بالتسديد بسبب بؤس الحال، وسوء الظروف.

ويحــرق شاب بيت ابن عمه الذي ظن أنّه من وشى به عند السلطات المعنية لمتاجرته بالمخدرات.

ويرمــي أخ بــيت أخــيه بالــرمانات اليدوية لمسعى الأخير تقسيم الإرث والموجودات.

...الخ مـــن أعمال القتل، ومحاولات حدوثه التي زادت نسبة تكرارها في العـــراق في الـــسنوات الأخيرة عن أي مجتمع من المجتمعات البشرية في العصر الحديث، مما يتطلب التوقف عندها كثيرا ليس من قبل المختصين لتفسير ما آلت ومـــا ســـتؤول إليه دوامة ستسحب المجتمع العراقي إلى مزيد من الخراب، بل وكـــذلك من قبل الآباء والأمهات، والوجهاء والمربين والأحزاب والسياسيين ومـــنظمات المجتمع المدني، والأهم منهم جميعا وقفة الدولة بمؤسساتها التي ينبغي أن تكون سريعة عند:

1. مسألة السلاح، وسياقات ترخيصه.
2. المناهج الدراسية، وضرورات إعادة النظر بمحتوياتها.
3. العيادات النفسية، ومسألة توسيع رقعتها.
4. عقوبة الإعدام، ووجوب تطبيقها.
5. أجهزة الشرطة، وأساليب اختيارها، وتدريبها.
6. مفـــردات، وأجهزة الإعلام، ومعايير النـــزاهة، وجوانب التوظيف، ووقفات أخـــرى غيرها تفرضها ظروف التغيير، وحل الأجهزة الضابطة، وتدمير البنى التحتـــية، إن لم يقف الجميع للحيلولة دون استمرار التدهور في مجالها سيجد أبناء العراق أن لا فائدة من دعواهم إلى الديمقراطية.

ولا أمل في مساعي فرض الأمن، والاستقرار.

ولا جدوى من كل الإجراءات التي تتخذ لتغيير ضوابط إدارة الدولة، والمجتمع بما يلائم العصر الحديث.

وسيجدون ومن كان قريباً منهم، ومن تعاطف معهم أنهم جميعا سيدفعون ثمن العـــنف الذي سُمِحَ به، عندها سيعجزون، وأية حكومة تأتي لحكمهم عن إعادة الأمور إلى سابق العهد من أيام زمان.

المبحث الثاني
الإزاحة

الإزاحــــة أو الاجتـــثاث أو الاستئـــصال تعبر جميعها عن طريقة في التعامل، وأســـلوب لتحقـــيق الغاية لم يكونا جديدين في سياقات الإدارة، ونهج التفكير في العـــراق إذ لـــو عدنا قليلا إلى الوراء، إلى أقل من نصف قرن من الزمان، وتابعنا أحداث العام 1958 متابعة لا تتعلق بأحقية قيام التغيير الذي لم يتفق عليه الفقهاء، ولا صـــلة لـــه بمقارنة نسب الفساد بين العهد الملكي المعروف بدستوريته، وتأثير القانـــون في ضبط السلوك، وبين الجمهوريات المتعاقبة التي لم يختلف عليها العامة، والعلمـــاء أن الكفة في موضوع الفساد تميل إلى جانبها "الجمهوريات" وبدلا عنه استعرضـــنا في متابعتنا ما جرى في الأيام الأولى لذلك الانقلاب، وما بعده من قتل لكل ما يمت للملكية بصلة.

تبديل لعَلَمِها، والنشيد الوطني، ومفردات المناهج الدراسية.

التحول في السياسة، والعلاقات الخارجية، وصيغ التحالفات.

وغيرهـــا أمـــور أحدثت تحولا جذريا منها نستنتج أن رجال 14 تموز، ومن ســـايرهم من الانتهازيين اجتثوا، أي استئصلوا الملكية طريقة في الحكم، وتوجهات في السياسية، وقيماً في التعامل الاجتماعي، والإنساني.

من بعد تلك الإزاحة وإجراءات الاجتثاث بدأوا من نقطة تقترب من الصفر في التأسيس لمجتمع جديد، بداية كانت قد سحبت العراق إلى شرعنة الانقلابات، وتبرير الإقـــصاء، وتعميم القسوة، والقسر، والاغتيال، واستمرت معها الإزاحة والاجتثاث قاسما مشتركا لكل التحولات حتى السيطرة البعثية الأولى على الحكم عام 1963 التي توجهـــوا فيها إلى إزاحة "اجتثاث" كل ما يمت بصلة إلى عبد الكريم قاسم، ومشاريعه في تكوين الشخصية المميزة للعراق، وحاولوا بدلا عنها في ذلك العام، وكذلك في عام 1968 فيما يتعلق بتغيير النهج الوطني الهادئ للدولة إلى التوجه القومي الانفعالي.

وتجـــسيد حكـــم الحـــزب الواحد، والعشيرة والمنطقة، وتعزيز سلطة الفرد، وتأجـــيج المكبوت من المشاعر الطائفية، واستمروا في تحقيقها، بمحو ما سبقها من

مخـــزون في خلايا العقل العراقي بطريقة الإزاحة المنظمة، والإلغاء المقصود، فكانت بداية دفعت بالعراق إلى أن يكون بؤرة التوتر في المنطقة، وعممت:

أساليب القتل، والإخفاء، والعزل لمن يتجاوز.

والاغتيال والتنحية، لمن يهدد، ويخالف.

وهـــدم القـــرى، والتـــرحيل لمـــن لا يـــؤيد فكانت أقسى أنواع الإزاحة، والاجتثاث.

لكن البعض من العراقيين العقلاء، وبعد عملية التغيير التي تمت في عام 2003 توقعوا أن تجري الاستفادة من التجربة المتراكمة، ويتم تجاوز أخطاء من سبق خاصة تلـــك الـــتي تسببت في تدمير العراق، وتعطيل مسيرته نحو التقدم والرقي، وإذا بهم يقعـــون ثانية في ذات الأخطاء، ويتعاملون بنفس عقد التعامل على أساس الإزاحة الـــتي بـــدأت أولى خطـــواتها بعد 2003/4/9 حيث الأمر بحل الجيش، والأجهزة الأمنـــية، والتـــصنيع في إطـــار الاجتثاث المنظم للعسكرية العراقية، والقدرة الفنية للأجهـــزة الضابطة، ولم يتوقف الأمر عند هذه الحدود إذ توجه البعض من الحشد المـــسيطر إلى المناداة على المستوى الرسمي بضرورة تطبيق الإزاحة، والاجتثاث على الفكر، وبعض الجوانب المنجزة حتى نجحوا في إنشاء دائرة لهذا الغرض أثارت كثيراً مـــن الجدل داخل، وخارج العراق إلى مستوى بات إلغاؤها مطلبا عربيا، ودوليا، ومع ذلك فإن من الإنصاف القول:

إنّ العديـــد من السياسيين الجدد، والمسؤولين في الحكومة الحالية لا يتفقون، والخطوات التي اتخذت في مجال الإزاحة.

إن البعض منهم وقف وما زال يقف بالضد من هذا المفهوم، وإن تطور الأحداث خاصـــة مع بداية سقوط الدكتاتور تشير إلى إمكانية الانـــزلاق إلى التعامل بأساليب أكثـــر عـــنفا لتطبيق الإزاحة لولا تدخل عوامل عديدة منها العامل الدولي، ومواقف الـــبعض من السياسيين في الداخل التي تؤكد الوقائع أن من بينهم ثقاة وطنيين يسعون فعلا إلى التعمير، والمصالحة، وإعادة بناء العراق الديمقراطي التعددي.

وأنّ مـــن بينهم أيضاً انتهازيين نفعيين استثمروا اضطراب الساحة الداخلية، وقلـــق الـــدول الإقليمـــية، ولعبوا على حبال المصالح الذاتية، ودعم المؤسسات،

والجماعـــات الإقليمية، والدولية فكسبوا، وفتحوا دكاكين للسياسة تبيع، وتساوم علـــى كل المشاريع المطروحة بينها المصالحة، وإعادة البناء، والتعمير، لكن المؤسف هـــو أن مـــثل هـــؤلاء أو ما يمكن تسميتهم بأهل الخير، والاستقامة في السياسة، والجوانب المهنية يتناقصون تدريجيا بحكم التعب، واليأس من عدم القدرة على مجاراة النفعـــية، والإزاحـــة، والتـــسقيط، ودسائس الانتهازية، واتساع هامش المافيوية الإداريـــة، والمالية، وفي الجانب المقابل تُثبتُ الوقائع، والأرقام، ومجريات الشارع، ونشرات الأخبار أن:

1. فعل الخطأ يزداد تدريجيا لمستوى يطوق كل شؤون الحياة.
2. أعـــداد المـــسيئين، والمعرقلين تزداد هي كذلك حتى انقلبت المعادلة بين الخير، والشر بمستوى ينذر بالخطر على حاضر البلاد، ومستقبلها إذا لم يدرك المعنيون طبـــيعة هذا الخطر، وعواقب استمراره. ويستنفروا قواهم، ويبدأوا الإصلاح من على أنفسهم، والقريبين منهم لجلب أولئك المحبطين الواقفين في الانتظار على تل السلامة داخل العراق، وخارجه إلى جانبهم أي إلى جانب الوطن، وليس الحزب، والحركة كما يفعل البعض أحيانا.

ويرفعوا من نسبة الخير في تلك المعادلة المختلة في عراق بات الشر خاصية تميز الشخصية العامة لأبنائه في مواقف الحياة المتعددة إلى مستوى، وكأن الواحد منهم يحمـــل في أحـــد جـــيوبه أو في داخله أفعى قاتلة وجد في استخدامها للتعامل مع الآخرين الوسيلة الوحيدة للترويح عن انفعالاته السلبية أو لتحقيق مآربه الذاتية، أو لإزاحته عقبة في طريق الحصول على منافع شخصية.

خاصية لا يختلف فيها السياسي الذي يفتش بين الدول، والجماعات عن دعم لمـــشروعه الخاص بالمصالحة الوطنية بعد أن أعلنت الحكومة عن مشروعها رسميا، بقصد لا يتعدى السعي إلى قتل مشروع الحكومة بلدغة أفعى تدر عليه الملايين من الدولارات.

وهـــو أي السياسي في الحزب، والحركة، والتكتل لا يختلف عن الوزير غير المنتمـــي إلى أي منهما، والذي جلب معه عند استيزاره حاشيته، ووزَعهمْ بطريقة الانتـــشار علـــى مفاصل الوزارة ليفتشوا بين دفاترها، ووثائقها عن أخطاء الوزير

الــسابق وحاشيته، ويبدأوا في تنفيذ خطط الوزير اللاحق من نقطة صفر ينسفون فيها كل ما سبق، وبطريقة لدغٍ من أفعى صحراء لا ترحم.

والاثنان لا يختلفان عن توجهات وكيل الوزارة والمدير العام الفاسد في تعاقده لــشراء سلاح قديم لا ينفع، وطائرات منتهية أعمارها لا تقلع، وتجهيزات لا تفي بالغرض المطلوب، لا تصلح، ولا عن طريقته في تمرير العقود يوم أزاح من يقف في طريقه بلسعة أفعى مهلكة.

وجمــيعهم منطقيا لا يختلفون عن رجال العصابات المنتشرين في كل مراكز الدولــة ومؤســساتها، وبعض أفراد المليشيات المتغلغلين في كل مفاصل الحكومة، ودوائرها الذين يقتلون بعضهم البعض من أجل الإزاحة، وتوسيع هامش التحصيل، والنفوذ بوسائل غدرٍ تعبر عن فلسفة الأفعى في داخلهم.

وهكذا تمتد خاصية الإزاحة أو تزحف إلى جوانب الإدارة، والعلاقات العامة حــتى يجد المتتبع في لغة الحوار بين الموظفين، والناس العاديين، وعموم العراقيين قد تحولت بسبب هذه التراكمات العدائية إلى لغة:

زادت فيها مفردات الذم، والنقد، والتجريح، وأصبحت فيها الإشاعات مادة تقترب من الحقيقة، والادعاءات الباطلة تعبير عن وجهة النظر الصحيحة، يريد منها الــواحد أن يلغــي الآخر أي يزيحه بطريقة عدائية يمكن تشبيهها مجازا ولأغراض التوضيح بلدغة أفعى.

إن هــذه المشاعر، وأساليب التعامل، والرغبة بالإزاحة دوامة نمت، وتوسعت بــسبب الإدارة النفسية غير الصحيحة للمجتمع ستكون من بين العوامل التي تحول دون نجاح العديد من خطط الحكومة الأمنية، والمصالحة الوطنية.

وســتعرقل خطط التنمية، وإعادة بناء البلاد التي تسعى الحكومة إلى تحقيقها لأن الأمــن في بلــد مــثل العراق يحتاج تحقيقه إلى مشاركة واسعة من الأبناء في خطوات التحقيق.

إن مــن بــين الحلــول ذات التأثير الفاعل على نجاح خطوات بسط الأمن، والتقلــيل من توجهات القتل، والإزاحة المصالحة، لكنها مشروع لا يخلو من تعقيد

لأنـــه يعتمد أولا، وقبل كل شيء على التصالح مع الذات، وإخراج الأفعى السامة من نهج تفكيرها.

وإعادة البناء كمشروع يتأسس على همة الجميع، وتكاتفهم بعيدا عن اللدغ، والإزاحة، والتسقيط.

إن الإزاحـــة دوامـــة مـــسؤول عن انتشارها عموم العراقيين خاصة بعد أن تـــضاءلت الإلفة، والمودة كقيم دافعة لسلوك التودد، والاطمئنان، وعم بدلا عنهما النفرة، والعزل، والتوجس من ساكن قديم في الشارع، وآخر جديد.

ومـــن المديـــر، والطالـــب الجـــالس على نفس الطاولة في الصف، والمدرج الدراسي، ومن الحارس، وصاحب المتجر القريب، وغيرهم.

وبعـــد أن زاد الشك في دورية الشرطة التي تقف في الساحة المجاورة للبيت، والأخرى العسكرية التي تمر قريبا على الطريق، وكذلك.

بقارئ مقاييس الكهرباء، وعامل التنظيف، وبعابر السبيل.

شـــك لا يفـــضي إلى الطمأنة بقدر ما يمهد أو يزيد من التوسع في الإزاحة كنوع من التعويض عن طمأنة مفقودة في جميع الأحوال[1].

---

(1) لقـــد توسعت مساحة الشك في المجتمع العراقي كثيرا بسبب تعدد مصادر التهديد التي يشعر المـــواطن وجودها حوله أو قريبا منه، فالحزام الناسف الذي يحمله انتحاري يفجره بين جمع من المتبضعين على رصيف الشارع العام على سبيل المثال جعل من يسير في كل الشوارع يـــشك بغيـــره مـــن السائرين قريبا من مكانه إذا لم يكن يعرفهم عن قرب، والدراجة النارية المفخخـــة التـــي تنفجر بين الطلاب، والتجمعات الشبابية، وغيرها تدفع بطبيعة الحال معظم الـــناس الموجودين في أن يشكوا بكل الدراجات النارية التي تمر من نفس الطريق، والعبوة الناســـفة المـــزروعة على حافة أو وسط طريق سالك تعزز الشك، والخوف من السير على نفـــس الطريق، والطرق الأخرى، وسيارة التاكسي المفخخة بقصد التفجير في مكان فيه ناس وجمهـــور تدفـــع إلـــى الـــشك، والتوجس بجميع سائقي سيارات التاكسي، واستخدام الجامع والحسينية مشجبا للسلاح، ومخزنا للمتفجرات، ومكانا لإيواء المشبوهين، ومركزا للتحقيق مع المتهمين في الطرف الثاني سيصيب المصلين بخيبة أمل من وجودهما في بيت من بيوت الله مصون، وكذلك بالشك، والتوتر طيلة وجودهم فيهما يصلون، والاختطاف من قبل السيطرات الوهمـــية تبعا للاسم، والهوية يُوجـــد الشك من قبل العموم بكل السيطرات الحكومية، وغير الحكومـــية، وبجدوى وجودها عامل تعزيز للأمن، والاستقرار، والقتل في الشارع، والمحلة فـــي المدينة، والريف في الليل، والنهار يستثير الشك في كل مواطن يمر، وبكل عابر سبيل، وغيرها من المثيرات التي تقرب من الإصابة بالانهيار.

إن تكرار تطبيقات الإزاحة، والاجتثاث عبر مراحل التاريخ الحديث منذ العام 1958 وحتى وقتنا الراهن يدلل على أنها "الإزاحة" مفهوم يحتل حيزا في العقل العراقي إلى المستوى الذي يحرك أو يوجه سلوك البعض بالاتجاه الذي لا ينسجم والتوجهات الإنسانية ولا يتوافق مع المنطق، والحاجة، والرغبة الدولية، والعربية في إعادة بناء العراق الديمقراطي الذي لا ترسى دعائمه كما هو مطلوب، إلا بإزاحة أو اجتثاث فكر الإزاحة، والاجتثاث.

المبحث الثالث

الجلد

التفاخر بالنفس حد الاعتداد بها عادة عند العرب، وبينهم العراقيّون، وُجدت في الجزيرة وانتشرت مع انتشارهم خارجها، عبر عنها الشعراء خير تعبير، وتمثل بها الحكام خير تمثيل، ومن بين خصائصهم النفسية الدارجة في المقابل أيضاً أن لا يعترفوا بأخطائهم بسهولة[1]، ولا يذكروا سلبياتهم بواقعية، وإن ذكّرهمْ أحد بها يحاول غالبيتهم المراوغة، والابتعاد وكأن التذكير يشعرهم بالانتقاص من القدر والقيمة، ومن بين خصال العامة أو بالمعنى الأدق الأقل تحصيلا، ووعيا في المجتمع العربي، والعراقي إدعاء المقدرة(20) واستعراض القوة واستخدامها بإفراط في غير موقعها، والشعور بالذنب في داخلهم.

---

(1) إن عدم الاعتراف بالخطأ خاصية تكاد أن تكون عامة لا يوسم بها الناس العاديون، وغير المثقفين فقط إذ إنه وفي أثناء الحرب العراقية – الإيرانية شكلت الحكومة لجنة بحوث عليا تحت تسمية لجنة بحوث قادسية صدام يرأسها رئيس جامعة بغداد وعضوية أساتذة ومتخصصين في عدة علوم، وممثلين عن وزارة الدفاع من الباحثين، وفي إطار عملها البحثي أنجزت دراسات بينها عن الشخصية الإيرانية، وأخرى عن الشخصية العراقية، وعند الرجوع إلى هاتين الدراستين يجد المتابع أن دراسة الشخصية الإيرانية خلَتْ بوجه العموم من الإيجابيات التي يفترض أن تكون موجودة في شخصية كونت في تاريخ مسيرتها إمبراطورية عالمية، واستمرت تقاتل بإصرار منقطع النظير يدلل وجود بعض الخواص الإيجابية، وعلى النقيض من ذلك وعند مراجعة ما يتعلق بالشخصية العراقية يجد المتابع أنها قد خلَتْ من ذكر السلبيات بطريقة تقديم وإن كان الخوف يغلف جوانبها لكنها تعبر من زاوية أخرى عن وجود خاصية عدم الاعتراف بالخطأ حتى على مستوى البحث العلمي الذي يفترض أن يكون حياديا، ودقيقا.

ولهـــم مـــثل باقي شعوب العالم خصائص أخرى تعد إيجابية، وأخرى سلبية تفاعلت طيلة العقود القديمة مع أساليب الإدارة المتبعة مكونة سلوكاً يتكرر بنسب ليست قليلة بين شرائح عدة فيه تناقض واضح قوامه:

1. التأيـــيد الظاهري للحاكم لمستوى الإسفاف، والاعتراض المبطن على حكمه حد المقت.
2. الدعـــوة إلى تأيـــيده، ونصرته على أي عمل يقوم به لغاية التبجيل، والشعور بالاشمئزاز من تصرفاته حد الكره.
3. الـــرقص بحـــضرته هـــستيريا حـــد الإعـــياء، والـــرغبة في ذمه إلى مستوى التكفير[1].

وغيرهـــا من تناقضات الأفكار، ومعالم السلوك أدرك طبيعتها الحجاج، ومن بعده صدام حسين الذي تصرف على وفقها في إدارة الدولة، والمجتمع على طريقته الخاصة لما يزيد عن ثلاثة عقود سجل خلالها بشكل ملموس أنه سيطر على مجتمع عرف بصعوبة السيطرة عليه، وسبيله إلى ذلك المكارم التي شرعها[2] كمبالغ نقدية،

(1) فـــي العهـــد السابق كان المعنيون في ديوان الرئاسة ينظمون لقاءات مع عراقيين يعتبرونهم وجهاء البلد أو المدينة لمقابلة صدام حسين في المناسبات، نجد من بينهم من يتوسط، ويكثف اتـــصالاته لكـــي يُسَجل ضمن القائمة المطلوبة، وعند النظر إلى التلفزيون يوم المقابلة نجده جالسا في الصف الأول، متبرعا برواية بطولاته في حماية النظام أيام القادسية، وأم المعارك وغيـــرها، مشيدا بعبقرية الرئيس في حكمه، وعدالته وإنصافه. وعندما يحين موعد الهتاف، والدبكـــة" الرقص الشـــعبي" يكـــون هـــو أنشط الراقصين المتحمسين، وبعد يوم من عودته يدعـــو القـــريبين جدا على وليمة عشاء من المليون دينار التي قبضها قبل مغادرته القصر، يقـــص عليهم ما حصل ثم يختم حديثه بعبارة باتت تتكرر كثيرا في الجلسات الخاصة آنذاك "لو بس الله يخلصنه من هذا الرئيس".

(2) التـــناقض موجـــود في الذات الإنسانية يزداد أو يقل تبعا لمؤثرات المحيط البيئي للتعامل مع موضوعه، وهو موجود في العهد العراقي السابق، ومستمر بوجوده في العهد اللاحق إذ وفي لقـــاء للجعفري إبان رئاسته الوزراء تم في لندن عام 2005 مع جمهور للجالية العراقية تقدم سياسي يظهر على شاشات التلفزيون كثيرا بشرح أمام الجعفري عن حاجة الحكومة إلى من يحمـــي ظهـــرها إعلامـــيا، وهو متبرع أن يكون من الحماة المخلصين، خاتما حديثه أنه لم يحصل على أي شيء من التغيير رغم نضاله الطويل، وعندما رده الجعفري بأن المناضلين لا يتقاضـــون ثمن نضالهم، ملأ في اليوم الثاني مواقع على الانترنت بالكتابة ضد الجعفري واصفا إياه بشتى الأوصاف السلبية.

حوافز على الرواتب، قطع أراضي، إيفادات للعلاج، والترفيه، وغيرها للتعامل مع تناقضات الأفكار للتقليل من أثر الجانب السلبي فيها، وتعزيز السلوك المرغوب من قبله فزاد من عدد المتملقين من حوله وفي المجتمع الكبير.

والعقوبات التي فرضها حبسا، وإعداما لإطفاء السلوك غير المرغوب من قبله فقلـــل مـــن عـــدد المعارضين، والمنصفين، وأهل الحق، وإن كانوا كثراً بالنوايا، والتمنيات.

إلا أن الأمـــر قد تغير نسبيا خلال السنوات الأربع التي أعقبت التغيير نتيجة التعرض لأنواع جديدة من الضغوط، وأساليب القتل، والتدمير التي لم يكن الحاكم طرفا فيها، وكان بطلها، وأداتها العراقي في الشارع، والدائرة، والثكنة، فكان تغيرا ملفتا للنظر خاصة في الأشهر الأخيرة من عام 2006 وبداية 2007 حيث النـــزول الواضـــح مـــن على فرس الاعتداد بالنفس، والرغبة في الاعتراف بالخطأ، ومن ثم الاجهار بوجود السلبيات، وكذلك تعميم الشعور بالذنب، ولوم الذات حد الجلد عـــند الغالبـــية العظمـــى من العراقيين، إنه تغير في السلوك يؤشر الإصابة العامة بالاكتـــئاب، والإحباط أنتج عدوانا بدأ موجها إلى الذات حيث التوسع في ذمها، وتحمـــيلها المسؤولية، وقد يتحول إذا لم يتم التعامل الصحيح معه إلى رموز الدولة، والمجـــتمع بـــسبل مخـــتلفة بينها سحب الثقة، والتأييد، ومن ثم الاحتجاج اللفظي والمـــادي، وقـــد يكون آخرها الهياج العام بطريقة يصعب الوقوف أمامها من قبل القوى الضابطة التي أصيبت هي أيضاً أو عديد منها بنفس الداء.

إن عملـــية "دوامة" الجلد التي تؤشر الأحداث سعة وجودها في المجتمع إذا ما فـــسر على أساسها الميل للتدمير، والرغبة بالهدم الموجودة في الوقت الراهن مسألة يمـــتد الجلـــد فيها إلى خارج الذات أي إلى الآخرين لجلدهم بطرق متعددة بينها الانـــتقام الـــذي حجمَّ التحضر المتحقق من غلوائه في جميع الأمم المتقدمة، وعززه التخلف في مجتمعنا إلى المستوى الذي يقدم فيه أمثلة عديدة غير معقولة من وجهة نظـــر الغير منها مثلا أحد من أفراد عائلة دهست سيارة مارة أخاه فحمل نفسه، ورجـــال أسرته إلى الجاني مطالبا بالتعويض "الفصل" أو الاقتصاص، وموظف كبير أو ضابط رفيع المستوى، غيّرَ بزته الرسمية، وارتدى زيا شعبيا ليكون شيخا، يحث

على الانتقام من الأعمال التي تمس أحد أفراد عشيرته، ويفصل بين الآخرين داخل العشيرة، وخارجها.

أحد الأساتذة الجامعيين يعيش حالة خوف شديدة بسبب قيام ابن عمه بالقتل العمدي لشخص من عائلة أخرى.

لا يحصل ذلك وما شابهه في المجتمعات المتحضرة لأن الناس فيها ينظرون إلى القانــون علــى أنّه الجهة المؤهلة للفصل، فيطالبونها جميعاً باتخاذ اللازم في مسائل القصاص، والتعويض. أما العراقيون الذين ينظرون إلى الموضوع من زاوية أخرى لم تعــد مشكلتهم الردة إلى تقاليد العشيرة في مجال الفصل بعد أن أعيد مجتمعهم قرناً إلى الماضي، وإنما استشراء فكرة القصاص أو بالمعنى العلمي الانتقام الذاتي بديلا عن عقاب القانون، لتسود سلوكا لعموم المجتمع، وبينه مجتمع السياسة، الذي يتبين في ثنايا بعضه:

حــزب سياســي أصدر قائمة أسماء مطلوب تصفيتهم كانوا من العاملين في النظام السابق، لم يجرمهم القانون، ولم يرتكبوا ذنبا يحاسب عليه القانون.

سياسي معروف أرسل أعضاء من حزبه يطالبون بعثيا بالفصل كان قد تسبب في إيذائه إبان الحكم السابق خارج سياقات القانون.

قــصص كــثيرة بنفس السياق قوامها الرغبة في الانتقام وإن غُلفَ بعضها بغــلاف السعي إلى الكسب، والتحصيل أسهمت في توسيع دوامات الفوضى، والاضــطراب لأن الانــتقام كمشاعر عدوان تؤذي الذات، تَعَودٌ غالبية أبناء المجــتمع على التخلص منه بطريقة رد الإيذاء إلى مصدره الأول أي الانتقام من مثيره في الأساس.

إن الــرغبة في جلــد الآخرين أو الانتقام دوامة لو توجهنا إلى مناقشة آثارها على مستوى السياسة بعيدا عن العشيرة، والعائلة نجد وبما لا يقبل الشك أنها سلوك سيتعمم فيه الإيذاء على آخرين غير الجاني بنسب كبيرة، إذ وعندما يقتل فرد سبق وأن رفــع تقريراً بالضد من آخر على رصيف الطريق أمام ابنه الصغير سيدفع هذا القتل إلى تنشئة الصغير عدوانيا حاقدا على الجهة التي قتلت والده، والنظام الذي لم يردع القاتل.

والـــزوجة التي اختفى زوجها في أيامنا هذه بسبب شهادته الزور بالضد من عراقـــي أعدمـــه صـــدام قبل حكم القضاء ستملأ أولادها، وإخوتها، وأحفادها، والقريبين منها حقدا، وعدوانية، ومقتا بالضد من مصدر الإخفاء الجديد، وسيظهر مـــن بين هذه السلسلة الطويلة للحاقدين من يحمل بندقيته منتصف الليل ساعيا إلى التخلص من تلك الأحقاد التي ملأت نفسه بطريقة القتل.

وهكذا نجد أن المواطنين قد أدخلوا أنفسهم بإرادتهم في دوامة للعنف، والعنف المضاد لا تنتهي وستكون خسارتهم فيها إخوة، وأحبة، وعراقيين لو أحكموا العقل وتوجهـــوا إلى القـــضاء لأسهموا في أولى خطوات البناء لعراق التسامح، والأمن، والاستقرار.

المبحث الرابع

التجريف

دأب تنظـــيم القاعدة بقطع الرؤوس "تحصل لأول مرة في العراق" عن أجساد الموتـــى في طـــريق دفـــنهم المار باللطيفية عام 2005، وكذلك قتل من معهم من المشيعين – الجنازة – على نفس الطريق المؤدي إلى النجف، وكان المجني عليهم من الأحـــياء، والأموات بطبيعة الحال مسلمون شيعة غير معروفين للجناة، و لم يكونوا مطلـــوبين ثأرا لأهل المنطقة، ولا للجناة الحقيقيين، وهم كذلك مواطنون لم يسبق أن درجت أسماؤهم في سجلات الشرطة مع الشقاة، والمطلوبين، و لم يتهمهم أحد بـــأنهم قد أخلّوا بمعالم الشريعة الإسلامية، والدين، إنهم فقط توجهوا إلى الدفن في وادي السلام كما فعل الآباء، والأجداد.

إن الجـــاني في مثل هكذا جرائم تكررت على هذا الطريق، وإن كان مجهولاً بـــسبب عـــدم قدرة الأجهزة الحكومية آنذاك على إلقاء القبض عليه أو ردعه فإن الوقائـــع، والأحداث تؤكد إنه إرهابي وافد من الخارج، وعراقي انحرف بتأثيره من الـــداخل لا هم لهم سوى القيام بفعل القتل أيما كان المقتول، والهدف في إطارها أيـــضاً واضـــح قوامه دفع المجني عليهم، وأقاربهم، وأبناء طائفتهم من الشيعة باتجاه القيام بفعل القتل المقابل لآخرين من السنة هم أيضاً أبرياء، وارتكاب جريمة بنفس

المستوى من حيث الإثارة، والتأثير كنوع من الأخذ بالثار صعبت السيطرة عليه في ظـــروف الضعف البين للأجهزة الأمنية الضابطة، وحالة الغضب العارم للمنفعلين خـــصوصا عـــام 2006 وما بعده، كما إن ذات التنظيم، وتنظيمات أخرى تعمل بـــنفس النهج استوعبتها القاعدة أمرت عوائل سنية، وشيعية أن تغادر - تجلي - سكنها في الدورة، وأبو غريب، والعامرية، والشعب، وسلمان باك، وغيرها أماكن أخـــرى، لـــيس بـــسبب مخالفتها قواعد السكن، أو تجاوزها على المعايير، والقيم الاجتماعـــية للمـــنطقة، والمحلة، و لم يجر إجلاؤها باتفاق وجهاء المنطقة، بل ولأنها تنتمـــي إلى طائفـــة غير التي ينتمي إليها الآخرون، ولا ذنب لها سوى السكن في منطقة غالبيتها من أبناء طائفة أخرى ظنا منها أنها وإياهم جمع من العراقيين أو إنها ورثـــت ســـكنها من أجداد لم تؤشر وقائع التاريخ أن أحدا منهم كان ممنوعا من الـــسكن في أي من بلاد المسلمين، والجاني في هذه الجريمة بقي أيضاً مجهولاً، وإن اتفق العقلاء من أبناء الطائفتين على أنه عمل لا يقوم به مسلمون، وفعل لا يتعدى الإرهابيين يراد منه الدفع باتجاه ذات السلوك على أبناء الطائفة المقابلة.

إن طبـــيعة الحوادث المذكورة أعلاه، وغيرها التي جرت وما زالت تجري في العـــراق تصنف في خانة التجريف البشري بهدف تكوين تجمعات سكانية طائفية يـــزاد عمـــدا كـــم الحقد، والنفرة، والعداء بين أبنائها وتوسع قاعدته لزيادة وقع الاقتـــتال إلى المـــستوى الذي تعجز فيه الحكومة عن السيطرة عليه، وإدارة شؤون الأمـــة والـــبلاد، عندها سيتقدم السلفيون، ويتربع على كرسي الحكم إرهابيون، وتكفيريـــون يتوجهون على الفور إلى تطبيق الشريعة الإسلامية الخاصة بهم وعلى وفق مفهومهم من خلال:

1. غلق صالونات الحلاقة، ومنع لبس البدلات الغربية، ومنع تعليم المرأة.
2. التوجه لركوب الخيل، والدواب بدل السيارات، والقطارات.
3. غلق محطات الإذاعة، والتلفاز.
4. تحريم دراسة الطب النسائي، وهندسة الجينات.
5. تكفير من لا يطلق اللحى.
6. إزالة كل نادٍ، ومسبح، وملعب كرة، ومقهى انترنت.

7. الحكم بالإعدام على من يقرأ كتابا عن الجنس، وقصص ألف ليلة وليلة.
8. تبديل المدارس بالكتاتيب، والكليات بمراكز التلقين.
9. محو قبور الآباء، والأجداد.
10. تفجير التماثيل، ومعالم الحضارة، والآثار.
11. السماح بتناول الأفيون، والحشيش بدل الكحول المحرم، والممنوع.

هـــذه أعمال، وأخرى غيرها تعد نوعاً من التجريف المادي، والفكري بقصد بعيد المدى غايته أن يدرك من سايرهم، ومن عانى أفعالهم أن الدين بوسائله المتبعة علـــى خطـــأ، وإشعار المسلمين من أهل السنة، والشيعة في العراق، ومن بعدهم الموجـــودين في الـــدول الأخرى أن زمن الاحتكام إلى الدين في التعامل اليومي قد انتهى، ولا مكان له الآن.

وفي الطـــريق لتحقـــيق الأهـــداف الاستراتيجية سينحرف البعض، ويهاجر الـــبعض، ويموت انتحارا البعض، ويجن البعض، ويغير دينه البعض حتى تتأمن كل الغايات.

إن طبـــيعة الإنسان، ومجريات السياسة تنبئ أن الوضع في العراق سوف لن يـــستمر على ما هو عليه الآن، وسيعود إلى الاستقرار بعد كارثة تؤدي فيها دوامة التجـــريف غايـــتها المؤقتة لتعميم الكره، والحقد، والشعور بالدونية، ويفعل القتل فعلـــته في زرع الخـــوف، والإقـــلال من قيمة الإنسان، ويحقق التطهير العرقي، والطائفي أهدافه في العزل، والفصل، والإضعاف، لكنهم، وقبل العودة إلى جوانب الأمن، والاستقرار سوف يتوجهون في الغالب إلى أن يعيدوا حساباتهم في التعامل مع من يحكمهم بعيدا عن الدين، ويدركوا أنهم سكتوا عن ارتكاب القتل، وغضوا الطـــرف عـــن التجريف، وتعاطفوا أحيانا مع الخطأ لإشباع ميول طائفية مريضة فتتكون لديهم مشاعر ذنب، وعدوان يتم توجيهها إلى الطائفة، والدين، ويتفهمون أو يقـــبلون نظرية الثمن المدفوع لخلاصهم من ألم المساهمة، وسيكون باحتمالات عالـــية تـــرك الدين إلى أهل الدين، والسياسة للسياسيين في مجتمع سيكون الدين أضعف حلقاته بعد ضربات قد توجه له في الصميم، إنها صورة عن المستقبل، وإن كانـــت مفترضة لكنها تستند على بعض وقائع يحدث قسم منها في المجتمع العراقي

في الـــوقت الحاضـــر مثل القتل، والتجريف، والتكفير، والتسقيط، والاستحواذ، وغيرهـــا الـــتي لا تنسجم مع الطبيعة الإنسانية في العصر الحالي، ولا يمكن لها أن تـــستمر منطقـــيا إلى النهاية لتقضي على جل الشعب العراقي، عليه وتبعا للطبيعة البـــشرية ســـنجد بعـــد الكارثـــة من يفتش من السياسيين الوطنيين، والمسؤولين الحكومـــيين عن الحل الوسط أو يؤمر بالتفتيش عن الحل الوسط الذي يشترط أن يكـــون فيه الدين بعيدا عن السياسة إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار وجود طائفتين في العـــراق لا يمكـــن لإحداهما أن تحكم باسم الدين وقد وضعت هي فقها سياسيا للحكم يختلف عن الطائفة المقابلة التي وضعت هي أيضاً فقها لا يلتقي مع الأول، وابـــتعدا كلاهمـــا عـــن الـــدين الإسلامي الذي لم ينتج فقها موحدا في الحكم، والـــسياسة، ووقائـــع تحدث على مستوى الخارج يتجه على أساسها العالم بقيادة أمـــريكا إلى العـــولمة، وصياغة الشرق الأوسط الجديد الذي لا يمكن على مدياته البعـــيدة أن تكـــون مـــن بين دوله دول متطرفة دينيا تثير التوتر، وبما لا ينسجم ووجـــوده أي التوتـــر أسلوبا لإدارة الأزمات بعد استبداله بالاقتصاد في نظرياته، وأســـاليبه الحديـــثة التي لا يستطيع أن يجاريها الدين. مما يؤشر ولو بإشارات غير واضـــحة المعالم أو غامضة في كثير من الأحيان أن العديد من الوقائع التي تجري في العـــراق قد يكون البعض منها ضمن سياق الوصول إلى الغاية الاستراتيجية بعيدة المدى "لعشرات من السنين المقبلة" التي يراد لها أن تثبت للمسلمين قبل غيرهم أن الدين الإسلامي بجميع طوائفه لا يصلح للحكم، ولا ينبغي أن يحكم العراق، وأي من بلدان العالم الآخر.

الباب الثالث

العوامل النفسية في المحنة

الاحتمال الأكثر قلقا يتعلق بشكل العراق الذي باتت تقود إلى صورته الأحداث، عراق أقرب للتقسيم فيه قوة تأثير للطائفة، والقومية أكثر من الوطنية.

نشبت الحرب في العراق يوم 2003/3/20 من قبل ائتلاف دولي يتكون أساسا من أمريكا، ومن بعدها بريطانيا، ومن ثم أستراليا، وبولونيا، وكوريا الجنوبية، ودول أخرى انسحب بعضها[1] وبقي البعض الآخر حتى السنة الرابعة، وكان في حساب الدول، أنّ الحل الوحيد لأزمة أسهم حكومة صدام آنذاك هو بزيادة تعقيداتها وأرادها الحلفاء فرصة مناسبة لإجراء بعض التغييرات في واقع المنطقة بما يخدم النظام الدولي الجديد أحادي الجانب، وهي حرب حاولت العديد من

---

(1) لقد شاركت عدة دول في الائتلاف الذي دخل الحرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، أبقت بعضها في العراق قواتها المشاركة، وخففت أخرى من وجودها، وسحبت ثالثة كل قواتها، وكان مجموع حجم القوات بداية عام 2007 بحدود 155 ألفا إضافة إلى 21 ألف جندي أمريكي سيصلون تباعا لتعزيز القدرة العسكرية الداعمة للخطة الأمنية التي نفذت في كانون الثاني نفس العام، وعموما إن الدول التي لها قوات على الأرض العراقية حتى الوقت الحاضر هي:

الولايات المتحدة الأمريكية 141 ألف + 21 ألف يصلون تباعا.

بريطانيا 7100 ينتشرون بشكل رئيسي في جنوب العراق سوف يتم سحب 1600 منهم في الأشهر الأولى من عام 2007 حسب قرار لرئيس الوزراء توني بلير.

كوريا الجنوبية 2300 جندي من المقرر سحبهم نهاية عام 2007.

أستراليا 1400 جندي بينهم 550 مقاتلاً والباقي خدمات، وإسناد وفنيون.

بولندا 900 جندي سيبقون حتى نهاية السنة المذكورة.

جورجيا 859 من المؤمل أن يزداد عددهم إلى 2000 قبل انتهاء العام. رومانيا 605.

الدنمارك 460 سيتم استبدالهم في آب المقبل بوحدة مراقبة مكونة من أربع مروحيات و50 عسكري.

السلفادور 380، بلغاريا 155، أذربيجان 150، ألبانيا 130.

لاتفيا 130، منغوليا 100، تشيكيا 97، ليتوانيا 50، أرمينيا 46، استونيا 40، مقدونيا 40، البوسنة 36، كازاخستان 39.

هناك دول أخرى شاركت بقوات وانسحبت هي نيكاراغوا، وأسبانيا، والدومنيكان، وهندوراس، والفلبين، وتايلاند، ونيوزلندة، وتونغا، والبرتغال، وهولندة، والمجر، وسنغافورة، والنرويج، وأوكرانيا، واليابان، وايطاليا، وسلوفاكيا، ومولدافيا(21).

الـدول، وبيـنها العـربية الحيلولة دون وقوعها من خلال التحاور، وإرسال الرسـائل، والوفود لم يكن لجميعها فعل التأثير على إرادة الطرفين في الاستمرار بتنفيذ أهداف وقوعها.

وهـي مثلها مثل الحروب الأخرى في المناطق الأخرى التي لها عادة مؤيدون وداعمـون، ولهـا في نفـس الوقت معارضون ومنددون، ولها مكاسب تحققها للأطـراف المشاركة، والمساندة، والمؤيدة، وهناك في نفس الوقت أضرار تقع على نفـس الأطراف، والأطراف المعارضة لحدوثها، وغير المؤيدة لحصولها، وتلك التي تقـع قريبا من ساحتها في بعض الأحيان، وهناك أيضاً توقعات للضرر، ومواقف تتخذ على أساس المكاسب، والضرر، والتوقعات، تدفع جميع الأطراف المشاركة في ساحتها، والقريبين من محيطها في ظروف الثورة الإعلامية إلى التحرك باتجاه زيادة الكسب، وتقليل الضرر، وتبرير التحرك، ومع ذلك بقى الضرر العامل الأكثر إثارة لانفعـالات الـناس في موضوعها بالمنطقة على وجه الخصوص يحاول المعارضون لحـصولها اسـتثمار مفرداته في أنشطتهم النفسية والإعلامية بهدف زيادة فسحة المعارضة أملا في تحقيق أهداف بينها:

1. الضغط باتجاه سحب قوات الاحتلال باعتبار أنّها عامل تهديد قريب.
2. السعي إلى حرف مسيرة العملية السياسية الجارية في العراق باعتبار أن نتائجها قد تشكل عوامل تهديد.
3. الدفع باتجاه تكوين نظام سياسي ملائم لتحركها يحقق بعض مصالحها، ويقلل من احتمالات التهديد.
4. إيجاد نفوذ قوي داخل الدولة العراقية يمكن استثمار تأثيره تعبويا، واستراتيجيا لزيادة الكسب المتاح.
5. تقليل نسب الخسارة أي الضرر الذي يعتقد حصوله جهد الإمكان.

وعموما فإن موضوع هذا الكتاب وكما ورد في مقدمته لا يتعلق بالمكاسب الـتي تحققـت أو التي ستتحقق لأنه استعراض لمفردات محنة أو دوامات كوارث حـصلت في المجـتمع العراقي، وتحليل لطبيعتها وتأثيراتها، على حاضره ومستقبل أبنائه، عليه ومسايرة لموضوعه سيكون الضرر الذي نتج عن الحرب، وبالذات فعل

التغيير الحاصل بسببها، وتوقع مسيرته، والمواقف التي تأسست عليه هو محور النقاش فيما يتعلق بالعامل النفسي الذي يتماشى مع الغاية العامة للكتاب.

إن العرب، والمسلمين القريبين من العراق تأثروا بشظايا الحرب الدائرة في ساحته بشكل مباشر أو غير مباشر، وسيتأثرون بفكر التغيير، وفلسفة الحكم بعد استقراره، وضرر هذه الشظايا لا يتوقف عند حدود الاقتصاد، والنفط، والعمالة، والهجرة، التي لا تهم كثيرا من وجهة نظر الغالبية على أية حال، بل وتلك الامتدادات لعدوى الإرهاب، وأعمال السياسة، والآثار النفسية للضرر التي جاءت أولى بوادرها رغبات لم يخفها الأمريكان بإعادة خارطة المنطقة بطريقة لا تحتم الضرورة إتمامها باستخدام القوة رغم احتمالات وقوعها في بعض المناطق القريبة جدا أو المتاخمة للعراق، وعموما فإن الضرر الذي يتوقعه أو يخشاه العرب، وغيرهم في المنطقة يتأتى من واحد أو أكثر من الاحتمالات التالية:

1. امتداد الحرب بصفتها العسكرية إلى داخل حدود تلك الدول، خاصة القريبة من العراق مثل سوريا، وإيران، الأمر الذي يدفع بها أن تكون طرفا على الرغم منها، وهي امتدادات يسهل حصولها عملياتيا بعد دخول مقاتلين متطوعين من داخل حدودهما، وحصول أعمال عسكرية على حافاتها بمستوى يمكن التوسع به إذا ما أريد لهذه الحرب أن تمتد، لكنها من الناحية الاستراتيجية لم تزل بعيدة الاحتمال لأن الاحتلال في الساحة الداخلية للعراق وبعد أربع سنوات لم يحقق غايته في بسط الأمن، وتكوين مجتمع يعد مشعا للديمقراطية كما هو معلن، عليه يصعب تورطه في أعمال عسكرية واسعة النطاق على الأرض خارج تلك الساحة في الوقت الراهن، مع عدم استبعاد القيام بضربات صاروخية، وقصف طائرات لأغراض الردع، والتدمير الجزئي لكسر إرادات، وفرض أخرى عندما تقتضي الضرورة ذلك.
2. تحمل أعباء التواجد، واللجوء الذي يحصل في ظروف أمنية صعبة، ومعاشية معقدة يستحق فيها العراقيون المساعدة، وهي غير جاهزة على تقديمها، وهذا واقع في الوقت الحاضر بالنسبة إلى سوريا، والأردن اللتين اشتكتا مع نهاية عام 2006 من كثافة الهجرة، وتأثيراتها على أعباء الحياة في كلا البلدين، وستقع

باحـــتمالات أقل لباقي دول الجوار إذا ما زادت مصاعب الأمن، واضطربت الحياة السياسية.

3. تفاعل الشارع العربي مع وقائع الحرب، وكثرة الإصابات الحاصلة بين العراقيين الـــتي كـــونت، وســـتكون مشاعر عداء نحو الأمريكان يمكن أن تعمم نحو الحكومات العربية المؤيدة، والداعمة، والصامتة، وأجهزها الرسمية بسبب العجز في الـــتدخل لـــتقديم العـــون في التهدئة، أو عدم إعلان الوقوف بالضد من الأمريكان.

4. والاحـــتمال الأكثر قلقا للعرب، والقريبين منهم ما يتعلق بشكل العراق الذي باتـــت تقود إلى صورته بعض الأحداث عراقا أقرب للتقسيم منه إلى الوحدة، فيه قوة تأثير للطائفة، والقومية أكثر من الوطنية العراقية التي ستؤثر على المحيط القريب بطريقة الحث، والعدوى.

هـــذا وإذا مـــا استثنينا الكويت لاعتبارات الصراع المستمر بينها من جانب، والـــنظام الـــسابق من جانب آخر الذي أدخلها طرفا في التحالف، وما ترسب في الذاكرة الكويتية القريبة من شعور بالتهديد المستمر من ذلك النظام، وضرر حاصل مـــن وجـــوده، نجد أن غالبية الحكومات العربية قلقة جدا من التغيير، واستمرار الحرب، وبسبب قلقها تقف غالبيتها ليس مع مجرياهّا على مستوى السر، والعلن، خشية من احتمالات حصول الضرر، وامتداد حصوله.

والأكثـــر شجاعة من بين تلك الحكومات أيد ما جرى أي الحرب، والتغيير، واعتـــرض على ما يجري خلال فترة الانتقال وما بعده، ودعم في السر، وما زال يـــدعم، وأبقى من جانب آخر المجال مفتوحا للوقوف بالضد منها لبعض مفاصل إدارتـــه، وإعلامـــه، كما وفر فرصاً مسيطر عليها لشعبه في أن يتكلم، ويتظاهر، ويطالب، ويحتج، ويصرخ كنوع من التنفيس المطلوب عن الانفعالات المكبوتة من ناحية، والإيحاء بتطبيقات الديمقراطية من ناحية ثانية.

إن الحـــرب التي حصلت بين الأمريكان، وحكومة صدام ذات جذور يعود بعـــضها إلى الحـــرب العراقية الإيرانية، والرغبة الأمريكية في تحديد حجم القوات العـــراقية، ونوع تسليحها، وإلى مرحلة غزو الكويت عام 1990، ومن ثم الحصار

الـــتي تـــركت في الذاكرة العربية كماً من الانفعالات غير السارة نحو الأمريكان ومـــؤيديهم كانـــت السبب في الوقوف بالضد قبل التمعن بالنتائج المحتملة، لكن الأمـــريكان الذين يتحسسون استخدام القوة دون سند ودعم دولي لم يجرؤوا على شن الحرب، وإحداث التغيير في نظام الحكم إلا بعد أحداث 11 أيلول سبتمبر التي غـــيرت مـــن رؤيتهم لإدارة الصراع في العالم بصفة عامة، وفي المناطق ذات البؤر الـــساخنة بينها العراق بصفة خاصة، على هذا الأساس أصبحت الحرب، والتغيير مـــثار توتر، وقلق، وساحة قتال للإرهاب، منتجة لفعل الإرهاب، وهذا بحد ذاته عامـــل قلـــق مـــضاف للعرب، والمسلمين، والمادة الرئيسية للجهد النفسي، لأنهم يتحسسون موضوعه، وتعريفاته، وازدواجية التعامل في مجاله.

إن الحـــرب وما تبعها من تغيير، واستمرار مقاتلة الإرهاب، والقوى المسلحة بالضد حقيقة على الأرض العراقية يقر بها الجميع، ويعترفون بوجودها على الرغم من اختلاف وجهات النظر بشأنها، فأمريكا الدولة الأقوى، والأداة الوحيدة لفرض الإرادة بالقـــوة موجودة في ساحتها، لا تعير اهتماما للخسائر التي تحصل[1]، ولا للشارع العربي، والعراقي الذي تتغير اتجاهاته في غير صالحها، وما تبقى من الدول مشغولة بكيفية تجنب آثارها كل حسب قناعاته، ومشاريعه المستقبلية، سواء باتجاه إقـــناع الأمـــريكان للـــبقاء في ساحتها حتى التهدئة الكاملة لمن لا يخاف الوجود الأمريكـــي في المنطقة وهم القلة أو بالدعوة للانسحاب الكامل، والمغادرة السريعة بالنـــسبة إلى من يخشى احتمالات التوسع بالحرب، وامتداد ساحتها إلى أرضه غير القادرة على تحمل أعبائها.

إن هـــذا الوجود أي الأمريكي في ساحة الصراع لأربع سنوات فيها القتال مـــستمر كـــوّن أطرافاً مستفيدة، وأخرى متضررة، وكوّن أيضاً أطرافاً معارضة، وأخـــرى مـــشاركة فيها المعارضون دول وشعوب أجنبية تزداد أعدادها، وعرب يجاهرون بالمعارضة يزداد حجم مجاهرتهم، وعراقيون تتسع رقعة معارضتهم، وفيها مـــن الجانب الآخر المشاركون، والمؤيدون دول حليفة تتناقص أعدادها، ومراهنون

(1) بلغـــت خـــسائر الأمـــريكان من العسكريين بحدود (3235) قتيل حتى 2007/3/24 حسب إحصاء قدمته شبكة (CNN) الأمريكية (22).

علـــى هـــذا الوجـــود يتنحون عن مواقفهم بالتدريج، وشاعرون بالاطمئنان منه يتناقصون يوميا.

وفي هـــذه الساحة تسعى تلك الأطراف إن صح التقسيم إلى تبرير مواقفها، وتدعيم وجهات نظرها، والتأثير في الآخرين من حولها، والبعيدين الذين يقعون في دائـــرة الـــصراع أو في الدوائر ذات الصلة به، والسلاح المشترك لهم جميعا خلال المعركة الدائرة في ساحته هو السلاح النفسي كإحدى وسائل التأثير، والحماية من التأثير الذي يملكه الجميع رغم الفروق الموجودة في حجم الامتلاك، ونوعية التقنية، ووفرة الاختصاص.

الفصل الأول

العوامل النفسية

إن الحرب التي نفذ الحلفاء صفحتها العسكرية بقيادة أمريكا كانت في حساب الكبار، واقعة حتما من الناحية العسكرية، لتأمين غايات سياسية ونفسية.

إن محاولـــة فهم العامل النفسي على أية ساحة صراع أحد أطرافها الأمريكان لابد أن تلحظ بعض جوانب الفلسفة الأمريكية في إدارته أي الصراع على مستوى العـــالم والـــتي تمحـــورت في العـــشرين ســـنة الأخـــيرة علـــى مفهوم العولمة MONDIALISATION الـــتي شملت العديد من توجهات العمل النفسي، والتي يمكـــن أن يفهم على أساسها أحيانا السلوك الأمريكي في التعامل مع بعض الوقائع في العراق.

والعـــولمة التي تعني بشكلها المعلن زيادة درجة الارتباط المتبادل بين المجتمعات الإنـــسانية مـــن خلال انتقال عمليات السلع ورؤوس الأموال، وتقنيات الإنتاج، والأشخاص، والمعلومات (23) مرحلة تاريخية، وحضارية تتصف بالسيولة، وعدم الثبات، فيها كثير من المتغيرات التي تتطلب جهودا فكرية مضاعفة لفهمها بشكل صحيح حتى قيل إنّها:

1. توفر بطبيعتها فرصاً استثمارية، ومعرفية هائلة.
2. تأتي في الوقت ذاته بمخاطر سياسية، ونفسيه كبرى (24).

علـــى أساسها يعتقد الأمريكان ضرورة أن تقدم بلادهم التي تمتلك 65% من المـــادة الإعلامية على مستوى العالم "نموذجا كونيا للحداثة" يحمل القيم الأمريكية الـــتي يـــرددونها دوما في الحرية، وحقوق الإنسان (25)، وكانت خطواتهم الأولى اقتـــصادية، ارتبطت بتجليات أخرى في المجالات السياسية، والثقافية، والإعلامية،

ومستويات قبول أي اقتناع في المجتمعات المستهدفة بصواب فكرها، وهو قبول من وجهة النظر النفسية يتطلب نوعا من التجانس ولو بالحدود الدنيا في كل المجالات وأهمها الثقافية، والاجتماعية والمعتقدية، وبعكسه سيكون لتطبيقاتها رابحون بشكل كبير، وخاسرون بشكل كبير أيضا، يبقي الصراع في المجتمعات البشرية قائما "وإن تغـيرت أدواته" لذا طرحت من بين أهم أهدافها في الحرب التي دارت في العراق تـوجهات لـتجانس سياسي "إقامة الديمقراطية" وتجانس اجتماعي "حرية التنقل وتأمين، حقوق الإنسان" وتجانس ثقافي "المعلومة لمن يريدها" وهي تجانسات ترتكز في بعـض جوانـبها على فن الإقناع "نفسيا" بالوسائل، والأدوات المتاحة وبينها اسـتخدام القوة "الردع النفسي"عند الضرورة، بهدف فرض قناعات "عالمية" بديلة عـن القناعات المحلية، باتت قريبة من بعضها بحكم وسائل الاتصال عالية الجودة، وتأسيـسا على ذلك كان للمجال الثقافي ذي الصلة بالجوانب النفسية أسبقية في الـتوجهات علـى الساحة إذ فتحت معاهد، وأقيمت ندوات، وأرسلت بعثات، وجيء بمستشارين بقصد التهيئة لتقبلها جميعا، وبضوئها حاولت أي أمريكا تكييف الـثقافة وهـي المنتج الاجتماعي سلعة مثل السلع المادية تتداول في سوق يسودها الأقـوى ثقافـيا وبوسـائل إيـصال للمستهلكين ميسورة "القنوات الفضائية، والإلكتـرونيات، والحواسيب، والانترنيت وغيرها" بقصد نقل الأفكار، والمبادئ ونشر المعلومات لمستوى الشيوع بين جميع العراقيين، ومن ثم صياغة ثقافة معولمة لها قيمها، ومعاييرها لزيادة معدلات التشابه أو التجانس بين العراقيين وغيرهم في العالم الآخـر في محـصلة تـبرز في إطارها وعلى مستوى النفس إمكانية تشكيل وعي، وإدراك، ومفاهيم وقناعات عالمية الطابع (26) في بعض جوانبها.

إن مؤشـرات عدم النجاح لتحقيق غاية العولمة النفسية في العراق لا تعني أن المعنيين بها سيتوقفون عن مشاريعهم في تعميمها لأن التوجهات الثقافية التي أريد لها أن تفتح العراق على العالم لتجعل حياة أبنائه بكل أشكالها المادية، والنفسية تنـزع بالتدريج إلى أن تتعولم، وبمستويات تنسجم، والمعايير الجديدة ستتوجه إلى الأجيال القادمـة، والتي ستأتي "بعد عجزها النسبي عن عولمة الأجيال الحاضرة كما تريد" لأن الـدلائل تشير إلى أن الأجيال القادمة ستقبلها طواعية، وبمزيد من اللهفة ليس

بسبب الانترنيت، والقنوات الفضائية، والمعرفة الموسوعية، والمعلوماتية فحسب بل وللمـــتعة الآنية التي توفرها التقاليد الجديدة، والنفعية الذاتية التي تؤمنها الأساليب الحديثة، والاستهلاكية العالية التي تدفع إليها الوسائل البديلة.

كمـــا إن الفشل أو بالمعنى الأدق التأخير في عولمة المجتمع العراقي نفسيا بعد التغـــيير جـــاء بسبب مساعي إقحام ثقافة جديدة دون تحسب لخصائص، وتقبل المجتمع التي أدت إلى ردود فعل سلبية قوامها التطرف الديني عند البعض، ومحاولات الجـــري وراء المـــتع، والمنافع عند البعض الآخر ما قاد إلى انحسار التوجه إلى بقايا الخـــصوصيات، والقـــيم الـــضابطة للسلوك الذي يعول عليه في التعامل مع الآثار الجانبية للثقافة الجديدة.

إن الموقـــف النفـــسي الثقافي الذي واجهه العراقيون سيلا هائلا بعد التغيير مباشرة لا يمكن التسرع في الحكم على آثاره، وتأثيراته القريبة أو الآنية أي تداعياته النفـــسية كمـــا تعودنا نحن العرب في كثير من المواقف، ولا ينبغي وضعه في إطار الـــرفض أو القبول، بل يتطلب النظر إليه نظرة كلية غير منقوصة لأن اختزالها في الكـــسب دون المخاطر مسألة أساسها خطأ من ناحية، واختزالها أيضاً في المخاطر دون الكسب مسألة ليست خطأ فحسب بل وفيها من سوء الفهم، وعدم التقدير الكثير من ناحية أخرى.

هـــذا مـــن جانب ومن جانب آخر فان الوسائل، والأدوات النفسية لم تترك المجال واسعا للاختيار بين الرفض، والقبول كما كان سائدا في زمن الأيديولوجيات أو عصر ما قبل العولمة، لأن الآراء، والتوجهات، وأساليب الحياة يمكن إيصالها إلى الجمـــيع في كـــل الظروف، والأوقات ودونما أية تحديدات، وبمعنى آخر بالإمكان إبقاؤها ماثلة في وعي المستهدفين بصورة شبه مستمرة.

مـــن هـــنا تصبح مناقشة أساليب التعامل معها أي العولمة، وأية سبل تأثير نفـــسي أخـــرى مـــسألة ينبغي أن تبتعد عن اتجاهات الرفض، والقبول لذات الظاهرة، والتوجه بدلا عنه إلى ضرورة العبور من فوقها إلى واقع يتمثل بالوقاية مـــن التأثيرات المحتملة لتجلياتها من جانب، والسرعة في معالجة الآثار الحاصلة بـــسببها مـــن جانب آخر، وفي إطارها الثقافي النفسي يمكن أن يكون هامش

التحـــصين النفـــسي لأفـــراد المجتمع بشكل عام، وللأعمار الصغيرة على وجه الخـــصوص، وذلـــك بإعـــادة تنشيط فاعلية القيم، والتقاليد الضابطة للسلوك، وتخـــصيص جهـــد أكبر لتنفيذها على كافة الأصعدة هو الحل المقبول أو خط الدفاع الأول الذي يجب أن يكون.

إن الفلسفة الأمريكية في افتعال، وإدارة الأزمات الدولية بينها ما يتعلق بأزمة العـــراق والنابعة من النظرة إلى العولمة قد تكون من بين الأسباب التي دفعت قادة الحـــرب ومخططـــيها خلال عملية التغيير إلى فتح الحدود أمام كل شيء وفي كل الأوقـــات، وكذلك السماح لأي كان الاطلاع على كل ما هو موجود رغم أن المـــسموح بـــه مـــن الموجود قد حدده المعنيون وفق المصالح العليا لبلادهم، وغير المـــسموح مـــشفر من قبلهم بطريقة يصعب على الآخرين الوصول إليها، وهذه بطبيعـــتها أساليب ستضع الأجيال القادمة في ما يسمى بمشاعية المعرفة التي تسقط خاصية الرغبة في المعرفة إحدى أبلغ المرتكزات الخاصة بالمنظومة التربوية، وتطور، وتـــوازن الـــسلوك الفـــردي، والنمو العام (27)، وبذا ستكون هذه إذا ما تجاوز العراقيون محنة التردي الأمني، ومصاعب إعادة الإعمار أولى معالم التحدي الحقيقي لمجتمعهم النامي في سنوات ما بعد الاستقرار. من هنا نرى حجم التعقيد في الجانب النفـــسي، والأهداف الموجودة في مجاله لما يتعلق بالعولمة وغيرها وعلى أساسه نرى أيضاً أن إنكار واستنكار حدوثها موقف غير معقول، يستوي معه موقف الاندفاع، والهرولة للحاق بالركب دون فهم حقيقة ما يجري وما يمكن أن يؤدي إليه الجري في نهاية المطاف.

المبحث الأول

الشمولية

كانت الحرب بمفهومها العسكري التقليدي إحدى أهم الوسائل المتاحة لفض الصراعات القائمة وفرض الإرادات، حتى وقت قريب تدخلت فيه بعض المتغيرات أثـــرت على اتجاهات السياسة في الاعتماد المطلق على الحرب المباشرة أو الصدام المسلح كعامل فاعل لتأمين غاياتها(28)، ومن أهم تلك المتغيرات:

1. ظهور أسلحة الدمار الشامل لدى العديد من الدول الأمر الذي أدخل العالم حقبة الإستراتيجيات الشاملة بشكل أصبحت فيه احتمالات الحرب التقليدية الشاملة كوسيلة من وسائل فض الصراع أقل فاعلية، واحتمالا، إلا في حدود ضيقة يتفوق فيها طرف من الناحية العسكرية، والاقتصادية على الطرف الآخر بشكل مطلق، لأن الاستخدام الشامل لتلك الأسلحة لا يسمح بخروج منتصرين في حرب سيحل الدمار بجميع أطرافها.
2. صعوبة تحقيق الحسم العسكري المطلق، إذ وعلى الرغم من مقدرة الجيوش الحديثة، وضخامة الأسلحة التي بحوزتها، وقدرتها على التحشد، والمناورة، والإسناد الإداري فإنها من الناحية العملية أصبحت شبه عاجزة لوحدها على تحقيق الحسم العسكري بشكله الاعتيادي، رغم تفوقها على الخصم الذي أصبح هو الآخر، ونتيجة للتطور يتمتع بفرص جيدة للمناورة، وإمكانات عالية في استجلاب الدعم، والإسناد، وهي فرص زادت من القدرة على التحرك والمقاومة، ولنا في التاريخ الحديث أمثلة ليست قليلة منها على سبيل المثال:

فشل الأمريكان في حربهم مع الفيتناميين.

إخفاق السوفيت في معاركهم مع الأفغان.

عجز الإسرائيليين على تطويع الفلسطينيين.

عدم تمكن الحلفاء من بسط الأمن، والسيطرة في العراق بعد أربع سنوات من انتهاء فعل الحرب بعملياتها العسكرية التقليدية.

3. التطور الهائل الذي طرأ على وسائل الاتصال، ونقل المعلومات بينها الفضائيات، والانترنت، ومعدات الاتصال السلكي، واللاسلكي جعل عالم اليوم صغيراً للحد الذي يستطيع فيه المرء أن يرى، ويتابع أحداثاً تقع في مختلف أنحائه لحظة وقوعها، وهو جالس في بيته مما جعل هذه الوسائل ذات تأثير كبير على تشكيل الآراء، والاتجاهات، والأفكار، والقناعات التي بات استثمارها شائعا في التأثير المطلوب، وبأقل ما يمكن من الخسائر بالمقارنة مع استخدام القوة عسكريا(29).

إن المتغيرات أعلاه أثرت كثيرا في توجهات القوى المتنفذة في العالم بمسائل التعامل مع الغير، ودفعتها إلى التفكير بوسائل أخرى قادرة على إحداث فعل التأثير على تشكيل الآراء، والقناعات المناسبة، وتكوين الاستجابات المطلوبة، فكانت فكرة الحرب النفسية أو العمليات النفسية التي بدأت من الناحية التاريخية محاولات للتعامل مع الجانب المعنوي في أربعينات هذا القرن، ثم تطورت في خمسيناته إلى الاستخدام المخطط للإعلام الموجه في تحقيق أهداف السياسة، ومن بعدها استخدام معطيات علم النفس التطبيقية في تحليل وإدارة الصراع: توجهٌ أو جهدٌ عد العمل به أكثر رواجا، وتأثيرا، وأقل تكلفة للاستخدام في التعامل مع الصراع الذي عاشه الإنسان عبر تاريخه الطويل بين الخير والشر، وفي مجال الحكم بين مساعي إشاعة العدل، ورغبات تجسيد الظلم، والتعسف، والاستغلال، وفي السياسة بين محاولات السيطرة وبسط النفوذ، واتجاهات التحرر، والاستقلال، وغيرها أشكال من الصراع عدّ وجودها المختصون في علم النفس، والاجتماع حقيقة مستمرة لتيار الحياة، وسلوكاً امتدت معالمه منذ البداية الأولى للوجود إلى عالم اليوم، ونظمه السياسية الحديثة التي تسعى في معظمها إلى التعامل مع أصدقائها، وخصومها وفق إمكانات تحركها في دائرة الصراع، وبأساليب وأدوات متنوعة منها المباشرة، التي تعتمد على:

1. النشاط الدبلوماسي: مثل عقد الاتفاقيات، والأحلاف، ومساعي التدخل في شؤون الآخرين، والعمل على إيجاد التكتلات، والعزل السياسي، والتهديد، وغيرها.
2. العسكري: كما هو الحال في بعض أنواع الحروب المحدودة، وشن الهجمات الواسعة، والضربات الإجهاضية، وافتعال المناوشات الحدودية، وإقامة الاستعراضات العسكرية، وعرض الأسلحة، والمعدات، واللجوء إلى قصف الأهداف الاستراتيجية، واحتلال مناطق حيوية... الخ.
3. الجهود الاقتصادية: مثل إقامة الأسواق المشتركة، وفرض الحصار الاقتصادي، وأعمال المقاطعة، وإحداث التضخم، وعقد اتفاقيات، وإلغاء أخرى، وتزوير العملة، وحجب القروض، والمساعدات، وغيرها.

ومنها غير المباشرة، التي يسعى المعنيون في مجالها إلى التعامل مع الوقائع بأساليب أخرى"نفسية" سرية كانت أم علنية، والمتمثلة بالآتي:

1. الأنشطة الإعلامية: المسموعة منها، والمقروءة، والمرئية، للتحريض، واستعراض القوة، وإثارة المخاوف، وخلق الفتن، والاحتقان، والتوتر، والتخريب النفسي والقيمي، والتلاعب بالآمال، والطموحات، واستغلال المشاعر الإنسانية، وتعبير المواقف لأغراض الإيحاء، ونشر الإشاعات، والتصورات، وغيرها.
2. العمليات الاستخبارية: لأغراض الضغط، والتضليل، والتسميم السياسي، وتعبير المعلومات الصحيحة بقصد الترويع، وإثارة المخاوف، والتردد، ومن ثم الاضطرابات، وشراء الذمم، ونشر الفساد، والتآمر.

وغيرها أعمال، وممارسات في الاتجاهين تهدف جميعها من الناحية النفسية إلى خلق اتجاهات، وأفكار، وقناعات أو تغيير أخرى تبعاً لأهدافها التعبوية، والاستراتيجية.

إن معطيات الصراع، وطبيعته التي كونت شكل النظم السياسية الحالية، وأساليب إدارتها تؤكد أن محاولات الهيمنة، وتأمين المصالح، واحتمالات المواجهة حالة موجودة بين الحلفاء، والأصدقاء مثلما هي واقعة بين الأعداء، وفرقها الوحيد لا يتعلق بمديات وجودها، واستمرار بقائها بل بوسيلة التنفيذ، وطريقة التوصيل، ووقت الشروع، وطبيعة الأهداف المطلوب تحقيقها، وزمن التحقيق التي عادة ما تكون محكومة بالظروف المحيطة، ووسائل الضبط المتيسرة في الزمان، والمكان المحددين، وعلى وفق هذا التصور اندفعت تلك النظم لتعزيز قوتها العسكرية، وتمتين اقتصادها، ودعم دبلوماسيتها، وتطوير وسائل إعلامها، وإعداد شعوبها للدفاع الكفئ مادياً ومعنوياً من جانب، وتهيئة فرص أفضل للهجوم، وظروف أحسن لفعل التأثير نفسيا في عقول المستهدفين عندما تقتضي المصالح، وضرورات استمرار الوجود من جانب آخر.

إن الحرب الدولية التي دارت في العراق، أو نُفذت الصفحة العسكرية منها على أرضه في 2003/3/20 من قبل حلفاء أكثرهم غربيون بقيادة، وأهداف أمريكية من جهة، وصدام حسين، وحكومته من حزب البعث العربي الاشتراكي

من جهة أخرى، كانت حربا في حساب القوى العظمى في العالم أي الكبار، واقعة حتما من الناحية العسكرية، لتأمين غايات سياسية ونفسية لأنها:

1. الوسيلة الوحيدة لحل أزمة دولية اتسعت رقعتها، وزادت تعقيداتها، وقلت المرونة في حلها إلا بالقوة العسكرية التي يؤدي استخدامها ليس إلى فرض إرادة المنتصر على المغلوب في ساحة المعركة فقط، بل والحصول على فرصة التغيير في البنية الأساسية لغايات إستراتيجية داخل المنطقة وخارجها.
2. إن استخدام العسكر "القوة المسلحة" من قبل الولايات المتحدة، وحلفائها بعد مرحلة الحرب الباردة باتجاه هدف محدود نسبيا "العراق" فرصة مناسبة لاختبار قدرة الدول الأخرى "الكبرى على وجه الخصوص" على التحرك، ومن ثم وضعها في موقف المتفرج في عمليات إعادة ترتيب العراق، والمنطقة التي يفترض أن تبدأ أولى خطواتها من هذا البلد المهيأ نفسيا لإعادة الترتيب.
3. الحرب التي تَفوقَ فيها الخلفاء كثيرا، وحققوا خلالها نتائج حسم سريعة، بخسائر قليلة نسبيا من جانبهم، وكثيرة من الطرف المقابل لهم، عززت في واقع الحال من قدرة الحلفاء على الردع العسكري، وأعطت أمريكا القائد السياسي، والعسكري فيها قوة دفع إلى الأمام في تعبير الرسائل النفسية إلى الغير من جهة، وتنفيذ مشاريعها كقائد للنظام الدولي الجديد من جهة أخرى على الرغم من وجود بعض الهفوات في جوانب السيطرة لمرحلة ما بعد الحرب والتغيير، وهي حرب في منطقة تعد من الناحية السياسية، والاجتماعية، والنفسية، بيئة مضطربة، فيها التركيبة الاجتماعية غير متوافقة[1] ومنطقة توتر

(1) تشير إحصاءات أعدتها مؤسسة Freedom house أن التركيبة الاجتماعية للعراق تتكون من 75- 80% من عرب، ومن بعدهم الأكراد بحدود 15- 20% وتركمان، وآشوريين وغيرهم بنسبة تتراوح بين 5- 10%، والعرب منقسمون إلى شيعة بحدود 60 – 65% وسنة بحدود 20% (30) والأكراد غالبيتهم سنة، وأقلية من الأكراد الفيلية الذين يجاورون العرب ويتداخلون معهم ثقافيا، ومذهبيا بحكم كونهم من الشيعة، وهم أي الأكراد من جانبهم منقسمون سياسيا إلى حزبين رئيسين، وأحزاب أخرى صغيرة تكاد تكون تابعة للحزبين المذكورين أو مؤيدة لتوجهاتهما، وأقل من ذلك من الناحية الاجتماعية إلى سورانيين وبهدنانيين. وكذلك الحال بالنسبة إلى التركمان حيث الشيعة منهم، والسنة يتوزعون على مناطق متفرقة من شمال وسط، وشمال العراق، والايزيدية التي يدعي العرب

شـــبه مستمر منذ أمد طويل نسبيا، مهيأة استراتيجياً لتحقيق الأهداف البعيدة المدى.

4. ساحة قتال تجاور إيران التي تسعى إلى امتلاك أسلحة نووية، وسوريا المطلوب تغـــيير مواقفها من الصراع العربي الإسرائيلي، وقريبة من إسرائيل التي لم تحسم صـــراعها مـــع العـــرب والفلسطينيين، وبسببها، وتعقيدات السياسة الدولية أصـــبحت حـــربا مـــثيرة للجدل، وأرضا خصبة للعمل النفسي بسبب طبيعة المـــؤيدين لهـــا والـــداعمين، وكثرة المعارضين، والمنددين، وفي نفس الوقت المستفيدين، والمتضررين في الداخل والخارج.

وساحة صراع يمكن أن يتحرك في محيطها الجميع في ظروف الثورة الإعلامية الحالـــية، وتطور وسائل الاتصال، وبكافة الاتجاهات بغية زيادة الكسب، وتقليل الضرر، وتبرير التحرك، والاستحواذ.

لكن التحرك في هذه الساحة، وجميع السوح ذات الصلة بالصراع يختلف من حـــال الرابح عن الخاسر أو المتضرر في مشهد يبقى فيه الضرر العامل الأكثر إثارة لانفعالات الناس بهدف التعويض.

وهذه حقيقة بات المعارضون لفعل التغيير، وإقامة النظام الجديد في العراق يؤســـسون عليها جل تحركاتهم الإعلامية "النفسية" في استثمار ما متاح بهدف اســـتمالة المحايدين إلى صفهم كأصدقاء، والأصدقاء، إلى خانة المؤيدين، ومن ثم المـــؤيدين إلى مـــرتبة المقـــاتلين أو حتى الإرهابيين بالضد من الدولة والمجتمع، بوسائل نفسية مختلفة بينها السياسة، وكذلك الإعلام بشكل عام، والفضائيات إحدى أدواته التي تمتلك التأثير الأكبر من بينها جميعا في الوقت الحاضر على وجه الخصوص.

أنهـــم مـــن أصولهم، ويرى الأكراد أنهم منهم. ويرى الايزيديون أنهم ليسوا عربا ولا كردا، وكـــذلك الحال بالنسبة إلى الشبك، والآشوريون، والكلدان، والصابئة المندائيين، وهذه تركيبة في ظل التخلف وضعف النضج السياسي، والاجتماعي يصعب تجانسها، أو حتى تفاهمها في حـــالات التوتـــر، وكـــان هذا واضحا في عملية كتابة الدستور وما أثير حوله من تجاذبات ومطالب للبعض، ومحاولات للحيلولة دون تحقيق مطالب للبعض الآخر.

المبحث الثاني

الدوافع

يـــواجه إنـــسان هذا العصر في عديد من الدول، والمجتمعات الشرقية، بينها العربية، والإسلامية أزمة وجود، أو محنة استقرار أساسها الصراع الدائر بين الأقوياء مـــن جهـــة، وأقوياء آخرين من جهة أخرى. بين الأقوياء أو بعضهم من جانب، والـــضعفاء وبعضهم من جانب آخر. كذلك بين الضعفاء، وأمثالهم. صراع دائم يفضي إلى محن، وأزمات مستمرة يصعب رد طبيعتها، وأسباب حدوثها، وأبعادها البنائـــية إلى عامل واحد بسبب كثر النوايا، وتعقيدات النفس البشرية التي تعكس التناقض العميق لرؤى الأزمات، والدلالات، والمعاني ذات الصلة بالتعامل معها، أو التحرر منها، ومضامين هذا التحرر.

وبالعودة إلى منطقتنا العربية والإسلامية، ومعطيات الصراع نتلمس أن غالبية الأزمـــات الـــشديدة التي حصلت منذ عدة قرون من الزمان تعود إلى الغزو، أي الاقـــتحام الخارجي لها وما تبعه من سيطرة على مقدراتها بأشكال، وآليات تتجدد بين الحين، والآخر (31)، وإلى خطأ التعامل مع هذا الغزو "الاقتحام" من قبل:

حكـــام الدول المُقتَحَمة "المُحتلة" الذي يتوجه بعضهم إلى الاستسلام للأمر الواقع حد التوهم بالوجود كجزء من دولة الاقتحام أو الغزو فيفقد قاعدة حكمه الـــشعبية، وبعضهم الآخر يجاهر بالعداء، والسعي للوقوف بالضد باستخدام القوة قبل امتلاكها بالشكل الملائم لتحقيق هدف القتال فيدفع هو، وشعبه ثمنا للقتال في الوقت غير المناسب.

الـــشعوب الـــتي تقع أحيانا في حالة الانفعال، والوهم، وسوء التقدير بتأثير الحكـــام، والعـــوامل النفسية المحيطة فتتجه للتعامل مع الموضوع بطريقة تقربها من المهادنـــة، والاستسلام أو الهياج الانفعالي غير الملائم زمنيا فتسبب في زيادة نسب الخسائر، وكثرة التعقيد.

إن أزمـــة الصراع التي خسر العرب، والمسلمون وبينهم العراقيين من قدرتهم في التعامل الصحيح معها تتعلق في بعض جوانبها بامتلاك الطرف الثاني أي المُحتَل

كـــل وســـائل الـــتأثير المادية مثل الاقتصاد، والعسكر، والصناعة، والنفسية مثل الإعـــلام، والاتصال التي تؤهله لوضع أهداف قد لا يدرك طبيعتها الطرف الأول فيـــستمر بسببها في التخبط، وارتكاب الأخطاء التي يستثمرها الطرف الثاني باتجاه تحقيق أهدافه.

إن النظرة الشاملة للمنطقة العربية الإسلامية التي يعيش فيها العراق، وظروف الحـــرب التي جرت على أرضه، وسبل التغيير لنظام حكمه، وعلاقة الدول القريبة منه، والبعيدة عنه مع قادة الائتلاف "أمريكا" الذين حاربوا على أرضه دفع العديد مـــن الـــدول، والمجتمعات إلى التعامل مع الموقف العراقي بطريقة مغلفة يحتل فيها الـــتعامل النفسي الحيز الأكبر لتوجيه حركة شعوبهم، والتأثير في وعي العراقيين بما يخدم تلك التوجهات، مستفيدين استفادة كبيرة من:

1. الفـــضائيات الـــتي تيسرت للغالبية حتى ارتفع عدد مشاهديها آلاف المرات، وتضاعفت شدة تأثيرها على المتلقين.
2. الانترنت الذي دخل الكثير من البيوت حدا بات يشكل حاجة لشرائح الطلبة، والأساتذة، والمعلمين، والمثقفين، والتجار، والصناعيين وغيرهم.
3. هـــامش الحرية الواسع لعديد من الصحف، والمجلات التي انتشرت في العراق بمستوى يفوق قدرته على الاستيعاب.

وبذا أصبح التوجه النفسي أحد أهم الأسلحة المستخدمة في ساحته بعد انتهاء الـــصفحة الأولى للمعركة عسكريا، من قبل عديد من الدول سوف يجري التركيز علـــى العربية منها بشكل عام، والمحيطة بالعراق على وجه الخصوص عند التحليل، وضرب الأمثلة في الفصل الحالي لأسباب بينها:

1. إن اللغـــة المـــستخدمة هي العربية التي يتكلم بها أهل المنطقة التي يتواجد فيها العراق، وهي التي ستستخدم كوسيلة للتأثير.
2. تأثير هذه الدول، والمجتمعات وتأثرها بما يحدث في العراق بشكل يفوق غيرها من غير العربية، والبعيدة نسبيا عن حدوده.

إن تلـــك الـــدول العربية، والمحيطة وعلى أساس التأثير، والتأثر تسعى منطقيا للتعامل مع الحالة بكل الوسائل المتاحة أهمها النفسية لاعتبارات بينها:

1. أن العامـــل النفسي سلاح يجري استخدامه بطريقة غير مباشرة لا يتحمل فيها الحكـــام، والـــسياسيون المعنيون المسؤولية الاعتبارية، ولا المهنيون المسؤولية الجنائية في خضم الرغبة في تعميم الحرية، والديمقراطية التي يروج لها في المنطقة.
2. إن تطـــورات الموقـــف في العراق، وفتح حدوده، والتوجه لاستخدام محطات التلفزة، والمذياع في فضائه بكثرة، وانتهاء القدرة على التشويش، والرقابة على المطبوعات، وبقية وسائل الاتصال من قبل القائمين على إدارة الحكم فيه، مهد إلى فـــتح الأبـــواب على مصاريعها أمام الأسلحة النفسية دون أية مقاومة، أو حرج يذكر.
3. يمـــتاز السلاح النفسي عن غيره من الأسلحة التقليدية كون إجراءاته متعددة، ومـــتغيرة تتلون باستمرار تبعا للظروف، والمواقف كذلك يتوجه إلى أهداف ليست معلنة، ومصادره مبهمة، واتجاهاته على وجه العموم غير مباشرة(32)، وســـلاح بهـــذه المرونة، والخصائص المتعددة يكتسب قوة التأثير دون مقاومة المستهدفين أو ممانعة من قبل المجاورين في المنطقة.
4. إن ظروف العراق، وحالة التشظي، والفرقة التي حدثت في الداخل بعد التغيير، دفعـــت بالبعض من العراقيين إلى مد النظر إلى الخارج من أجل الحصول على الـــدعم، والإسناد الذاتي، وهذا شجع الآخرين من العرب القريبين على وجه الخصوص أو سهل لهم عملية التوجه نحو العراق استجابة إلى تصورات لهم في مـــنع الخطر عن محيط بلدانهم من خلال إبقائه ماثلا في العراق، وتلبية مطالب البعض من العراقيين بمد يد العون، والمساعدة مدفوعة الثمن[1].
5. إن ســـياقات تطبـــيق الأســـلحة النفسية المتاحة في كثير من مفرداتها الموجهة بأســـاليب، ووسائل متعددة للتعامل مع ميول العراقيين، وحاجاتهم، ورغباتهم،

(1) إن الـــتمويل، والاعتماد على العربي، والأجنبي في الدعم المالي والسياسي مسألة انتقلت من زمـــن المعارضـــة العـــراقية التي ألزمتها الظروف السياسية الدولية، والطبيعة العراقية إلى الاتكـــال على الغير في هذا الجانب إذ لم يسجل أن خسر معارض عراقي مبالغ كبيرة على دعـــم السياسة المعارضة باستثناء السيد سعد صالح جبر "شيخ المعارضين" الذي يؤكد العديد من السياسيين العراقيين أنه خسر جزءًا كبيراً من ثروته على العمل السياسي المعارض حتى أصبح لا يحتكم على شيء في سنيه الأخيرة.

ومن ثم غرائزهم بأساليب إشباع مرغوب أو تجنب منفر، يَبرَعُ بفنونها العرب، ودوائر مخابراتهم، واعتادوا دفع الكثير من المبالغ في سبيل تنفيذ بعض خطواتها، وهـــي مـــن ناحية أخرى تستهوي المتلقين العراقيين الأمر الذي مهد الطريق أمامها كسلاح للوصول بالاتجاه المطلوب في الزمان، والمكان المحددين.

الفصل الثاني

المواقف النفسية

الضرر وتوقعه في موضوع العراق كان من بين دوافع الجهد النفسي الذي أثر في عموم العراقيين والعرب المحيطين وكذلك المسلمين.

عند التحدث عن العوامل التي أثرت في تحديد المواقف من الحرب، والتغيير الذي جرى في العراق خارجيا، وداخليا، وكذلك من الأحداث التي أعقبت حصوله في السنوات الأربع الماضية، لا بد والحالة هذه التكلم عن عوامل سياسية، وأخرى اقتصادية، وكذلك دينية مذهبية تفضي تأثيراتها المباشرة، وغير المباشرة إلى إيجاد قناعات أو تغيير اتجاهات ذات أبعاد نفسية.

ومع ذلك، ولأغراض التوضيح في العرض الخاص بهذا الكتاب سوف يؤخذ العامل النفسي المجرد، وفي مجاله يتم التركيز على اتجاهات المعنيين بالصراع الدائر على الأرض العراقية لما يتعلق بتقدير الضرر الناجم عن الحرب، والتغيير من وجهة نظره أي العامل النفسي، لأن هذا التقدير يؤدي وظيفة نفسية بعدة اتجاهات منها:

أ. الدافع لتحديد المواقف من الموضوع أي التغيير.

ب المثير لتشكيل السلوك الخاص بالتعامل مع الموضوع الخاص بالتغيير.

ج. الرافد لصياغة الاتجاهات من موضوع التغيير.

كما إن الضرر، وتوقعه في سياقات العمل، والتعامل فيما يتعلق بالعراق كان من بين أهم دوافع الجهد النفسي الذي أثر، وما زال يؤثر في عموم العراقيين، والعرب المحيطين، وكذلك المسلمين، وتطبيع مواقفهم مع أو بالضد من ما حصل، وما يحصل على أرضه الواسعة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، خاصة وإن الكثيرين بعد التغيير مباشرة قد توجهوا إلى تقدير الضرر الناجم عنه، والذي

سينجم مستقبلا تبعا لمواقفهم، وتوجهاتهم المسبقة، ودرجة استفادتهم أو خسارتهم منه، حتى وصل البعض إلى التبسيط حد التفاؤل، ووصل البعض الآخر إلى المبالغة حد التشاؤم، تقديرات أثارت البعض في الداخل، والخارج بالضد أو مع الحكومات العراقية، قبل أن يتلمسوا عمليا النتائج الحاصلة في شؤون الحياة المختلفة، إذ إنّهم وبدلا من الانتظار، والسعي إلى الاستشراف، والتحليل المنطقي للتقدير، تَصَوَّروا الضرر في الأيام الأولى بعد التغيير بالاستناد إلى عوامل نفسية انفعالية منها:

المحتوى الفكري المسبق عن الطرف الرابح في الحرب، والخلل في تقدير المسافة بين الربح والخسارة، والتوجس من عدوى التغيير التي أسهمت مع عوامل أخرى تتعلق بالمصالح في رسم صور عقلية معتمة للضرر عند العامة وأصحاب القرار، وكونت مواقف بالضد في أغلب الأحيان سيتم مناقشتها في مباحث هذا الفصل.

المبحث الأول

المحتوى الفكري

لقد ربح الطرف المقابل للعراق "الأمريكان، والحلفاء الأوروبيين" المعركة العسكرية في الحرب، وقبل دخولهم غمارها كانت غالبية العامة من العرب، والمسلمين في الساحة القريبة منها "الحرب" يحملون أفكارا، وتصورات لم يكن معظمها في صالح الأمريكان، ولا في صالح غالبية الحلفاء المشاركين بعد أن وضع الأمريكان أنفسهم في مواقف الانحياز إلى خصوم العرب في البت، والتحكيم بمسائل، وأزمات معقدة، والتقصير في تبرير ذلك الانحياز الأمر الذي دفع أولئك الغالبية إلى أن يتوقعوا حصول ضرر من قيام الحرب قبل بدئها دون أن يفكروا ولو بقليل من المنافع التي يمكن جنيها في التخلص من النظم القسرية الظالمة عن طريق عدوى الانتقال للديمقراطية.

ذلك ما يتعلق بالعرب، والمسلمين الذين أصبح بعضهم وعلى ضوء تقديره للضرر طرفا في الصراع الجاري على الأرض العراقية سواء بالمساهمة العسكرية المضادة، والدعم المالي، والإداري المباشر أو النفسية بالتحريض، والدعم المعنوي غير المباشر.

أمـــا بالنسبة للعراقيين فالأمر مختلف تماما إذ انقسموا في تقديرهم للضرر على ضوء هذا العامل إلى عدة فئات:

1. الأولى المتــضررة مـــن حكـــم صـــدام، وتتكون من غالبية العراقيين وبجميع مستوياهم، وشرائحهم الاجتماعية، وهي في واقع الحال لم تناقش معالم الضرر الـــذي سينجم من الحرب قبل بدئها، وأثنائها، بسبب التكوين الفكري المضاد للـــنظام نتـــيجة لضغوط العيش، والتفريق في المواطنة، وفقدان الأمل بمستقبل أفـــضل، وتـــوجهت هـــذه الشريحة الواسعة بسبب ذلك التكوين إلى التفكير بالكيفـــية التي يمكن بها التخلص من صدام، ولو عن طريق الاستعانة بأطراف أخرى خارجية مثل الأمريكان الذين التقت مصالحهم مع مصالحها في التغيير، بطـــريقة أزاحـــت مـــن الذاكـــرة الأفكار المضادة لهم، واستبدلتها بتأملات المـــساعدة، وتقديم العون، وعلى أساسها وضعت تقديرات للخطر تقل كثيرا عـــن الـــنفع المحتمل، لكنها، ونتيجة للأخطاء المتكررة في إدارة أزمة التغيير، وتقيـــيدات الحكومات العراقية المتعاقبة إداريا وفنيا، وضعف السيطرة، وفقدان الأمن، والإحباط، والنشاط النفسي المضاد بدأت التأملات بمستقبل أفضل تقل تدريجيا.

وبـــدأ البعض يرسم في مخيلته صورا عن الضرر تقترب خطوة بعد أخرى من العتمة التي رسمها الآخرون، ولو بأشكال مختلفة.

2. الثانية التي كانت مرتبطة ارتباطا مباشرا أو غير مباشر بعجلة الحكومة السابقة سياســـيا، ومـــصلحيا، وعسكريا، أو أنها تشعر بالمواطنة الأولى في ظل تلك الحكـــومة، وهـــي شريحة تقترب كثيرا أفكارها المضادة للأمريكان من أفكار الـــسلطة، والحـــزب الحاكم، ومفردات إعلامهم في التوعية والتثقيف، وتغيير الاتجاهـــات، هـــذا وبسبب ذلك الارتباط، والتكوين الضدي المسبق، وقوة الـــصدمة التي أحدثتها الحرب السريعة تكونت في داخلها مواقف الخشية منذ البداية فصاغت صورا معتمة عن التغيير ومستقبل البلاد، زادها عتمة:

أ. بعض أساليب إدارة الدولة، والمجتمع غير السوية.

ب. فقدان السلطة الضابطة.

ج. مواقف دول الجوار غير المنسجمة مع معطيات التغيير.

التي أسهمت جميعها في إحداث فعل الاستفاقة من الخشية بعد أشهر قليلة من التغيير، وتحول بعض أفرادها سريعا إلى:

حامل سلاح بالضد من جنود الحلفاء، ومنتسبي الحكومة العراقية، وأفراد الأمن، والعسكر:

محرض فيها على حمل السلاح، وداعم لمعنويات من يحمله في ساحة القتال.

حاضن، ومساند، ومؤيد لاستخدام السلاح بكافة أشكاله.

وهذا تحول نفسي دفع المعنيين به إلى أن يعملوا، ويفكروا بطريقة تُجَسِم الخطر القادم، وتحث على إفشال أصل التجربة تجنبا لحدوثه "الخطر" المتوقع من وجهة نظرها.

إن الشريحة المذكورة وإن لم تقترب من الأغلبية عدديا بالمقارنة مع الشرائح الأخرى في المجتمع العراقي، لكنها ومن ناحية ثانية تمتلك الكثير من معالم التأثير المادي، والمعنوي، والسياسي، والعسكري، الأمر الذي جعل تأثيرها ليس قليلا في داخل العراق، وخارجه.

3. الثالثة، الشريحة المثقفة الواعية بمجريات الأمور، وهي الشريحة التي لم تكن تحمل أفكارا متطرفة مسبقة بالضد من الغرب، والأمريكان "إلا في حالات قليلة" نتيجة لمتابعاتها المستمرة للأحداث العالمية، وتطوراتها السياسية، وفهمها الصحيح لطبيعة الصراع الجاري على الساحتين الدولية والمحلية، وإدراكها المعقول للمستقبل، والتي تتفق آراؤها ونهج التغيير، والتعامل المنطقي مع واقع يمكن الاستفادة من وجوده لصالح العراق دون إسقاط فرض معارضته سلميا، وبذا كانت الصور التي كونتها عن الضرر في غالبيتها تقترب من الواقع منطقيا، وتقل فيها مساحة العتمة بشكل واضح.

إلا أن هذه الشريحة التي تحسب على الأقلية لم تكن الفرصة أمامها متاحة لتأخذ دورها كعنصر توعية، وتصحيح للصور المرسومة في الذاكرة الجمعية بعد أن شعرت مع بداية التغيير بالعزلة، والتهميش، ومن ثم بالحرب السرية

التي شنت عليها من مصادر مجهولة إلى مستوى تعرض بعض أفرادها إلى التهجير، والاغتيال مما أدى إلى وقوفها على الحياد لما يتعلق بتصحيح تقديرات الضرر، وبمستقبل العراق، فاسحة المجال دون عمد منها إلى الطرف المقابل أن يأخذ فرصته في التلقين، وتعبئة العقول بالأفكار، والصور المشوشة التي تدفع بسلوك المحايدين لأن يقترب من التضاد مع الدولة، والمجتمع، والمناوئين لأن يوجعوا الضرب في جسم العراق المتعب بسبب ضغوط عدم الاستقرار طويلة الأمد.

4. الرابعة، الشريحة الكردية تلك الشريحة التي تضررت من النظام السابق لمستوى الإبادة والتهميش، واستهداف الوجود القومي، والثقافي، وكذلك من غالبية الأنظمة السابقة، وهي شريحة بسبب ظروفها الخاصة، وسعيها الدائم إلى الحصول على الدعم الخارجي لتعزيز قدرتها في الصراع الجاري مع حكومات المركز لم تعبئ في ذاكرتها أية محتويات سلبية بالضد من الغرب والأمريكان، وعلى العكس من ذلك سعت بكل قواها المتاحة إلى التحالف معهم في الحرب، وملء الفراغ الذي نتج عن امتناع الأتراك من الاشتراك في جبهتها الشمالية، تحالفا وجدت فيه:

أ. الفرصة سانحة لإثبات الوجود طرفا قويا في معادلة التغيير، والحكم، وإعادة البناء بعد أن حقق التحالف الذي تساهم فيه نصرا عسكريا سريعا، ومذهلا.

ب. الظروف مواتية لأن يكون الجانب الأمريكي طرفا ضامنا يمكن الاحتكام إليه عند طرح الحقوق القومية التي نادت بها، وقاتلت من أجلها قبل التغيير، يفوق الوثوق به باقي الأطراف السياسية العراقية التي شاركتها السير في الطريق إلى بغداد.

وهذه عوامل جعلت التوقعات المستقبلية للحرب في الذاكرة الكردية خالية تماما من العتمة وصور الضرر، بل وأطَرتّها بالتفاؤل، والنفع العام.

لكن هذه الشريحة التي تصل نسبة عددها من المجموع العراقي العام بين 15 – 20% وقدراتها العسكرية، والسياسة، والإعلامية تفوق باقي المجاميع العراقية،

لم تستطع مد تفاؤلها إلى الآخرين داخل العراق، وخارجه للمساعدة في التقليل من توقع الضرر لعدة أسباب بينها:

أ. التوجس واضح المعالم للجمهور الكردي، ورغبته البقاء محصورا في سور كردستان بسبب التجارب السلبية في التعامل السابق مع المركز الأمر الذي لم يفسح له المجال للتفاعل مع الغير في ساحة الصراع.

ب. التطرف القومي لبعض الجمهور الكردي الفتي في رسم مستقبل الإقليم بعيدا عن سلطة المركز، ورفع الشعارات التي تعبر عن تطرفه أعطى انطباعا معاكسا، وأثار قلق الآخرين في الساحة العراقية، والعربية[1].

ج. الإعلام الكردي الموجه، ورغم إمكانياته الجيدة كان قبل التغيير، ومع بداياته موجها للأكراد أكثر منه إلى باقي العراقيين المساهمين معه في النوايا، والرغبات، والأفعال الخاصة بالتغيير، وبطريقة لم ينجح في إحداث التأثير المطلوب في العقل العراقي أو حتى يسوّقْ قضيته بشكل صحيح خارج محيط كردستان لكن الساسة الأكراد ومنذ عام 2005 توجهوا لسد هذه الثغرة من خلال زيادة البرامج العربية في الفضائيات الكردية، وفتح فضائيات كردية ناطقة بالعربية، كذلك التوسع في إصدارات الصحافة الناطقة باللغة العربية لنفس الغرض المذكور.

وبسببها وأمور أخرى أسهمت هذه الشريحة عن طريق الخطأ في تضخيم الضرر المستقبلي في عقول البعض من العرب، والعراقيين أكثر من مساهمتها في التهدئة، والتطمين.

---

(1) وضعت صناديق للاستفتاء غير رسمية في عموم إقليم كردستان بجانب الصناديق الخاصة بانتخاب أعضاء الجمعية الوطنية الانتقالية في 2005/1/30 وبعد الفرز بينت النتائج المتحصلة أن 96% من المستفتين الأكراد كانوا مع الاستقلال، وتقرير المصير في حال عدم الحصول على الفيدرالية، كما يلاحظ وجود طروحات علنية للاستقلال تظهر بين الحين والآخر في برلمان الإقليم.

المبحث الثاني

خلل التقدير

لم يتعود العقل في منطقتنا العربية، والإسلامية على التعامل مع المستقبل الذي يمثل لأغلبهم مجهولا لا يميلون إلى التقرب من معطياته بسبب اعتقادات أن بعضها غَيبٌ عصي على التفسير(33)، ونتيجة لعدم التعود هذا، والتأخر عن العالم في مجالات العلم، والاكتشاف بات النهج الفكري للكثيرين موسوما بالمحافظة على الواقع المعاش، والابتعاد جهد الإمكان عن وقائع التقدير، والاستشراف المستقبلي، ويتميز أيضاً بالخوف، والقلق من المستقبل غير المضمون الذي يدفع إلى عدم الخوض في مسائل المستقبل، والتوقع المستقبلي، والتقدير.

هذه خصائص في العقل الجمعي العربي، والمسلم ساعدت في تكوين اتجاه بعدم الترحيب بالتغيير الحاصل للحكم في العراق تفاديا لضغط المجهول، والخوف من المستقبل الذي هو أيضاً مجهول، وأوجدت كذلك خللا في تقدير المسافة بين الربح الذي ممكن أن يتحقق من التغيير مستقبلا، والخسارة المحتملة من حصوله حاضرا، ومستقبلا، لكن التغيير قد حصل خارج قدراتهم على التدخل أو حتى التوقع، وبحصوله اندفع البعض باتجاه التحريف شبه العمدي للتوقعات أو تضخيمها تأكيدا لصحة الرأي والتوقع، ساعدها على ذلك ضبابية بعض الأهداف التي رافقت الحرب، والتي أشعرت الكثيرين بخوف على مصير يراد به أن يكون رهنا بيد الغير، وهذا الاندفاع لبعض العرب، والمسلمين في الخارج انعكس سلبا على بعض العراقيين الذين تأثروا بالاتجاه نفسه، وكونوا أفكارا، وصورا تُضَخمُ من الضرر بالضد من التغيير، وتخل بالتقدير الذي يشكل المواقف، والسلوك.

إن المسافة النفسية بين الربح، والخسارة وتقديرها مسألة ليست سهلة في حرب دارت على أرض العراق لم تكن تقليدية لأن أسبابها المعلنة كانت تتعلق بالتحرير، وإعادة البناء الديمقراطي، والاستشراف المستقبلي لها كان ذا صلة بإعادة ترتيب المنطقة بدءاً من العراق بوسائل لم تكن مجربة عمليا، ولم يكن الوثوق بها مضمونا من قبل الغالبية العظمى لأبناء المنطقة، وحتى الجوار، ونتائجها التعبوية،

إزالة النظام الديكتاتوري الحاكم، وتمتع الناس بالحرية المطلقة حد الانفلات، وتدمير بعض ركائز البنى التحتية، وإعادة تنظيم قسم من السلطات الضابطة" الداخلية والدفاع" بمستوى يقل عن القدرة الفعلية للتعامل مع الخطأ، والتجاوز، والإرهاب، والمشاعر حولها متباينة بدءاً من الشعور بالإزاحة التامة لضغوط كانت جاثمة على الصدور، وانتهاء بمشاعر القيد المفروض في التعامل مع العديد من المسائل السيادية، والأنشطة خلالها متباينة أيضاً إذ يجد المتتبع أن هناك من يوصل الليل بالنهار سعيا منه للمساهمة في إعادة البناء، وهناك من يسعى إلى تدمير الذات العراقية بنشر الفساد، وخرق المعايير الوطنية، ويجد في الوقت نفسه أن أعمال العصابات، والتهريب، والتجاوز قد تفشت أكثر من السابق، وأن الإعياء الوظيفي قد سيطر على السلوك العام بشكل يفوق كثيرا ما كان يحدث إبان النظام السابق (34) وعلى هذا الأساس:

اختلطت معايير التقييم الخاص بالربح، والخسارة لجميع الأطراف.

وتداخلت المسافات النفسية بينهم كثيرا إلى الحد الذي أثارت فيه اختلافاً واضح المعالم حتى بين المتحالفين مع أو بالضد في جوانب الرؤى، والتقدير الفعلي للربح، والخسارة إلى المستوى الذي أضعف الحجة النفسية المطلوبة للتأثير في العراقيين وغيرهم، وكما مبين في الآتي:

1. حاول الطرف الأمريكي من جانبه وفي الساعات، والأيام الأولى جاهدا أن لا يظهر بمظهر المحتل لبلد يعاني التسلط، والديكتاتورية إذ سعى القائمون عليه إلى تعزيز ذلك منذ البداية في تسمية الحرب بحرب تحرير العراق، وتوجهوا إلى التحالف مع الأكراد بغية المساهمة المباشرة في القتال بالمحور الشمالي، كما أشركوا عربا عراقيين تدربوا في تشيكيا، والولايات المتحدة، وأطرافاً من المعارضة العراقية بمحور الجنوب، وعملوا على إقامة تحالف دولي للغرض المذكور، وطرحوا شعارات وآمالاً تعبر عن غد أفضل مفعم بالأمن، والعدل، والمساواة، والديمقراطية، وغيرها من جهود اصطدمت عمليا بقرار الأمم المتحدة الخاص باعتبار العمل العسكري للحلفاء في العراق احتلالا لغايات لم يستطع الأمريكان إقناع العراقيين، وغيرهم بجدوى اتخاذها، الأمر الذي دفع

بتفسير سلوكهم ضمن معيار المحتل فتكونت أوجه خلاف في الموضوع بمنطقة عاشت طويلا تحت بؤس الاحتلال، وحاولوا أيضاً أن لا يسلكوا سلوك المنتصرين في قتال لم تكن أطرافه متكافئة بأي حال من الأحوال، أو الرابحين الوحيدين من نتائجها المغلفة بكثير من الغموض، لكن استمرار تجوال عسكرهم المدجج بالسلاح في الشوارع الرئيسية، والفرعية داخل المدن، وخارجها، ودروعهم الضخمة بعد الانتهاء الفعلي لأعمال القتال الرئيسية أشعر عسكرهم في الميدان بالانتصار، ودفع بعضهم إلى التعامل مع الموقف على هذا الأساس، خاصة بعد اشتداد أعمال المقاومة المسلحة، وفقدان الثقة بالشارع العراقي الذي تعودوا الاطمئنان إليه في بداية الأيام الأولى للتغيير، وهذا سلوك فسرته العقلية المحافظة في البدء تحت بند الخسارة في حرب كان من الصعب تفادي وقوعها[1] وساعدت سعة انتشارها في المجتمع العربي على تعميم هذا التفسير بعد فترة وجيزة تكشفت فيها بعض الأخطاء. وحاولوا أن يكونوا مشاركين، ومؤازرين للعراق الطرف المقابل في الحرب، فرصدوا مليارات الدولارات لأغراض الدعم وإعادة البناء، لكنها لم تصل إلى ترميم ما تدمر بنفس الطريقة التي تَعَودَ العراقيون تلمسها في مسائل الترميم، وإعادة البناء بسبب الروتين، وضعف الأجهزة العراقية المعنية بالتخطيط، والتنفيذ، وتفشي، واستشراء الفساد لدى الجانب العراقي، ووجود بعض مؤشراته لدى الجانب الحليف، ولصرف بعض المبالغ لأغراض الأمن الذي لم يدرك المواطن العراقي نفعها القريب فأسهموا من جانبهم بوجود أوجه خلاف بينهم والآخرين حتى القريبين منهم أثرت في معايير تقدير الربح والخسارة.

---

(1) كانت الوجبات الأولى للعسكر الأمريكي، والحليف ودودة جدا في تعاملها مع الشارع العراقي، إذ يجد المتتبع أن أطفالا، وشبابا يقتربون كثيرا من الدبابة الواقفة على رصيف الشارع، ويتبادلون معهم الأحاديث، والتحيات، ويقدم البعض من الجنود الحلوى والمياه إلى الأطفال وغيرهم، لكن الأمر بدأ بالتغير التدريجي مع اشتداد أعمال العنف، والاعتداء على الجنود والدوريات الحليفة على وجه الخصوص، مما أسهم في وجود توجس من التقرب من العراقيين، زادت شدته طرديا مع زيادة العنف حتى بات الجندي الأمريكي في الشارع واضعا أصبعه على الزناد، وبات العراقي متخوفا من ردود فعله الخطأ في بعض الأحيان.

2. أمـــا بالنـــسبة إلى العـــراقيين فيصعب على المتتبع أن يحدد موقفهم من الربح والخـــسارة، ويصعب عليه أيضاً تقدير المسافة النفسية التقريبية في عقولهم بين النصر والهزيمة، لكننا ولكي نكون قريبين من واقع هذا الموضوع سنأخذ نتيجة المعركة العسكرية معيارا لتحديد المواقف، وسنضع المؤسسة العسكرية العراقية أساسا للتقدير على وفق هذا المعيار، وفي مجالهما نجد:

أن معركة قد دارت بين قوات الحلفاء بقيادة أمريكا الدولة الأقوى في العالم.

وقـــوات حكومـــية عراقية من الجيش النظامي، وقوات الحرس الجمهوري، وفدائيـــي صدام، ومتطوعين من الحزب في ظروف قتال كان الحلفاء متفوقين فيها عدة وعددا، وتقنية اتصال وسيطرة حديثة، وقوة جوية سائدة.

وكـــان الجيش العراقي يعاني فيها من اضطراب في وسائل الاتصال والحرب الالكترونية، وتدني مستوى الأداء، ومحدودية الأسلحة المناسبة للدفاع، والأهم منها جميعا هبوط مستوى المعنويات، وبروز أفكار بعدم جدوى القتال، فكانت النتيجة:

خـــسارة مادية، ونفسية سريعة، وقاسية في ساحة معركة تتواجد أهدافها بين الـــسكان، وهي خسارة لم يكتف الحلفاء بتحميل مسؤوليتها إلى القيادة السياسية، والعسكرية السابقة، وفرض أعبائها على زمن حكمهم الذي انتهى من الوجود، بل وحمّلـــتْ العسكرية العراقية كل تبعاتها، وزادتها اتهامات أخرى وجهت لها لم تكن تـــتحمل وزرهـــا بطـــريقة أفضت إلى إزاحتها تماما من الوجود الوطني في ذاكرة العرب، والعراقيين بقرار حل أشعر منتسبيها، وكثيراً من العراقيين" باستثناء الساسة الجـــدد، وبعـــض المتضررين من الحكم السابق" بالخسارة الجسيمة ثم خيبة أمل، وإحباط شديد جعلت العديد من أفرادها دعاة للترويج بالخطر المستقبلي، وتضخيم وقائعه باستمرار.

أمـــا إذا نظرنا إلى الشعب العراقي كطرف هو أيضاً نجد أنه قد تأمل نفعا من التغـــيير، حـــتى المستفيدون من النظام السابق قد أعياهم العيش تحت ضغط انتظار التغيير، فقبلوا في البداية جزءاً من الضرر على أمل العيش لاحقا بعيدا عن الضغوط، لكـــنهم في الواقـــع لم يجنوا من تأملهم سوى القليل، وقليله الذي تحقق في تحسين مـــستوى العيش قد أفسد متعته الاضطراب الأمني، وسوء إدارة الخدمات، فشعروا

هـــم أيضاً بالخسارة التي أسهمت في تقريب المسافة النفسية من حدودها، مكونة أفكـــارا قوامها الريبة، والشك من أن طرفاً آخر قد احتكر الربح، وتصرف بعقلية المنتـــصرين، وهـــو شعور لم يعتد العرب، والعراقيون قبوله بعد أن تعودوا لمئات السنين على تغليف الخسائر التي يتكبدونها بمفردات التمني لتحقيق الربح كنوع من التعويض، وتخفيف الألم الموجود، فكان تعويضا أو رغبة في تعويض سهل استغلاله من الغير لتضخيم الآثار المترتبة على الخسارة.

المبحث الثالث

التوجس

العـــراق دولـــة عربية "مختلطة" في منطقة عربية تشترك فيما بينها بالعادات، والتقالـــيد، والأهداف والتطلعات على مستوى الأفراد والجماعات، وفيها كذلك مستوى من التحضر يكاد يكون متقاربا، وأنظمة للحكم متشابهة إلى حد بعيد في تعاملـــها مع الإنسان بفروق نسبية سواء كانت هذه الأنظمة يسارية أو في أقصى الـــيمين، ولها امتدادات دينية، وقومية، ومذهبية، ومشاعر انفعالية منها تكاد تكون شـــبه عامـــة، الأمر الذي يتسبب في الانتقال السريع لنتائج الإصلاح، والتطور، وكذلك إرهاصات الحروب، والكوارث[1] إلى عموم المنطقة فيكّون استجابات مع أو بالضد تؤثر في السياسة، والأهداف العامة. لقد حدثت الحرب، وتم فعلها على الأرض عملـــيا، وســـرعان ما كون حدوثها مشاعر، ومواقف منها بالضد على

---

(1) في التاريخ العربي الحديث كانت هناك العديد من الوقائع التي امتد تأثيرها إلى عموم المنطقة العربية، وكونت استجابات منها أثرت على المشاعر، والمواقف مثل ثورة 1952 في مصر وظاهـــرة عـــبد الناصـــر التي أعطت دفعا قوميا واضحا استمرت بعض تأثيراته حتى وقت قـــريب، ومـــن بعدها حرب أكتوبر عام 1973 التي أنعشت نتائجها الأولية آمال العرب في امـــتلاكهم بعـــض الإمكانـــيات فـــي الـــصراع الجاري مع إسرائيل بعد أن حقق السوريون والمـــصريون المشاركون فيها نجاحات ملموسة على الجبهتين في الأيام الأولى من الحرب، وفي الجانب السلبي كانت هناك نكسة حزيران في الحرب مع إسرائيل عام 1967 التي خسر فـــيها العرب كل سيناء، وهضبة الجولان، وجل القدرة العسكرية للمصريين، والسوريين في غضون أسبوع كونت مشاعر إحباط عاشها غالبية العرب من المحيط إلى الخليج.

الأغلب تأسست في معظمها بضوء العوامل المذكورة فيما سبق، ومواقف الحكام العرب، والتوجس من عدوى التغيير، على الرغم من أن القائمين على الحرب قد وضعوا أهدافاً لها "المعلنة" تتماشى ورغبات الجمهور المتعطش لتحقيقها مثل:

1. إسقاط الديكتاتورية.
2. إقامة النظام الديمقراطي.
3. القضاء على أسلحة الدمار الشامل.

رافقتها إشارات لإمكانية الامتداد لاحقا إلى دول أخرى في المنطقة لتأمين نفس الغايات، وهي إشارات، ورسائل وإن تتفق وآمال الجمهور كما ورد فيما سبق لكنها من ناحية أخرى أثارت بنسب ليست قليلة قلق غالبية الحكام العرب، وشرائح من مجتمعاتهم، وخشيتهم من أن يكون العراق قاعدة للانطلاق نحوهم في خطوات للتغيير يدفعون هم ثمنها قبل غيرهم من العموم.

إن خشية العرب التي باتت واضحة أكثر بعد فترة من حدوث فعل التغيير، والتطور السلبي للوضع الأمني يمكن تقسيم مستوياتها إلى مرحلتين:

الأولى: قبل وقوع الحرب بقليل، وخشيتهم فيها كانت من:

1. امتداد الحرب بصفتها العسكرية إلى داخل حدود تلك الدول، خاصة القريبة من العراق، الأمر الذي يدفع بها إلى أن تكون طرفا على الرغم منها.
2. تحملها عبء الآثار الجانبية للحرب، مثل الهجرة التي تتزايد أرقام أعدادها عادة، وانتقال أعمال الإرهاب، وفعل العصابات التي تحاول أن تجد لها مكانا في دول الجوار.
3. تفاعل الشارع العربي مع وقائع الحرب، ونتائجها الكارثية على مجتمعاتهم.
4. الاحتمال الأكثر قلقا للعرب، والقريبين منهم ما يتعلق بشكل العراق ما بعد التغيير الذي وعد الحلفاء أن يساعدوا في أن يكون دمقراطيا (ولو بشكل نسبي) الأمر الذي قد يدفع الشعوب العربية إلى المطالبة بتطبيقاتها في دولهم، ومجتمعاتهم.

الثانية: بعد التغيير، وفيها مستويات التأثير مختلفة لأن شدتها التي تكونت في المرحلة الأولى قبل الحرب لم تكف إلى تعميم، وإثارة القلق بين الحكام العرب

بالدرجة التي يكّونون مواقف بالضد يمكن أن تحرجهم مع الأمريكان أسبقية أولى، ومـــن بعدهم العراقيين، و لم تكف شدتها أيضاً لإثارة عدوانية الشعب العربي الذي وجـــد نفسه أحيانا في بعض المناطق والدول في حال الراغب نفسيا بالتغاضي عن تحـــرك الغير لتأمين مصالحه في التغيير نحو الأحسن، فكانت تلك المرحلة أقل تأثيرا، وتعميما على العكس من المرحلة الثانية التي اتسعت فيها مستويات الخشية بعد أن اتضح:

1. إمكانية تعميم أخطاء، وكوارث جرت في العراق على مجتمعات عربية تشبه في بعض مكوناتها ما هو موجود في تركيبته الاجتماعية، والثقافية.
2. الـــنوايا غير المعلنة للأمريكان في إعادة شكل التوازن القلق في المنطقة بمستوى يفقد فيه العرب القليل المتبقي من معالم القدرة المتيسرة لهم في التعامل مع بؤر التوتر، والصراع في محيطهم غير المستقر.

إن مـــشاعر الخشية، والتوجس في هذه المرحلة التقت من الناحية النفسية مع تلـــك التي كانت قبل وقوع الحرب. وبوجود محتوى أفكار سلبية مسبقة في العقل العـــربي، وخلـــل في تقدير الربح، والخسارة تكوّن وضع نفسيّ في المنطقة فيه من القلـــق، والـــريبة، والشك غير القليل، استغله المناوئون للعملية السياسية في تحديد أهداف عملهم النفسي باتجاه تضخيم خطر التغيير في العراق.

ونجحوا بقدر معقول في تكوين رأي عام عربي ليس في صالح التغيير، وبالضد مـــن ما يجري في داخله، نجاحا التقى معهم في بعض جوانبه غالبية الحكام العرب، وســـاعدوا في استغلاله على شكل تهويل من الخسارة، وتعزيزه حد إثارة المخاوف كنوع من درء الخطر عن الذات التي تعيش هاجسا من التهديد بالتغيير.

إن النظر إلى المواقف، والجهود الخاصة بتضخيم الضرر، واستغلاله في تكوين اتجاهـــات مضادة مسألة ليست سهلة، وفي واقعها نجد أن غالبية الدول العربية عدا تلـــك الـــتي دخلت في صراعات مسلحة، وعلاقات توتر مع صدام مثل الكويت، وسوريا، وما ترسب في ذاكرتها من شعور بالتهديد المستمر من ذلك النظام، وعدم الثقة بسياسته غير المتوازنة لثلاثة عقود متصلة (وكما مبين سابقا) وكذلك الأردن الـــتي انتقدت ديكتاتورية النظام بشكل علني، وسمحت بجهد معارض على أراضيها

قـــد أصـــبح الحكام فيها، وحكوماقم، وشرائح من مجتمعاقم قلقين من الحرب، ونتائجها التي بدت سلبية في محصلتها حتى أربع سنين من حصولها، وبسبب قلقهم وقفوا بالضد منها في السر، والعلن على الرغم من أنهم جميعا مع بعض الاستثناءات البـــسيطة يرغبون برحيل صدام ونظامه، والقلة منهم أيدت الحرب، أو دعمتها في السر تحاشيا لتأثيرات الشارع، ومواقفه غير المنسجمة، وأبقت في ذات الوقت المجال مفـــتوحا للوقـــوف بالضد منها لبعض مفاصل الإدارة كنوع من المرونة في تغيير المواقف، وربما التنفيس عن الانفعالات المكبوتة، والإيحاء بتطبيقات الديمقراطية.

الفصل الثالث

الجهد النفسي

تهدف غالبية الجهد النفسي المضاد إلى إفشال عملية التغيير وإقامة النظام الديمقراطي ومحاولة إيجاد البديل.

من خلال استعراض بعض المفردات ذات الصلة بالعوامل النفسية بمفهومها الحديث يتبين أنها فعاليات شاملة، وإجراءات متداخلة يكمل بعضها البعض، فأعمال السياسة الخارجية على سبيل المثال ذات الصلة بالعلاقات، والخطب، والمؤتمرات، والرسائل، والاتصالات، والمذكرات لتكوين قناعات تساعد في كسب الود، وتمتين عرى الصداقة، ومن ثم التخفيف من عدوانية الخصوم، ومحاولة تحييدهم، قد استخدمت جهدا نفسيا لما يتعلق بالعراق كانت أولى خطواتها إشراك الأمم المتحدة طرفا، على الرغم من عدم تحقيق النجاح المطلوب بسبب قوة المقاومة المسلحة بالضد، وأعمال الإرهاب، وسعة أخطاء الاحتلال التي أجبرتها على الخروج من الساحة الداخلية، والبقاء في وضع المراقبة، والتقرب البسيط من الخارج، والخطوة الثانية تتعلق بالجامعة العربية التي أُدخلت كذلك محملةً بأعباء التناقضات العربية، وخرجت أيضاً لنفس الأسباب بعد أن استقال ممثلها السيد لماني بداية عام 2007.

وأعمال العسكر في الحرب التي اعتمدت استخدام القوة لفرض غايات الاحتلال في الداخل قد أثمر فرضها في الأسابيع، والأشهر الأولى للاحتلال، لكنها سرعان ما فقدت قوة زخمها في التأثير بسبب:

1. تجميع قوى المقاومة العراقية المسلحة، وحشد جهدها، والنزول إلى الشارع بعمل مسلح سبب إشكالات كثيرة لقوات الاحتلال أسهمت في فقدان استمرار قوة التأثير.

2. تمركـــز قـــوى الإرهاب الدولي"العربي، الإسلامي" على الأرض العراقية وبدء عملـــياته التخـــريبية، وإثارة النعرة الطائفية أخرَ في الحسم، وأسهم أيضاً في إضعاف قوة التأثير.
3. مـــتغيرات الوضـــع الداخلـــي الـــتي أوجدت احتقاناً ومن ثم احتراباً داخلياً استنـــزف جهد القوة العسكرية، وقلل من قوة التأثير.

إن أعمال القوة أي فعل العسكر داخل ساحة القتال العراقية لم يكن معزولا عـــن السياسة التي دعمته بقوة، وعن الإعلام الذي خُصصتْ له ميزانيات كبيرة، وفُـــتحت على أساسه عشرات القنوات الفضائية المؤيدة لإقناع الأطراف الأخرى بـــوجهات نظـــر محـــددة تفـــضي إلى تحقيق الأهداف القريبة "التعبوية" والبعيدة "الاستراتيجية" حتى أصبحت من فرط استخدامها سمة من سمات الأداء، وأصبح في مجالها استمرار تسجيل النقاط في وعي الآخرين أمراً أساسياً، ولإيضاح هذا الجهد وفاعليته سيتم تناوله بجانبيه الأمريكي، والعراقي الحكومي، والجانب الثالث المضاد لهما معاً.

المبحث الأول

الجهد الأمريكي

في موضـــوع العملـــيات النفسية، تتطلب الدقة تقسيم الجهد الموجه إلى العراق، ومن بعده المنطقة إلى عدة أقسام يعود الأول فيها إلى جهة الاحتلال أي أمـــريكا، وفي مجالها يقتضي التحليل ذكر بعض الحقائق المعلنة عن إمكاناتها في مجاله:

1. غالبـــية الـــشركات العملاقـــة "مـــتعددة الجنـــسية" للـــصحافة والـــبث الـــتلفازي، والأقمـــار الـــصناعية الـــناقلة للـــبث الفضائي موجودة في اليد الأمريكية.
2. أســـاس عمـــل شبكة المعلومات "الانترنيت" أمريكي، ورأس مالها أمريكي، ومراكـــزها عـــبر العالم أمريكية، والقدرة على مراقبتها، والتحكم بها في يد أمريكية.

3. 80% من الأنباء العالمية التي تتداولها وكالات الأنباء في الدول النامية مصدرها الـــوكالات الإعلامـــية الأمريكية القادرة على الفبركة، والصياغة، والتعميم، والنشر وإيقافه في الوقت الذي تريد.
4. خمس عشرة شركة إعلامية أمريكية غربية عملاقة تتحكم في المواد، والوسائل، والمؤسسات، والتقنيات الإعلامية، والإعلانية في العالم.
5. 75% من إجمالي الإنتاج العالمي من البرامج التلفزيونية أمريكي.
90% من إجمالي الأخبار المصورة من إنتاج أمريكي.
82% من إنتاج المعدات الإعلانية، والإليكترونية أمريكي.
90% من المعلومات المخزنة في الحاسبات الإلكترونية جهد أمريكي.
6. رأس المـــال الـــبالغ بحدود (489) مليار دولار الذي يتحكم في سوق التقنية الإعلامـــية غالبيته أمريكي، يسعى أصحابه إلى استثماره للامتداد إلى السوق العالمي تماشيا مع فلسفة العولمة، والنظام العالمي الجديد (35).

إن للأمـــريكان الـــذين يملكون كل هذه الإمكانيات بطبيعة الحال أهدافهم النفسية الخاصة في ما يتعلق بالتواجد على الأرض العراقية، والمنطقة بعد إنجاز الفعل العسكري للاحتلال تتمحور على الأغلب أو منطقيا حول الآتي:

1. تبرير فعل الاحتلال.
2. إقـــناع العـــراقيين، والعـــرب بصحة التوجهات الأمريكية في التغيير، وإقامة الديمقراطية في بلد عانى كثيرا ويلات الديكتاتورية.
3. إعطاء انطباع عن سلامة النهج الأمريكي في التعامل مع المنطقة.
4. فاعلية القوة الأمريكية في الردع، والعقاب.

ولتحقيق تلك الأهداف رصدت الحكومة الأمريكية ميزانيات ضخمة للجهد النفسي الموجه، فتحت على أساسه فضائيات موجهة مثل الحرة، ودعمت فضائيات أخـــرى مـــثل العراقية وغيرها، ومولت صحفاً ومجلات داخل العراق وخارجه في جهـــد نفـــسي مكثف لتحقيق تلك الأهداف القريبة مع أخرى بعيدة على ضوء إستراتيجيتها التي يصعب التكهن بها في الوقت الحاضر، لكنها ومع كل هذه الجهود

المــبذولة، والإمكانــيات المــتاحة تؤشر النتائج، وكم العائد بمعايير اليوم إخفاقا تعبويا[1] واضح المعالم في تحقيق تلك الأهداف إذ إنّ العراقيين الذين استبشروا خيرا بالمحــتل بعــد السقوط مباشرة على سبيل المثال تكونت عند الكثير منهم مفاهيم، واتجاهات يغلب عليها:

1. التشاؤم من استمرار الاحتلال كعامل مساعد لإعادة البناء الديمقراطي للبلاد.
2. القلــق مــن بقائه كوجود يثير التوتر، والاضطراب بشكل مباشر عن طريق الــتدخل طرفا في القتال الجاري، وبشكل غير مباشر من خلال تقديم العون، والمساعدة للبعض، وغض النظر عن أعمال تجري في البلاد للبعض الآخر.
3. عــدم الإيمان بقدرته على حسم الاضطراب الذي يتسع في البلاد لاعتقاد عند قــسم من العراقيين، والعرب بعدم الجدية اللازمة للحسم، وعند القسم الآخر بوجود تعمد في عدم الحسم يؤمن تحقيق أهداف بعيدة المدى.
4. ضعف الثقة بالجانب الأمريكي طرفا محايدا في ساحة الاحتراب الداخلية على الرغم من حاجة جميع الأطراف لوجوده، ورغبتهم في تحكيمه، والرجوع إليه.

إن الإخفــاق الأمريكي الحليف الذي حصل في مجال تحقيق الأهداف النفسية علــى المستوى العراقي حصل كذلك على المستوى العربي، والإسلامي ومؤشراته العامة:

1. العدوانية التي كانت موجودة بشكل ملموس في الشارع العربي، والمسلم بالضد مــن الفرد الأمريكي، والنظام الأمريكي لفترة زمنية سبقت الحرب، وخلالها زادت شدتها درجات عدة بعد الحرب، والتغيير إلى مستوى دفعت البعض من الشباب المتطرفين دينيا إلى التوجه إلى المشاركة بالقتال.
2. الأصوات التي كانت مسموعة من قبل السياسيين العراقيين، وبعض الباحثين، والمــثقفين لــدعم فكرة التحرير بقوات أمريكية تأسيسا على فلسفة المصالح

(1) إن الحكــم علــى الفــشل والنجاح في موضوع يتعلق بتقييم ما هو متحقق من الأهداف في الجانــب الأمريكي مسألة ليست سهلة لأن ما يعد فشلا في الوقت الحاضر قد لا يكون كذلك فــي المستقبل، كما أن الفشل على المستوى الآني أي التعبوي مــن وجهة نظــر عراقية أو حتى عربية قد لا يكون كذلك على المستوى الاستراتيجي ومن وجهة نظر أمريكية.

المـــشتركة للجانبين، وفكرة الاستمرار بالبقاء للمساعدة في إعادة البناء بدعم أمريكي مقتدر قد خفت حدقما كثيرا إلى حد الاختفاء.

3. وأكثر معالم الإخفاق وضوحا هو ضعف الحجة[1]، وشدة الإحراج الذي بات يقتحم نفوس العراقيين المتحالفين، والمؤيدين للوجود الأمريكي، والعاملين معه في مـــشروع التغيير، وإعادة البناء أفرادا، وجماعات، وأحزاباً، وهو إحراج قد يتطور نفسيا إلى مستوى الشعور بالذنب، ومن ثم التحول إلى الصف المقابل في الـــنقد، وربما الوقوف بالضد إذا ما استمرت معالم الإخفاق على ما هي عليه في الوقت الراهن، أو تطورت إلى الأسوأ في المستقبل القريب.

المبحث الثاني

الجهد العراقي

إن الجهـــد النفسي في قسمه الثاني يتعلق بالدولة العراقية أي الحكومي الذي يفترض أن يسعى من جانبه إلى تحقيق أهداف قوامها منطقيا إقناع الجمهور بكثير من الأمور على رأس قائمتها:

1. جدية الجهد السياسي الوطني المشارك في العملية السياسية، والداعم لها خارج المشاركة الفعلية في تحقيق الديمقراطية.
2. مـــسؤولية الـــنظام السابق عن تأسيس قواعد الخطأ التي تضاعفت مستويات ارتكابه في النظام الجديد بعد التغيير.

---

(1) عديـــد مـــن الشخصيات السياسية العراقية التي عملت في المعارضة العراقية لمرحلة ما قبل التغييـــر، وتعاونـــت مع الأمريكان ضمن برنامج، وقانون تحرير العراق من خلال وجودها كشخـــصيات مستقلة أو عن طريق أحزابها التي دُعمت من الأمريكان ماديا، وسياسيا، والتي أتـــيحت لهـــا الفرص في السابق للدخول في سجال، وحوار بالضد مع رافضي التغيير عن طـــريق الاحتلال، والتعاون مع الأمريكان في الفضائيات العربية قبل الحرب، وأثنائها، ومن بعدها بقليل وجدت نفسها بعد سنتين من حدوثه ضعيفة الحجة في دعم وجهات نظرها السابقة فـــي مقابـــل أولـــئك الرافـــضين، وكذلك المعارضين الجدد للبقاء حتى أخذ البعض من تلك الشخـــصيات يتجـــنب الظهور على الشاشة أو لا يوافق على الدخول في سجال لا يمتلك فيه الحجة القوية لدعم وجهات نظر كانت مدعومة بعديد من الحجج في السابق.

3. تبرير أعمال القصور في جوانب إدارة الدولة، والمجتمع ذات الصلة بالخدمات، وحقوق الإنسان، والعدالة، والمساواة، وغيرها.
4. إعطاء انطباع عن سلامة النهج المتبع، والأساليب المأخوذ بها في حكم البلاد، وبالعلاقة مع الجانب الأمريكي الذي صَنَفت الأمم المتحدة وجوده بصيغة الاحتلال.

إن الجهد النفسي الحكومي[1] الذي اعتمد على الجانب الأمريكي لمرحلة ما بعد السقوط مباشرة، ولحين استلام مسؤولية الحكم رسميا منتصف عام 2004 قد أنشأ بمساعدتهم شبكة للإعلام العراقي تتبع لها بصفة رئيسية فضائية "العراقية" وجريدة يومية "الصباح" ومجلة، وإذاعة عملت غالبيتها كوسائل أساسية بشكل مهني، دون الأخذ بالاعتبار الجانب النفسي، وخطط تنفيذ الأهداف المذكورة وغيرها، على هذا الأساس يمكن الاستنتاج أن الجهد النفسي الحكومي لا يوصف فقط بالإخفاق أو التقصير، وإنما بالتأثير المضاد إذ إنه وبدلا من الإقناع بأحقية التغيير، وجدية العمل من أجل الانتقال إلى مرحلة الديمقراطية بعد التغيير، وتبرير بعض جوانب التلكؤ، والخطأ أعطى المعنيون من السياسيين المشاركين في الحكم، والباقين خارجه لأربع سنوات متتالية انطباعات نفسية سلبية تماما منها على سبيل المثال:

1. عدم وجود الخبرة، وكذلك الأساس لاكتساب الخبرة في حكم البلاد.
2. إن بعض الموجودين في المسؤولية بالمستويات العليا ليسوا رجال دولة، ولا يمكن أن يكونوا رجال دولة بالمعايير المعترف بها.

---

(1) لا يتحمل من الناحية المنطقية الجهاز الإعلامي الحكومي الذي تشكل بعد التغيير مباشرة مسؤولية الإخفاق لوحده فيما يتعلق بوضع، وتحقيق الأهداف، والخطط النفسية التي يفترض وضعها، لأن الفلسفة الإعلامية، ومقتضيات الديمقراطية حتمت أن تكون تلك الأجهزة محايدة، شفافة جهد الإمكان لا يمكن التدخل بشؤونها أو توجيهها من قبل الدولة، وأية جهات أخرى عندها أصبحت وسائل مهنية بحتة تتأثر برؤى المعنيين بها مثلها مثل الكثير من الوسائل الأخرى" الفضائيات، والصحف" المنتشرة وتأثيرها لا يزيد عن تلك التي لا تمتلكها الدولة.

3. إن مستوى النـــزاهة متدن عند الكثير من الموجودين في المفاصل المهمة للدولة، وإن القـــادمين مــــن الخارج جاؤوا مسرعين للكسب، وسد النقص، والتمتع بمباهج الحكم التي حرموا منها لعشرات السنين.
4. إن ولاء الكـــثيرين ممن تحملوا مسؤولية الحكم، وإعادة البناء ليس للعراق، هذا التـــصور تـــؤكده مؤشرات كون غالبيتهم متجنساً بجنسيات أجنبية[1]، وإن أحزابهم تمول من دول ومنظمات أجنبية، وبقاؤهم في العراق مؤقت، ومرهون بانـــتهاء العمـــل والمنصب، وسيعودون إلى أماكنهم السابقة، وغالبيتهم أبقوا عوائلهم في الخارج مرتكزا للعودة.

الجميع أو الغالبية مسألة صعبة في عراق اليوم الذي يتأسس التفكير، والتقييم، والحكم فيه، على الشك، والافتراض، وكثرة الأقاويل التي تضع مصاعب، وعقبات أمام القياس والتعميم، ومع ذلك فإن مثل هذه الانطباعات موجودة يمكن تعميمها منطقيا على بعض السياسيين، ولا يمكن الجزم بوجودها عند الجميع.

إن الجهـــد النفسي الحكومي غير موجود من الناحية العملية إذ ألهيت دوائر كانت موجودة في السابق، ولم يتم إنشاء أخرى بدلا منها أو حتى التفكير بإنشائها لعدم وجود الخبرة، والمعرفة في هذا المجال الحيوي إذ إنّه وعلى سبيل المثال وعندما شـــعرت الحكومة السابقة لمرحلة ما قبل التغيير في أوج الحرب العراقية - الإيرانية بوجـــود بعـــض المصاعب النفسية في عمليات التطويع للقتال، والحث، والإقناع، والتبرير، والمعنويات اللازمة لإدامة الحروب سارعت إلى إنشاء عدة أجهزة نفسية بينها شعبة للاستخبارات النفسية في المديرية العامة للاستخبارات العسكرية، وشعبة

(1) إن مثل هذه الانطباعات وإن كانت موجودة بالفعل لكن النظر إليهـــا كحـــقيقة شائعة بين إن مـــسألة التجنس، وامتلاك جنسية ثانية حق معمول به في الكثير من دول العالم، وبينها دول عربية، وقد أقر الدستور العراقي العمل بموجبه مع استثناءات لبعض المناصب القيادية العليا لأن غالبـــية حـــالات التجـــنس حصلت ما بعد ثمانينات القرن الماضي، وتسعيناته لأسباب سياســـية، لكـــن الظروف، والأخطاء، وقلة الخبرة، وطبيعة الصراع النفسي الذي تكون بين القادمـــين من الخارج، وأهل الداخل وضع موضوع الجنسية الثانية في زوايا النقد لم يستطع في مجالها المعنيون بالدولة، ووسائل إعلامها، وحاملو الجنسية الثانية من أن يقنعوا المجتمع العراقـــي بهـــذا الحق، وبكونه مسألة حضارية لا تخل كثيرا بالولاء الذي تصدع بين عموم العراقيين، وبينهم المتجنسين بجنسيات ثانية.

نفـــسية في المخابـــرات، ووحدة للطب النفسي في مديرية الأمور الطبية، ومديرية خـــدمات نفـــسية في دائرة التوجيه السياسي، ولجنة نفسية لوزارة الدفاع، ولجنة حـــرب نفسية للحكومة في وزارة الإعلام لم يعد موجود منها وشخص أو خبير، و لم يتذكر أحد من رجال الدولة ذلك الوجود أو الحاجة إلى وجوده فحصل تلكؤ وتقصير في جوانب مهمة من العمل النفسي الحكومي أهمها:

1. عـــدم القدرة على تحديد الأهداف النفسية للدولة حسب الأسبقيات الملائمة للمرحلة، والإمكانيات المتاحة للتنفيذ.
2. غـــياب الجهد الخاص بالتحليل الذي يمكن أن يقدم للحكومة، وبعض مفاصل الدولة تصورات، وتوقعات، وتوجهات الخصم، وكذلك المجتمع الداعم.
3. تـــدني مستوى الرصد لأهداف العدو في الميدان القتالي، والحرب النفسية الذي حـــرم بعض مؤسسات الدولة المعنية من مصادر الإستخبارت النفسية التي يعد وجودها مهماً لإعداد التحاليل، وتقادير الموقف الخاصة بالتعامل معه "العدو".
4. إن غـــياب الجهـــد النفسي على مستوى الدولة، وقواتها المسلحة أخل كثيرا بعملـــية التحـــصين النفسي لمواطنيها تجاه الحرب النفسية الموجودة في عرض الـــبلاد، وطـــولها، وحرم القادة الميدانيين فرص رفع معنويات قطعاتهم عمليا، وكذلك أجهزة إعلام الدولة من منافذ تحليل، وقياس للاتجاهات، والمردود.

إن غـــياب الجهد النفسي الحكومي على المستوين الاستراتيجي، والتعبوي أو المـــيداني تسبب في وجود أخطاء في التعامل أسهمت في زيادة الإرباك الحاصل في بعض المؤسسات، وفي مجاله الأول أي الاستراتيجي نجد أن إدارة الصراع الدائر بين الدولـــة العراقية لمرحلة ما بعد التغيير من جهة، والقوى المضادة من جهة أخرى لم يتم بالشكل المطلوب لأن الصراع الموجود أخذ طابع الشمولية التي لا تقتصر فيها الأدوات علـــى اســـتخدام السلاح في "القتل، والاغتيال، والتفجير، والاختطاف، والمداهمة، والاعتقال... الخ" في ساحة قتال امتدت مساحتها لتشمل عموم العراق، بـــل ويفترض أن يكون هناك جهد نفسي منظم باتجاه التأثير في نهج تفكير، وقدرات المقابل بهدف إيجاد قناعات ما أو تعزيز أخرى تفضي إلى السلوك أو الفعل المطلوب من ناحية، وتأمين قدر من الردع النفسي كأحد الأهداف من ناحية أخرى.

إن المـــتابعة البـــسيطة لواقع الجهد النفسي تدلل غياب الردع كأحد أهم الأهـــداف ذات الصلة بفرض الأمن والاستقرار، وغيابه هذا يؤكد وجود نوع من القصور في جانب الدولة، ومرونة في تأمين قدر منه في الجانب المقابل لها إذ يلاحـــظ أن القوى المضادة لإقامة النظام الديمقراطي، وعندما فشلت في تحقيقه بالضد من الأمريكان، وقوات متعددة الجنسية توجهت إلى جهة الدولة العراقية، ومؤســـساتها الأمنـــية الضابطة في عمليات متتالية حققت بها عنصر المبادأة في استهداف مفاصل عليا للقرار نـــزولا إلى الشرطي البسيط في الشارع، والفرد الـــراغب بالـــتطوع في الشرطة والجيش، وقد حققت في استهدافها هذا بعض النجاحات ذات الصلة بإثارة التوتر، والخوف، والتردد، وعدم الرضا في أحيان ليـــست قلـــيلة، ونجحـــت إلى حد ما في استمالة البعض من متضرري التغيير، والمتطرفين، ومن أولئك الواقفين على الحياد إلى جانب كفتها في الصراع الدائر مـــع الحكومة، وكلفتها كثيرا من الجهد، والمال الذي قلل من قدرتها على إدارة عملـــية إعادة البناء، وهذا واقع أمر ينطبق على كل الحكومات العراقية المتعاقبة طـــيلة الـــسنوات المنـــصرمة الـــتي لم تمتلك جميعها من وسائل التأثير النفسي، والعـــسكري الحاسم على الخصم ما يكفي إلى ردعه دون القيام بالفعل المسلح بالـــضد مـــن أدواتها الضابطة، ومؤسساتها الاقتصادية والخدمية، ولم تمتلك في الـــوقت نفـــسه الخطط اللازمة، وهامش الحركة المطلوب للتعامل مع مواقف الـــردع التقليدية، ويتبين كذلك أنه ومع النقص الواضح في الجهد الاستخباري التعـــبوي، وخبرات التعامل الميداني لدى عموم مسؤوليها ركزت على سياسة الـــدفاع عـــن النفس، وعلى بعض الهجمات التي وإن تطورت كما ونوعا في الأشهر الأخيرة، لكنها أبقيت بمستوى لم تتمكن فيه من:

1. إقناع الخصم بتفوقها الرادع من أجل إجباره على التوقف عن استهدافها.
2. إقـــناع المواطن العادي بإمكاناتها في التفوق السريع على ذلك الخصم ليكون طرفا أكثر سعيا للمشاركة معها في المعركة الدائرة بالضد منه.
3. تقـــريب المسافة النفسية بينها، وعموم العراقيين ليخففوا عنها الكثير من النقد، والتجريح الذي يصب نفسيا لصالح خصمها في القتال.

إن الحكومة ومع السنة الرابعة للتغيير كونت قدرة عسكرية معقولة نسبيا للتعامل مع الخصم لكنها ومع ذلك تبقى بحاجة إلى تأمين الردع النفسي، وأخذ المبادأة التي تقوي كفتها في الصراع الجاري إذا ما اقترنت باستمرارية التعرض، وبعدالة معقولة للاستهداف، وبجهد نفسي لإقناع أبناء المناطق المستهدفة بشرعية الاستهداف الأمر الذي يقيهم في خطوة أولى على الحياد ما بين طرفي الصراع، ويقربهم في خطوات لاحقة من الحكومة كمواطنين أسوة بغيرهم من العراقيين، عندها يمكن القول إنّ معالم التفوق في الصراع بدأت تتجه إلى صالح الحكومة، وإن الردع النفسي يمكن أن يحقق الأمن، والاستقرار.

أما في المجال الثاني أي التعبوي فيتبين أن الخلل، والقصور، ومستوى الإرباك لا يقل عن الأول أي الاستراتيجي، ولو أخذنا في مجاله الفعل القتالي في الميدان مثالا لهذا الاستنتاج نجد أن الجندي الفرد في الحضيرة على سبيل المثال يحتاج إلى دعم معنوي، وتهيئة نفسية ليؤدي مهامه بشكل صحيح لأنه يُهيأ منذ فترة التدريب الأساسي لأن يَقتلُ في المعركة، وأن يحمي نفسه فيها من القتل ماديا من خلال التدريب، والتسليح والتجهيز، ونفسيا من خلال القناعة بفعل القتل، وتقليل أثر الشعور بالذنب من كثر القتل، والدعم المعنوي لزيادة التحمل، والصبر، والمطاولة التي تتطلبها المعارك في ميدان مليء بالتعب والإرهاق، وفنون القتل، على هذا الأساس أوجدت الجيوش دوائر مختصة بالعمل النفسي والمعنوي، وأعطتها دورا في التأهيل، والإدامة لا يقل عن أدوار يقوم بها المعنيون بالتدريب، والتسليح والتجهيز، وغيرهم، بعد أن أصبح موضوع التأهيل النفسي مجالاً مهماً من مجالات علم النفس، وتخصصاً يحتاج العمل، والتعامل معه إلى معرفة وخبرة واختصاص.

هذا بشكل عام وإذا ما كانت المعركة في داخل البلد بين جيشها وشرطتها من جهة، والعاصين من أبنائها، والدخلاء بملاذات بين أهلها من جهة أخرى كما هو جار الآن في العراق فإن التأهيل، والتهيئة النفسية سيكونان من بين الضرورات الملزمة، لأن العدو المطلوب قتله في ميدان الاحتراب الداخلي لم يكن فقط من أبناء دولة أجنبية يسهل على الجندي المهاجم تحويل مشاعر العدوان

تجاهه، وقتله بمجرد إصدار أوامر القتل، إنه ابن بلد أو شخص قادم من الخارج يعـيش معه أو قريبا منه، أو حتى يتواجد في محيطه تحت تهديد السلاح، وعليه يـصبح فعـل القتل مشكلة تثير التأنيب الشديد للضمير، ثم إن القتال كما هو حاصل حاليا في العراق لم يكن بين جيشين، و لم يكن الإرهابيون يتحصنون في مواضع دفاعية يجري الهجوم عليها بسبل الهجوم التقليدية، بل على العكس من ذلـك هـم يتملـصون من المواجهة المباشرة، ويأخذون من الدور، والأماكن السكنية قواعد لهم، ويحاولون إشراك الصبية، والنساء بهدف زيادة الخسارة بين المدنـيين، واسـتثمارها للـضغط والدعاية، والإعلام، وهذا أمر يجده الجندي العراقي معقدا بسبب الحاجة إلى الفرز بين الأهداف المتاحة أمامه، وفرز من هذا النوع في وضع التوتر، والخسارة، والتعب، يتطلب هدوءاً، وسيطرة عالية على الانفعـال، وحيادية يجب تأمينها عند التهيؤ النفسي قبل الشروع بالقتال، ولأن المطلوب مقاتلتهم بهدف إخراجهم من كفة الصراع أو تقليل تأثيرهم في العملية الـسياسية الجاريـة تمهيدا لفرض الأمن، والاستقرار في البلاد كما هي الغاية المفترضة في الخطط الأمنية، هم في الغالب عراقيون، ومن مناطق محددة، لذا يحتم مـنطق القتال معهم في أن لا تتأسس الغاية على توسيع هامش القتل لإحداث أكـبر قدر من الخسارة بالطرف المقابل سعيا لإجباره على قبول شروط المتفوق فـيها كمـا هي فلسفة القتال في الحروب التقليدية، لذا يتطلب هذا النوع من القتال:

1. هـدوءاً، وضـبط أعصاب أي السيطرة على الانفعالات لا تتطلبها الحروب الأخرى.
2. تحذيراً من الإفراط في القتل، ومحاولة تجنبه جهد الإمكان وبأسلوب تعامل حذر لا يمكـن تأميـنه إلا بجهد منظم أثناء عملية التهيئة النفسية المسبقة، والمتابعة النفسية الميدانية للوضع المعنوي في ساحة القتال.

إن قتال الداخل، وموروثات الثأر، والطائفية فيه تتطلب تقليل الأثر الجانبي له "القتال" أو بمعنى أوضح أن لا يؤدي القتال إلى تحقيق:

1. إثـارة نفسية لأهالي المنطقة، والعشيرة التي يتواجد في أرضها المطلوب مقاتلته

لأن في إثارتها فرصة لدفع البعض من أبنائها الدخول طرفا في القتال.

2. إعطـــاء القـــتال معنا دينيا "مذهبيا" لأن إعطاءه هذه الصفة يثير الطائفة التي يـــتواجد المـــسلحون، والإرهابـــيون في محيطها، وسيدفع الشباب غير المدرك لطبـــيعة، وأهداف القتال إلى أن يكون وقودا رخيصا لنارها التي تبقى بسببها مستعرة إلى عديد من السنين.

ومـــن الجانـــب الـــثاني لا بد أن يتحقق في هذا النوع من القتال قدر من العقلانـــية للتعامل مع جريح في الساحة أو مدني دخلها عن طريق الخطأ، ولابد أن يتوفـــر في مجاله أيضاً بُعد النظر عند المقاتلين، والآمرين في مستويات القيادة الدنـــيا الـــذين يحتكون مع الجمهور في الساحة يؤمنون بوجوده تعاملا يُقَرِب الجمهـــور إلى جانـــبهم، ويبعده عن العدو الذي يؤسس على العلاقة معه جميع خطواته في القتال، وهذا أمر لا يمكن تأمينه إلا من خلال خطط للتهيئة النفسية المسبقة تجنب المنفذين الانـــزلاق بالخطأ، وتقلل الآثار، والخسائر الجانبية جهد الإمكان، مع عدم استثناء الجهد النفسي الذي لا بد وأن تقوم به قوات الدولة في قـــتالها للـــتأثير في الأعداء بهدف التقليل من اندفاعهم، وفي الأهالي المحيطين لتحييدهم أو كسبهم إلى صفها.

جهـــدٌ كـــان موجودا واتهم مثل غيره من الخبرات العراقية بأنه نتاج العهد الـــسابق فَـــضَيَّعَت بسببه الدولة جهدا لا يمكنها تعويضه[1] وتعرضت وأجهزتها، ومواطنيها إلى خسارة يصعب الحد من آثارها الجانبية لعشرات السنين.

(1) كانت في الأجهزة النفسية للدولة والجيش العراقي السابق دوائر بينها مديرية للتوجيه السياسي "المعنوي" تمتلك خبراء متخصصين في الجانب النفسي والمعنوي، وأدوات بث صوتي مباشر مثبـــتة علـــى ســـيارات خاصة، وطائرات سمتية تؤدي جميعها مهمتين الأولى تتعلق بالدعم المعـــنوي، والتهيئة النفسية للمقاتل، والثانية ذات صلة باستخدام معطيات علم النفس التطبيقية فـــي التأثيـــر فـــي العدو في ميدان المعركة، وقد سجل هذا النوع من العمل تطورا، ونجاحا ملموســـا إبـــان الحـــرب مـــع إيران بين عامي 1980 - 1988 على الرغم من إفراط هذه المديـــرية وَشُـــعَبها، وأقـــسامها في المغالاة بمدح القائد الذي ولد تكراره الزائد عن الحدود الطبيعية إيحاء مضادا في نفوس المقاتلين، والناس العاديين.

المبحث الثالث

الجهد المضاد

إن الجهـــد النفـــسي بقسمه الثالث يمكن وضعه في خانة المضاد للحكم الحالي، ولعملـــية التغـــيير سواء ذلك الذي يدار على مستوى الدول أو المنظمات من خارج العراق، أو الذي يتم من الداخل عن طريق بعض فصائل المقاومة، والجماعات الإرهابية مثل القاعدة، وبعض الأحزاب، والقوى السياسية المعارضة للعملية السياسية.

وهـــذا جهـــد في معظمه شبه منظم[1]، وله أهداف تقع جميعها ضمن دائرة الإفـــشال المـــتعمد لعملية التغيير، وشكل نظام الحكم القائم، ومحاولة إيجاد البديل المرغوب" الملائم من وجهة النظر المقابلة للدولة" الذي يمتد واسعا من أقصى اليمين حيث السعي لإقامة النظام الإسلامي السلفي إلى أقصى اليسار حيث الرغبة بالعودة إلى ســـابق الحكم نظاما ديكتاتوريا للشخص الواحد أو الحزب الواحد، ووسائلها لتحقيق ذلك بالإضافة إلى القتال، والتخريب المادي تلك العمليات النفسية للتفريق، وإثـــارة الفـــتن، والإفساد، وغيرها بوسائل أكثرها تأثيرا الفضائيات، ومن بعدها مواقع الانترنت، والصحف، والمجلات، والإذاعات، وغيرها التي وضعت لها أهدافا أكثرها إغراء في العمل النفسي على الساحة العراقية في الوقت الراهن الآتي:

1. حصر وتشويه التجربة العراقية في محيط الداخل

شكل التغيير في العراق حدثا كبيرا على المستوى الداخلي أي المحلي، وكذلك على المستويين الإقليمي والدولي، من بين غاياته وكما ورد فيما سبق إعادة ترتيب

---

(1) إن النظـــر إلى الجهد النفسي المصنف معاديا للعملية السياسية الجارية في العراق من وجهة نظر تنظيمية يبيّن أن الذي يعود إلى دول، وجهات خارجية متمكنة يمكن وصفه بالمنظم على أســـاس وجود الخطط، وتحديد الأهداف، وقياس العائد، لكن خاصية التنظيم لا يمكن تعميمها علـــى الجهـــد النفسي الداخلي سواء ما يتعلق منه بالمقاومة العراقية أو بقوى الإرهاب مثل القاعدة وغيرها الذي يعمل هو أيضاً بطريقة المحاولة والخطأ، والاجتهاد الفردي، ومع ذلك فإنـــه اســـتفاد من المرونة التي يمتلكها ولا تمتلكها أجهزة الدولة، والدفع الموجود في محيط العراق غير المتوافق مع مجريات الداخل، واستعداد فضائيات عدة لأن تكون وسائله النفسية لتحقيق أهدافه الأمر الذي رجح كفته في التأثير الميداني على كفة الدولة.

الوضع في المنطقة انطلاقا من عراق جديد مسالم، منهك، وفي المدى البعيد مترف، غير قادر على، وكذلك غير راغب في تهديد الآخرين في محيطه عسكريا، وإعادة الترتيب في حالته تتأسس على:

أ. خطوات في الديمقراطية لا يمكن أن تتخذ القرارات في مجالها فرديا.

ب. آلية في السياسة، واتخاذ القرار تحول دون الانسياق إلى الرغبات القومية، والمذهبية.

ج. ترتيبات عسكرية يكون فيها الجيش العراقي غير متمكن في المدى القريب من الدفاع عن الوطن إلا بمعونة الآخرين.

د. تنظيم للاقتصاد يرتبط بالعالم الذي يجعله جزءاً من كل، وحركته مرهونة بحركة الآخرين.

هـ. علاقات بين مكونات المجتمع العراقي غير المتجانسة، لا يمكن أن يتفوق فيها أحد على باقي المكونات، فيها أوجه الخلاف أكثر من الاتفاق.

إن حالة متوقعة للعراق الجديد تجعله واهنا في بداية الطريق إلى تحقيقها، وشبه معزول عن محيطه الإقليمي، كذلك غير قادر على تجنب تدخلات الآخرين في شؤونه الداخلية[1] من ناحية، وعلى التأثير في محيطه القريب من ناحية ثانية، ومع ذلك فإن حالته إن تأمنت بشكل يقترب من المأمول على المدى المستقبلي، وبخسائر

---

(1) مر العراق في السنوات الأربع الماضية بمواقف سياسية حرجة، منها مثلا اتهام القيادة الأمريكية في العراق للحكومة السورية بإسناد الجماعات الإرهابية، وتدريب أفراد منهم داخل أراضيها، اتهام دعمه بقوة بعض السياسيين العراقيين، ونفاه آخرون بنفس القوة، إلا إن الحكومات العراقية المتعاقبة لم تستطع التأكيد أو النفي، ولا اتخاذ موقف سياسي، ولم تتمكن كذلك من التهديد باستخدام أية ورقة ضغط ممكنة، مما يوحي بالضعف، وعدم امتلاكها أية أوراق سياسية للضغط والمساومة، على الرغم من توجهها أخيرا توجهاً صائباً بالدعوة الصريحة لإشراك سوريا طرفا فاعلا في أي حل إقليمي مقترح لموضوع الفوضى والعنف في العراق، وهذا واقع حصل كذلك مع إيران التي أشار وزير الدفاع الأمريكي رامسفيلد في أحد تصريحاته الصحفية لبعض وسائل الإعلام الأمريكية بوجود عمليات تهريب أسلحة، ومتفجرات حديثة إلى داخل العراق، وقد استخدم بعضها في عمليات إرهابية، وأشارت وسائل الإعلام أيضاً إلى تسلل مخابراتي إيراني بشكل واسع داخل العراق، وإلى دعم لمسلحين مناوئين من السنة والشيعة دون أن تتمكن الحكومات العراقية من التعامل معه ولو من خلال الإعلام.

مقبولة سيكون من السهل مدها إلى الخارج بدءاً من المحيط القريب للعراق، بهدف إعـــادة تـــرتيب المنطقة على الأسس والسياقات نفسها، وهذا ما لا يريده العرب إجمـــالا، والمحـــيطون بالعراق على وجه الخصوص، ويحاولون الوقوف بالضد منه بوســـائل منها وضع الأمريكان في مستنقع للعراق يكونون فيه عاجزين، ومنشغلين عـــن أهـــداف أخـــرى، ولأنهم جميعا غير قادرين على مجابهة "أمريكا" عسكريا، واقتـــصاديا فـــسيكون من الأسلم، والأسهل لهم أن يتوجهوا إلى أنواع أخرى من المواجهة "النفسية" يحاولون فيها أن يحصروا التجربة في محيط العراق، دون تصديرها إلى الخارج، وكذلك تشويهها من خلال الصحافة، والفضائيات التي لعبت بالفعل دورا كبيرا في هذا المجال من خلال:

أ. تكرار نشر الأخبار المصورة السلبية أكثر من مرة.

ب. نـــشر النـــشاط المعادي "للقاعدة" والأعمال العسكرية المناوئة، والتركيز على تعميم نشرها كنوع من أنواع السبق الصحفي.

ج. التهويل من أثر الأعمال التخريبية، والمسلحة بالضد من الدولة العراقية.

د. عمـــل اقتـــران شَـــرْطي بين الجيش، وقوى الأمن الداخلي من جهة، وقوات الـــتحالف مـــن جهـــة أخـــرى بقصد وضعهما معاً في خانة الأعداء المقبول مقاتلتهما، باستغلال العامل الديني، وبعض التفسيرات لما ورد في القرآن الكريم "ومن يتولهم منكم فإنه منهم" (36).

هـــ. الترويج ضمنا لأهداف المسلحين المناوئين للدولة، ومحاولة تكييفها للمشاهد بصورة مطالب وطنية يمكن أن تكون مشروعة.

و. الاتفـــاق غير المعلن مع المسلحين في أماكن التصادم المسلح، ومع إرهابيين قبل تنفـــيذهم لبعض الأعمال، لتغطية أنشطتهم كجزء من التغطية العامة للحدث، مثلما حصل كما يبدو من العروض التي قدمتها الفضائية العربية، والجزيرة أكثر من مرة (37).

2. إعاقة تحقيق التقدم المنشود في التجربة العراقية

إن الحرب التي حدثت على الأرض العراقية، ورغم قصر فترتها، وسرعة تحقيق التحالف للحسم في ساحتها العسكرية، لكنها من الجانب الآخر خلفت:

أ. تدميراً كبيراً في البنية التحتية العراقية.

ب. خراباً قيمياً، وتصدعاً مفاهيمياً.

ج. أعباء كبيرة على الحلفاء، والحكومات العراقية المتعاقبة في الجوانب:

الاقتصادية حيث التحسن الملموس في مستويات المعيشة الذي لم يحل مشكلة التـــردي في العـــيش، و لم يعد الطبقة الوسطى إلى مستوياتها المؤثرة، والاقتصاد إلى عافيته المرتقبة.

الـــسياسية التي لم تقدم العراق بعد أربع سنوات من التغيير إلى مصافي الدول القادرة على الدفاع عن نفسها، والتأثير في محيطها كما كان في السابق.

الاجتماعـــية التي أوجدت قاعدة للجريمة، والاختلاف، والاحتقان، والتناحر يهدد أمن واستقرار الإنسان العراقي.

وهـــي مخلفـــات، وأعباء استثمرت جيدا من القوى المضادة لإعاقة التقدم، وإعادة البناء الذي يحتاج عمليا إلى:

أ. جهـــود فنية اختصاصية كبيرة للتعامل معها لم تكن ميسورة بعد أربع سنوات من الاحتلال بسبب بعثرة الجهد الموجود أصلا نتيجة الاضطراب الأمني.

ب. إخلاص جيد، ونكران ذات عالي المستوى، وتفانٍ معقول من عراقيين مؤيدين للتغيير وقائمين عليه، وآخرين محايدين يهمهم مستقبل العراق، وربما متضررين من التغيير منطقيين يرون في الضرر الذي حصل واقع حال ينبغي تجاوزه، وهذه بمجملـــها لم تبين الوقائع وجودها بشكل فاعل في التفكير، والسلوك العراقي لمـــرحلة ما بعد التغير، و لم تقدم مؤسسات الدولة خططا لتفعيلها بعد أن غرق المجـــتمع في مـــشكلة الأمن، ومكافحة الإرهاب، وتشظى أبناؤه إلى طوائف، وأقوام، ومذاهب، وحركات وأحزاب، وكتل، وأصيبوا بداء الذات، وتغليب المصالح الشخصية على العامة.

ج. عون ومساعدة الغير في داخل الحدود، وخارجها يمكن أن يسهم في تعويق فعل القتال المستمر، والاحتقان الطائفي، وكم الفساد المستشري.

هذه من وجهة النظر النفسية أهداف لم تتمكن الأجهزة المعنية في الدولة من التقلـــيل من آثارها السلبية، ولا العمل بقوة دفع نفسي لإجهاض نتائجها في وضع

العراق الحالي الذي جرى فيه الحث النفسي، والدفع منذ البداية لإنتاج:

أ. تعاطف طائفي سني الطابع مع البعض من الإرهابيين، والمسلحين الذين يقصرون جل أنشطتهم في مناطق ذات أغلبية سنية مطلقة مثل الفلوجة، واليوسفية، والموصل، والرمادي، وديالى، وبعض مناطق في صلاح الدين (38) تعاطفٌ يراد له أن يكّون في المقابل حالة عدم رضا، وامتعاضاً شيعياً يعرقل بالمحصلة، ولو بشكل غير مباشر إجراءات فرض الأمن، وإعادة البناء، وقد نجح في ذلك، ونجح أيضاً في حشد عراقيين جدد بنسب مقبولة لدعم الجهد المسلح بالضد، ونجح ميدانيا في تكوين قواعد للانطلاق من تلك المناطق إلى أخرى في وسط، وجنوب وسط العراق لتوسيع قاعدة العمل العسكري، والنفسي بالضد من الدولة، ومؤسساقما.

ب. تخلخل في الموقف الشيعي المؤيد لعملية التغيير، والرافد القوي لإسنادها بالعامل البشري، والمعنوي، حيث الظهور البين لجماعات معارضة للنظام من داخله مثل "التيار الصدري" جربت العمل العسكري المباشر، وعندما رُدعت بقوة تحولت إلى العمل السياسي المدعوم بالمعارضة المسلحة كلما سنحت الفرصة لذلك.

إن هذه النتائج التي تكونت بعد فترة من التغيير زادت من صعوبة الموقف في العراق، وأعطت الآخرين في خارجه خاصة من العرب، والقريبين مبررا لتركيز دعايتهم عليها كمحصلة للتغيير، وبسببها وأسباب أخرى، وقف بعض العرب في المنطقة مواقف قاصرة، أو مجتزأة أو مضادة انعكست سلبا على المسيرة في العراق منها:

أ. دعم الكتلة، والحزب، والجماعة، والطائفة، والشخص الواحد على حساب الدعم المفروض للعراق، فساعدوا على تكوين وإدامة دويلات متعددة، متنافرة داخل الدولة العراقية.

ب. إيواء عراقيين من النظام السابق، ومتهمين بارتكاب جرائم، حاولوا منذ الأيام الأولى لتركهم العراق إعادة تنظيم صفوفهم، وفتح مجالات اتصال مع القوى المسلحة في الداخل، مما يزيد من تعقيدات الأمن، واضطراباته.

تلـــك أعمال، وأخرى غيرها أسهمت بشكل مقصود في إعاقة التقدم الذي يمكن أن ينقل العراق إلى الديمقراطية، والأمان بوقت قليل نسبيا.

3. محاولة عدم إضفاء الشرعية على الحكم الجديد في العراق

إن عملية التغيير فرضت أن تكون هناك مراحل انتقالية للحكم، كانت الأولى للاحـــتلال" بريمر" والثانية إلى مجلس الحكم، ثم الثالثة حكومة انتقالية توافقية "إياد علاوي" والرابعة انتقالية منتخبة "الجعفري" عام 2005.

وآخـــرها المنتخـــبة" نـــوري المالكي" عام 2006 بالمشاركة التوافقية، وهي حكـــومات عـــدا الأخيرة صيغت على وفق قرار الاحتلال، وقانون إدارة الدولة العراقية بطريقة توحي وكأن الحكومة منقوصة الشرعية.

إذ إنّ العديد من الصلاحيات الخاصة بالسياسة، والأمن، والاقتصاد لم يستطع في مجالهـــا المختـــصون، ولا المشرعون اتخاذ القرارات أو سن القوانين كما تقتضيه المـــصلحة العلـــيا للبلاد، وإن ملفات مهمة مثل الأمن، والدفاع بقيت بيد قوات الـــتحالف بطـــريقة تـــؤكد وجود النقص في الشرعية الذي لم يستطع العراقيون استيعابه، ولم يرغب العرب في القفز من عليه، والمساعدة في تجاوز آثاره، وبدلا من ذلـــك تعاملـــوا معه نفسيا من خلال الإعلام، والسياسة بطريقة لم تكن في صالح الاعتراف بوجود ولو القليل من الشرعية وفي موضوعه نلاحظ على المستوى العام أنّه:

أ. ما يزال النشاط الإعلامي لعديد من الفضائيات العربية قاصرا في بعض جوانبه عـــن إعطـــاء فسحة مناسبة لتغطية نشاطات الدولة العراقية، وقادها بموازاة لما يعطـــى للآخـــرين، بـــل وعلى العكس من ذلك يوفر للنشاط المسلح المضاد الفسحة والتكرار الأكثر، وفي المجالات الأهم من حيث التأثير، وفي سياق هذا الاتجـــاه استمرت إلى عام 2006 بعض القنوات الفضائية مثل الجزيرة، تصف الحكـــومة العراقية، وتذكر المناصب بالمؤقتة كأن تقول رئيس الوزراء العراقي المؤقت، والرئيس العراقي المؤقت، وكذلك الحال بالنسبة إلى فضائيات أخرى تقابـــل أو تلتقـــي مع أفراد، وشخصيات يتداولون هذه التعابير التي يراد منها التقليل من شأن الحكومة، وإعاقة جهود منحها الشرعية في الحكم.

كما إن العرب كانوا أكثر مغالاة من غيرهم في مسألة تحديد مستوى التمثيل الدبلوماسي مع العراق بأقل من سفير بوجه العموم، مع عدم القيام بزيارات رسمية بحجـة الوضـع الأمـني المتدهور، وهذا نشاط على الأرض العراقية إذا ما قورن بالآخرين الغربيين، والأمريكان على وجه الخصوص، منه يمكن الاستدلال على أن هناك قصد يصب نفسيا في محاولات عدم إضفاء الشرعية على الحكومات العراقية.

4. التقليل من قدرة السياسيين الجدد على إدارة البلاد

لـنظام الحكم السابق في العراق رجاله، وخبراؤه الذين تدربوا جيدا في مجال الإدارة، والأمـن، وضـبط شؤون الحياة لفترة زادت عن الثلاثة عقود، وللتغيير، والديمقـراطية، وإعادة البناء رجال آخرون وقف أغلبهم بالضد من صدام حسين ونظـام حكمـه، زمنا فقدوا فيه الخبرات، والمؤهلات المطلوبة لإدارة عملية إعادة البـناء، وإرسـاء قواعد، ومرتكزات الدولة الجديدة في فترة زمنية، وظروف أمنية حـرجة. وفي معـادلات أو دوامـات الاجتثاث، ومساعي التوسع، والتسقيط، والإزاحة، واتجاهات مد النفوذ للأحزاب، والحركات السياسية حصل نقص كبير في الكـادر الإداري، والفني، والاختصاصي اللازم لتأمين مستلزمات قيادة البلاد بـشكل سـليم في هذه الظروف الصعبة، وغير المستقرة، وما تيسر منه كمحصلة لتلك المعادلات، والمساعي كان كادراً تنقصه الخبرات اللازمة، والوطنية المطلوبة[1] الأمـر الذي جعل العراقيين في وضع الضعيف الذي يمكن أن يتأثر بمحيطه، وجعل الحاجـة ماسـة إلى العـون، والمساعدة من القريبين الذين يعيشون ظروفاً أفضل بمـستوى يفـوق حاجـته للآخرين البعيدين، وهذا ما لم يجده العراق من العرب المجـاورين، وغير المجاورين بل على العكس من ذلك توجهوا إلى الضد أحيانا، إذ نجـد علـى سبيل المثال أن بعضهم امتنع، والبعض تأخر عن الأوروبيين في إطفاء

(1) كاعتـراف بواقـع نقص الخبرة نادت جميع الأحزاب السياسية في برامجها الانتخابية التي شـاركت على أساسها في الانتخابات التي جرت نهاية عام 2005 بالاعتماد على التكنوقراط فـي عملية إعادة البناء، لكنها لم تستطع تنفيذ ما طرحته بسبب المحاصصة التي دفعتها إلى التفتـيش بـين منتـسبيها عـن المختصين التكنوقراط فلم تجد أمامها سوى ملء الفراغ من منتسبين غير مختصين.

نسب من ديون العراق، وقسم أبقى مسألة التعويضات فاعلة ترهق العراقيين، والقسم الآخر بات مكانا لإيداع أموال المناوئين، والسراق، وقاعدة لغسيل الأموال، وتمويل الإرهاب، كل ذلك مع التقتير في التسهيلات التي تقدم في مجال السياسة، والاقتصاد، والتحويل، والضمانات، والقروض، ما يؤكد أن العرب، ومن بعدهم المسلمين المذكورين أبعد ما يكونون عن تقديم العون إلى الساسة العراقيين، وأقرب إلى وضع العراقيل أمامهم في ما يتعلق بتحسين قدراتهم في إدارة، وإعادة بناء البلاد كما هو مطلوب.

5. إبقاء الفرد العراقي في دوامة الاضطراب

بدأت ضغوط العيش بتأثيراتها الشديدة على العراقيين ما بعد عام 1979 إذ تعرض العديد منهم إلى التصفية، والقتل، والإبادة بأسلحة ممنوعة، والحروب، والتغييب، والحصار، والخوف من السلطة، وغيرها من الضغوط التي أثارت في داخل الغالبية العظمى نوعا من الاضطراب(39) دفعهم نفسيا إلى القبول بجميع الحلول المطروحة

بينها الاحتلال كوسيلة وحيدة للتخلص من هذه الضغوط، واضطراباتها المتعددة.

لكنهم وبعد فترة قصيرة من تخلصهم من ضغوط الحكم السابق وجدوا أنفسهم أو وجدت غالبيتهم نفسها بمواجهة أنواع أخرى من الضغوط التي يمكن أن يكّون استمرارها قدرا من الاضطراب النفسي أيضا، حيث القتل العمد، والتهديد به، والاختطاف، والتفجير، وأعمال الإرهاب، والتعرض إلى الموت عن طريق الخطأ، واستشراء الفساد، وتدني مستوى الخدمات، وغيرها من معالم ضغوط شديدة أبقت العراقي في دائرة الاضطراب، وشجعت بعض العرب، والآخرين على إبقائه فيها لتفادي الانتقال إليهم عن طريق العدوى أو الاتصال المباشر، لذا نجد أن بعضهم قد توجه في مجال التعامل مع الوضع القائم بطريقة تزيد من شدة الضغوط، والاضطراب منها:

أ. عدم التشديد في ضبط الحدود التي تَحولُ دون عبور الإرهابيين، والمسلحين، إلى داخل العراق، وكذلك الأموال لأغراض دعم العمل المسلح (40).

ب. دَعْـمُ البعض كـتلا سياسية قسم منها ليس متوافقا مع اتجاهات الحكومة، والقسم الآخر طائفي التوجه تسبّبَ دعمُها في وجود بؤر أعاقت العملية السياسية.

ج. والبعض الآخر لم يتمكن تماما من التحكم بالنشاطات الشعبية المضادة للحكم في العراق والتي تمد يد العون إلى العمل الإرهابي، والمسلح المناوئ بمقاتلين وأموال، رغم مواقف حكوماتها الإيجابية من العراق.

وهذه أنشطة وإن لم يكن جميعها مقصودا، لكنها تصب حتما في خانة:

وضع الإنسان العراقي تحت ضغط الشعور بالخطر المستمر.

الحيلولة دون تمتعه بإيجابيات التغيير.

دفعه بالمحصلة النهائية إلى الإصابة النفسية باضطرابات "الإحباط، والتذمر، والعدوانية"، ومن ثم المقارنة بين وضعه الحالي الذي يتسم بالعيش تحت التهديد، والسابق الذي كبتت فيه انفعالات التهديد فجاءت المقارنة لصالح الأخير قبل التغيير.

6. الإيحاء بان الحكم في العراق سيكون شيعياً وأن المساعي هي لإعاقة تحقيقه

يعيش في العراق سكان من قوميات مختلفة، وأديان ومذاهب مختلفة أيضاً بغالبية شيعية تزيد عن النصف بقليل من إجمالي عدد السكان حسب إحصاءات مؤسسات دولية (41)، واتجه العراق إلى شكل نظام حكم ديمقراطي تحدد فيه صناديق الاقتراع طبيعة الحكومة، والانتماء القومي، والطائفي لرئيسها وباقي الأعضاء، وكون العراق محاطا بدول، ومجتمعات سنية عدا إيران، وطبيعة الحكم في أغلبها أشبه بالمتوارث حزبيا، وسياسيا، يصبح من الصعب عليها استيعاب التحول الجاري إلى آخر قد يسيطر فيه الشيعة بحكم الأغلبية[1] وهذا دفع عموم

(1) هناك استجابات، وأنواع من السلوك في العراق ساعدت على تعزيز خشية المحيط السني المحيط بالعراق من سيطرة الشيعة، وحكمهم للبلاد مثل طروحات بعض أعضاء في الجمعية الوطنية لإيجاد وزارة لأغراض الزيارات، والشعائر الحسينية (42)، كذلك تضمين الدستور عبارات حول هذه الشعائر، وانفراد الفضائية العراقية التابعة للحكومة، وفضائيات أخرى داعمة لها بعرض هذه الشعائر، والطقوس بتكرارات تفوق الحد المقبول علميا لتقبل المتلقين لمعناها النضالي، والإنساني الذي كون إيحاءً مضادا عند الآخرين من غير الشيعة.

تلــك المجتمعات، وبعض حكامها إلى الإيحاء بأن الحكم سيكون حتما ذا توجه طائفـــي شيعي، وتوجه بعضها لتبرير هذا الإيحاء من خلال، التعاطف مع القوى المـــسلحة، وترويج بعض أفكارها المناوئة، وتقديم الدعم بما يُؤَمِن إعاقة خطوات التغيير.

رافق هذا التوجه أو عزز وجوده سلوك قسم من الأحزاب، والقوى السياسية الدينية الذي ساعد على إيجاد مثل تلك القناعات، إذ إن السعي جار بشكل حثيث علـــى مـــلء الفـــراغات الوظيفية في الدولة، بأشخاص من تلك الأحزاب، ودفع القـــنوات الفضائية الرسمية، والخاصة إلى الترويج للأفكار الدينية الطائفية التي تثير حفـــيظة الغير من العرب، والإصرار الواضح على استمرار العمل بالمحاصصة على كافة المستويات، وهذه أنشطة، وغيرها شجعت البعض من العرب على عدم مد يد العـــون، ودفعـــت البعض الآخر إلى الوقوف بالضد من خطوات إعادة البناء إلى المجتمع الجديد خشية أن يكون هذا المجتمع مصبوغاً بصبغة طائفية شيعية.

7. السعي لتوسيع مساحة التجهيل

يـــأتي التطور، والنمو العلمي، والتصنيع في عداد العوامل الخاصة بالتوازن بين مجتمع وآخر، وكان العراق قد خطا خطوات كبيرة في مجالها بعد عام 1970، ونجح في إرســـاء قاعـــدة علمـــية، وصناعية جيدة بالمقارنة مع العرب، والمسلمين، وإن ارتـــبطت بعجلـــة الحزب، والإدارة الفردية، التي شوهت من علميتها وغايتها في تطويـــر العراق، ومع ذلك أدخلتْ عاملا في توازن الصراع في المنطقة، لا يراد أن يكـــون للعراق فيه وزنٌ يضاهي الآخرين أو يتفوق عليهم، في الوقت الحاضر على أقل تقدير. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن المتعلمين أكثر قدرة في مجال فهم المـــسؤولية الوطنية، وأكثر كفاءة في إدارة شؤون أنفسهم والآخرين، وأوسع مجالاً لإدراك غايـــة العـــدو، وأهدافـــه المبيتة بين السطور، وأحسن أداءً في الدفاع عن وطـــنهم، ومكتسباتهم، وهذه معطيات يمكن أن تكون قد أدخلت في الحسابات، ولو بشكل محدود منذ أول تعامل مع المجتمع العراقي ومازالت كذلك مؤشراتها:

أ. اغتيال الكفاءات العلمية المعروفة.

ب. الدفع باتجاه هجرة العقول، والكفاءات.

ج. الضغط على العلماء، والأساتذة، والمختصين من أجل ترك العراق خلال عمليات منظمة للاختطاف، والابتزاز.

د. دفع الصناعيين، والتجار، وأصحاب رؤوس الأموال إلى الاستثمار، والعمل في الخارج بدلا من الداخل الأحوج إلى جهدهم، والاستثمار.

تلك مؤشرات لأهداف وضعت من الجانب الآخر المعادي للوضع الحالي في العراق، لكننا في الجانب العراقي لم نجد أي تفاعل لأجهزة الدولة للتعامل معها، و لم نجد أيضاً ضوابط مقننة للمحافظة على ثروة العراق العلمية، بل على العكس منها تلمسنا طوال الوقت أن الكثير من العلماء أدخلوا في خانة الاجتثاث، والتسييس، والإهمال، وعدم الاكتراث، وإن التعامل معهم في بعض الحالات لم يختلف كثيرا عن التعامل مع العسكر المطلوب عزلهم، بحجة تبعيتهم للنظام السابق، وهذه أساليب ومواقف للجانبين تصب في محاولة إعاقة العملية الديمقراطية، والدفع بقبول فكرة إنصاف المتعلمين للحد من طموحات إعادة البناء الديمقراطي من جهة، وتسهيل تمرير الأهداف المطلوبة من جهة أخرى.

8. إدامة الضغط والتوتر النفسي، والإحباط

الضغط مفهوم يعبر عن الأحداث البيئية، والنفسية التي يتواجد في محيطها الإنسان، ويفسرها على أنها تهديد لوجوده أو تحدٍّ لكيانه الشخصي تؤدي الزيادة في مستوياتها مع سوء التعامل معها إلى:

أ. إضعاف وظائف الإنسان، وإرهاقه نفسيا.

ب. شعوره بالقلق، والخوف، وفقدان الثقة بالنفس (43)، والإعياء، والوهن، وربما بقدر من الاكتئاب، والتي يحول وجودها دون القيام بإتمام ما مطلوب أو بمعنى أدق يضعف الميل إلى الإنجاز.

كما إن الفشل في إشباع الحاجات الضرورية بيولوجية كانت أم نفسية بمستوى مقبول، وتكرار ذلك الفشل يؤدي إلى الشعور بالإحباط، وهي مسألة نفسية في كلا الحالتين تستثير العدوان الذي عادة ما يوجه إلى داخل الإنسان حيث الرغبة في إيذاء الذات، والعزلة والاكتئاب، أو إلى خارجه نحو الآخرين، أشخاصاً

كانـــوا أو مؤسسات، ودوائر حكومية، وهذا حصل في العراق قبل التغيير، وامتد بعده بمستويات عالية من الشدة، فأفضى بالمحصلة النهائية إلى:

أ. الـــسعي إلى التخـــريب المـــادي المباشر مثل التجاوز على الممتلكات العامة، واســـتهداف المـــسؤولين الحكوميين شخصيا، والتكتل ضد النظام ...الخ مع أعمال.

ب. المـــيل إلى التخـــريب النفسي غير المباشر من خلال عدم الإخلاص في العمل، وتجـــنب تحمل المسؤولية في مجاله، ومجالات أخرى، ووضع العراقيل أمام تقدم الآخرين.

إن العيش تحت الضغوط لفترات طويلة، والمعاناة المستمرة من حالة الإحباط في الوقت ذاته يستثير في المحصلة سلوكا غير اعتيادي، وأداءً بمستوى متدنٍ في عموم المواقف الحياتية، ينتقل إلى الآخرين بصورة جماعية عن طريق العدوى.

وهذا ما هو موجود في الوقت الحاضر، يسهم به المجتمع العراقي الذي أدخل نفسه في دوامة العنف بسبب جهل البعض من الأفراد وجشعهم، والتخلف الموجود بـــين القـــوى، والحركات السياسية، وضعف أجهزة الدولة، وقلة الخبرة الإدارية، والفنية للعديد من منتسبيها الجدد.

وتسهم به من ناحية ثانية دول، وجماعات قريبة من العراق بتوجهات لإبقاء أبـــنائه في دوامـــة الارتباك بعيدا عن التفكير بمستقبل بلادهم، والتغيير للأفضل في نظامه السياسي، والاجتماعي كما هو مأمول.

9. تقوية، ودعم مرتكزات التطرف الديني السياسي

واجهت بعض مناطق العالم بشكل عام، والوطن العربي على وجه الخصوص أحـــداثاً، وتحـــديات ليـــست قلـــيلة بدأت مع نهاية الستينات في القرن الماضي، واستمرت حتى وقتنا الراهن فكونت إحساسا بين الكثيرين من الأجيال قوامه:

أ. فـــشل الأيديولوجيات السائدة في حل مشاكل الإنسان في هذه المنطقة بعد أن خَبر أكثر من تجربة لأكثر من أيديولوجية.

ب. عجز النظم السياسية القائمة عن تلبية طموحاته في التقدم، والرفاه بالمقارنة مع أجياله في المجتمعات الأخرى.

لقد أحدث هذا الإحساس، والتخلف عن الركب العالمي، واتهام العالم الغربي بالتعويق فراغاً أمنياً، سياسياً، نفسياً دفع الكثير من المتأملين إلى محاولة ملئه بالتوجه إلى الـــدين بـــشكل مغالى فيه طلباً للخلاص، والحلول البديلة(44)، وكاستجابة لـــذلك، وبوجـــود فراغ فعلي في جوانب الأمن الاجتماعي قوي الدين السياسي الموجودة جذوره في العراق عملاً، وتنظيما خاصة ما بعد التغيير بدعم مباشر، وغير مباشـــر من قوى سياسية دينية قديمة تعتقد أن أفكارها، وتاريخها ملائمان لتحملها مـــسؤولية الحكـــم، وقـــيادة البلاد، وأخرى أصولية ترى الفرصة متاحة لتحقيق مكاسب طائفية يشحن على أساسها الشباب انفعاليا باتجاه أن يكونوا أداة مسلحة من أدواتها للسيطرة، وبسط النفوذ ولو بالقوة، وكذلك من دول، وجماعات تسعى إلى توجـــيه التطـــرف الديني سياسيا على وفق حسابات تؤمن مصالحها. هذا وإن التقاء الاتجاهين الخارجي، والداخلي في تأمين الأهداف في هذا الجانب كَوّنَ بيئة في العراق حاضنة للتطرف، وجاذبة للمتطرفين الراغبين بنشر أفكارهم أو تطبيقها بقوة السلاح.

إن مـــسألة الدين السياسي الذي اتسعت رقعته في العراق، وفي المنطقة ينظر إلـــيها الـــبعض من زاوية السياسة النفسية التي تؤشر بعض وقائعها إلى أن الغرب بشكل عام، والأمريكان على وجه الخصوص ليسوا بعيدين عن الدفع باتجاه إبرازها مـــرحلة يستلم فيها الدين السياسي المسؤولية الأعلى في الحكم، والإدارة وهو من الناحـــية العملية غير مهيأ بما يكفي للاستلام فيخطئ، وتكثر أخطاؤه أو يُدفع إلى الخطـــأ حدا يساعد تكرار حصوله إخراج قوى جديدة "علمانية" على النقيض من فلسفته في الإدارة، والحكم تتحمل مسؤولية الإدارة، والحكم على المدى البعيد.

الفصل الرابع

التحريض النفسي

التحريض من وجهة نظر العمل النفسي إجرائيا تعني استخدام المفردات، والمعلومات المناسبة بقصد الحث على القيام بسلوك معين يؤمن غاية محددة.

التحـــريض في اللغة يعني الحث على القيام بفعل أو سلوك معين، والتحريض مصطلح وإن تم تداوله في الثقافة الشعبية، وفي استخدامات الحرب النفسية بشكل يوحي إلى الدفع باتجاه القيام بفعل سلبي، أو مضاد إلا إنه مصطلح جرى استخدامه في الاتجاهين في آن معا، كما ورد في القرآن الكريم" وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا"(45).

والتحريض من وجهة نظر العمل النفسي إجرائيا تعني استخدام المفردات، والمعلومات المناسبة بقصد الحث على القيام بسلوك معين يؤمن غاية محددة، وهو مـــن وجهـــة النظـــر هذه قد استخدم بشكل واسع من قبل دول، ومؤسسات رسمية، ومن أجهزة إعلام، وأحزاب، ورجال سياسة أكثرها تأثيرا تلك التي ترد في الفضائيات التي باتت تتحكم في عرض الأخبار، والحوادث، وإعادة صياغتها بالطـــريقة الـــتي تجدها ملائمة لتحقيق أهداف تراها مناسبة، وكما حصل على ســـبيل المـــثال في زيارة الأمين العام للأمم المتحدة إلى العراق يوم 2007/3/22 عندما سقطت قنبرة هاون قريبا من مكان عقده، ورئيس الوزراء مؤتمرا صحفيا إذ عرضـــته فـــضائيات خبرا بشكله المجرد دون تعليق يوحي للمتلقي أنه حصل ضـــمن ســـياقات ما يحصل في العراق، وعرضته فضائيات في نشراتها الإخبارية كلـــها لذلك اليوم على أساس حصول انفجار أثناء المؤتمر الصحفي، وأعادت اللقطـــة الـــتي تظهر ردة فعل الأمين العام بتحركه عفويا للوقاية في سياق كل

عـــرض للخـــبر ثـــلاث مرات دون التنويه إلى أنها قنبرة هاون حسب مصادر عسكرية حكومية، مؤكدةً فقط على طابع السرية الشديدة للزيارة التي لا يعلم بهـــا أحـــد سوى مسؤولين كبار في الحكومة العراقية، والأمريكان، الأمر الذي يوحـــي وكأن الانفجار مقصود، مصدره الأمريكان، غايته إبعاد الأمم المتحدة عـــن الـــتدخل في الـــساحة العراقية، وهو الهدف الذي يراد منه حث العربي، والعراقي إلى الوصول إليه، والاقتناع به.

ومن بعدها أي الفضائيات تأتي الصحافة التي وجد فيها البعض من السياسيين مجالا واسعا لتنفيذ توجهات التحريض من خلال المقالات التي تكتب، والعروض، والقـــصص، والأخبار التي تنشر، وهذه مسألة أخذت في صحافة العراق في الوقت الـــراهن منحـــى فـــاق التحريض المغلف إلى مستوى الاتهام المباشر بظلم جماعة، والتنكيل بأخرى، والتقليل من قيمة مسؤول، ورفع شأن آخر بشكل صريح تجاوز الاعتبارات المهنية، وجعل التحريض من أكثر أهداف الجهد النفسي المعادي فعلا، وتأثيرا.

المبحث الأول

فعل التحريض

تـــدور رحـــى حرب متداخلة على الأرض العراقية اعترف طرفها الأول أي الأمـــريكان أنهـــا أعـــدت بالضد من الإرهاب فأصبحوا أحد أقوى اللاعبين في ســـاحتها، وســـلاحهم بطبـــيعة الحال لم يقتصر على البندقية، والطائرة، والمدفع، والعملـــيات الخاصـــة بل وحَشدْ المؤيدين، وعزل المناوئين بطرق بينها التحريض، وأُشـــعرتْ فـــيها إيـــران الجار القوي للعراق أنها هدف ضمن الأهداف المرسومة فسارعت منذ الأيام الأولى لإيقادها والدخول في ساحتها كأحد اللاعبين الأقوياء، وســـلاحها لا يقتـــصر على الدعم المالي للمؤيدين، والحث الديني للمناصرين، بل وكـــذلك علـــى التحـــريض بالضد من الأمريكان، والبعثيين، ومن يقف معارضا لدخـــولها كأحـــد اللاعبين، ومن بعدها سوريا التي وُضعت من قبل الأمريكان في الجانـــب المعـــادي، وضـــمن القوى الداعمة للإرهاب بطريقة توحي أنها من بين

المطلـــوبين في الطريق إلى إعادة تنظيم الشرق الأوسط الجديد فكان لزاما أن تدخل الـــساحة بقصد إفشال مخططات الاستهداف، وتعويق عملية ضربها إلى أبعد فترة ممكـــنة قد تستجد فيها متغيرات تحول دون حصولها جهد الإمكان، وسلاحها في المعـــركة أوراق تعودت لعبها بكفاءة بينها التحريض، أما السعودية الدولة الحليفة فقـــد أثـــار الأمريكان بشكل مدروس مع بدايات الحرب على العراق، وما بعدها مواضـــيع تتعلق بأسلوب الحكم فيها، وحقوق الإنسان التي اكتشفوا بالصدفة أنها منـــتهكة بـــشكل مفضوح. أدركت بسبب هذه الإثارة، واستقراء الأحداث أنها ورغـــم تحالفهـــا الاستراتيجي فإنها ليست بعيدة عن شظايا المعركة على حدودها الـــشمالية، أو حـــتى الاستهداف في مراحله اللاحقة، فحاولت أن تبقى بعيدة عن تأثيراتهـــا بطـــريقة حياد لا تقترب فيه إلى مشاركة الأهالي، وعلماء الدين وأئمة الجوامع بعمليات الدعم، والتحريض حتى نهاية عام 2006 عندما تطور شكل القتال في الـــساحة ليكون طائفيا أدركت بتطوره الخطر القادم، وسربتْ استعدادات لها بالتدخل إلى جانب طائفة بما يزيد عن التحريض.

وإسرائيل التي لم تكن بعيدة عن الأحداث وعن ما يجري فقد أقحمت نفسها طـــرفا خفيا لأن العراق ضمن اهتماماتها الاستراتيجية، ومن بين الدول التي يحسب لها حساب في ميزان القوى الهش بينها، وبين العرب الآخرين، وسلاحها لا يقتصر على التحريض.

إن ســـاحة الحرب المتداخلة لم يكن أطرافها من الخارج فقط فهناك أطراف مـــشاركة مـــن الـــداخل، وهي كثيرة يصح القول على أساس كثرتها إنّ غالبية الأحزاب، والكتل السياسية الدينية قد سُحِبتْ إلى المشاركة في ساحتها لأن الدين الـــذي تُؤَسِس على فقهه، وشريعته في برامجها السياسية، والتنظيمية قادر وحده في الـــوقت الراهن على تعبئة المقاتلين بأسلوب التحريض، فاستخدمت كل الوسائل المـــتاحة لتحقيق هذه الغاية بعد أن أسست جميعها فضائيات تبث معالم التحريض لأربـــع وعشرين ساعة، وعلاقات مع فضائيات عربية غير عراقية عرفت مواقفها بالتحـــريض، وكأنها تؤدي دورا مرسوما ضمن الخطط الدولية لإدارة هذه الحرب بأسلحة مختلفة بينها الإعلام، والتحريض.

إن التحريض من أكثر العمليات النفسية تأثيرا في مجريات الحرب الدائرة في العراق وفي إثارة دوامات الاحتقان، والفتنة التي تعد الأساس في تحديد الميل إلى المشاركة، والدافعية في القتال، هذا وإذا ما تم إحصاء عدد الفضائيات التي تبث بالعربية سواء الخاصة أو التابعة للحكومات التي دخلت ساحة الحرب مشاركة بشكل مباشر أو غير مباشر تبعا لمواقف دولها، ومموليها نجد أن آلاف الساعات منها موجهة يوميا إلى العراق، فيها التحريض واضح حتى في نشرات الأخبار التي يصاغ فيها الخبر لنفس الحدث بطريقة مختلفة بين فضائية، وأخرى يدرك منها الراصد الجيد أن التحريض واضح في تحريره بشكل لا يقبل الشك، والتأويل.

لقد دخل ساحة المعركة الدائرة أطراف سياسيون من رؤساء الكتل، والأحزاب، وأعضاء برلمان لم يمتلكوا في دخولهم سلاحاً سوى الطائفية التي شكلوا على انفعالاتها، واجتهاداتها أحزابهم، وحصلوا بسببها على الدعم الخارجي، والأصوات في الانتخابات، وجدوا أنفسهم جزءًا أساسياً من المعركة فاتجهوا إلى الأمام في عمليات التحريض عن طريق الصحف المحلية التي تصدر بعناوين تابعة لهم.

وفضائيات تنطق باسمهم أو تمول من قبلهم.

ومؤتمرات تعقد برعايتهم أو بمشاركتهم، ومباركتهم.

كما أن تشكيلة الحكومة التي جاءت من تركيبة المجتمع العراقي غير المتوافقة كان بعض أعضائها معروفين بالتحريض في كل مكان يجلسون فيه، ومؤتمر يعقدونه حتى باتت الحكومة أو بعض أعضائها أطرافا في القتال الطائفي يُحَرضونَ، ويستغيثون من أجل التحريض، ويفبركون أحداثاً، وحوادث لنفس الغاية في غالب الأحيان[1].

(1) عرضت سيدة عراقية "صابرين الجنابي" على شاشات التلفزيون في 2007/2/21 على أنها قد أُغتصبت من قبل عسكر مشاركين في الخطة الأمنية، وتبنى موضوعها الحزب الإسلامي الذي بين أنه متأكد من ذلك عن طريق الفحوص الطبية السريرية، وكان نائب رئيس الجمهورية أمين عام الحزب أكثر المحتجين على الحادث، وبادرت الحكومة من جانبها

إن الحـــرب التي أخذت منحا طائفيا تتسع رقعتها، ويتضخم عدد المشاركين فـــيها مـــن بعض رجال الدين الذين يفتون يوميا فتاوى بعضها مغلف بالتحريض بشكل واضح، وأئمة مساجد لم يجدوا في خطبهم سوى نقد المقابل، وتحديد أوجه القـــصور، وكشف المواقف التي يعتقدون أنها حقيقية، ومدمرة للعراق وللإسلام، وذم الـــسلوك في الطـــرف الآخـــر بطـــريقة تثير المشاعر بالضد، وتتأسس على التحريض.

وانتقلت آفة التحريض إلى الجامعات، والمعاهد، وإلى بعض المؤسسات العلمية والأكاديمية التي يخرج فيها المحاضرون عن سياقات المحاضرة ليؤسسوا على التحريض وسيلة مباشرة لإثارة السامعين.

وتدار المناقشات بين المدراء، والمنتسبين من الطوائف المختلفة بطريقة لا تخلو مـــن تحريض مادته الرئيسية القتل، والاغتيال الذي يتناول موضوعه الجميع بشكل يومـــي وفي ســـاعات الـــنهار كلها، وكذلك قصص التفخيخ، ومشاهد الغدر، وروايات التعذيب التي أصبحت محورا للحوار في البيوت، وفي المساجد، والمدارس بطريقة تفضي إلى:

بعـــرض الـــسيدة علـــى الفحـــص الطبي في مستشفى أمريكي أنكرت على أساسه تعرضها للاغتـــصاب، وكـــرمت بأمـــر من السيد رئيس الوزراء، وبطريقة مستعجلة أولئك المعنيين بالموضوع ما أوحى أن إجراء التكريم هذا نوع من التحدي، والتحريض، لا علاقة له بتأدية الـــواجب بكفـــاءة، وإخـــلاص كمـــا ورد في بيانات الحكومة. لقد أخذت الفضائيات العربية المحسوبة على الصف المناهض للحكومة الخبر، وصاغته بطريقة تؤشر أنها مغتصبة بالفعل حتـــى طغـــى على حادثة اغتصاب طفلة من قبل جنود أمريكان، وقتلها في المحمودية التي تـــصادف إجراء محاكمة المتهمين باغتصابها، وقتلها في التاريخ نفسه، والحكم على أحدهم بالـــسجن لمائة عام، أما الصحف، والفضائيات المحسوبة على الحكومة، والشيعة بشكل عام فقد تبنت وجهة نظر الحكومة، وصاغت أخبارها بأسلوب يوحي أن الاغتصاب لم يتم، وإنها مجرد فبركة من قبل الحزب الإسلامي، وأطراف سنية أخرى، وهذا تناقض يجد المتتبع في حيثـــياته تحريـــضاً واضـــحاً مـــن قبل الطرفين المتقابلين دون أن يلتفتا معاً إلى أن حوادث اغتـــصاب قد حدثت، وتحدث يوميا في كل الحروب، وبينها الحرب الدائرة في العراق التي يـــدخلها عشرات الآلاف من العسكر المنفعلين، كذلك لم يلتفتا إلى الكيفية التي يجب أن يعملا فـــيها معـــا للحيلولة دون حصول اغتصاب صيانة لشرف العراقية، وحماية لسلوك العسكر العراقي من التشويه، والابتذال.

1. التحريض[1] كوسيلة إثارة، وتنفيس عن مشاعر العدوان.
2. التغـيير المـبرمج للـسلوك أو المساعد على تغيير سلوك العديد من الصبية، والشباب باتجاه العنف ليكونوا بالمحصلة جزءاً من دائرته الواسعة رغبة للواحد مـنهم في حماية ذاته، والقريبين، وسعيا منه للانتقام من غيره، والبعيدين عندما تقتضي الحالة النفسية.

المبحث الثاني

اتجاهات التحريض

لقـد اخذ التحريض في موضوع العمل النفسي في الساحة العراقية اتجاهات متعددة كان أكثرها تأثيرا من الناحية النفسية الحث على:

1. القتال بالضد من الحكومة والحلفاء

لم ينـته القتال على الساحة العراقية على الرغم من الإعلان الأمريكي انتهاء أعماله العسكرية الكبيرة في الشهر الأول لما بعد التغيير، وبقي هذا النوع من القتال الـذي تحـددت أطرافه من قوات متعددة الجنسية، والحكومة العراقية من جانب والمقاومـة العراقية، وقوى الإرهاب، ومسلحين خارجين على القانون من جانب آخـر، وقد أُستغلَ عامل تأثير نفسي على المتلقين العراقيين، والعرب باتجاه تكوين

(1) جلـس أسـتاذ جامعـي مـع ابن أخيه الساكن في سامراء بعد أن لاحظ عليه سلوك التذمر والتحـريض، والرغبة بالانتقام لضحايا أبرياء يعتقد أنهم وقعوا على أيادي عسكر الحكومة، والحلفـاء، وفـي جلسته الخاصة هذه اعترف الشاب باشتراكه في أعمال مسلحة بالضد من قوات الشرطة والجيش، وبعد اعترافه الصريح ناقشه عن دوافعه للاشتراك في أعمال مسلحة قد تؤدي إلى إزهاق روح بريء، وقتل مدني لا علاقة له بما يجري في المنطقة من أحداث، ولا بالاحـتلال، فأجـاب بـصراحة أنه، وكلما يدخل الجامع لأداء صلاة الجمعة يخرج منه مـشحونا بالرغبة الشديدة في حمل السلاح، واستخدامه بالضد من أعداء الأمة الإسلامية أيا كانـوا مـن الأجانـب أو العراقيين العاملين في أجهزة الدولة الأمنية، والعسكرية، وحسب تـصنيف يـصله عادة من المحرضين. إنه نوع من التحريض للقيام بفعل القتل أخذ الجامع الـدور الكبيـر فـي تعزيـزه خلال مرحلة ما بعد التغيير، والتحرر من القيود التي كانت موضـوعة فـي الـسابق بين المتلقين، تقبله الشباب المقيد بالأفكار المحدودة عن الشريعة، والجهاد، وحوله إلى سلوك يغلب عليه العنف للتقليل من ضغط التحريض على نفسه المنفعلة.

انطباعات مقنعة بعدم انتهاء الحرب أو المعركة، وعدم دقة المصادر الحليفة التي نوهت بانتهائها، وبصعوبة حسمها لصالح الأمريكان، ونظام الحكم الجديد. وإيقاف تدافع العراقيين إلى تأييد النظام الجديد، ومحاولة سحبهم بالتدريج إلى موقف الحياد مرحلة أولى، والمعارضة المسلحة، ومن ثم تنفيذ أعمال الإرهاب في مراحل لاحقة. كذلك إقناع العرب بعدم التعويل على مسألة التغيير في حل المشكلة العراقية، وبدلا منه دفعهم من خلال تخويفهم من الحرب، واستمرارها إلى الوقوف بالضد، وتقديم العون إلى العمل المسلح، والجماعات المعنية به.

وأخيرا إبقاء الحرب في الذاكرة العربية المسلمة مع التركيز على خسائرها، ومخاطرها، وأهدافها المستقبلية كي تبقيَ موارد تجنيد المتطوعين الجهاديين مفتوحة للمساهمة فيها.

2. إثارة الفتن الطائفية والتمهيد للحرب الأهلية

إن أكثر الدلائل إثباتا على صحة الجهد المضاد للحرب والتغيير من جهة، والفشل الأمريكي - الأوروبي في العمل على إعادة بناء المنطقة أو الشرق الأوسط الجديد من جهة أخرى هو اشتعال فتيل الفتنة الطائفية قريبا من الحرب الأهلية التي تبدأ شرارتها في المجتمعات التي تعاني ضعفا في التجانس الإثني مثل العراق، وهذه غاية أخذت حيزا كبيرا من جهود الفضائيات العربية في مقدمتها الجزيرة منذ التغيير وحتى الوقت الحاضر، إذ إن التكرار المتواصل لمصطلحات السنة والشيعة، وذكر مناطقهم، وأحيانا طقوسهم، وتوجهاتهم، والاختلافات الفكرية فيما بينهم أسهم في إعادة الموروث الثقافي من الذاكرة الجمعية البعيدة عن الطائفة، والاختلاف والأحقية. وكون تصوراً عند العرب، والقريبين من العراق أن ظلما في طريقه أن يقع على سنة العراق، وأن تماديا واقعاً بالفعل من شيعة العراق، يدفع إلى تقديم العون، والمساعدة للتحريض في النهاية على القيام بفعل يشعل الفتنة الطائفية. ومن ثم وضع العراقيل أمام إدارة الدولة، والمجتمع من خلال خلق أزمات تؤدي إلى فشل حكوماتها، وربما دفعها إلى الاعتراف بالفشل نفسيا وبما يمهد أو يفسح المجال إلى إشراك خبرات قديمة في العملية السياسية، والإدارية في آن معا.

3. تحوير الولاء إلى الجماعة الفرعية دون العراق

يعاني العراق، ومنذ زمن الحكم السابق تصدعا في الوطنية(46)، ومع ضعف الدولة العراقية قويت بالتدريج العشيرة، والمنطقة، والحزب القائد، وزادت سلطاتهم في التأثير النفسي في الجماعات المنتمية لهم لمستوى أحس الفرد أن تقوية انتمائه إلى إحـــداها يحقـــق لـــه الحاجة إلى الأمان، ويشبع بعض حاجاته البيولوجية في توفير العـــيش، وهكـــذا ضعف الوطن في الضمير العراقي، وبات الانتماء إليه هشا حتى حـــصول التغـــيير الذي لم يبدل من الأمر شيئا إلا المحاولات التي تقع هنا أو هناك لـــرأب الصدع الذي لم يدرك تبعاته الكثيرون من الساسة الجدد الذين توجهوا هم أيـــضاً إلى العـــشيرة، والمـــنطقة من أجل الحصول على التأييد وأصوات الناخبين، وهكـــذا أبقـــي الموضـــوع قائما، وأبقي الحث موجودا من أجل دفع العديد من العراقيين بالمستويات الثقافية الوسط، ودونها إلى المزيد من تعزيز الولاء الطائفي على حساب الولاء المفترض للوطن العراق. وتضخيم دور العشيرة، والطائفة في التعامل مع الأزمات، وكذلك مع مفردات الحياة اليومية على حساب الحكومة، والمركز في بغـــداد. ومن ثم العزل النفسي بين الحكومة المنتخبة التي تحكم حاليا، وبين المجتمع الناخب في صورة يراد منها إبقاء المسؤولين الحكوميين في المراكز العليا داخل دائرة الحـــزب، والطائفة بعيدين عن الدائرة الكبرى للعراق، وبالتالي تسقط أحقيتهم في تمثيل الناخبين، وفي حكم العراق.

4. إيجاد شرخ بين العراقيين، والقوات الحليفة

دخلت القوات الحليفة وكما أعلن في البداية إلى العراق على أساس المساعدة في التحريـــر من حكم الديكتاتور، ووقف عموم العراقيين في الحرب آنذاك موقف الـــراغب في حدوثها تخلصا من الشقاء، وآلام الحصار كما نوه عنه آنفا، وتعاملوا في علاقـــاتهم، ومواقفهم مع الأجنبي بداية الأمر على هذا الأساس، وكانت الفكرة الـــتي ســـادت في عقول غالبية القادة الجدد، والأحزاب والحركات السياسية هي التأسيس على العلاقة الإيجابية بين العراق، وأمريكا لغرض إعادة بنائه دولة عصرية بنظام ديمقراطي اتحادي.

إلا إن الموروث الثقافي في مجال التعامل مع الوجود الأجنبي، وشدة التحسس في مجالـــه، ووجود بعض الأخطاء من الجانب المقابل كون وضعا خاصا شعر فيه العراقيون بالقلق من الوجود الأجنبي، وشعر الأجنبي بمصاعب التعامل مع العراقيين.

وهـــذا وَضعٌ أدركه الآخرون في خارج الحدود العراقية، وتيقنوا أن الشرخ الذي وجد في العلاقة بين الجانبين، الأمريكي، والعراقي يمكن أن يكبر، وتكبر معه المشاكل والدوامات لكلا الجانبين، الأمر الذي دفع العديد من في الخارج إلى محاولة الطـــرق علـــيه أي زيـــادة سعته من خلال التشكيك في جميع النوايا، والمشاريع، والخطط الأمريكية لإعادة بناء العراق الديمقراطي الموحد.

والإيحاء بأن الوجود الأمريكي الذي تحقق في العراق بفعل الحرب والاحتلال جـــاء أصـــلا لأغـــراض للسيطرة على موارد النفط، واستغلالها لصالحه، وتحقيق استعمار للمنطقة من النوع الجديد.

ومن ثم محاولة لفت انتباه العراقيين إلى وجود مخاطر مستقبلية لبقاء الأمريكان في بلدهم من النواحي الاجتماعية، والدينية الشرعية، والسياسية.

والتـــنويه إلى أنّ اســـتخدام القوة بالضد من الحكم السابق في العراق خلال الحـــرب، والمعارك التي دارت والذي جاء لإجبار حكومته على التنحي أو العزل على اعتبار أنها حكومة "حكومة صدام" مثيرة للتوتر والقلق، ومنتجة للإرهاب.

وأنهـــا عامـــل تهديد للولايات المتحدة بما يمكن أن تمتلكه من أسلحة تدمير شامل(47) هو غير صحيح، وغير مقنع[1].

---

(1) يمتلك صدام حسين خبرة جيدة في مجال تعبئة الجمهور للمشاركة، وتحريضه على المشاركة وتـــشكيل المواقـــف، ويمـــتلك لأغراض تنفيذهما جهازا أو أجهزة ذات خبرة، وانضباط تعدّ بمـــستوى جـــيد أيضا، لكن الحرب النفسية للطرف الأمريكي التي استهدفته على رأس قائمة أهـــدافها، نجحـــت بوضعه قبل عام 2003 في زاوية حرجة لا يستطيع فيها التحرك بشكل يمكـــنه مـــن تحريض العراقيين بما يكفي إلى دفعهم للقتال الوطني بالضد من الأمريكان في الحـــرب العـــسكرية. واكتفـــى مـــن جانبه وأجهزته بالتركيز على مفردات قديمة استخدمها الـــثوريون والفوضويون في المنطقة والعالم لم تتمكن بسبب قدمها هذا، وكثرة تكرارها من التأثير في العراقيين منها على سبيل المثال الاستعمار والامبريالية، التي فقدت بريق تأثيرها فـــي العقـــل العربي، والعراقي الذي استخدمها في الأدبيات السياسية الحكومية لفترة زمنية طـــويلة نسبيا. ومنها سرقة الثروة النفطية التي لم يحس الشعب أنه قد تمتع بقليل منها طيلة

إن مفـــردات الشرح المذكورة كان لها تأثير ملموس وتناولتها الكثير من وسائل الإعلام بالشرح، والتفصيل واعتبرت من مواد الحوار الرئيسية في الفضائيات العربية.

وإن فعل التبرير الخاص بشن الحرب قد انتهت قوة دفعه التي كانت موجودة قبل الحرب بعد أقل من شهرين على التغيير.

وإن التخلص من ضغوط الحصار، والظلم التي أحسها الجمهور العراقي لعديد من السنين قد انتهت بأيام بعد التغيير.

والحاجـــات المفقودة في مساعي العراقيين إلى العيش قد أُشبعت بعد أسابيع من التغـــيير، وظهـــرت أخـــرى لا تقل عنها تأثيرا في التفكير، والسلوك، وبدأ نوع من الاستنـــزاف، والخسائر بدعوى مكافحة الإرهاب، وتأخر الحسم في تحقيق الأهداف، الأمر الذي أَوْجَدَ أسباباً أو معالم تحريض استثمرت جيدا من القوى المضادة بينها:

إن الحرب الدائرة وسيلة لا يمكنها الحسم.

إنها مجال للخسارة التي تزداد بشكل متواتر يوميا، وإن ساحتها الشائكة مستنقع تورط فيه الأمريكان كثيرا، ولا مجال لديهم للتخلص منه سوى بالانسحاب.

إن التحريض للإثارة، وفي الجانب المقابل له التبرير لتقليل الإثارة سيبقيان من أكثـــر العـــوامل النفسية تأثيرا في المتلقين، وفاعلية على الساحة النفسية التي تشمل العراق، والمنطقة في الوقت الراهن، والمستقبل القريب.

المبحث الثاني

عواقب التحرض

لقـــد وقعت الحرب على العراق، وانتهت الصفحة الأولى من التحريض حال الـــشروع بالمعركة العسكرية يوم 2003/3/20، وبدأت صفحات أخرى جديدة، تغيرت فيها الأهداف، والخطط بالنسبة إلى الأمريكان، قوامها بعد انتهاء العمليات العـــسكرية الكبيرة التهدئة، وإعطاء الفرصة لجر الأنفاس، ثم وبعدها بقليل جاءت صـــفحة التبريـــر "الـــصفحة الأهم في العمل النفسي التعبوي والاستراتيجي" التي

حكـــم صدام للبلاد، ولم تهزه كثيرا أخبار سرقتها من الآخرين، ومنها أيضاً الغزو، وتفتيت الأمة، وشعارات قومية أخرى لم يجد العراقيون أن العرب قريبون منهم في مجالها.

تطلبتها الحاجة بعد أن تأكد حصول الانتصار العسكري السريع، وظروف التواجد في المنطقة، وأسلوب الإدارة غير الناجح التي نقلت سلطة الائتلاف إلى موقف الدفاع النفسي الذي يحاولون فيه أن يفسروا أو يعطوا تبريرات عن:

1. التواجد العسكري الأمريكي في المنطقة بعد أن تحقق هدف التحرير الذي وضع أعلى أهداف الحرب المعلنة.
2. استمرار مسلسل الخسائر البشرية في الشارع العراقي خاصة بالنسبة للمدنيين التي كثرت أعدادها بشكل ملحوظ.
3. الدمار الهائل في البنية التحتية العراقية الذي حصل بعض منه دون مبرر لوجوده خارج الأهداف العسكرية، والبطء في عملية إعادة البناء، والترميم.
4. الغموض في عملية تحقيق أهداف الحرب على مستوى الاقتصاد، والخدمات العامة، ومستلزمات العيش الرئيسية[1].
5. مصاعب السيطرة على الشارع الذي بدأت مؤشرات اتجاهاته تتحول بالضد، ومقارناته بين الحاضر، والماضي ليست في الصالح ذي الصلة بالأمريكان، والدولة العراقية.

وهذا موقف أي الدفاع لا يحتاج فيه الأمريكان إلى التحريض، بقدر حاجتهم إلى بذل الجهود للتقليل من تأثيرات التحريض المضاد لهم في العراق، والمنطقة.

وبالنسبة للعرب، والمحيطين الذين أفاقوا من حالة الذهول والصدمة، وتوجهوا سريعا إلى جانب التحريض باتجاهات كما ورد فيما سبق وبوسائل وأدوات بينها

(1) هذا موضوع يستحق التوقف عنده طويلا لأن الوقائع لما بعد الحرب مباشرة قد بينت وجود تخصيصات مالية لإعادة البناء، وجهد أمريكي فني في كل المجالات، ودعم دولي معقول، ورغبة بإطفاء الديون، ودخول شركات عديدة ساحة البناء والإعمار العراقية، والشروع فعلا في بعض المشاريع، وتُبينُ أيضاً شيوع فعل الإرهاب، واضطراب الأمن الذي أوقف العمل في الكثير من الخطط، ودفع الشركات إلى أن تترك العراق بينها شركات غير أمريكية مثل الشركة الروسية التي كانت تعمل على إعادة تأهيل محطة كهرباء الدورة، وتحويل قسم من الأموال إلى صالح الأمن، وإعادة تأهيل القوات، وتوقف الدول المانحة عن الدفع لعدم وجود ضمانات، واستشراء الفساد في المؤسسات العراقية والأمريكية أيضا، الأمر الذي يضع العراقيين في حيرة من أمرهم في تحميل مسؤولية التوقف في مشاريع إعادة البناء التي حالت دون إعادة تأهيل الاقتصاد العراقي، وتحسين مستوى المعيشة بوجه عام.

السياسة التي استخدمت باتجاه أفضى إلى إعاقة التقدم، وتحقيق الشرعية التي تصب ولــو بشكل غير مباشر في رافد التحريض بالضد من الحكومة، والساسة الجدد في ســاحتها، وعن طرق الإعلام بأشكاله المتعددة، التي توجه لمتابعته العراقيون بكثرة حتى أصبح أقوى، وأمضى سلاح نفسي في مجال التحريض.

إن تطــورات الحرب، وتداخل وكثرة المتغيرات المؤثرة فيها، والنتائج المتأتية منها تدفع إلى جملة استنتاجات نفسية أهمها:

1. إن طبيعة الصراع في المنطقة، ونتائج الحرب على الأرض العراقية جعلتها ساحة جــذب قــوي لجهد نفسي يهدف إلى تحقيق غايات البعض في تكوين أفكار وقناعات، أو الحيلولة دون تحقيقها للبعض الآخر، وقدمت هذا النشاط في أن يكــون في المقدمة بعد انتهاء جهد العسكر في تحقيق صفحة القتال الأولى التي تــتعلق بالاحتلال وتغيير النظام بالنسبة إلى جميع الأطراف الموجودة في ساحة الصراع خاصة:

أ. الأمريكي الذي يريد من العراق أن يكون مثالا يحتذى به، وقاعدة انطلاق لتحقــيق الأهــداف في محيط الآخرين التي تؤسس من وجهة نظره قدرا مقبولا من الديمقراطية لأهل المنطقة، وتجنبا أكبر لأعمال العدوان والإرهاب، وفائــدة أكثــر للاقتصاد، ومع ذلك فإن ظروف العمل المعقدة في العراق، وتطــورات الوضــع الأمني دفعته إلى التحول في موضوع الجهد النفسي إلى موقف الدفاع بعد أن نفذ بعض أهداف الصفحة الأولى للمعركة العسكرية.

ب. الأوروبي الــذي أدرك أهله ضرورة أن لا يكونوا بعيدين عن الساحة بمسافة تعــزز سياســة الانفراد دوليا، ولحسابات تتعلق بالمصالح الآنية والمستقبلية، وباحــتمالات إعادة ترتيب النفوذ، لا يودون أن يكونوا خارج دائرته، وهم الأقــرب إلى ساحته من حلفائهم الأمريكان، فكان تدخل بعضهم "باستثناء فرنسا" من باب المساعدة، وتقديم العون، ومحاولات التهدئة جهد الإمكان.

ج. العــربي الــذي وجد بعض الحكام، والجماعات فيه أنهم غير بعيدين من ســاحة قتال شائكة يمكن أن يكون التقرب منها خطرا محتملا، والابتعاد عنها لا يلغي احتمالات الخطر الموجود.

ففضل بعضهم الوقوف على الحياد، وفضل القليل منهم المشاركة الإيجابية، وفضلت الغالبية التعامل غير المباشر بوسائل، وأساليب نفسية متعددة فيها المجازفة بالثمن المدفوع قليلة نسبيا.

د. الطـــرف المحـــيط بالعراق من غير العرب مثل إيران التي رغبت بتغيير في العراق ليس بالطريقة التي حدثت، ولا بالعسكر الأمريكي الذي بات على حـــدودها، وقـــريبا مـــن عاصـــمتها، وبـــسبب رغبتها هذه وأهدافها الاســـتراتيجية، وإرهاصـــات حرب الخليج الأولى تحركت باتجاه العمل لـــضمان نفـــوذ حالي، ومستقبلي في هذه الساحة غير المستقرة يضمن لها قدرة على التأثير، وإنشاء خطوط دفاع خارج حدودها جهد الإمكان.

وتركيا التي انصاعت إلى رغبات شارعها ذي التوجهات الإسلامية، وابتعدت عـــن المشاركة في الحرب والتغيير، وجدت أنها قد خسرت أوراقاً مهمة كان يمكن أن تفـــيدها في الـــتأثير بالأحداث التي تجنبها خرقا محتملا لأمنها القومي، وعندما حاولـــت الدخول المباشر إلى الساحة تبين لها أن الفرصة قد فاتت فعاودت التوجه إلى التلويح بقربها، وتأثيرها، وبتمتين العلاقات.

2. إن تـــركيبة المجـــتمع العراقـــي، والخلل الواضح في طبيعتها، وقلة الوعي بين الجمهـــور، وضعف إدراكه لما يحيط به، وأخطاء بعض المسؤولين السياسيين، والتـــسابق لتوســـيع هـــامش المنفعة على حساب العراق، والتصدع القيمي، والضعف بالمعايير الوطنية التي ذكرت جميعها في فصول الكتاب السابقة، جعلته مـــادة مناسبة للعمليات النفسية الموجهة، وجعلت محيطه ساحة مثالية تجتذب الكثيرين إلى داخلها.

رغبة من البعض في التأثير، وتكوين الأفكار، والقناعات الملائمة.

وسعيا من البعض الآخر لتجنب فعل التأثير في محيط ساحته الداخلية.

3. إن المؤشـــرات الأولية لما حصل، ويحصل في العراق يدلل على أن هناك تأثيراً للعملـــيات النفـــسية على ساحته أشده ما يتعلق بالتحريض، ويدلل أيضاً أن أجهـــزة الدولـــة لا تدرك طبيعة هذا التأثير، ولا آثاره المستقبلية، بسبب عدم امتلاكها أجهزة مختصة للرصد والتحليل، وصياغة مقومات الدفاع، والتحصين

النفسي، وبسبب قلة خبرة المسؤولين فيها في هذا المجال، وفي الوقت الذي استهدفت العمليات النفسية للتحريض معنويات العراقيين، وأداءهم وقيمهم، لا نجد جهدا مقابلا من قبل أجهزة، ومؤسسات الدولة لرفع المعنويات، وتحسين الأداء، وشحذ الهمم، وترميم الشرخ الحاصل بالوطنية، الأمر الذي فسح مجالا لمزيد من التأثير انعكس سلبا على مشاريع إعادة البناء.

4. إن وضع العراق، وعدم امتلاكه أوراقاً مناسبة للردع، والحيلولة دون تدخل الآخرين في شؤونه الداخلية، شجع بعض العرب، والمحيطين بالتمادي مما يعرضهم، والعراق إلى مزيد من التوتر، والاضطراب على المدى المستقبلي.
5. إن أكثر الفاعلين على ساحة العمل النفسي العراقية سلبا هم العرب، والمحيطون، وإن أكثر الأدوات المستخدمة هي الإعلام، ومن بعده الدبلوماسية سواء ما يتعلق منها بالحد من التواجد، والدعم الدبلوماسي داخل العراق، أو بالتحرك على الأطراف الأخرى للتضييق على هامش حركته عربيا، وإقليميا، ودوليا، وكذلك الأعمال الاستخبارية السرية حيث التسارع لتكوين شبكات لنقل المعلومات، والقيام بأعمال مسلحة غايتها إعاقة العمل نحو إعادة البناء، وإفشال التجربة الجديدة.
6. إن أكثر الأهداف التي وضعتها العمليات النفسية للتحريض في أعلى أولوياتها، وعملت جاهدة على تحقيقها هي الطائفية، ومحاولة إثارة الفتنة في مجالها، ونجحت بقدر يفوق المعقول في تكوين أرضية أو بذرة بدأت تكبر في غير صالح العراق.
7. إن ما جرى في العراق، وكذلك خطط إعادة بنائه ديمقراطيا "المعلنة" لا تروق إلى الكثير من العرب والمحيطين، وبسببها:

   كونوا مواقف بالضد.

   وعملوا على إفشال التجربة.

   وأسهموا في جر العراق إلى مزيد من التوتر، والاضطراب.
8. تقاتل المؤسسة العسكرية، والأمنية في عموم العراق قتالا بالضد من قوى الإرهاب الذي يتأسس في بعض جوانبه على مفاهيم فكرية، وأصول عقائدية،

ومساعي تحطيم المعنويات، ومع ذلك فإن هذه المؤسسات لا تمتلك حتى الوقت الحاضر خططاً لتأهيل نفسي يلائم أهداف القتال مما فتح أبوابا واسعة أمام تأثيرات التحريض على المحيط الذي يعمل فيه، وساعد على وجود خرق أمني في جسمها الذي لم يقوَ بعد.

9. إن الجهد النفسي على الساحة العراقية أو خارجها لا يتوقف عند حدود معينة، ولا يلتزم بأزمنة محددة، بل هو عمل مستمر، وإن تغيرت أهدافه، ووسائله في التأثير بالاتجاه المطلوب، وهذا مفهوم يلزم الدولة العراقية، ودوائرها المختصة بالتفكير في طرق الوقاية من آثاره الفكرية التي تؤشر النتائج عدم استعداد أجهزتها، وكادرها الوظيفي للتعامل مع تلك الآثار، وهو أيضاً سلاح فعال تلجأ إليه أو تمارسه العديد من الدول، والنظم السياسية في وقتنا الراهن بغية التأثير في المجتمعات المستهدفة، صديقة كانت أم عدوة باتجاه إيجاد تقبل للأفكار المطلوب إيجادها، وتكوين قناعات تؤمن مصالحه (48)، وهو كذلك استخدام متعدد لكثير من الفعاليات وفق معطيات علم النفس التطبيقية قطعت فيه دول كبرى أشواطاً بعيدة المدى حتى عد البعض استخداماته تمهيداً لسيادة نوع جديد من أنواع الاستعمار يستعبد الناس فكرياً ونفسياً، وعلى هذا الأساس أصبح تخصصاً علمياً دقيقا، وسلاحاً شاملاً لا يملك العراقيون بعد التغيير إلا القليل من مفرداته، لذا لم يبق أمامهم سوى جهودهم الذاتية التي ينبغي أن تبدأ أولاً وكلما كان ذلك ممكنا حتى لا يجدوا أنفسهم يوماً وقد توقفوا آخر الركب يدفعون ثمن عجزهم من أموالهم، وأهدافهم، وطموحاتهم، وتطلعاتهم دون أن يجدوا من يمد لهم يده أو حتى يدفعهم إلى الأمام.

10. لقد حدثت الحرب المطلوب حدوثها، وحصل التغيير الذي يفترض حصوله، ولم يعد أمام العراقيين من خيارات إلا التعامل مع الواقع بطريقة تقلل من الضرر الذي حاول البعض تضخيمه في العقل العراقي، والعربي لاعتبارات نفسية يراد منها التحريض بالضد من دولته بمفردات تدفع إلى تشكيل سلوك مقاتلة الحكومة، وتدمير المجتمع بعمليات إرهابية لا تتوقف عند حدود معينة.

الفصل الخامس

التداعيات النفسية

خطورة الموقف في العراق لم تتوقف
عند أخطاء الأمريكان في الإدارة والقتال
بل وتمتد إلى الجانب العراقي كثير الأخطاء

إن تقديـــر أو تقييم مخاطر الحروب، والأزمات، والضغوط وتأثيرها السلبي على الشعوب والأمم لا يحتاج الكثير من العناء، لأن العودة إلى التاريخ، والأمثلة الموجودة، كفيلة بأن تعطي تصوراً واضح المعالم عنه، والعودة قليلا إلى الحرب مع إيـــران مـــثلا، ومشاهد القتل في ساحتها، وتَعَوّد الجنود على ممارستها، ومن ثم تـــشجيعهم على أدائها لتأمين الربح فيها وتجنب الخسارة جعلت آلاف الشباب الـــذين تسرحوا بعد انتهائها يخزّنون تلك الانفعالات المصاحبة لها، وبمستويات كانت تشكل للبعض منهم إثارات يستسهلون بموجبها أعمال القتل التي انتشرت بمستويات واسعة بعد انتهاء الحرب الأمر الذي اضطر الحكومة آنذاك إلى إصدار قـــوانين مـــشددة تـــصل حد الإعدام كعقوبة لمثل تلك الأعمال، كما إن صور المعركة التي كانت تُبَث يوميا من القنوات التلفزيونية أثناء الحرب، وبعدها على أســـاس التذكير عرّضتْ الأطفال العراقيين إلى مواقف انفعالية شبيهة بما يجري في المعركة مع الفارق في أن الجندي في الميدان ينفسُ عن انفعالاته بإطلاق النار نحو عدوه، وفي حالة الأطفال يكون اللعب العنيف، والكبت مجالا للتعامل معها، وهو أمـــر غير محمود لأن المكبوتات تحوّر السلوك باتجاه العدوان، وهذا ما يفسر لنا بعـــض جـــوانب القـــتل التي تحدث في المجتمع العراقي حاليا من قبل الشباب، والمـــراهقين الّذين شهدت طفولتهم في الماضي خبرات الفرجة على تلك المشاهد الـــتي كانـــت تتكرر يوميا، كما أن الحصار الذي نتج عن الحروب، وانخفاض مـــستوى المعيشة، دفع إلى أنواع من السلوك فيها قدر من العدوانية مثل السرقة،

والتجاوز، والرشوة وغيرها الكثير عانت منها مجتمعات أخرى مرت بخبرات مماثلة وحروب شبيهة. إن هذه المقدمة البسيطة تعطينا تصوراً عن المخاطر المستقبلية التي إذا ما تجاوزنا في موضوعها السياسة، والاستقلال التي يخضع فيهما التوقع إلى عوامل عديدة، وأخذنا الجوانب النفسية، والاجتماعية مثلا للتقدير منه يمكن التأكيد على أن الأعمال التي أفرزتها ظروف التغيير وما بعده ستغير معالم السلوك، وستوجد قيماً غير القيم الموجودة وسيأتي اليوم الذي يكبر فيه أطفال شهدوا مقتل الأب، ولعبوا قرب جثة الجار، وتأثروا بشظايا الانفجار، وعاشوا حرمان الخدمات العامة، وتعرفوا على الفساد، والخيانة، وتعاملوا مع بعض أنواعها، وسيكونون في المقدمة وهم يحملون في عقولهم انفعالات ستتسبب في مزيد من الكوارث "الدوامات" للبلاد إلا إذ وضعت الدولة خططاً لإعادة البناء النفسي للإنسان قبل شروعها بتنفيذ خططها المادية أو ملازمة معها، لأن الإنسان السوي هو الذي يعيد البناء.

المبحث الأول

الأسباب

إن الوضع العراقي بجوانبه السياسية والأمنية، ومن ثم الاجتماعية يسهل تقييم خطورته، ويسهل أيضاً تحديد الأسباب التي دفعت إلى هذه الخطورة، والتي تعود في هذه المرحلة الزمنية إلى جملة أسباب بينها:

1. أوجه القصور في الإدارة العامة، وسبل التعامل النفسي مع المجتمع التي لم تعترف بها الحكومات المتعاقبة، والأحزاب الفاعلة بشكل كاف يسمح بحصولها على المساعدة اللازمة من قبل المختصين من جهة، وحشد الجهد الكافي لإيقاف حالة التدهور في كافة مجالات الحياة من جهة أخرى.
2. التدني العام في عوامل النضج، والارتفاع النسبي في مستويات التخلف الاجتماعي التي سبق الإشارة إليها في أكثر من عنوان والتي أبعد وجودها الفرد، والجماعة عن أن يكونوا طرفا إيجابيا في تحديد سبل عملية للتعامل مع

موضوع الاحتلال[1] وكذلك للحد من الهدم، وتعزيز جوانب الإصلاح.

3. أخطـــاء الاحتلال، وتجاوزاته في التعامل مع الأزمة العراقية داخليا، وخارجيا بطـــريقة تـــثير استغراب العراقيين والعرب من جانب، والأمريكان الذين لم يـــتمكن القائمون عليه أي الاحتلال من تقديم حجج منطقية للإقناع، والتبرير من جانب آخر.

إذ إنهـــم وعلـــى ســـبيل المثال، وبعد أن تسببوا في إحداث الفراغ الأمني، والـــسياسي بعـــد 2003/4/9 لم يستطيعوا أن يبقوا حَكَماً حياديا بين اللاعبين في ساحة الصراع المعقدة إذ تركوا بسبب العديد من الأخطاء انطباعا في العقل العربي السني أنهم منحازون إلى الشيعة، والأكراد.

وفي العقـــل العراقي العربي أنهم يتحالفون مع الأكراد إلى الحد الذي تركوهم يتجاوزون خطوطاً ما كان يجب أن يتجاوزوها بأية حال من الأحوال.

وفي العقل الشيعي أنهم يتوددون إلى السنة بالخفية لغرض تسليمهم الحكم ثانية كثمن للتهدئة، وفرض الاستقرار.

مجـــرد انطباعات قد يكون انتشارها محدوداً لكنها باتت من بين العوامل التي تحـــدد المواقـــف، وتحرك السلوك، وبسببها وبسبب تراكم الأخطاء، وتكرارها، وتفـــوق الإعلام العربي المضاد على الإعلام الأمريكي في المنطقة، لم تستطع الإدارة

---

(1) لم يكن العراق هو الدولة الوحيدة التي أُحتلت من قبل الأجنبي، ولم يكن الأمريكان هم الدولة الوحـــيدة التي احتلت العراق، ولم يكن التعامل مع الاحتلال يقتصر على المقاومة واستخدام السلاح، أو الرضوخ، والاستسلام، فهناك تجارب للاحتلال وأسلوب التعامل معه من الشعوب مازالـــت ماثلـــة للعـــيان تعـــد ناجحة، وبأقل ما يمكن من الخسائر منها التجربتان الألمانية، واليابانـــية، اللـــتان وإن اختلفـــتا مع المجتمع العراقي من حيث النظرة إلى وجودهما كقوى عالمـــية معروفة، ومؤثرة، والزمن الحاصل، وإعادة ترتيب الخارطة السياسية للعالم، فإنهما تقعان معاً تحت بند الاحتلال المطلوب تحديد الأسلوب الأمثل للتعامل معه بأقل الخسائر التي اتجـــه فـــيه الألمان، واليابانيون إلى السلم، واستثمار فرص الوجود التقني، والتطور العلمي للـــنهوض من جديد والتوجه للتحدي "سلميا" من خلال الاقتصاد، والتطوير التقني، في حين اختلف العراقيون في موقفهم، وأسلوب تعاملهم مع الاحتلال بعـــد أن قبـــل البعض، وســـعى إلـــى الـــتعامل السلمي، واستثمار الفرص جهد الإمكان، وسعى البعض الآخر إلى القتال، واســـتخدام الـــسلاح بغـــياب فرص التكافؤ والتوازن، وهذا اختلاف تسبب في تأخير عملية الانتقال إلى الديمقراطية، وفشل الكثير من خطط إعادة البناء، والإعمار.

الأمـــريكية الموجـــودة في العراق، والداعمة لها في واشنطن، ولا وسائلها المتعددة المنتشرة في العالم أن تغير أو تمحو من ذاكرة العرب، والعراقيين مفاهيم، وتصورات سلبية تكونت بمستوى يثير انفعالهم، ويحدد آراءهم، واتجاهاتهم بالضد من وجودها في العراق مثل:

1. الدوافع الحقيقية لحل الجيش العراقي، والأسباب المنطقية لعدم السماح بوجود جـــيش مهـــني قـــادر على أن يكون أداة ضبط كفوءة على مستوى الداخل المـــضطرب، ومتوازنة مع الخارج غير المستقر أيضا، إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن عـــشر فرق عسكرية عراقية حتى عام 2007 مسلحة بتسليح لا يزيد عياره عـــن المتوسط لم تنجح في فرض الأمن، والسيطرة في الداخل على الرغم من تعاونهـــا مـــع قوات عسكرية أخرى تابعة لوزارة الداخلية، لأن تسليحها غير كاف، وتدريبها غير ملائم، وقيادتها بحاجة إلى مزيد من الخبرة والمعرفة.

وإمكانـــات بهذا المستوى سوف لن تمكن الجيش العراقي[1] من القتال بالضد من أية دولة مجاورة للعراق قد تفرض من جانبها القتال سبيلا للحصول من وجهة نظـــرها على مكاسب تعتقد أنه "القتال" مناسب من أجل تحقيقها في الوقت الذي تـــراه مناسبا، وهذه قدرة، وتحديدات يبدو أنها فرضت على الجيش العراقي الجديد

(1) حُـــل الجـــيش العراقي بقرار من إدارة بريمر المدنية بالأمر الرقم 2 في 2003/8/23 وقد اخـــتلف الـــرواة فـــي مسألة الدفع باتجاه حله إذ يرى البعض أنه قرار أمريكي متخذ مسبقا لحسابات خاصة تتعلق بالتوازن الإقليمي المطلوب وجوده في المنطقة، ويرى البعض الآخر أنه بدفع من جهات سياسية عراقية معارضة شاركت في الحرب والحكم، وكانت لها علاقات جيدة بالأمريكان قبل التغيير بفترة زمنيـــة ليست قصيرة كونت ضغوطاً على بريمر لغرض إصدار قرار الحل، والرأي الأقرب إلى الواقع يتمحور حول وجود رغبة أمريكية في حل أو هـــيكلة الجيش السابق وإعادة تشكيل جيش جديد بفلسفة قتال مختلفة، ومهام جديدة التقت مع رغبات بعض السياسيين المعارضين، وأحزاب معارضة في التخلص من الجيش الذي حَمّلَتهُ أعـــباء، وذنـــوب القـــتال فـــي الداخل ضد أبناء العراق، والحروب في الخارج ضد إيران والكويت، وقـــد التقت الرغبتان لتصيغ القرار في الوقت المذكور مسجلة أكثر الأخطاء التي ارتكـــبت بعـــد التغيير، ومهدت إلى شيوع الفوضى، والاضطراب سواء بالتحاق العديد من منتـــسبيه إلـــى صـــفوف القتال، والمقاومة المسلحة، وقيادة تنظيماتها ضد الحكومة، وقوات الاحتلال أو بالفراغ الأمني الذي تركه في الساحة العراقية، ولم يملأه الجيش الجديد بالسرعة المطلوبة للحد من شيوعها.

لحسابات دولية، وإقليمية ستشكل خطرا على مستقبل العراق، واستقراره من زاوية الخلل في التوازن الذي يسحب إلى إشعال الحروب.

2. افتعال بعض أعمال القتال لسحب الإرهابيين من الخارج دون المبالاة بالثمن الذي يدفعه العراقيون، وغيرهم من العرب المجاورين بل والمساهمة ببعض أعمال القتل، والاغتيال، والتفجير، بعد أن تكونت قناعات بين العراقيين، وغيرهم أن العراق قد اختير ساحة حرب لمقاتلة الإرهاب العالمي، اعترف الجميع، وبينهم الأمريكان على أعلى المستويات باختيارها أو إعدادها، كما يتداول العراقيون أيضاً روايات عن وجود فرق خاصة للأمريكان بالتعاون مع قسم محدود من العراقيين المدربين في الخارج تقوم بأعمال اغتيال، واختطاف، واستنطاق خارج سيطرة القيادة العسكرية للحلفاء تتحمل مسؤولية تنفيذ مهام تخدم تفعيل ساحة مقاتلة الإرهاب المذكورة على الرغم من أن هذه الروايات بقيت غير مدعمة بوثائق، وأدلة علمية، وكما تم التنويه عن موضوعها في أكثر من مكان في هذا الكتاب.

3. الدفع باتجاه التقسيم إلى ثلاثة فيدراليات أو دويلات، وربما دول مستقلة عن بعضها البعض بعد أن سارت العملية السياسية باتجاه منح الأكراد فيدراليتهم دستوريا، وطرح الشيعة فيدرالية الوسط والجنوب، وتغير نهج القتال من قتال بالضد من قوات الاحتلال إلى قتال طائفي بين السنة، والشيعة عزز من الرغبات الخاصة بفيدراليات تقترب من مستوى الانفصال من جانب، والمبالغة بالخوف من حصولها الذي يعطي تصوراً عن الانفصال شبه المحتوم من جانب آخر.

4. عدم الرغبة في دعم العراق ليكون دولة قادرة أن تدافع عن وجودها بعد أن تعطلت مشاريع التنمية التي يفترض القيام بها، وإعادة الإعمار التي أعلن عنها حتى في المدن التي تشهد استقرارا أمنيا معقولا، والإعاقة الخاصة في آلية صرف المنح، والمبالغ المخصصة لإعادة الإعمار دوليا.

5. غض الطرف عن أعمال الفساد المنظم، والتهديم، والتهريب شبه المنظم التي تمهد لتحقيق الاستراتيجية الأمريكية في إضعاف العراق بعد أن تسربت العديد

مـــن الأخـــبار عن فساد في الإدارة الأمريكية التي تسببت في اختفاء مليارات الدولارات، وأخبار عن مشاركة منتسبي جيوش، وجماعات محسوبة على دول في أعمال قمريب خاصة بالنفط من الجنوب عن طريق البصرة، وشط العرب.

6. إن مـــا يجري هو سياسة أمريكية قوامها إثارة الفوضى المسيطر عليها أو كما يـــسميها السياسيون أحيانا بالنظيفة تُؤمن استراتيجية الاعتماد عليها البقاء في الـــبلاد أكـــبر فترة ممكنة بعد أن تساءل العراقيون عن أسباب عدم استخدام أمريكا:

قدراقما الاستخبارية في رصد منابع الإرهاب تمويلا، وتجنيدا.

نفوذها في المجتمعات التي باتت تقدم العون، والإسناد للحد منه.

ضغوطها الحاسمة على الدول التي باتت ممرا للإرهابيين، والأموال لإيقاف أية أنشطة تتعلق بالإرهاب.

والعـــراقيون هنا مقتنعون في نقاشاقم الخاصة، وتحاليلهم البينية أن الأمريكان يمتلكون الكثير من القدرات التي يمكن أن تحسم المعركة بالضد من الإرهاب سريعا لكـــنها لا تـــريد ذلك لحسابات تتعلق بمصالحها الاستراتيجية التي تلتقي مع فكرة احـــتلال العـــراق، وتغيير نظام الحكم فيه تمهيدا لتغييرات في المنطقة يكون العراق قاعدقما للانطلاق باتجاه إقامة الشرق الأوسط الجديد.

إن عـــدم الإجابـــة عن كل تلك التساؤلات منطقيا، وتركها للأحداث، والظـــروف الـــتي تثبت صحتها من عدمه شجعت الدعاية المضادة للأمريكان، وللعملـــية السياسية في العراق أن تضيف، وتحور، وتؤلف حتى أسقطت مفهوما كـــان مـــتداولا في بدايـــة التغيير عن الوجود الأمريكي لمساعدة العراقيين في الـــتخلص مـــن الديكتاتورية، وإعادة بناء دولتهم ديمقراطيا، وفتح المجال واسعا لمـــزيد من مفردات الحرب النفسية التي شكلت، وتشكل خطورة على حاضر العراق ومستقبله.

إن الخطـــورة في الموقـــف، والنتائج المتحققة، واحتمالات التطور السلبي لم تتوقف عند أخطاء الأمريكان في الإدارة، وقيادة الجهد العسكري في ساحة مقاتلة الإرهاب، وفشلهم في الرد على مفاهيم، وقناعات تكونت بعد الاحتلال بل وتمتد

كـــذلك إلى الجانب العراقي خاصة في ما يتعلق بصيغ تشكيل، وإدارة الحكومات المتعاقبة بعد بريمر التي تكونت جميعها بأساليب تثير التناقض، والاختلاف أكثر من الـــتهدئة، والانسجام خاصة في ما يتعلق بعملية توسيع المشاركة السنية في العملية الـــسياسية التي لم تنجح بجلب تمثيل سني قادر فعلا على التأثير في الأحداث، والحد مـــن أعمـــال المقاومـــة، والقتال التي أخذت من المناطق السنية قاعدة انطلاق إذ وبسبب عدم وجود مرجعية سنية بالمقارنة مع الشيعية شارك في الحكم البعض منهم أي الـــسنة بقدر يصعب الجزم على أنهم يمثلون غالبية السنة بطريقة وضعت البعض منهم وهم في المناصب العليا تحت ضغوط بينها:

1. الرغبة في إثبات القدرة على تمثيل يسعى الفرد المعني، والجماعة المشاركون في الحكـــم، والراغبون بالمشاركة على وجه الخصوص إلى تعزيزه في عقول الـــسنة مـــن جهـــة، والحكومة من جهة أخرى، كذلك تكوين مرجعيات سياســـية، ودينـــية ســـنية ذات تأثير في الوسط العربي السني دون الأخذ بالاعتبار المقومات اللازمة لذلك فتسببت في زيادة الشق الحاصل في الطرف السني بوجه عام.
2. ضـــرورات التحرك بكل الاتجاهات للحد من تمادي الشيعة في توسيع هامش الـــربح[1]، والاستحواذ على كل المقاليد دون امتلاك القدرة الميدانية للحد منه الأمـــر الذي أوجد بؤر اختلاف، وصراع تصب باتجاه زيادة درجات الفرقة، والتناحر، وإشعال الفتنة.

وبـــسببها، وتـــدخلات خارجية عديدة استشعر المحيط العربي السني المجاور للعـــراق خطر الاختلال المفروض بالتوازن الطائفي في الداخل العراقي الذي يهدد

(1) بعـــد حـــصول التغيير مباشرة كان الموقف السياسي السني في العراق بالضد من الاحتلال، والمـــناداة علـــنا بـــضرورة رحيله سريعا خطوة باتجاه التفاهم، والمشاركة الفعلية بالعملية الـــسياسية، وبعـــد أن استعرضـــت القـــوى المسلحة بالضد في الشارع العراقي بشكل عام، والـــبغدادي على وجه الخصوص، وبعد أن تطور شكل الصراع الطائفي تحول الموقف من المـــناداة بالخـــروج إلى برمجة الانسحاب، وفي الأشهر الأولى من عام 2007 كانت الدعوة شـــبه العلنية إلى ضرورة البقاء لأن هذا البقاء مفيد كما ورد على لسان السيد عدنان الدليمي على قناة الحرة عراق، في العناوين الإخبارية المعروضة على الشاشة يوم 2007/3/16).

بالتوسع خارجيا، واستسهل التدخل بسبب ضعف الدولة العراقية، وحيرة الأمريكان فأمن اتصالات جيدة مع البعض من المشاركين في الحكم خارج الاستحقاق الانتخابي، ودفعهم لأن يكونوا مع بعض الاستثناءات أدوات يمكن تحريكها انفعاليا للرفض، والمقاومة، والتحريض، والتأزيم بدلا من أن يكونوا وسائل ضبط، وتهدئة تقلل من معاناة السنة، ومخاوفهم في قبول الوضع الجديد.

وبالمقابل استشعر الطرف الآخر أي الشيعي"المشارك في الحكم" الأكثر تنظيما، ومرجعية، وخبرة للارتباط بالخارج أن ما يجري خطر يدنو من أحقيتهم كأغلبية في حكم البلاد، وأن أعمال الإرهاب الموجهة، والمدعومة من الخارج تهدف إلى إبادتهم فقبلوا الدعم لتقوية قواعد لهم بدأت تتحول تدريجيا إلى الدفاع، ومن ثم القتال بالضد بدلا من السياسة فأضافت بقبولها معالم صراع خارجي يمتد إلى الداخل بطريقة تزيد من التوتر، والاضطراب من جهة، وتعزز من سلطة الدين السياسي الشيعي في الحكم، ومقاومة الدين السياسي السني للحكم من جهة أخرى.

إن تشكيلة الحكومة الحالية، والسابقة بطريقة المزاوجة بين الاستحقاق، والتوافق اتسمت بسيطرة واضحة المعالم للأحزاب الدينية السياسية التي لا تمتلك خبرات سياسية كافية، وتقنية ملائمة تؤهلها لإدارة الدولة، والمجتمع في ظروف صعبة تحتاج إلى قدرة ومهنية عالية من ناحية، وملائمة للمنطقة، والعصر بسبب عزلها عن الوظيفة والسياسة لفترة زمنية طويلة قبل التغيير من ناحية أخرى، وهي سيطرة أثارت بالضد منها العديد من أبناء الطوائف، وسهلت للقاعدة، والمقاومة العراقية توسيع قواعدها بين الجمهور، كما إن فرض صيغة التوافق من قبل الأمريكان دون التدخل الكامل من جانبهم بتفاصيل الاختيار، والتوزيع، دفع إلى أن تقبل شخصيات سنية مسألة المشاركة في الحكم، وبعضها ضعيف، وقدرته السياسية غير مواتية فأصبح البعض منهم، وكأنه مُسيّر شيعيا، وكرديا أو مقيد من قبلهم غير قادر على التحرك، والتأثير فخسر بعضهم باستثناء "الحزب الإسلامي العراقي" قاعدته الداعمة اجتماعيا، ودوره في التهدئة، والضبط.

هـذا وبـسبب التركيبة المنوه عنها للحكومات المتعاقبة التي اعتمدت على التـرقيع غير المتكافئ، وكثرة القيود المفروضة ضمنيا على تحركها، وافتقارها إلى الإعلام المهني الكفئ، وموقف دول الإقليم منها، ورأي الأمريكان بها لم تستطع أن تثبت للعراقيين، والعرب، والمسلمين، وكذلك للأمريكان والأوروبيين أنها:

1. قادرة على ملء الفراغ الأمني الذي تركه الاحتلال، وتغيير نظام الحكم.
2. محايدة في مشاريعها للبناء، وفي توزيع العقاب.
3. كفوءة لإدارة الدولة، والمجتمع في الظروف الصعبة.
4. لم تكن طرفا مساهما في إثارة الفوضى، والاضطراب.
5. مستقلّة عن الإدارة الأمريكية في التعامل مع القضايا الإقليمية، والعربية.
6. المجاهرة في تحديد العوامل الخارجية المؤثرة في قضايا الأمن، والدول التي تتدخل لزيادة اضطرابه، والحيلولة دون تدخلها.
7. قادرة على التفاهم مع المحتل في مسائل مهمة مثل برمجة الانسحاب، ومشاريع الدعم لأغراض إعادة البناء.
8. على صواب في اختيار برامجها السياسية أو حتى وضوحها وسط الغموض الذي يكتنف غالبية أنشطتها.
9. حاسمـة لـبعض أوجه الخلاف المتفق عليها منطقيا مثل موضوع المليشيات، والتدخل الديني، والسياسي في شؤونها الداخلية.

المبحث الثاني

نوعية التداعيات

إن الاسـتعراض الذي ورد لعديد من الأخطاء التي حصلت في إدارة الدولة والمجـتمع، وكذلك للأحزاب والقوى السياسية المشاركة بالحكم وغير المشاركة، وللإنـسان العراقـي عماد هذا البلد، والتدخلات الدولية، والإقليمية[1] ونسب

(1) ورد علـى لـسان أحد المعنيين في مجال الأمن أن هناك أكثر من خمسين جهاز مخابرات دولـي يعمل في الساحة العراقية بشكل رسمي، ومعروف من قبل الدولة العراقية، وهناك ما يفوق هذا العدد يعمل بطرق أخرى في الوقت الراهن.

تكرارها العالية، وما يتعلق بالاحتلال تؤشر إلى أنه إن لم يتم تدارك بعضها سريعا من قبل جميع الأطراف المساهمة بحصولها فإنّ الوضع العام في العراق يمكن أن يوصف بالمحنة أو دوامات محن في معظم جوانب الحياة أكثرها وضوحا:

1. مستوى العيش حيث التردي في حدوده لشرائح اجتماعية عديدة أخرَ وجودها، وسيؤخر السير باتجاه رأب الصدع بين العراق والعالم الآخر، وسيعيق النمو في مجالات عديدة، خاصة وإن التحسن الذي طرأ على سلم الرواتب للشرائح الاجتماعية التي تقل عن الوسط قد ابتلعتها فروقات الأسعار بالمواد، والخدمات التي شهدت هي الأخرى صعودا كبيرا في مستوياتها.
2. الأمن بشقيه العضوي، والاجتماعي الذي فَقَدَ وجوده كل أبناء البلاد[1] خاصة في الوسط وشمال الوسط، وغربه يمكن أن يمتد فقدانه إلى الجنوب حسبما مخطط من بعض الجهات، وهذه أكثر دوامات المحن تأثيرا لإعاقتها الحصول على أهم حاجة من حاجات الإنسان الضرورية من جهة، ووضعه تحت ضغوط التهديد لفترة زمنية طويلة ما يؤثر في حالته النفسية، وفي تأملاته المستقبلية من جهة أخرى، وستؤثر مستقبلا في كفاءته في العمل، وفي تطبعه مع الواقع، وفي رضاه عن نفسه، وعن الآخرين في محيطه في مجتمع مطلوب التفاعل بين أبنائه.
3. العلاقات المتصدّعة بين الناس التي ابتعد بسببها البعض عن بعضهم الآخر للانشغال بالحياة وكثر الهموم، ولتفادي الشر القادم من البعض، ولكثر المصائب في العيش والحياة، ومثلها في القيم الاجتماعية التي اندثرت أو تحورت، وكونت أخرى تعيق العيش السليم، وتقلل الرضا، وتنشر العديد من الاضطرابات النفسية، والاجتماعية.

---

(1) إن التعرض للتهديد الذي يفقد الأمن صفته في التأمين، والحماية يعد شاملا لعموم أفراد الشعب العراقي وبينهم القادة الحكوميين، والسياسيين، والبرلمانيين الموجودين في المنطقة الخضراء بعد أن وصلتها قنابر الهاونات بشكل يكاد أن يكون يوميا وبتركيز يمكن أن يعرض أياً من الموجودين داخلها إلى الإصابة، كذلك تسللت بعض السيارات المفخخة، والأحزمة الناسفة إلى داخل المنطقة، وإلى أبنية البرلمان كالتفجير الذي حصل في أحد أبنيته "المقهى" يوم 2007/4/12 التي تؤشر تهديدا لأمن الجميع.

4. التعلـيم الـذي تـردت مستوياته حدا بات العراق مجتمعاً يشكو الجهل[1] والـتخلف، وضـعف الأداء، وانتـشار الأمية، والأفكار الغيبية غير المنطقية، وضـعف التحـصيل والدافعية إلى الاكتساب، والإنجاز، وكثر التسرب من الدراسة بجميع مستوياتها.
5. الـبنى التحتية في مجال الصناعة التي توقفت بشكل شبه كامل بعد أن وجدت نفـسها بمـواجهة معاضـل أكثر من معقدة يتعلق بعضها بالمنافسة الشديدة للبـضاعة الأجنبية الأرخص، والأحسن، وغياب الحماية المحلية من قبل الدولة الـتي لم تفكـر بالحماية بسبب انشغالها فقط بالجانب الأمني، كذلك التجاوز عليها باتجاه السيطرة، والاستحواذ من قبل الكبار، والمافيات لتفكيك معداتها، وبـيعها خـردة أو إبقائها للاستفادة منها مستقبلا، أو لخصخصتها في وقت تغـيب فـيه المنافسة، ورأس المال الوطني، وتقوى فيه العصابات، والحيتان، وكذلك في مجال الزراعة، والري، وغيرها التي تشهد تخريبا في عمومها، وقدم الوسـائل، وزحف الصحراء، وقلة الاستثمار، وهجرة رأس المال التي ستعيق خطوات إعادة البناء والإعمار.

إن دوامات المحن التي ذكرت فيما سبق على سبيل المثال، وأخرى وردت في

(1) بعـد مـوجة التزوير في الشهادات الأولية، والعليا التي اجتاحت العراق في تسعينات القرن الماضـي للاستعانة بها في الحصول على عقود عمل في بعض الدول العربية خاصة اليمن، وليبـيا، وسعة تأثير الحصار على مسألة الاطلاع على مستجدات العلم، والانفتاح على العالم في هذا المجال تدنى مستوى التعليم في كافة مستوياته وزاده الوضع الأمني، وضعف سيطرة الأجهزة المعنية للدولة سوءًا بعد التغيير حتى بات طلاب في كليات هندسية، وطبية يتغيبون عـن الحـضور إلـى قاعات الدروس، والمحاضرات ويؤدون الامتحانات ويحصلون على درجـات نجـاح تؤهلهم إلى التخرج، وطلاب في كليات إنسانية يحضرون فقط الإمتحانات النهائية، ويحصلون على النجاح، كما أقحمت الجامعات في أتون السياسة، والدين فأصبحت سـاحة صراع بين الطلبة، ومكان لتأدية الطقوس بدلا عن البقاء منبرا للعلم، وأداة مد الدين والـسياسة بمعـالم التقدم، والاستمرار، وبعد أن اغتيل مئات الأساتذة، والمختصين، وهُجر مثلهم إلى خارج العراق انحدر مستوى التعليم، والأداء الأكاديمي درجات إلى الوراء باستثناء بعـض الجامعات في كردستان التي تتقدم بشكل ملموس إلى الأمام لكنها تشكل نسبة تقل عن الـربع تقريبا من جامعات العراق، هذا وإذا ما استمر التدهور على حاله، ولم تتدخل الدولة سريعا ستقود الجامعات، وخريجوها الجدد عملية التجهيل في عموم العراق.

العرض، وغيرها لا يتسع العرض لذكرها هنا، ومستوى الاحتقان الطائفي، وخطط الخـــارج غير الممكن إفشالها في الوقت الراهن، وأعمال القاعدة، والقوى المسلحة بالضد، والضعف الواضح في بعض جوانب الحكومة، وقلة الخبرة، وخواء الإنسان العراقـــي، وقلـــة معـــنوياته، وضـــعف دافعيته للمشاركة في الجهد الحربي لمقاتلة الإرهاب، ومشاريع إعادة البناء، ومستوى الخطأ، والتجاوز في السلوك العام كلها دوامـــات محـــن يمكن أن تسحب العراقيين إلى أكثرها خطرا وإيلاما وهي الحرب الأهلـــية التي بدأت بعض معالمها تتضح باتجاه خطوات إن تحققت كما هو مرسوم قد تمهد إلى تقسيم البلاد إلى كيانات سوف تعيش دوامات أزمات، ومعالم توتر، واحتـــراب لعشرات السنين. إن خطر التقسيم هو أكثر أنواع الخطر الذي يواجه العراقيين فيما بعد التغيير حصلت مرحلته الأولى بمؤشرات أهمها العزل النفسي بين العـــراقيين إلى ثلاثة تكتلات رئيسية هي الشيعة، والسنة، والأكراد لم يعد أحد في مجاله المرور في الكتابة، والتذكر إلى العرب دون السنة، والشيعة لتعزيز التقسيم أو لقـــبوله نهجـــاً في التفكير، كذلك التوزيع شبه المقنن للمراكز، والمسؤوليات على أســـاس المحاصـــصة الـــتي تفرز الأكراد عن الشيعة، والسنة في جميع المستويات. بالإضـــافة إلى طرح مشاريع الفيدراليات بطريقة لا تستطيع فيها السياسة أن تحول دون رغـــبات الـــبعض مـــن الأحزاب، والأشخاص لتحقيق مشاريعهم الخاصة بالاستقلال، وتكوين كيانات قادرة على إدامة الاحتراب.

المبحث الثالث

تقييم التداعيات

إن تطورات الوضع في العراق، وكم المخاطر الموجودة وطبيعتها توحي وكأن أرضـــه ســـاحة قتال زرعت فيها ألغام سياسية على طول البلاد، وعرضها قوامها مـــشاكل "دوامات" أبقيت من قبل الاحتلال دون حل خلال إدارته المدنية، وما بعـــدها بقصد منه أو كنتيجة حتمية لسوء التقدير، ومشاكل أنتجتها الحكومات المتعاقـــبة، والأحزاب السياسية كونت بؤر خلاف، وتوتراً "ألغاماً" يمكن أن تنفجر تـــبعا لعوامل تفجير كثيرة على المستويين الخارجي والداخلي، يؤدي إنفجارها إلى

مـــزيد من الفرقة، والاختلاف، وكذلك الاقتتال التي تمهد أو تعزز فكرة التقسيم منها:

1. الـــدين السياسي: لقد عملت، وتشكلت قوى، وتكتلات سياسية ذات طابع ديني إبان مرحلة المعارضة لنظام صدام حسين، وكانت الشيعية أكثرها تأثيرا، وانتـــشارا في ســـاحة القتال الفعلي في الميدان السياسي المعارض، وفي مرحلة الإعداد للحرب، وهي قوى تم الاعتراف بها من قبل الأمريكان، والتعامل معها كقوى فاعلة.

وبعـــد التغـــيير برزت قوى أخرى سنية بفاعلية تأثير تقل عن الشيعية لكن الاعتراف بها فاعلة قد تم أيضاً من قبل قوات الاحتلال لأغراض الموازنة، والتوافق في إدارة البلاد، وعلى أساس هذا الاعتراف قبل، وبعد التغيير خصصت لها حصص في مفاصـــل الدولـــة فتحت لها المجال واسعا لتوسيع جماهيريتها، والتأثير في المحيط الـــشعبي الـــذي يمتاز بالقلق العام من الحاضر غير المستقر، والمستقبل غير المضمون ساعد على تقبل الأفكار الدينية، والإيحاء بحسن الثواب.

وصيغت قوانين الانتخاب على أساس القائمة الواحدة التي تمثل اتجاهاً واحداً يسهل دعمه ومباركته، ولا تؤثر فيها الانتقادات الموجهة إلى بعض أعضائه.

وُتـــركت الحدود مفتوحة مع دول الجوار عدة أشهر بعد التغيير ليدخلها من دون جـــواز سفر، ولا تأشيرات من يرغب أن يكون طرفا في الصراع، ومن يريد دخول الجنة على أساس الموت، وغسل الخطايا، ومسح الذنوب.

وُحـــرِكَت من قبل جهات داخلية، وخارجية الموروثات الفكرية القديمة عن الطائفة، والمذهب، وشكل الحكم، وأحقيته، والظلم، والاستحقاق عززتها أدبيات الأحزاب، وكثر الصحف، والفضائيات.

وأقـــيمت الانـــتخابات، وتأكد فوز الأحزاب الدينية المذكورة بشكل كبير للشيعية، وأقل منها للسنية، وتشكلت الحكومة حسب مقتضيات الديمقراطية، من الكـــتلة الـــشيعية الأقوى، والكردية التي تلي في القوة، ومن الأخرى السنية على أساس التوافق المنوه عنه سابقا، فتكونت على إثرها قناعات بأحقية حكم الأغلبية تـــبعا لخطـــوات الديمقراطية دفعت البعض إلى التوسع، وتعزيز النفوذ في المدارس

والجامعـــات، وفي دوائر الدولة ومؤسساتها الرسمية، وبمستوى دفع الدين السياسي الـــسني إلى الاســـتغاثة خشية من عزله عن ساحة التأثير، والاستئثار من جانب، والتحرك الفكري، والقتالي في محيطه الجغرافي الملائم من جانب آخر.

إنـــه نوع من الصراع فيه التسابق على النفوذ عزز بشكل عام الوجود السياسي الديني، وكذلك الأساليب الدينية في الإدارة التي تزحف حثيثا لفرضها على البلاد لولا بعـــض فقـــرات الدستور التي تَدَخْلَ في وضعها الأكراد الذين يحبذون حكما علمانيا لعموم البلاد، والتي سوف لن تصمد طويلا في حالة الاستمرار بالتوسع ومد النفوذ.

إن المشكلة في الموضوع لا تتعلق بالدين الإسلامي الذي كون حضارة امتدت حداثـــتها في مرحلة من مراحل التاريخ إلى شرق الكرة الأرضية وغربها، وكونت دولاً كان لها عظيم التأثير في الحضارة البشرية، ولا تتعلق بالفقه والشريعة، وقوانين الحكـــم، والإدارة التي وضع أساسها المسلمون، وفقهاؤهم المعروفون منذ ما يزيد علـــى الألـــف سنة لتأمين العدالة، وحسن تطبيق الشريعة الإسلامية السمحاء، بل وتتعلق بظروف خاصة بالعراق تجعل حكم الدين السياسي للعراق الموحد مشكلة يمكن أن تقود إلى مزيد من الأزمات، وربما التقسيم بينها:

أ. يـــتكون العـــراق العربي مذهبيا من أغلبية شيعية، وأخرى بعدها سنية بينهما الـــتوازن هـــش لم تحسمه الأغلبية العددية، وبقي كذلك عبر السنين بعد أن أضيفت عوامل التحصيل، والمال، والوظائف، والمحيط في التوازن لصالح السنة خلال المراحل الزمنية السابقة قللت بموجبها من تأثير الغالبية العددية في التوازن لـــتكوّن كفتين متقاربتين في التأثير يصعب لأحدها أن تحسم الأمر لصالحها، وعلـــى هـــذا يمكن القول إنّ حكم الشيعة للعراق على أساس ديني غير ممكن بوجود التأثير الملموس للسنة في داخل البلاد، وفي نفس الوقت يمكن الجزم أن حكـــم الـــسنة للعراق على أساس ديني مذهبي هو كذلك غير ممكن بوجود الأغلبية العددية للشيعة التي أعطتها الديمقراطية فرصة التأثير.

هـــذا وإذا مـــا أســـتأثر أحد الطرفين بالحكم، وقدم مفردات المذهب أساسا للتفسير، والتشريع، والحكم سيصطدم بالجانب الآخر، وبقوة تسحب الطرفين إلى الاقتتال أو الانفصال.

ب. إذا كان التوازن بين كفتي الشيعة، والسنة هشا على مستوى الداخل فهو ليس كــذلك على مستوى المحيط الذي يشكل فيه السنة أغلبية مطلقة من جهات خمس إلى واحد يكون فيه التوجه إلى حكم ديني شيعي على سبيل المثال إثارة لمخــاوف الخمس المذكورة، وربما تحركهم بالضد لوضع العديد من العقبات أمــام نجــاح هكذا نوع من الحكم سيؤدي في حالة نجاحه إلى تغيير خارطة المنطقة الطائفية.

وبالمقابل فإن وجود حكم سني للبلاد بعد التطبيق الأولي للديمقراطية سيتسبب في مــشاكل كثيرة مع الأغلبية العددية، ومع الجار الواحد أي إيران التي أثبتت أنها قوية بالمقارنة مع العرب المحيطين، وأن تدخلها ذو تأثير ملموس.

ج. وجود الأكراد في الحكومة المركزية في بغداد، وتوجهاتهم لإقامة حكم علماني يؤمــنون بواســطته فقط المحافظة على المكتسبات التي تحققت لمرحلة ما بعد التغيير، والتي يسعون إلى تحقيقها في المستقبل، وامتلاكهم أوراق لعب قوية في الوقت الحاضر، يعني أن فرض الحكم الديني للبلاد بمذهبيه السني أو الشيعي أو حتى بتوافقهما أمر غير مرغوب من قبلهم أي الأكراد، وقد يدفعهم إلى التوسع في إدارة شؤون إقليمهم، وتحيّن الفرص السانحة لإعلان الاستقلال عن عراق يختلفون عنه بمعالم الحضارة، والجغرافية، والتطلعات، وفي أسلوب الحكم.

د. إن الخطــوط الحمــراء التي ذكرت حول حكم الدين للسياسة في العراق لا تتوقف عند المتغيرات الثلاثة المذكورة فيما سبق، إذ إنّ هناك متغيراً خارجياً هو الأقوى في التأثير، ذلك المتغير الأمريكي الذي يصعب عليه "إلا إذا جاء ضمن تــأمين الأهداف الاستراتيجية" قبول فكرة وجود حكم شيعي للعراق أو قسم مــن العــراق يتــصل بإيران الشيعية، مع سوريا العلمانية المتحالفة مع إيران، والجنوب اللبناني الذي سيخل بالتوازن الموجود لصالح إسرائيل حاليا، ومشاريع إقامة الشرق الأوسط الجديد.

عليه وإن صح هذا الاستنتاج الأقرب إلى الواقع فإن أمريكا ستقف بقوة ضد تحقــيقه، وإن تَحقــقَ تحت أي ظرف كان ستضع أمامه الكثير من العراقيل التي تسبب له المشاكل أو ستقحمه في أتون اضطرابات، وعدم استقرار توصل أهله إلى

قناعات بعدم صلاحية الدين الإسلامي في السياسية، وهذا هدف موجود في إطار الحرب العالمية على الإرهاب التي تقودها أمريكا في الوقت الحاضر سبق التنويه عنه. وعلـــى هذا الأساس أصبح الدين السياسي، وليس الإسلام مشكلة يزيد وجودها الاحتقان الموجود حاليا بين السنة والشيعة، وسيبقى كذلك عامل خَطَر، وتوتر إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن فقهاء المسلمين بعد الخلافة الراشدية أنتجوا فقها سياسيا ســـنيا، وآخـــر شيعيا يصعب أن يلتقيا في حكم بلاد مثل العراق تتكون تركيبته الطائفـــية مـــن مذاهب مختلفة، وسيكون الحل فقط في نظام علماني تضمن بعض فقرات الدستور تحقيقه، وحمايته، وتحد بشكل صريح من تدخل الدين في السياسة، والـــثقافة، والعسكر، والعملية الإعلامية المركزية للدولة، وتسمح بممارسة الشعائر الدينية، والطقوس، والدعوة بحرية تامة بعيدا عن تدخل الدولة، وتوجهاتها.

2. الفيدرالـــية: إن الفيدرالـــية دوامة "لغم سياسي" تمثل خطرا آخر على مستقبل الاســـتقرار في العـــراق على الرغم من إنها نظام متحضر لإدارة دول بتركيبة اجتماعـــية متعددة، مطبق بنجاح في العديد من دول العالم الغربية، والشرقية، والإشكال في مجالها يأتي من جانبين رئيسين:

الأول: تمـــتع الأكـــراد عمليا بنوع من الفيدرالية منذ ما يقارب السبعة عشر عاما بعد مساهمتهم بالانتفاضة عام 1991 التي كونت في داخل العديد من شعبهم فكـــرة تقترب من الاستقلال أكثر من الفيدرالية التي تصلح للعراق أي التي لا تثير الأطـــراف الأخـــرى، وهذه أفكار بدأت تُحرك الشارع الكردي مكونةً قدراً من الـــضغط علـــى قيادة الحزبيين الكرديين الرئيسين "الحزب الديمقراطي الكردستاني، والاتحـــاد الوطني الكردستاني" لأن يُصروا في كل أوقاتهم على الإيفاء بمستلزمات الفيدرالـــية التي أقرها الدستور، رغم حراجة الموقف، وهم الذين تعلموا في قتالهم الطـــويل مـــن أجل الأهداف القومية الكردية عدم الاطمئنان للظروف في تحقيق المطالـــب، ودفعـــت البعض من ممثليهم في التفاوض مع حكومة المركز، وكذلك البعض من مفكريهم، وساستهم أن يَذكُروا في بعض منشوراتهم، والأدبيات معاني وأســـساً للاســـتقلال، وهـــي وإن كانت حقاً في الظروف الطبيعية، وعادية في المجـــتمعات البشرية، لكنها في ظروف العراق الحالية، ووضع التحالف الكردي مع

قـوات الاحـتلال، وضعف حكومة المركز، واضطراب الوضع السياسي الدولي، والإقليمي فُسرت من باقي العراقيين على أنها مساعٍ لاستثمار الفرص، وتحقيق أمر واقع يراد منه التوسع في صلاحيات حكومة الإقليم، وفي جغرافيته خطوة أولى نحو الاسـتقلال الذي يخشاه العرب السنة، والإقليم العراقي السني، والشيعي على حد سـواء حتى أضحت الفيدرالية لغماً قابلاً للتفجير، يشكل تفجيره خطرا كبيرا على مستقبل الوحدة المفروضة للبلاد، وأضحت طروحاتها المغلفة بغلاف التوسع عوامل إثـارة أخرى للتوتر تضاف إلى ما موجود قد تسحب البلاد إلى مزيد من التناحر وربما الاقتتال.

الـثاني: تَوَجُّه البعض من الشيعة للمطالبة بفيدرالية الجنوب التي نشط دعاتها من الائتلاف العراقي الموحد، وبعض الشخصيات السياسية الشيعية بعد كل مطالبة بالتوسع في فيدرالية الأكراد إلى المستوى الذي فسر البعض غير المطلعين على بواطن السياسة، والأمور أن هذه المطالب ما هي إلا توجهات للضغط على الأكراد ليقللوا مـن سقف مطالبهم فيما يتعلق بفيدراليتهم، لكن الأمر ليس كذلك لأن الدستور العراقـي الذي أُقر في تصويت شعبي عام 2004 كفل حق إقامة فيدراليات في كل مـناطق العـراق الأمر الذي يؤكد وجود مثل هكذا أفكار، ومشاريع قبل وأثناء، وبعد كتابة الدستور.

إن فيدرالـية الوسط، والجنوب التي يحق لدعاتها المطالبة بتحقيقها حسب ما ورد في الدستور، وخطى الديمقراطية في الحكم، يبدو أن المطالبة، والإلحاح بتطبيق فقـرات الدستور لما يتعلق بشأنها قد جاءت في وقت غير مناسب أوحت فيه أي المطالبة:

أنهـا طائفـية الطابع لأن المنطقة المطلوب تشكيل الفيدرالية في مجالها ببعض مـناطق الوسـط، والجنوب فيها الكثافة الشيعية هي الغالبة، وفيها غالبية المراقد، والمـدن الـشيعية المقدسـة، ويُقيم فيها كل المراجع الدينية العليا واسعة التأثير في شؤونها الحالية، والمستقبلية.

كمـا إنها تتشكل في منطقة تعد الأغنى بالثروة النفطية، والزراعة، والاتصال بالبحـر عن طريق الخليج العربي، وهذه أي المطالبة بالفيدرالية فيها توحي للطرف

الآخر أنها توجهات للاستحواذ على الثروة النفطية، وعلى المنافذ بطريقة قد تشجع في فترات التأزم المحتملة إلى دعوة للاستقلال طالما كانت مكبوتة في العقل الجنوبي العراقي الذي عانى كثيرا من علاقة مختلة مع الوسط الحاكم للبلاد.

إن الفيدرالية التي يريدها الأكراد، ويسعون إلى تطبيقها لا تثير كثيرا من الخلاف بين العراقيين بعد أن حقق الأكراد واقعاً يستحقون أن يتمتعوا بموجبه بقدر من الاستقلالية في حكم أنفسهم داخل العراق، ويحققوا طموحاتهم القومية، رغم أنها نوع من الفيدرالية قد تغري الشيعة في الجنوب أن يحذوا حذوها في توسيع الصلاحيات، والجغرافية التي تشعر عرب الوسط وشماله" مثلث الجزيرة" بالحيف، والقلق من وضعهم بين فيدراليتين تحملان الكثير من معالم التوتر، والاختلاف.

وعلى هذا الأساس سيكون موضوع هذه الفيدرالية على وجه الخصوص من أكثر نقاط الخلاف إثارة للجدل، وأكثر الألغام السياسية التي يؤدي تفجيرها إلى الاقتتال بين العراقيين في المستقبل ليس البعيد من الآن إذا لم يأخذ الساسة المعنيون بالاعتبار المطالبة في الوقت المناسب، وبتوفر النضج اللازم لقبول المطالبة من الطرف المشارك خطوة يحسّون أنها لا تهدد مستقبل الأجيال من بعدهم.

3. كركوك: إن موضوع كركوك لا يقل حرجا، وتعقيدا عن موضوع الفيدرالية في الوسط، والجنوب إذا لم يزد عنها في بعض جوانبه لأن فيه نوعاً من الصراع المستمر، والمتعدد الأوجه بين:

العرب، والأكراد منذ تأسيس الدولة العراقية عام 1921 وحتى وقتنا الراهن.

الأكراد، والتركمان موجود قبل التأسيس المذكور للدولة العراقية.

التركمان والعرب قلت حدته بعد التغيير لنظام الحكم عام 2003.

وفيه قدر من التشعب اجتماعيا حيث التعبير في بعض جوانبه عن الظلم، وقسوة التهجير التي وقعت على الأكراد، والتركمان بعد سبعينات القرن الماضي، وإمكانية تكراره على العرب في الوقت الراهن في مجتمع واسع لا ينسى:

الثأر أسلوباً للترويح عن الشعور بالظلم، وأياً كان الظالم.

الرغبة في التعويض عن الغبن بكل الوسائل المتاحة بينها القوة عند توفر مستلزمات تنفيذها ولو بعد حين.

إن كــركوك المجــتمع الخليط غير المتجانس من عرب، وأكراد، وتركمان، وآشــوريين، وكلدان تستحوذ على نسبة ليست قليلة من احتياطي النفط العراقي الذي يغري الأكراد في ضرورة السيطرة عليه ضمن إقليمهم كعامل قوة اقتصادي ينفع كثيرا في مد النفوذ، وفي الدعوة إلى الاستقلال عندما تسمح الظروف بذلك، ويحفــز العــرب في أن يحاولوا دون تمكين الأكراد منه، بهدف الحيلولة دون تحقيق فكرة الاستقلال.

ويدفــع التــركمان إلى نفس ما يقوم به العرب ليحافظوا على وجود لهم في البلاد يؤهلهم الحصول على كامل حقوقهم القومية، والحضارية بوضعية لا تجعلهم وهم أقلية تحت رحمة العرب أو الأكراد.

إن موضــوع كــركوك "دوامة" حاولت إحدى مواد الدستور المستفتى عليه "المادة 140" حل بعض إشكالياته بطريقة معقدة، وغير متوافق عليها سوف يكون من بين المواضيع التي تشكل خطورة على:

أ. وحــدة العراق حيث الاحتمالات القوية إذا ما حقق الأكراد تفوقا عدديا عن طــريق الــتهجير القــسري للعرب، والإسكان المبرمج للأكراد إلحاقاً بإقليم كردستان في هذه الفترة الزمنية الحرجة، وإذا ما أبقيت المحافظة خارج سيطرة الأكــراد دون اقتناعهم ببقائها كذلك سيؤدي على الأغلب إلى تحول الصراع الــسياسي، والاجتماعي الموجود بين القوميات في محيطها إلى اقتتال يمكن أن يمــتد طــويلا لمــئات السنين على طول الحدود الجغرافية مع الإقليم، ويسهم بالانفصال.

ب. أمــن الأكــراد الذي يقع إقليمهم أو دولتهم بافتراض تهيؤ الفرص للانفصال جــنوب الدولــة التركية القوية التي تهدد بالتدخل العلني باجتياح أراضيهم في حال إلحاق كركوك بالإقليم تجاوزا على خطوطها الحمراء، وكذلك بالتدخل القــوي في حــال إعــلان الأكراد دولتهم في وقت لا تسمح ظروف العالم، والتوازنات الموجودة فيه بتكوين دولة كردية في العراق يمكن أن تشجع أكراد تركيا، وإيران لاتخاذ نفس النهج والخطوات، إلا إذا تطور الوضع في المنطقة إلى ما هو أسوأ مما عليه الآن، واقتضت ضرورات السياسة الدولية، والحرب أن تُفتَت

دول المـــنطقة وبينها العراق، وسوريا، وتركيا، وإيران عندها ستجد تركيا نفسها غير قادرة على التدخل في دول مطلوب وجودها لأغراض دولية استراتيجية.
إن تـــركيا الجـــار الأقوى في المحيط العراقي تمتلك خططاً، وحججاً للتدخل، وهامـــشاً واســـعاً لتحقـــيق ذلك خاصة إذا ما انسحب الأمريكان أو انحسر وجودهم في العراق، بما يشكل خطرا واسعا على أمن الأكراد، والدولة العراقية في آن معا.

4. الدستور: لقد أعد الدستور العراقي بغياب ملموس للتأثير العربي السني في لجان صـــياغته، وفي ظـــروف لم يـــتخلص فيها كاتبوه من مخاوف الماضي وآثاره النفسية، وأنجزت صيغته النهائية في ظروف تتسم بضغط الوقت الخاص بمراحل العملـــية السياسية التي أريد لها أن تتحقق وفق خطوات متسلسلة، فجاء ناقصا في بعض جوانبه، ومثيرا للخوف، والخشية، لا يلبي حاجة التوافق التي فرضتها الظـــروف، وأرادهـــا الأمـــريكان وبعـــض الساسة العراقيين معيارا للحكم، والمـــشاركة فيه، [1] وبذا واجه الكثير من المصاعب في إعلانه بسبب موقف السنة، ومعارضة الأكراد لبعض فقراته، ورغم التدخل الأمريكي في اللحظات الأخـــيرة للحـــصول على مخرج يسمح بإعلانه بوضع فقرة تشير إلى التعديل المحـــتمل على وفق آلية يتبين من خلال مراجعتها أنها صعبة التحقيق، بقي مثار خـــلاف "دوامة" يهدد التأسيس عليه في إثارة الفتن، والابتعاد عن الوسط في حل المشاكل، والاتفاق على حلها لأسباب عدة من أهمها:

أ. إن الفقـــرة الخاصـــة بالتعديل قد صيغت بطريقة يفسرها العرب الشيعة، والأكراد الساعين إلى إقراره، وتطبيقه دون أي تعديل يخل بالجوهر بغير ما يفـــسرها الـــسنة الذين رهنوا موافقتهم عليه بالتعديل الحتمي لعديد من الفقرات التي عُدَت مصيرية.

---

(1) إن ظـــروف كتابة الدستور ومن ثم التصويت عليه وإقرار العمل بموجبه كانت حرجة، فيها كـــان الـــوقت ضاغطا خاصة من الجانب الأمريكي الذي يريد أن يثبت لشعبه، وللعالم حسن ســـير العملـــية السياسية في العراق من خلال الالتزام الحرفي باستحقاقات الوقت التي تُحتم التقيد به وعدم التأجيل، لذا كان تأثيره وتدخله واضحاً للعيان حتى فَرضَ الانتهاء من كتابته، والاستفتاء عليه فرضا ألزم باقي الأطراف الانصياع له.

ب. وجـــود ضعف واضح المعالم في بعض فقراته يصعب تعديلها بالطريقة التي يراها الراغبون في التعديل.

ج. عدم الاتفاق المسبق على نوع، وكم التعديل المطلوب.

د. غياب الآلية القابلة للتطبيق في عملية التعديل.

إن الدســـتور بهذه الشاكلة، والتناقض فيما يتعلق بالتعديل، ومقاومة التعديل سيكون دوامة اختلاف إذا لم يتدخل الأمريكان لحسمها كما فعلوا من قبل يمكن أن يـــزيد وجودها الفرقة بين الجانبين المتصارعين أي السنة والشيعة، وقد يسحب آخرون إلى ساحة قتال إذا ما توفرت شروط أخرى تمهد لحصوله.

5. القـــوات المسلحة: تشكلت القوات المسلحة العراقية الجديدة بعد التغيير برؤيا أمـــريكية، وخبرات مشتركة أمريكية، وعراقية معارضة لنظام صدام، لم تأخذ الطريق الصحيح للتشكيل وإعادة البناء، واختيرت القيادات المعنية على أساس المحاصـــصة بعيدا عن معايير الكفاءة، والولاء الوطني للعراق. وأسندت إدارتها المدنية إلى أشخاص ليس لهم إلمام بمهام العسكر، وبعضهم فاسدون. وتحددت أعـــداد الفرق، والتشكيلات بأوامر أمريكية، وكذلك نوع السلاح، وطبيعة التشكيل.

وأقحمـــت بعـــض الوحدات في القتال قبل إتمام عملية التأهيل، وفسح المجال لتـــشكيل قيادات فرق، وألوية على أساس المنطقة، والقومية فتكونت فرق قوامها كردي، وأخرى شيعي واقل منها سني بعد تطور أحداث الفلوجة، والأنبار.

فأصبح الجيش فيها تابعاً إلى الأطراف أكثر من المركز.

يأتمر بأوامر الكتل، والأحزاب أكثر من الحكومة، والقائد العام.

وقـــوى الأمـــن الداخلـــي مـــن القوات المسلحة مخترقة من قبل المليشيات والأحـــزاب، وبعـــض العصابات إلى الحد الذي باتت فيه تُؤجر سيارات الشرطة، وأجهزتها، وبعض المعدات إلى الإرهابيين، وأفراد العصابات، ويعمل بعض منتسبيها لدى المليشيات لقاء رواتب تفوق ما تدفعه الدولة من رواتب في بعض الأحيان.

ودوائر الأمن، والاستخبارات قد عينت إدارتها من قبل الأمريكان من أحزاب معيـــنة باســـتثناء جهاز المخابرات الوطني، فتولى المناصب في تلك الأجهزة عموما

أشـــخاص غـــير مهنـــيين يفكرون، ويستنتجون، ويتهمون، ويوفدون بالمهام تبعا لأصـــولهم المذهبـــية، والقومية، وبذا أصبحت القوات المسلحة غير محايدة، وغير مهنـــية، وأصبحت بالتالي جزءاً من الاضطراب الأمني، وليس الحل في مجاله، ولا تعـــتمد عليها الحكومة في الردع أو تحديد التهديد، وأكثر من هذا أصبحت ساحة صـــراع بـــين الـــسنة والشيعة، وبين العرب والأكراد في إطار مساعي السيطرة، والحصول على القوة المحتمل الاستفادة منها في فرض الحلول على الطرف الآخر في المستقبل القريب والبعيد، وستكون إذا لم تتدخل الدولة في إعادة ترتيب أوضاعها مـــن بين دوامات الخلاف، والاختلاف، خطراً على الدولة نفسها، والمجتمع إذا ما انحازت إلى جهة دون أخرى فتتسبب بإشعال نار حرب ستجلب الغير من الخارج للـــتدخل المباشر في ساحته المهيأة نفسيا للتدخل، للوقوف مع جهة، ودعم جهة، وردع جهـــة أخرى. وإذا ما وجدت تشكيلاتها التابعة إلى هذه الجهة أو تلك أنها تأتمـــر بها، وليس بالقيادة العامة وسيكون وجودها بهذه الطريقة عامل تشجيع لهذه الجهـــة أو تلك للتمادي في تحقيق أهدافها على حساب الطرف المشارك أو المقابل فتمهد إلى الحرب الأهلية.

إن القوات المسلحة، وعلى الرغم من حجم الخرق الذي حصل في صفوفها، والاخـــتلاف بالنظرة إليه وإلى تقييمه بين الجهات الثلاث التي تحكم العراق، وشدة خطـــورتها علـــى مستقبل البلاد، لكنها من ناحية أخرى أسهل في التعامل لتجاوز آثارهـــا من النقاط الأخرى"الألغام السياسية" التي أثيرت لأنها مؤسسة وإن أصابها الـــوهن، والتصدع بإمكان الحكومة التي تقودها أن تصدر أوامر تغير من طبيعتها ونهجها بسهولة ويسر غير موجودة فيما يتعلق بدوامات الخلاف المذكورة قبلها.

إن مجريات الأحداث في العاصمة بغداد، وباقي مدن العراق في الوسط وشماله وتقيـــيدات فعل الحكومة، وأداء أجهزتها الأمنية، والعسكرية تدفع إلى تقييم الخطر كما يأتي:

1. إن الوضـــع في العراق بشكل عام خطير جدا يصل إلى حافات حرب أهلية، تحول دون وقوعها تماما قوة الردع التي تمتلكها قوات متعددة الجنسية، ويقرب احتمالات وقوعها بعض سياسيين من رحم المعارضة العراقية، وآخرون قفزوا

من الداخل أُعطوا شرعية المشاركة بالحكم، وأرسوا قواعد محاصصة، وأساليب إدارة أوصلت البلاد إلى ماهي عليه الآن.

2. هناك احتراب قائم بالفعل في ساحة قتال معقدة، ومتداخلة تكمن خطورته في احتمال أن يتطور إلى حرب واسعة طرفها الأول:

إرهابيون قادمون من الخارج بأفكار متطرفة، ووسائل قتل همجية.

مقاومة من بعض العسكريين السابقين، والسياسيين البعثيين يتمركزون في بغداد، وشمالها، والغرب"مثلث الجزيرة".

عصابات تمتد إلى جميع مدن العراق، وإلى خارجه مع مافيات دولية.

فاسدون في دوائر الحكومة كلها، ومؤسساتها ينخرون في جسم الدولة.

وطرفها الثاني: الحكومة بتشكيلتها التوافقية الضعيفة، وقواتها المسلحة غير المؤهلة، وأجهزتها الأمنية غير المتكاملة.

ويتبين في هذا الاحتراب أو الحرب المحدودة أن الدولة لم تحقق التفوق الرادع حتى نهاية 2006 بل على العكس من ذلك حقق الطرف الأول تفوقا ميدانيا، ونفسيا عليها في ساحة القتال، وبأكثر من مجال تحاول أن تستعيد فيه قوتها، وقد حققت بعض التقدم مع بداية 2007 لكنه غير حاسم حتى الآن.

3. إن الكارثة العراقية "دواماتها" معقدة داخليا، وخارجيا إلى الحد الذي يمكن فيه القول إنّها عصية على الحل من الداخل، وحلها الأكثر نجاحا هو المفروض من الخارج بتوافق إقليمي، ورعاية دولية فيها أمريكا أقوى الداعمين، وإن لم تتحقق بهذه الطريقة سيستمر الصراع والتناحر فترة زمنية أطول وأخطر ما فيه الوضع الذي قد يجد فيه الكثير من أبناء هذا الشعب أنهم قد تعبوا، ويئسوا، وأحبطوا، وطريق الخلاص أمامهم فقط في عزلة عن الطرف الآخر، تتم عن طريق الانفصال.

4. إن أسلوب إدارة الأزمة أو دوامات الكارثة العراقية أمريكيا فيه كثير من الأخطاء التي اعترفوا هم بوجود بعضها، ولم يعترفوا بالأخرى، وهي إن لم تُصحَح سيشكل وجودها خطورة على مستقبل العراق تتمثل بالتدهور المحتمل اتساع حصوله إلى الحد الذي يمكن أن يمهد إلى امتداد تأثيراته إقليميا، ودوليا تفقد أمريكا السيطرة عليه.

5. إن الكارثـــة العراقية احتلت فسحة واسعة في العقل الأمريكي بات المعارضون للحكومة الأمريكية الحالية يستغلونها عامل ضغط، وتأثير على الحزب الحاكم، وعلى الاستعداد للانتخابات المقبلة، فوضعوا باستغلالهم هذا بعض العراقيل في التعامل مع حلولها، وهذه خطورة على مستقبل هذه الكارثة تأتي من تعقيدات حلها أمريكيا.
6. إن الوجود الأمريكي في العراق أصبح مشكلة "دوامة" متعددة الأوجه للعراقيين الـــذين انقـــسموا في نظـــرتهم إليه بين مؤيد، ومتحفظ، ورافض بالسياسة، والكلام، ومستخدم للسلاح بالضد منه، ومن الأجهزة العسكرية، والحكومية العـــراقية الداعمة له. ومشكلة أيضاً للعرب، والمسلمين المحيطين، والقريبين من العراق بعد تحسسهم من الوجود الأمريكي عامل ضغط، وتأثير. ومشكلة من وجهـــة النظـــر التعبوية إذ إنّ البقاء العسكري للمحتل فترة أطول يثير التوتر، والقلـــق، واستمرار القتال، والانسحاب المبكر له من الساحة في ظروف عدم الاستقرار سيفسح المجال إلى المزيد من الاقتتال لملء الفراغ، ورغبة في الحصول على المكاسب ومد النفوذ، وخطورته تتمثل في جعل دول الجوار أكثر ميلا إلى الـــتدخل ربما المباشر لدعم أحد الأطراف الذي يسمح بانتقال شكل الصراع المسلح إلى الساحة المحيطة بالعراق وربما ابعد منها بكثير.
7. إن الحـــل أو خطورة الحل حتى وقتنا الحاضر تتمثل برهنه في الجانب الأمريكي الـــذي ما زال يمسك ببعض الأوراق القوية التأثير، والضغط على الدول التي تغذي الصراع، والاضطراب في العراق، وفي المناورة السياسية في التعامل معهم خاصـــة سوريا، وإيران، والأخرى الداخلية إذ يحتفظون حتى الآن بقوة ردع، وتـــأثير يحـــسب العمـــوم من العراقيين حسابها، ويحتفظون بعلاقات قوية مع الأكراد تسمح لهم بالتأثير عليهم، وعلى بعض الأحزاب الشيعية، والسنية على حد سواء، ولهم قدرة عسكرية قوية يمكن استخدامها لأغراض الردع النفسي باقتدار.

ومـــا تبقى للحكومة فيما يتعلق بالحلول المتاحة لا يمكن أن يتحقق بعيدا عن الأمريكان، وعلى هذا الأساس يمكن القول إن الكرة ما زالت في الملعب الأمريكي،

وإن الحـــل مرهون بتحركهم السريع، والحاسم بمعالجة بعض المصاعب، والخلافات البينـــية الـــتي ستقلل بالمحصلة من أوجه الاحتقان خاصة إذا ما تم النظر إلى طبيعة الصراع الجاري، وشكل الاحتقان الطائفي، وطبيعة الشخصية العراقية التي أسقطت جمـــيعها أو قللـــت من احتمال نجاح خيار الحل داخليا[1] بين الأطراف الرئيسية الـــثلاثة، ودفعته نحو الخارج الذي يحتاج فيه العراق إلى طرف محايد قوي يتدخل لـــيس بأســـلوب النصح، وتقديم الاستشارة بل وفرض الحلول، ولو بالقوة إذا ما تطلب الموقف ذلك.

وفي هذا المجال يمكن القول إنّ بإمكان أمريكا المناورة داخليا، وخارجيا للقيام بـــذلك رغـــم خطـــورة تأثيراته الجانبية على العراق حاضرا ومستقبلا فيما يتعلق بالسيادة، والعلاقات مع الدول العربية والإسلامية، لكنه ربما يكون الخيار الوحيد، والأخطر الذي يسهم في تجنب آثار الكارثة التي تعصف بالبلاد.

---

(1) لو تم الافتراض بإمكانية فرض الحل عراقيا، سيعتمد عمليا على القوة العسكرية، وفي جانبها مـــازال التـــسليح، والتجهيز، وحجم القوات المطلوبة يعتمد على الموافقة، والدعم الأمريكي، وإذا مـــا كـــان الحـــل يعتمد في بعض جوانبه على العوامل الاقتصادية فإن تحسين الوضع المعيـــشي، ورفع القدرة الشرائية للدينار العراقي، وتقليل حجم الديون، وإنشاء المشاريع التي تقلل من البطالة تأتي من الطرف الأمريكي أو تعتمد على دعمه بالدرجة الأولى، وإذا ما كان الحـــل سياســـيا على مستوى الخارج فإن أوراق الضغط في الوقت الحاضر فقط أمريكية... الخ.

الاستنتاجات

في العراق كارثة سببتها الحرب وأخطاء الأمريكان في إدارة أزمتها، ومع ذلك لا يمكن تجاوز تبعاتها دون الأمريكان أقوى اللاعبين.

إن التغيير الذي حصل في العراق كان محتوما بالحسابات الدولية التي وجدت في ظروفه السياسية، والاقتصادية بين الأعوام 1990 - 2003 وضعا دوليا، فيه العراق شبه معزول عن العالم، وغير مؤثر في قضاياه.

وإقليميا فيه النفرة من العراق أو حكومته، والرغبة في عزلها، وعزله موجودة إلى حد التجاهل شبه العمدي لوجوده.

وعربيا يجاهد فيه إلى أن يقلل تأثيرات العزل الموجود فعلا إلا من قليل من الدول التي لا تمتلك القدرة على كسر طوق العزلة.

وهذا وضع وجدت فيه أمريكا فرصاً جيدة للتحرك، وجمع الحلفاء للقيام بفعل التغيير باستخدام القوة بأقل ما يمكن من المعارضة الفاعلة في ظل نظام دولي أسست لأن تكون فيه القطب الواحد.

وداخليا قلقا فيه المعارضة للحكم تشتد وتقوى على الصعيدين:

1. الإعلامي الخارجي الذي فُتحت له منافذ لم تستطع الحكومة آنذاك من التشويش عليها، ولا منع المواطنين من متابعتها، ولا تمتلك القدرة على الرد بوسائل إقناع منطقية، حتى وصل تأثيرها إلى مستوى قريب من التحكم، وتوجيه الكثير من الاستجابات التي تحدد الموقف من الحكومة نفسيا.
2. النفسي الداخلي الذي كون مللا، وإعياء، وحالات ضجر، ومقت، وضعف أداء، وقلة إخلاص، وتفشي فساد قَرَّبَ أن يسقط النظام من داخله.

وهـــذا وضع أسست عليه أمريكا أيضاً في خلق قاعدة قبول شعبي للتغيير تعد بمشاعر عام 2003 مقبولة.

لـــذا لم تكن للأمريكان، والدول التي تحالفت معها مشكلة تتعلق بالحصول علـــى تفويض دولي بالحرب، ولا موافقة داخلية على إحداث فعل التغيير، فشنت الحـــرب، وغـــيرت بـــسهولة النظام القائم على سلطة القبيلة "الأب نفسيا" دون التحـــسب المـــسبق لإيجاد سلطة بديلة بنفس قوة التأثير، والضبط أو قريبا منها، فتـــسببت في أكثـــر من مشكلة في مجال التعامل مع مرحلة ما بعد التغيير إداريا، وعـــسكريا، ونفسيا، وسياسيا سبق وأن تم تفصيل العديد منها كونت وضعا أمنيا مـــضطربا، واجتماعـــيا مفككا جعل العراق الدولة الأكثر اضطرابا في العالم، فيه المـــسؤولية عن هذا الاضطراب موزعة بين العراقيين، وحكومتهم من جهة، وبين الجوار، والأمريكان من جهة أخرى، وفي مجالها يتبين.

أن الأمريكان المسؤولين بحكم القانون الدولي عن إدارة العراق قد أخطأوا في إدارتهم هذه بأكثر من مجال، وزادوا بخطئهم من حجم الكارثة.

وكانـــت من بين أولى أخطائهم التنظيمية التي حيرت المتابعين من العراقيين، وغـــير العراقيين بالإضافة إلى تلك التي وردت في فصول هذا الكتاب هي توجههم بعـــد حل الأجهزة الأمنية إلى إنشاء أخرى بدلا منها قبلوا فيها آلاف الجناة المطلق سراحهم من سجون النظام السابق، والشقاة، وغير المؤهلين في قوات الشرطة التي أريـــد لها أن تقف في الشارع بدلا من الدبابة الأمريكية، وناقلة الأشخاص المدرعة التي لا ينفع وقوفها هناك، وأن تبت في مشاكل الناس ودعاويهم، وشكاويهم التي عجـــزوا عـــن الـــبت بها، وأن تبسط الأمن الذي أدركوا صعوبة بسطه فأسسوا بتوجههم هذا أول بادرة خرق أمني أسهمت في وجود الاضطراب.

وعـــندما خططـــوا مع عراقيين ينتمون إلى المعارضة، وضباط من الداخل لإعـــادة تشكيل وحدات عسكرية "الجيش الجديد" شرعوا بتشكيلها بطريقة لم تمكنها من:

1. التفوق في ساحة قتال داخلية تحتاج إلى تأهيل نفسي، وضبط عال، ومعنويات جيدة، وإلى سيل لا ينضب من المعلومات.

2. تـأمين الـردع النفـسي اللازم للحيلولة دون قيام الخصم شبه المجهول من الإرهابيين، ورجال المقاومة بأعمالهم في الميدان.
3. الوقوف على الحياد الانفعالي في التعامل مع الأهداف الموجودة في ساحة قتال بدأت تتحدد الأطراف المشاركة فيها على أسس طائفية.

وهذه بطبيعتها أضافت عوامل تأثير سلبي أخرى وضاعفت من شدة التأثير.

إن طـريقة التـشكيل في جـانبي الشرطة، والجيش وعلى الرغم من حشد الأمريكان جهدا فنيا كبيرا، ودعما ماليا كثيرا لتعزيزهما لكنهما كانت:

1. بطيـئة تـتحدد بأعـداد يقررها المستشار الأمريكي، وبالشؤون الإدارية غير المكـتملة، وبعدد القادة من ضباط الشرطة، والجيش المطلوب تهيئتهم، وبكم المعدات والتجهيزات اللازمة لعملهم.
2. غـير مناسبة فنيا لما يحدث في الشارع من تحدٍ ناتج عن الميل للتمرد، والانتقام وأخـذ الـثأر، والكسب السريع غير المشروع، ونفسيا لما يفترض أن يكون موجودا في داخلهم من ولاء، وميل للعمل المهني، وتفضيل للمصلحة العامة.

وبـسبب ذلـك أصبحت مراكز الشرطة الجديدة، وكذلك الدوريات التي يـشارك فيها العديد من الجناة غير كافية في بداية الأمر للرد على الخطأ والتجاوز، وبعد أن تعودت التكاسل في استعراض الرد بعد حدوث الخطأ باتت غير مستعدة لتنفـيذ الأوامر الصادرة، ومن بعدها بالتدريج توجهت إلى أن تكون بعض المراكز ومنتـسبيها مـن الضباط، والشرطة أطرافاً للتخطيط، والتنفيذ المنظم لجرائم بحق الدولة، والآخرين من العراقيين.

إن طريقة التعامل مع الخطأ، والتجاوز على الأمن من قبل إدارة الاحتلال بعد 2004 ولغايـة تـسليم الـسلطة إلى العراقيين، ومن بعدها بقليل كانت تعتمد في الغالب على:

1. تنفـيذ بعـض العمليات الخاصة على انفراد وبالتعاون أحيانا مع قوات عراقية كانت نتائج بعضها سلبية من الناحية النفسية إذ عززت من قناعة عند العديد من العراقيين قوامها أن طبيعة تلك العمليات تتعلق بالإرهاب الذي يشارك فيه الاحـتلال لأغراضـه الخاصـة، وفـسحت المجال للإرهابيين، والمناوئين من

المسلحين، والسياسيين إلى اعتماد مفرداته في تحميل المحتل كل تبعات الخطأ، وتشويه صورته في العقل الجمعي.

2. تقديم الدعم والإسناد البري، والجوي، والاستخباري للقوات العراقية عند تنفيذها بعض المهام، وهو دعم قد يتأخر أحيانا للمصاعب الفنية في التنسيق والاتصال، ولاختلاف قواعد الاشتباك بين الطرفين في بعض الأحيان.

3. تقديم المشورة الفنية في قضايا التنظيم، والأمن، والتدريب، من خلال مجموعة مستشارين يسألونَ ويدونون في دفاترهم الخاصة في غالب الأحيان، أكثر مما يُسألون، وفي حال الاستفسار منهم في قليل من الأحيان يجيبون تبعا لخبرتهم الأمريكية المتقدمة التي لا تقارن بالخبرة العراقية القديمة بأية حال من الأحوال.

كما إن المستشارين وإن اجتهد بعضهم لتقديم المطلوب من الخبرة، والنصيحة يصطدم ما يقدمونه بالتوجهات المضادة، وصعوبات التطبيق في البيئة العراقية فتكون عبئاً على المسؤول وإعاقة في عمله في بعض الأحيان، وفي هذا المجال هناك أمثلة كثيرة في عدة وزارات منها على سبيل المثال ما يتعلق بوزارة الداخلية التي قدم لها المستشارون الأمريكان تنظيما مقترحا بشكل مفصل فيه أقسام ومديريات لديوان الوزارة في شهر نيسان 2004 بعد مناقشة مع البعض تم عرضه أمام الوزير والوكلاء، وشرعت الوزارة بتطبيقه، وبعد فترة لا تزيد عن الشهرين أي عند تبديل الوزير بدء التحوير في تفاصيل التنظيم يسري تدريجيا حتى تغير تماما بعد ما يقارب السنة من ذلك التاريخ، فأصبح تنظيما يختلف تماما عن التنظيم الذي قدمه المستشارون، وبات عملهم في هذا المجال مجرد تبذير للجهد، والوقت لا يتحملون تبعاته، والمشكلة أن التنظيم الذي تحور وأقر قد تبدل مع الوزير الثالث ليصبح بصيغة تجمع بين التنظيمات العسكرية السابقة في وزارة الدفاع، والداخلية القديمة وبعض من الخبرة الأمريكية ولو بالتسميات.

كان للأمريكان بطبيعة الحال أهداف من احتلالهم العراق، وتغيير نظام الحكم اعترفوا بقسم منها، وأقر العراقيون بوجودها، وقبل بعضهم بالمعلن منها على أساس التأمين المفروض للمصالح المشتركة، لكنهم فشلوا في تحقيق القريب"المعلن" منها بسبب سياستهم الخطأ، والإصرار على الاستمرار بالخطأ، عليه أصبح من الضرورة

لمصالحهم، وحلفائهم، والعراقيين تغيير هذه السياسة خطوة أولى باتجاه ضمان تحقيق تلك الأهداف، وان تتحمل المسؤولية الأدبية خطوة ثانية لإيقاف التدهور الحاصل، وإنقـــاذ وحدة العراق، ونظامه السياسي، ومساعدة دولته في الوقوف على أرضية صـــلبة قبل التفكير بانسحاب تضغط قوى داخلية لتحقيقه في القريب العاجل وفي الفتـــرة الـــتي يتخـــبط فيها المجتمع العراقي حد الاقتراب من حافات حرب أهلية مستمرة في تدمير ما تبقى من البلاد، يمكن أن تمتد إلى الجوار الإقليمي لتشعل حربا إقليمية وربما دولية يصعب التكهن بنتائجها، وكذلك السيطرة عليها بما متيسر من إمكانات، وهامش تحرك.

إن إدارة البلاد من قبل المحتل أوجدت أساليب للتوافق، والمحاصصة لم تشأ أن تتابع سبل تنفيذها فكونت تطبيقاتها غير الصحيحة إلى أن تكون الحكومات المتعاقـــبة جـــزءاً مـــن المشكلة، وليس الطرف المؤهل لحلها، ودفعت إلى وضع الأمريكان في دوامات حيرة منها إذ يتهمونها مرة بالمشاركة في إثارة العنف إلى الحـــد الـــذي لا يعـــتقدون بصلاحيتها لكبح جماحه، ومرة يشيدون بقدراتها، ومـــساعيها الـــتي تستحق الدعم والإسناد، وتسببت في وصول سياسيين سُنة للمـــشاركة في الحكومة ينقصهم دعم السنة لاستمرارهم بالمشاركة، وتعوزهم القـــدرة للتأثير في القوى المسلحة بالضد من الحكومة، وبالنتيجة كونت شعوراً قوامه أن الأمريكان يريدون إسقاط الحكومة، الأمر الذي دفع بها إلى مزيد من التقييد في حركتها من جهة، ومعارضة العديد من محاولات الاندماج والمصالحة التي تفسرها باتجاه إضعاف مقصود يمهد إلى الإسقاط المطلوب من جهة أخرى، وهذه من بين العوامل التي

أضـــعفت أجهزة الدولة، وجعلتها تحت سيطرة المليشيات، والقوى الطائفية والطفيلـــية الـــسياسية التي تشترك جميعها في عملية التدمير، زاد الأمر سوءاً اعتقاد تكـــون عند كثير من العراقيين، خاصة البغداديين بعدم قدرة الدولة على حمايتهم الأمـــر الـــذي دفعهم إلى التوجه إلى المجموعات المسلحة، وإلى القيام ببعض أنواع السلوك التي تبقيهم على قيد الحياة بينها الوقوع في كنف المليشيات، وطلب الحماية من العصابات.

إن أكثـــر الـــدوامات خطرا، وتأثيرا في العراق، ومستقبل وحدته السياسية، والاجتماعية هو العنف الذي انتشر في عموم البلاد الذي تؤشر الوقائع المذكورة في هذا الكتاب، وأخرى كثيرة غيرها أن أمريكا مسؤولة عن بعض جوانبه على الرغم من عدم اعترافها الصريح بهذه المسؤولية، وبمستوياته التي تعكس حقيقة فشل قدرتها العسكرية على فرض الضبط والسيطرة التي توجهت بدلا من الحسم في موضوعها إلى محاولـــة الاحـــتواء بواسطة استعراض القوة التي لا تتوافق مع تطور الصراع في جوانب الوسائل المستخدمة، وطرق الدعم والتمويل، وسبل التنفيذ الميداني.

هـــذا وإن أكثر الأمور تأثيرا في هذا العنف، ومستويات انتشاره تلك العلاقة التي تعتمد على الشد بين الولايات المتحدة، وإيران التي تعتقد في إطارها أن أمريكا تـــتجه إلى إقامـــة نظـــام إقليمي جديد في المنطقة ذي طبيعة عدائية لطهران، وبذا خسرت أمريكا الجهد الإيراني الذي يمكن أن يسايرها لتحقيق أهداف تخدم التقليل من العنف، وتحقيق العيش الآمن للجميع من خلال وجود عراق وإن كان ضعيفا، فإنه موحد لا يشكل تهديدا للجيران.

لقد تصرفت أمريكا في هذا الجانب، وكذلك إيران بضوء النتائج التي توقّعتاها مـــن سياستهما المنفرة، وتطور الأحداث التي يخشون حصولها في عراق ينساق إلى الفوضـــى، والتقسيم، وبضوء هذه الاستنتاجات قدم الطرفان دعما متزايدا لقوى فاعلة في ساحة الحرب العراقية، بدلا من التوجه إلى التهدئة، فبرهنوا بتصرفهم هذا أن ما يقومون به الآن هو الذي سيعجل بحدوث ما يخشون حدوثه، ويودون تجنب حدوثه.

لقـــد أثبـــتت السنوات الأربع الماضية أن هناك الكثير من اللاعبين الدوليين، والإقليمـــيين في الـــساحة العـــراقية والذين هم مسؤولون أو يتحملون جزءاً من المسؤولية، كل لاعب منهم له لاعبون أساسيون في داخلها، يلعبون بالنيابة، يعتقد بضرورة دعمهم باستمرار، بينهم:

1. إيـــران الـــتي وجدت لاعبين أو مريدين من بين الشيعة شعرت بسبب موقف الأمريكان أن مصالحها في خطر، وعلى أساس هذا الشعور، وحدودها الطويلة المـــشتركة مـــع العـــراق، وبقايا المشاكل الموروثة معه من السابق، وأهدافها

الاســـتراتيجية بـــدأت تتحـــرك في أكثـــر من اتجاه لتقوية حلفائها، ومدهم بمستلزمات البقاء، والتأثير، لتجنب أذى الأمريكان من خلال إلحاق الأذى بهم جهد الإمكان، ولتنفيذ هذا الهدف يعتقد الكثير من المتابعين، وحتى الأمريكان أن إيـــران تمـــتلك في الـــوقت الحاضر شبكة منظمة جيدا من المقرات الآمنة، ومخازن أسلحة أو مخابئ لها، وقنوات اتصال، ووكلاء في أكثر من مجال داخل العـــراق يمكـــنهم العمل بكفاءة واقتدار في حالة التوسع في الحرب الأهلية أو اندلاعها بشكل واسع بهدف الدفاع عن مصالحها الاستراتيجية(49).

2. الـــدول العـــربية المحيطة التي وجدت أيضاً تابعين من السنة، والشيعة على حد ســـواء مـــثل سوريا التي لم تكن بعيدة ولا يمكن أن تكون بعيدة عن شظايا الحرب، والتهديدات الأمريكية بشمول مجتمعها بالتغيير الذي دفعها أن تكون طـــرفا في ساحة الصراع، وهي التي تمتلك أوراقاً قابلة للاستخدام في الساحة تتعلق بالحدود، والبعثيين المقيمين على أراضيها، والجغرافية المناسبة للوصول إلى أرض المعركة داخل العراق.

وكذلك الحال بالنسبة إلى المملكة العربية السعودية التي تتحسس النفوذ الإيراني علـــى جنوب العراق الغني بالنفط، والزراعة، والمنفذ الوحيد له على الخليج، واحـــتمالات امتدادات تأثيره على الشيعة الموجودين في المنطقة الشرقية فيها، والتـــزاماتها الأدبـــية مع السنة في العراق أدى إلى وجودها قريبا من الساحة، متهيـــئة لدخـــولها بقـــوة أكثـــر في الوقت الذي تعتقده ملائما لدعم السنة، والوقوف بالضد من إيران في ساحة العراق التي يقاتل فيها الكثيرون بالنيابة.

3. تركيا التي تدعم وترعى التركمان العراقيين فإنها وإن أبقت تدخلها مستورا في الشمال العراقي "كردستان" وفيما يتعلق بكركوك، فإنها البلد الأكثر احتمالاً للتدخل العلني، والمؤثر لأن القادة الأتراك يخشون من امتداد الصراع، وعدوى المطالبة بالاستقلال إلى أكرادهم، ويخشون أيضاً من أن يصبح العراق ملاذا آمنا لحزب العمال الكردستاني الذي يحارب من أجل الحقوق القومية للأكراد.

4. إســـرائيل التي تشير الأحداث الدائرة في العراق وجودها استخباريا وأقل منه تجاريـــا عـــن طـــريق بعض الشركات الغربية المشتركة، وكذلك التحركات

الدبلوماسية التي تؤكد رغبتها في البقاء قريبة ضمن اللاعبين الأساسيين في الساحة إلى المستوى الذي باتت تقترح، وتضغط على الأمريكان لإيجاد تحالف هي فيه مع الدول العربية السنية ضد إيران مما زاد من القلق الإيراني واتجاهات التدخل للحيلولة دون حصوله.

إن التحركات الخاصة بإيجاد تحالفات جديدة في المنطقة أوجدت مصادر مضافة لتغذية الصراع، وتعقيده تنبئ باتساع رقعة الاحتراب لتشمل عموم المنطقة يقاتل فيها العراقيون بعضهم البعض بالنيابة عن أطراف من الإقليم، وهذا حال إذا ما تحقق بشدة، وسعة أكبر مما يجري الآن سيواجه عندها الأمريكان الطرف الأقوى في ساحة القتال صعوبات في إدامة المعركة مع أحد أطرافها أي الإيرانيين الذين لا يقلون قوةً، وتأثيرا عنهم "الأمريكان" إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن خبرة أربع سنوات من القتال، وهامش التدخل الموجود أظهر أن إيران تتمتع بتفوق ميداني مع مؤيدين لها داخل البلاد، وهو تفوق يقوى يوما بعد آخر في الوقت الذي يخسر فيه الأمريكان نقاطاً من قوتهم، ومن التأييد الخاص بوجودهم، ودورهم في محاربة الإرهاب يوماً بعد آخر أيضا، وعلى هذا الأساس ومن مجريات الأحداث يمكن القول:

1. إن الموقف الأمريكي، وكذلك موقف الدول المجاورة دفع إلى أقلمة الاحتراب، والصراع الطائفي في العراق بمستوى قد يتسبب بتفتت الكتل الاجتماعية الرئيسية الثلاث "الأكراد، والعرب السنة، والعرب الشيعة" إلى مجاميع فرعية أخرى ستحصل هي الأخرى على دعم من الإقليم، وستتسبب في مزيد من التشظي، والتعقيد.
2. إن أمريكا في الوقت الحاضر في موقف حرج يتطلب حصولها فيه على مساعدة الخارج بدرجة واسعة النطاق من الأصدقاء، والأعداء على حد سواء، وهذا واقع حال يزيد من ارتباكها في التعامل مع موضوع العراق، والمنطقة التي يُعتَقَد أن الحل في جميعها بات مترابطا، والقسم الأكبر منه في جعبة الأمريكان.
3. إن موقف الحاجة إلى المساعدة الخارجية سيرغم أمريكا ولو بعد حين على إعطاء اللاعبين المذكورين في الإقليم دورا فاعلا في رسم السياسة الأمريكية في

العــراق، قد يفسّره الأخيرون ضعفا أو خسارة لا تدفعهم إلى تقديمها في محيط حرب تؤشر الوقائع احتمالات الخسارة فيها بقدر لا يستهان به.

4. إن موقــف الحاجة المذكور فيما سبق يحتم أيضاً عدم الاعتماد في الداخل على الــسياسيين العراقيين القادمين من الخارج أي المعارضين السابقين، والذين لا يمــتلكون الخــبرات، والمعلومات، والمؤهلات الكافية لتنفيذ تبعات الاعتماد، وتوســيع هامش الاعتماد ليشمل بسعة أكبر لاعبين جدد من السياسيين ذوي العلاقــة بالــنظام السابق في الداخل، وهذا سيضيف عوامل تأثير أخرى على السياسة، والقرارات.

إن الموقــف الأمريكــي في الوقت الراهن يبدو غير عملي ومتسماً بقدر من العــناد إذ وعلــى الرغم من اتجاهات الدراسة، والبحث التي كلفت بها لجان من الكونغرس، ومراكز البحوث، واقتراح معظمها عدم إبعاد سوريا، وإيران"اللاعبين الرئيــسيين" عن أطر الحل المطلوب لأزمة العراق، لكن إدارة بوش الحالية حددت مطالب من سوريا، وإيران غير مقبولة ولا يمكن أن تكون مقبولة من قبلهما:

فبالنــسبة إلى ســوريا لا يمكنها مثلا قطع العلاقة الاستراتيجية مع حركة حماس، وحزب الله كما تريد أمريكا لأنها تعتبر العلاقة معهما من أوراقها المهمة في التعامل مع موضوع الصراع غير المتوازن مع إسرائيل، كما إنها غير مستعدة للتفــريط بــتحالفها مع إيران حسبما ترغب أمريكا لأنها تعتقد أن مثل هكذا تحالف يقوي أو يزيد من أوراقها الموجودة في الصراع المذكور، وهي كذلك لا يمكــن أن تسمح بأن يدار لبنان من إدارة موالية للأمريكان تشكل قاعدة تهديد لأمنهما القومي، وعموما فإن السوريين الذين يقفون بالضد تماما من الاحتقان الطائفــي، والاحتراب الجاري في العراق، ويقرون بالخطر الكبير الذي يمكن أن يــنجم عــن الحــرب الأهلية في حال حدوثها بالمعنى الدقيق لمعناها السياسي والاجتماعــي، وباحــتمالات تأثيرهــا على استقرارهم، فإن جهودهم منطقيا تنــصب علــى حماية بلادهم من التهديدات الأمريكية التي يُلَوَحُ بها باستمرار بدرجــة تفوق كثيرا الجهود التي يطلب منهم بذلها للحيلولة دون حدوث تلك الحرب الأهلية.

أمـــا إيـــران فالأمـــر واضح بالنسبة لها إذ يصعب أن تتخلى عن برنامجها الـــنووي لتخـــصيب اليورانيوم كما يريد الغرب والأمريكان، ويصعب قبولها العـــراق في حضيرة أمريكية على أرضه قواعد عسكرية أمريكية تشكل تهديداً دائماً لأراضيها.

إن التقارب أو التداخل الحاصل في أزمات المنطقة من لبنان، ومن ثم فلسطين، وإيـــران التي تزامنت مع الاحتقان الطائفي في العراق، يهدد بإشعال حرب أساسها طائفـــي في عموم المنطقة، وهذه حقيقة وإن يقرّ باحتمال حصولها جميع الأطراف التي تلعب في ساحتها العراقية من الإقليميين، والدوليين فإن توجه أمريكا في إدارتها علـــى أســـاس المنافـــسة الاستراتيجية بينها وحلفائها العرب من جهة، وطهران، ودمـــشق وحلفائهمـــا من جهة أخرى حال دون قيام الجميع باتخاذ عمل جماعي للحـــيلولة دون حـــدوثها، بعـــد أن وضعتهم في دوامات شد، وجذب تثير آلام الاحـــتقان في حالتها مزيدا من التوتر في عموم المنطقة بطريقة كافية لتغذية حرب أهلية يدمر حدوثها كل المنطقة التي يتوسطها العراق، عليه يمكن القول:

1. إذا لم تغير أمريكا من سياستها، وأسلوب تعاملها، وكذلك الآخرون المشاركون في ســـاحة الاحتـــراب العراقية مع بعضهم البعض فإن احتمالات امتداد هذا الاحتراب إلى عموم المنطقة واردة بقدر كبير، وبدرجة تدمير يصعب تصورها.
2. إن الـــتعامل المبني على التفاهم بين الأطراف الإقليمية كفيل بأن يبقي العراق مـــوحدا، ويجنـــبه محاولات التشظي، والتقسيم، ويقلل من الفترة الزمنية التي سيستغرقها الاحتراب، والتناحر الطائفي الموجود حاليا.
3. إن الحالة في العراق تعد كارثة يصعب إدراك أبعادها، وآثارها، وقياس نتائجها في الـــوقت الحاضر سببها الرئيسي الحرب، والطريقة الأمريكية الخطأ في إدارة أزمـــتها، ومع ذلك فإن المنطق يؤكد أنها كارثة لا يمكن إنقاذ وحدة العراق، واستقرار المنطقة من تبعاتها بدون الأمريكان أقوى اللاعبين.

إن ســـاحة الخطأ التي تداخلت مع ساحة الاحتراب، وأصبحت جزءا منها، ومؤثـــرة فـــيها، ومتأثـــرة بها لم يكن الأمريكان وخدهم المسؤولين عن حصولها، والمـــشاركين في ديمومـــتها، بـــل ومعهـــم العـــراقيون "السياسيون، والمسؤولون

الحكومـــيون" الجهة المقابلة التي أخطأت شعبيا، وسياسيا، ومهنيا، وعززت بكثرة أخطائها من هول الكارثة.

إن العـــراقيين المخدرين بأمل الحياة الأفضل بعد التغيير لم يتصوروا في البداية طبـــيعة أخطاء الاحتلال، و لم يضعوا خططا لكيفية التعامل مع وجوده كحضارة مخـــتلفة، وأهداف بعيدة، و لم تكن غالبيتهم تدرك أبعاد الوجود العربي، والمسلم في الـــبلاد عـــندما صـــفق بعضهم بجد لعسكر الاحتلال، وَقَبِلَ بعضهم الآخر بنفس مـــستوى الجدية لمن قدم من خارج الحدود لغرض القتال مع صدام حسين ضيوفا لتجنيبهم احتمالات القتل، والأسر بعد وضوح نتائج المعركة في 2003/4/9 حيث فتحت لهم أبواب الكثير من البيوت العراقية في بغداد ومدن العراق الأخرى، أعادوا بضيافتهم هذه تنظيم أنفسهم، وأسسوا علاقات، واتصالات، وقواعد عملت أولا علـــى إيجـــاد مشاعر خسارة من التغيير بين البعض من العراقيين في المنطقة الغربية المحاذية لمنافذ الحدود الرئيسية دفعت الكثير منهم إلى ترجيح كفة المقاومة، والقتال بالضد من الاحتلال مصدر التغيير، ومن أجهزة الحكومة ورموزها الداعمين له من وجهـــة نظـــرهم، وهو ترجيح ساعد على قبول المزيد من الوافدين الجدد في هذا المجـــتمع حتى كثرت أعدادهم فشكلوا قواعد حاول البعض من المعارضين لصيغة الحكـــم الجديد، والشاعرين بالخسارة أكثر من غيرهم في هذه المنطقة التي يتصف أهلها أساسا باحترام الضيف وإكرامه باستغلال هذا الوجود المسلح للقتال بالضد مـــن الاحـــتلال، وقـــوات الحكومة سعيا منهم لإفشال أية مخططات لم تضعهم بالاعتبار أو تعويض الخسارة النفسية بإحداث أكبر قدر من الخسائر بالخصم، لكن الأمر لم يسر حسب النوايا والرغبات النفسية، إذ وبعد أن قويت القواعد المسلحة لهؤلاء الوافدين، وزاد نفوذها بالمنطقة غير المعنيين بها من معادلة الإفادة والاستفادة لصالح وجودهم، عملوا على تسخير أهلها لصالحهم حتى باستخدام القوة في فرض بعض التوجهات، والأعمال تحت قوانين الشريعة، والتطبيقات الإسلامية التي يسهل علـــيهم تعمـــيمها في ظروف القتال، والتوتر فأدخلوا بالمحصلة النهائية المنطقة في عمـــومها ضمن دائرة العصيان، بل ومدوا منها أو وسعوا محيطها إلى مناطق أخرى قربتهم من بغداد حتى دخلوها بقوة نهاية عام 2004 وبداية العام الذي يليه.

وفي الجانب العراقي كان أكثر المشاركين في ساحة الخطأ التي كونت دوامات الاضطراب هم السياسيين الجدد حتى رد الاختصاصيون، والمتابعون حالته إلى الخلافات الموجودة بينهم أكثر من ردها إلى الاحتلال، والعوامل الخارجية وقد يكون جزء كبير من هذا الرد صحيحا إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار افتقار العديد منهم إلى مستلزمات النجاح ذات الصلة بالنضج السياسي الذي يصل عند غالبيتهم إلى مستوى لا يعينهم على إدراك طبيعة الخطر الذي يهدد عملهم السياسي كجزء من خطوات الانتقال، وإعادة البناء الديمقراطي للبلاد، وكذلك الافتقار إلى الكياسة المعهودة لرجل الدولة في تعامله مع موظفيه وضيوفه وخبرائه ومستشاريه، إذ لو عدنا على سبيل المثال بالزمن إلى السنة الأولى والثانية للاحتلال والقينا نظرة على سلوك التعامل لبعض الوزراء والسياسيين مع الأجنبي نجد أن الأمريكي الخبير أو المستشار وإن كان بدرجة وظيفية وتأهيل يضعه في سلم الدرجات الوسطى يحظى بتفضيل واحترام يفوق ما يحظاه العراقي الذي يفوقه بالدرجة والخبرة والعمر الأمر الذي انعكس على سبل تنفيذ العراقيين لكثير من الأوامر والطلبات، وزاد من عدوانية البعض منهم على الأمريكان.

والافتقار أيضاً إلى الخبرة اللازمة لإدارة العمل المهني التخصصي إذ وبعد أن أفرزت عملية التغيير، ومستلزمات الديمقراطية على سبيل المثال توجهات إلى أن يدير المدنيون وزارتي الدفاع والداخلية وهي توجهات لم تكن خطأ في واقع الحال إلا إن الخطأ كان في سياقات التطبيق، وأسلوب الإدارة إذ وبعد استيزار مدني لوزارة الدفاع يفترض أن يكون معنيا بالسياسة العامة للوزارة، وبإدارتها بما ينسجم والمتطلبات التي تحددها رئاسة الوزراء، وظروف البلد السياسية، وأن يترك للقيادات الميدانية حرية تنفيذ أوامر السياسة في فرض الأمن، والاستقرار فإن أحد الوزراء "مدني" لم يكتف بالتدخل في العمل التعبوي، والتكلم بمصطلحات عسكرية خطأ أمام الجنود لكنه منح رتبة ضابط إلى عديد من الجنود، وأمر بتشكيل دوائر، ومنظومات استخبارات غير منطقية، ونصّب شيخ عشيرة ليدير إحدى تلك المنظومات من مضيفه جنب الدار.

إن خطـأ الإدارة، وسوء التقدير لم يكن حكرا على بعض جوانب الإدارة في وزارتي الـدفاع والداخلـية فهناك تجاوزات من نوع آخر في وزارات أخرى مثل الصحة تصب أو تلتقي مع آفة التجهيل التي يشتكي منها العراقيون، ويسألون عن جـذورها، ودوافعها سبق وإن استخدمها البعثيون وأطلق على تطبيقاتها التبعيث عندما احتكروا كل مفاصل الإدارة، والقرار المهمة في الدولة، والمجتمع وزحفوا إلى مـستوى الطلبة في الدراسة المتوسطة اعتقادا منهم بأهمية تكوين أجيال تؤمن بفكر الـبعث، وتسير على خطاه في رسم مستقبل العراق والأمة العربية، فكانت سياسة للتبعيث أطالت بعمره في العراق قليلا، وأسهمت مع غيرها في تدميره نهاية المطاف، واسـتخدمتها أحزاب وكتل في العهد الجديد بما يفوق استخدامات البعث لم تكن تـتعلق بحزب واحد ليتسنى تسميها باسمه أو وصفها بالتسييس، وإن كانت قريبة منه، ولا بكتلة دينية واحدة شيعية كانت أو سنية حتى توصف بالتشيع أو التسنن إنها طريقة استخدمتها الغالبية، وتستخدمها حتى الوقت الراهن عندما تشعر بوجود فرصـة للاسـتخدام يمكن أن توصف تحت اصطلاح التوليف، أسلوب فيه إزاحة للغـير، وتحـريف لقـواعد الغير، وإرساء قواعد لهم تتسع تدريجيا للسيطرة على الإقطاعـية أي الوزارة والمؤسسة التي باتت ضمن الحصة، وهذه توجهات دفعت المعنـيين بالمستويات القيادية الوسط في تلك الكتل والأحزاب أن يذهبوا بعيدا في إجـراءات التوليف التي تخل بالضوابط الفنية، والمهنية التي يقام على أعمدتها النظام الـصحي أو التعليمي مثل التدرج الطبي في الصحة الذي يُعطى فيه الحق حتى أيام البعثـيين للربع الأول من الأطباء المتخرجين أن يختاروا أماكن عملهم لفترة الإقامة الدورية "كما هو جار في النظام الإنجليزي الذي تأسس عليه النظام العراقي" بهدف إبقـاء حق الاختيار دافعا للتفوق الذي يكون أساسا لنشأة علماء يحتاجهم المجتمع من ناحية، ولإدامة البناء الصحيح للطبيب الذي يتعامل مع البشر من ناحية أخرى، حتى تم تجاوزه بعد التغيير إذ شكلت لجان في الوزارة لا تلتفت إلى معايير الاختيار، ولا إلى الـتفوق والإمكانيات تسأل الأطباء المتخرجين حديثا، والمطلوب توزيعهم على أساس الإقامة الدورية فيما إذا كان لدى الطبيب المطلوب تحديد مكانه شهيد من الحزب (س) أو ينتمي هو إلى الحزب (ص) وإن لم يكن كذلك فليس من حقه

الاختـــيار وإن تخـــرج الأول على دورته، وكأن الشهادة تورث إلى الأبناء وأبناء الإخوة، والأعمام، أو أن للعمل السياسي في الأحزاب التي قاتلت صدام ثمناً ينبغي أن يستثمره الأبناء.

إن الذي يُقابِل اليوم ويضع ضوابط جديدة لا تتناسب ومعنى التدرج الطبي في وزارة الـصحة، والـــذي يُقابِل كذلك في وزارة التعليم العالي على نفس الأسس لاختـــيار الموفدين إلى البعثات، وفي وزارة النقل لاختيار الطيارين المتدربين خارج العـــراق فإن سلوكه هذا وإن كان سعيا منه لتكوين أتباع، ومريدين من الحزب، والطائفة لتوليف قوة نفوذ وتأثير لم يكن بعيدا عن معنى التجاوز على الضوابط التي شكا منها العراقيون بالأمس، ورغبة عارمة في إيجاد موطئ قدم انتهازي هذا اليوم، ومـــع ذلـــك لا يمكن إلقاء اللوم على الانتهازيين الذين ملأوا أماكن الفراغ حول الـــوزراء، والمسؤولين الجدد كما هي عادتهم عبر تاريخ العراق، بل وعلى الوزراء والمـــسؤولين أنفسهم، واللوم الذي ملأ الصحف والمجلات، والفضائيات وإن كان تـــأثيره محـــدودا في المجتمع العراقي بالمقارنة مع المجتمعات الأخرى لكنه مفيد ولو بدرجـــة قلـــيلة للتنبيه، والتحذير الذي يحتاجه الوزراء والمسؤولون خلال مرحلة الانتقال القلقة.

إن الأحـــزاب السياسية التي أعطيت فرصة الحكم باعتبارها قوى فاعلة لملء الفـــراغ الإداري، والأمني "السلطوي" لم تتمكن من السيطرة، وقيادة عملية إعادة البناء بمهنية وحيادية، و لم تتمكن أيضاً من تحقيق التوافق الذي يعطي انطباعاً بوحدة الهـــدف، والمصير للجمهور المشتت، فأسهمت من حيث لا تدري في زيادة هوة التـــشتت، والفرقة، والاحتقان، وتفاقم الخلافات السياسية بعد أن سعدت بأوامر ســـلطة الاحتلال بتوزيع المناصب، والمهام السياسية حسب الهوية الطائفية والعرقية على أساس المحاصصة حتى جعلتها علامات رئيسية لتحالفاتها السياسية تفوق كثيرا استحقاقات المشاعر الوطنية.

إن ضعف السياسيين، وانتماءاتهم المذهبية، وفشل بعضهم في تأدية المهام دفع إلى اتكـــاء البعض منهم على الدين، والطائفة لكسب تعاطف الجمهور، وبالمحصلة أُقحِـــمَ الدين في العمل السياسي وتدخل برؤى طائفية للبت، والدعم، والتشجيع،

والإيحـــاء أظهر بغياب فعل السياسة تطرفاً فيما بين الكتلتين الرئيسيتين "الشيعية، والـــسنية" علـــى حساب القوى القادرة على التفكير بحيادية، وعلى هذا الأساس أصـــبحت غالبية الأحزاب، والحركات السياسية العراقية المشاركة في السلطة، عدا الكردية تستند في تحركها ضمن الدولة ليس فقط على المفهوم العام للسنة، والشيعة بـــل والـــذهاب بعيدا إلى الأمام إلى مليشيا الطائفة للارتكاز عليها في القوة ومد النفوذ، وبذا شكلوا معا دائرة للعنف أساسها الانتقام من أبناء السنة، والشيعة على حـــد سواء، ومع هذا الاتكاء الواضح لبعض السياسيين على الدين لم يثبتوا على أرض الواقع قدرة على التمسك بمتطلبات الدين إذ إنّهم مثلا لم يلتزموا بإعلان مكة للسلام ذي النقاط العشر الذي وقّعَ من قبل علماء دين شيعة، وسنة في 20 تشرين الأول 2006، كما إن الكثير من السياسيين الشيعة الذين فازوا بعضوية البرلمان على قائمـــة الائـــتلاف العراقي الموحد لم يصغوا إلى طلب آية الله السيستاني بالبقاء في البرلمان، وترك المناصب الوزارية للفنيين.

وســـط هذا التناقض والمساومات ودوامات شد الحبل لم تتوقف الأحزاب، والحـــركات الـــسياسية المـــشاركة في الحكم بمشاريعها وامتداداتها لتكوين أشبه بالكانتونات أو الإقطاعيات الطائفية، في الوزارات، والمؤسسات التي أصبحت من حصتها.

يسلك فيها جميع المنتسبين ويقلدون الأعلى.

ويـــضعون معـــايير الاختيار، والتصنيف الخاص بالتوظيف في مجالها لما يتعلق بالانتماء إلى الحزب أي الطائفة، والولاء لمبادئه قبل الوطن.

إن هـــذا الـــنفس في الـــسيطرة والاستحواذ والتقسيم المتوافق عليه للثروة، والـــسلطة مهد إلى عملية تسييس واسعة للوزارات كبدت العراق خسائر كبيرة لم يدرك أبعادها السياسيون إذ إن العملية الأمنية على سبيل المثال، وبسبب التسييس انحـــرفت في بعـــض الأحيان عن مسارها عندما أصبح بعض أفرادها من الجيش، والـــشرطة أطرافاً في عمليات القتل، والتطهير فخسرت الدولة قوة التأثير، وفرص فـــرض الأمـــن، وملايين الدولارات من بنيتها التحتية التي تخربت، وبسببها توجه للـــتدخل المـــضمد الصحي "السياسي" في شؤون الطبيب الاختصاصي، وموظف

الـــصادرة في شـــؤون الأستاذ الجامعي، فترك الأطباء عياداتهم ومراكزهم، وهاجر الأســـاتذة، والمختصون فخسر المجتمع العراقي ثروة علمية هائلة لا يمكن أن تعوض بمليارات الدولارات، وعشرات من السنين.

لقد عاون السياسيين على ارتكاب الخطأ، والاستمرار بارتكابه شريحة واسعة من أبناء المجتمع العراقي بقلة وعيهم السياسي، والديني، وتقبل العديد منهم الواقع، والمسؤول، وانتخابه لاعتبارات لم يكن بينها ما يتعلق بالكفاءة، والولاء إلى الوطن، ولم يعيـــنوهم على حل أوجه الخلاف في مسائل معقدة، ومصيرية مثل الموقف من الاحـــتلال، وشكل نظام الحكم، والتدخل الممتد لدول الجوار التي كونت بالتكرار حالة التخندق بالضد، والتوجه إلى التكتل بالضد، والبعض الآخر إلى حمل السلاح بالـــضد أيضاً مما زاد من حالة الفوضى، والاحتقان، كذلك لم يعينوا أنفسهم على فهـــم طبـــيعة التغيير، واستحقاقات الحرب، وفعل التغيير بالقوة عندما انقسموا في مـــواقفهم منه على أساس الشعور بالربح والخسارة والسعي للتعويض عن البعض والتوســـيع عند البعض الآخر، مع عدم الاستعداد للتنازل عن المطلوب، وهذا مع غـــياب بـــرامج التوعية المركزية للدولة أدى إلى مد الصراع، وزاد من دوامات أو مستويات الاحتقان القومي، والديني، والطائفي التي تعد المادة الرئيسية للاحتراب، وأقحـــم الدولـــة في دوامة خرق أمني، ونفسي يصعب التخلص منه بطرق تقليدية قوامها:

1. التسييس شبه المنظم للجيش، وقوى الأمن الداخلي.
2. التسلل المليشياتي إلى الأجهزة الأمنية الضابطة.
3. الولاء الحزبي، والطائفي في دوائر، ومؤسسات الدولة على حساب الولاء العام للوطن.
4. التواجد الاستخباري، والعملياتي الأجنبي.
5. التوجه الداخلي لاستقطاب العامل الخارجي في التعامل مع الأزمة.
6. التدخل الواسع للكتل، والأحزاب في شؤون الدولة.
7. الـــدعم، والتدخل الخارجي الفعلي لصالح بعض الكتل والأحزاب، والحركات السياسية، والطوائف المذهبية.

8. المــنح غير القانوني للجنسية العراقية إلى غير العراقيين من المتسللين إلى داخل العراق لأغراض سياسية وأمنية.

إن مستوى الخطأ، والتجاوز قد فاق كل التوقعات، والمشاركة فيه قد اتسعت لتشمل الغالبية العظمى من السياسيين، والمسؤولين الحكوميين، والإصلاح في مجاله بالــغ التعقــيد في ظــل دولة تعد ضعيفة بكل المقاييس بعد أن خرقت أجهزتها المليشيات المسلحة، ونخرت في جسدها الطائفية، وتكونت في محيطها طبقة سياسية تسعى إلى تحقيق مصالحها الفئوية الذاتية الآنية على حساب المصلحة العامة للوطن الأمــر الــذي كــون أسس وقواعد التدمير ونشر الخراب، والهيمنة الطائفية التي أوجدت العنف، والعنف المضاد.

إن أكثــر الأخطاء التي لم تنتبه إلى تأثيراتها الحالية، والمستقبلية كل الحكومات العراقية المتعاقبة هي ما يتعلق بالعسكرية العراقية التي أهينت حد الإذلال، وبمنتسبيها الــذين بيعوا بأسواق السياسة بأبخس الأثمان على الرغم من أنه لا يمكن الجزم على أن عملــيات بيع العسكر وإذلالهم بشكل مخطط ومقصود قد بدأت لأول مرة بعد 2003/4/9 بعــد أن خــسرت الدولة عمليا معركتها مع الحلفاء، وبعد أن دفعت والعــراق ثمــن الخسارة حل الجيش، والسماح لضباطه، ومنتسبيه أن يتوجهوا إلى بــيوتهم عاطلين عن العمل، ساعين إلى العيش بعيدا عن مهنيتهم، وخارج ضوابط رتــبهم، لأن أحداث الاستهانة بهم والدفع لبيع جهدهم عمليا قد بدأت بعد العام 1991 عــندما توجه، وبسبب العوز والحاجة عميد في أحد الصنوف المقاتلة على سبيل المثال إلى أن يعمل سائق تكسي بسيارته التي استلمها مكرمة من قائد الجيش، وســار آخر أن يكون مساعدا لدلال عقارات كان قبل سنوات قليلة جنديا يعمل بإمرته تجاوزا على ضوابط وأعراف الجيش، وقصد ثالث محلا تجاريا وقَبِلَ أن يكون فــيه بائعــا لأدوات لا صلة لها بمعدات الجيش، وهكذا كان الرابع والخامس حتى وصل الرقم الحقيقي إلى آلاف يصعب عدها، فتسجلت في واقع الأمر أول حالات البيع غير المباشر لجهد العسكر، ومسخ لمهنيتهم لم يكن يألفها الجيش العراقي، ولا يقبل بوقائعها في قوانينه السارية، وتأسست في واقع الأمر أيضاً بدايات القبول غير المــشروط لكــل حالات البيع التي وصلت قيم العسكر، وأسرارهم، وتاريخهم،

ورتبهم، ومهنيتهم، وتنظيماهم العسكرية، وفي مجالها حدث في السنوات الأربع التي أعقبت التغيير أن ضابطا برتبة لواء هرول مسرعا ليكون مترجما عند العريف الأجنبي فكانت هرولته بيعا للجهد والرتبة وسط النهار، وتوجه ضابط برتبة فريق ركن في الجيش العراقي لأن يكون وسيطا مرة ومرشدا مرة أخرى، وداعية لتجميع الضباط المتضررين في جمعية خيرية مرة ثالثة، فكان عمله وتنقله الذي لا ينسجم والمناصب العليا التي شغلها أيام حكم البعث وصدام بيعا للقيم العسكرية ومهنيتها، وقبل ضابط برتبة عقيد أن يعمل في الحرس الوطني برتبة نقيب وهو المصنف معلم مشاة من الطراز الأول، فكان قبوله "وإن فسر استجابة لضغوط العيش" بيعا لرتبته العسكرية في سوق لا يرحم القائمون عليه حملة الرتب العسكرية وإن كانوا ممن قاتل صدام، وسمح القائمون على إعادة تنظيم الجيش بعد تحريره من الطغيان بأن يحددوا وصول طائرتي استطلاع استراليتين وتحليقهما في الأجواء العراقية لأغراض المراقبة وجمع المعلومات أن يكون التحليق الأول منتصف شهر أيلول 2004 عيدا لتأسيس القوة الجوية. وإعلانهم هذا في الصحف، وأجهزة الإعلام بيع صريح لتاريخ القوة الجوية العراقية، وانتهاك صريح لوطنيتها والجيش في آن معا، وتوجه ضابط في هندسة الميدان إلى أن يكون خبيرا في مجموعة لزرع الألغام على طريق يسلكه العسكر الجديد، وآخر من الهندسة الآلية الكهربائية لأن يكون عاملا في مجموعة تفخيخ وتفجير السيارات وسط جموع الساعين إلى التطوع في قوى الأمن الداخلي والجيش الجديد، فكان توجههما وباقي التخصصات بيعا لمهنية العسكر، والذي لم يتوقعه وسطاء بيع العسكر وتجار أسواقهم الرائجة أن يصل الحال في آب 2004 إلى قيام جمع من ضباط الركن بمحاولة تشكيل فرقة مدرعة بعيدا عن توجيهات الجيش الجديد ورغبات الدولة القائمة، وبمحاولتهم هذه دعوا ضباطا آخرين وضباط صف ومراتب من العاطلين دون موافقة الأجهزة المختصة، لأن يتجمعوا في شارع الربيع ليبدأوا التسجيل واعدين أنها ستكون فرقة رائدة تقبلها الحكومة، وتقبل أن يكونوا هم قادتها، فتدافع الجياع كعادتهم على الأرصفة المكتظة حتى فرقتهم سيارة مفخخة، فكانت فكرتهم ومساعيهم لاستغفال الدولة، وغفلة الدولة عنهم بيعاً صريحاً لجهد العسكر وخبرتهم في مزاد بخس.

إن عمليات البيع المذكورة أعلاه وغيرها التي بدأت منذ العهد السابق واستمرت في العهد الجديد تعبر أساسا عن تصدع للمعايير القيمية، واضطراب للمشاعر الوطنية، وخرق لجوانب التحصين النفسي والمعنويات، وخطأ كبير إن لم يتم تداركه سيدفع بسببه العراقيون، والدولة ثمنا لم يكن في الحسبان.

إن أسلوب العمل هذا وأعمالاً أخرى للسياسيين تبعدهم عن التفكير بمصالح الوطن، وتقرب الكبار منهم بالتدريج إلى أن يكونوا أغنياء حرب ومن ثم أمراء لها بكتل تحتاج إدامة وجودها إلى دعم ومعونة خارجية فأسهموا من جانبهم في جذب وتشجيع التدخل الإقليمي الراغب أو الساعي إلى التدخل، وزادوا من الاختلاف الذي سوف لن ينتهي إلا بوجود اندماج سياسي متوازن، توافق عليه جميع الأطراف ذات العلاقة، وتكون فيه الميليشيات، وجماعات المقاومة، وتتفاهم في إطاره حول المعاضل التي أبقيت ألغاماً في الجسم السياسي العراقي مثل الفيدرالية، وتوزيع الثروة، وموضوع الاجتثاث، وانسحاب الأمريكان، وكركوك، والدستور، وغيرها.

إن الاندماج السياسي الذي يمكن أن يجنب البلاد المزيد من الخسائر، والآلام يصعب أن يتمه العراقيون بوضعهم الحالي، ويصعب أن يفرضه الأمريكان بأسلوبهم الحالي، إنه يمكن أن يتحقق فقط عن طريق جهد دولي إقليمي يصوغ جملة قرارات مكفول تنفيذها دوليا تتعلق بشكل مقبول بتقاسم السلطة والثروة، وإقامة نظام سياسي فيدرالي فيه المنطقة الكردية كحالة خاصة تتمتع بصلاحيات محددة، وفيها المنطقة العربية مقسمة إلى محافظات تدار لا مركزيا بحدود جغرافية محددة أيضا، وتدار فيها كركوك لفترة مؤقتة لا مركزيا من قبل سلطة محلية للقوميات الثلاث الرئيسية، وما تبقى من الكلدان، والآشوريين على أن ينظر بوضعها الدائم بمساعدة الأمم المتحدة بعد أن تهدأ حدة التناحر، والاحتقان.

إن الحرب التي حدثت، وأدت إلى التغيير قد أسقطت عمليا الدولة أو مزقت أوصالها بعد أن ألغت أجهزة فيها، وعطلت أخرى فأوجدت فراغا سلطويا لم تستطع إعادة تشكيله كما تقتضيه حاجة البلاد، وتفرضه ضرورات النمو وإعادة البناء منطقيا، الأمر الذي شجع أطراف الجريمة، والعنف، والمليشيات، وحراس

السياسيين إلى ملئه، وشجعت بعض السياسيين القادمين من الخارج "المنفى" أي المعارضين للنظام السابق إلى التقدم سريعا بتشجيع، ودعم من إدارة الاحتلال للتعويض وملء الفراغ أيضا، وهم غير مهيئين فنيا، ونفسيا حتى تصرف البعض منهم وكأن الدوائر والمؤسسات التي يديرونها، ومواردها المالية مملوكة لهم أو لأحزابهم، وليس لوطن كبير اسمه العراق، فتعودوا، وتشجعوا، وشجعوا روح الانفصال في الرأي والقرار، ووجدوا فيه منفعة سحبت بعضهم أحيانا إلى طرح مشاريع الانعزال عن مناطق التوتر، تقترب أو تمهد للتقسيم، وشجعت الآخرين من حولهم على تجاوز العتبة الفارقة فيما يتعلق بوحدة البلاد حتى طرح البعض أفكاراً عن أمم شبه مستقلة مثل الآشوريين الذين طالب بعضهم بهوية لهم في الموصل، والبعض دعا إلى تسمية إقليم الجنوب ب (سومر) في سعي لاستنهاض حضارة قديمة في المنطقة على حساب حضارة ووحدة العراق الحديثة، وارتأى البعض أن تكون للسنة هويتهم، وكذلك باقي الأقوام، والأقليات على حساب هوية العراق كبلد حاضن للجميع.

إنها مساعي انفصال نفسي أو توجه لتكوين هوية مجتزأة يراد في مجالها أن تكون للأكراد في كردستان هويتهم، وللشيعة في سومر هويتهم، وللسنة في مثلث الجزيرة هويتهم، وكذلك للتركمان، والآشوريين، والكلدان والآخرين هويتهم.

إن مثل هذه المساعي قد تكون مرتبطة بجوانب الملل، والإعياء، والفشل في تقديم الحلول الملائمة للخروج من دوامات الأزمة، وبقاؤها في العقل العراقي يمكن أن يكون مؤقتا يستمر عدة سنوات تبعا لجهود الخروج منها، وسيناريوهات الحل المفروضة من الخارج، ومدى القدرة على الاستفادة من موروث الثقافة التي انتشرت على ضفاف دجلة والفرات الممتدّين من الشمال إلى الجنوب والتي تربط السكان المنتشرين حولهما بكثير من المشتركات.

إن حالة الوهن امتدت إلى جسم الدولة حتى أصبحت ضعيفة على مستوى السلطة المركزية، ومتناحرة على مستوى الأفراد والمؤسسات، تُمارس في داخلها أشكال من التطهير الطائفي، والصراع السلطوي، والتنازع على الثروة بنفس معنى التطهير الذي يحصل في الشارع على الرغم من اختلاف الأساليب، وعلى هذا

الأساس ضعف تأثيرها في الشارع للحد من توجهات الاحتقان. هذا وعلى الرغم من بذل البعض من سياسييها جهودا مقبولة للتخفيف إلا أن النجاح كان محدودا، والفشل امتد إلى سبل الإدارة، ومعالم السلوك وإلى التلكؤ في صياغة بعض القوانين، والاستعجال في إعداد الدستور الذي كتب بمعارضة سنية، واستفتي عليه في 15 تشرين الأول 2005 برفض من قبلهم بصورة شبه جماعية لم تستطع إعاقة تطبيقه بسبب عدم توفر شرط الرفض الواجب من 3/2 لثلاث محافظات، عليه أصبح الدستور الذي أريد له أن يوحد البلاد، ويحل مشاكلها دوامة تفريق، واختلاف وضعت الحكومة في مصاعب جمة لإعادة تكوين دولة مركزية تتمتع بالقوة الكافية للردع، وبالهيبة اللازمة للاستمرار بالنهج.

لقد وُضعت فقرة في الدستور تلزم مراجعته إلا أن ظروف الاحتقان وضعف الولاء، وقلة الإدراك أبعدت المراجعة من أن تكون فنية بأي حال من الأحوال ليتسنى الاستعانة بالخبراء، والمختصين لتجاوزها، وجعلتها بدلا من ذلك مراجعة توافقية تتطلب القبول الضمني لكل كلمة، وفقرة مطلوب تغييرها من قبل الجميع، على هذا الأساس يمكن التأشير إلى أن كل الجهود التي بذلت حتى الوقت الحاضر لم تكن كافية لتجاوز محنة الدستور، وكسب ود الجمهور، وتهدئته لأن السياسيين المعنيين بالمراجعة لم يثبتوا أنهم راغبون، وقادرون على التفاهم، والتعايش ضمن عراق تعددي موحد، وعلى العكس من ذلك فإن غالبيتهم تسعى لتكييف الدستور، ومواده لتحقيق مصالحها الخاصة على حساب المصلحة العامة لعراق يفترض أن يكون وطنا للجميع، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الذين أعدوا الدستور من قَبل قد وضعوا بعض العُقَد في طريق التعديل على الرغم من قبول فكرة التعديل، ويبدو أنهم قد وضعوها بقصد الحيلولة دون حصول التعديل وإن تم على الورق، لأن التعديلات المطلوبة أو المحتملة ينبغي أن تتبع نفس القواعد التي طبقت في كتابة الدستور أي لا بد من تجاوز اعتراض 3/2 من أصوات الذين سيستفتون عليها من ثلاث محافظات، وهذا يعني أن حق الرفض الذي أعطي لتعديل الدستور يسهل إيجاده في أي استفتاء محتمل إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار قوة تأثير الأحزاب الكردية الرئيسية التي شاركت بفعالية في كتابة الدستور في المواطنين

الأكراد في المحافظات الكردية الثلاث بالمستوى الذي يمكنها الإيحاء لتحديد الرفض والقبول قبل حصول الاستفتاء، وكذلك لبعض الأحزاب السياسية الشيعية في تسع محافظات ذات أغلبية شيعية مطلقة، وهذه مفارقة أدت إلى إشاعة الإحباط بين السياسيين السنة الذين دخلوا العملية السياسية على أساس إشارات، ووعود بتعديل الدستور، وشعر غالبيتهم بالحرج فقبلوا مساومة تحت ضغط أمريكي في تشرين الأول عام 2006 بعدم الانسحاب من البرلمان، والعملية السياسية مقابل تأجيل المطالبة بتحقيق الأقاليم لمدة ثمانية عشر شهرا، وهي مساومة لم تنه المشكلة بقدر ما أجلت حصولها للفترة المذكورة.

إن التغذية الذاتية لدوامة العنف السائدة، وضعت المجموعات المشاركة في دائرة الصراع من المليشيات، والقوى المسلحة، وأجزاء من المقاومة، والحراسات الخاصة، ومنظمات، وعصابات، وأحزاب في حالة تطرف أفضى إلى:

1. زيادة فعل العنف الموجود تجاه الطرف الآخر في دائرة الصراع، يبرره الجميع بإجراءات الحماية الواجبة لأبناء الطائفة من انتقام الطرف المقابل في الطائفة الأخرى، ومحاربة المتعصبين الذين يثيرون العنف بذات الطريقة التي يمارسونها في العنف، علما أن غالبية الأطراف لم تعلن في سياقات تنفيذها للعنف المسؤولية عن الهجمات ذات الطبيعة الطائفية، ولا عن القتل، والاغتيال، وتدمير المساجد، والحسينيات عدا تنظيم القاعدة الأكثر وضوحا، والأكثر من هذا بدأت كل الأطراف عملية تبرير لأعمال العنف المركّبة بالضد من الطرف المقابل، إذ لو أتيحت الفرصة على سبيل المثال لمناقشة هذا الموضوع أي العنف مع بعض القادة السياسيين الشيعة "المتطرّفين" في الوقت الراهن سوف يتلمس الطرف المقابل في المناقشة تنويها مفاده أنه ولولا تدخل جيش المهدي لما بقي شيعي في بغداد، وبنفس الفترة الزمنية لو يناقش نفس الموضوع مع أحد القادة السياسيين السنة "المتطرّفين" سوف يتلمس الطرف المقابل أيضاً تنويها مفاده أنه ولولا جيش عمر وفعل المجاهدين لما بقي سني في بغداد، الأمر الذي يدلل على مدى التورط السياسي في مجالات العنف من ناحية، وهامش الجهل، والتبرير الواسع لفعل العنف من ناحية أخرى.

2. تسهيل عملية قيادة الأتباع، وكسب شرائح واسعة من الجمهور المنفعل إلى الصف كأتباع جدد للتعويض عن الفاقد، ومضاعفة حجم القوة لترجيح الكفة في التوازن مع الأطراف الأخرى.
3. الخوف من الآخر، ومحاولة تجنب الآخر حتى أصبحت دوامة الخوف الانفعال الأكثر تأثيرا في التطرف إذ يلاحظ أنه وكلما قوي المتطرفون الشيعة، كلما اشتدت قوة المتطرفين السنة، وهكذا العكس الذي يؤدي إلى استمرار معالم القوة بالتزايد في دائرة الصراع، وبالمقابل إضعاف قوة أجهزة الدولة في الضبط، والسيطرة.
4. الحصول على قدر من القبول الجماهيري الطائفي لفعل العنف المقابل من خلال الدعاية التي اتخذتها القوى المسلحة المتطرفة السنية على سبيل المثال كحامي للعرب السنة من توجهات القتل، والترحيل، والعزل التي تقوم بها مليشيات مسلحة شيعية، والدعاية التي ركزت عليها القوى المسلحة المتطرفة الشيعية لحماية السكان المدنيين من الأعمال التخريبية، والتهجير التي تقوم بها قوى سنية بسبب عجز أجهزة الدولة عن أداء مهامها في الحماية، إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار أن العنف انفعال يحتاج استمراره إلى أفعال، ومصادر رمزية ينتجها هو لمد المنفذين بجرعات نفسية تعينهم على الاستمرار بتنفيذ الفعل المطلوب، وتقلل أو تمحي الشعور بالذنب.

إن دوامات العنف، والاحتراب الجارية في العراق بشكل عام، والشارع البغدادي على وجه الخصوص معقدة، دخلتها دول وجماعات خارجية كما ورد، وركب موجتها سياسيون باتوا يستمدون شرعيتهم، وقوة سلطتهم، وسعة نفوذهم عن طريق الاعتماد على جوانبها الطائفية، حتى سلكوا نفس السلوك في اللوم، والتبرير الذي سلكه المسلحون في الشارع عندما توجهوا إلى لوم بعضهم بعضا، وتحميله مسؤولية الخطأ، والعنف، فأصبحوا بالنتيجة جزءاً من قاعدته للتغذية الممتدة، وطرفاً أو لاعباً في دائرته الواسعة.

وهو أي العنف لم يقتصر في استمراره على التناحر بين طرفين رئيسيين أي الشيعة، والسنة بعد أن خرج باتجاه البعض من أبناء الطائفة لتغطية المصاريف،

وزيـــادة الكسب، والتحصيل حيث التوجه إلى التجار، وأصحاب رؤوس الأموال مـــن قبل بعض الجماعات المسلحة الشيعية في المنطقة، والمحلة، والسوق وإجبارهم على دفع الإتاوات أي ابتزازهم بدعوى الحماية، في الوقت الذي تقوم به جماعات مسلحة سنية بنفس التوجهات على أساس التبرعات الواجبة لدعم المقاتلين، وهذه توجهات ستزيد من العنف وتزيد من رقعته ليشمل أبناء الطائفة الواحدة خاصة إذا ما واجهت أطرافه سدود منيعة "كف" لتصريفه باتجاه الطرف الآخر.

إن بعـــض وقائـــع العملية السياسة، وعقبات تعديل الدستور، ومستوى أداء الـــبرلمان غير الملائم لكبح جماح الخطأ، والعنف، والتجاوز، والتقييدات الموجودة على تحرك الحكومة، وسعة الفساد، وامتدادات التدخل الإقليمي والدولي دوامات يؤشـــر وجـــودها احتمالات الفشل في تحقيق الخطوات المطلوبة لإعادة بناء البلاد ديمقراطيا، ويؤشر أيضاً أن الولايات المتحدة الأمريكية قد وقفت طيلة الفترة الماضية موقـــف المتفرج و لم تنـــزل إلى الساحة كحكم صارم يتطلب الاختلاف وجوده، وإلى مـــستوى اتهمهـــا العديد من السياسيين، والمسؤولين الحكوميين أنها بموقف الفـــرجة هذا تريد أن تبقي الحكومة الحالية في ظروف صعبة سعيا منها لإسقاطها كما فعلت مع حكومة الجعفري التي وضعت الكثير من العصي في عجلتها لإيقاف دورانهـــا، مؤكدين في اتهاماتهم أن ما تدعيه أي الولايات المتحدة من عدم القدرة علـــى التدخل لاعتبارت السيادة العراقية هو غير صحيح، لأنها تمتلك حتى الوقت الراهن حق النقض على تعيين وزير، وصلاحية اعتقال أي مسؤول، وتفتيش بيت، ومكتب أي سياسي تريد.

إن الطائفـــية التي تم التأسيس عليها في العزل، وزيادة العنف تمت تغذيتها من أكثـــر من جانب بينها بالإضافة إلى ما هو مذكور أعلاه قانون الانتخاب وصيغة التنفـــيذ الذي اعتمد التمثيل النسبي الذي يقال إنّه يعطي الأقليات فرصة لأن تمثل علـــى المستوى العام، وإمكانية جيدة لحماية حقوقها، ودافعَ في حينه المعنيون بأنه التـــرتيب الوحيد الذي يمكن تنفيذه ضمن الجدول الزمني الذي التزمت به العملية السياسية، لكن النتيجة وبعد أن تمت الانتخابات تبين أن صيغته المعتمدة قد عززت الطائفـــية، والنـــزعة القومية، ودفعت إلى حصول نوع من التحالف بين الأحزاب

المـــشاركة لأغـــراض الانـــتخاب على أساس ديني، وعرقي زاد من هوة التناحر، والخـــلاف التي بدت واضحة في سلوك البرلمانيين ونقاشاتهم، والقيد الموجود داخل الـــبرلمان في موضوع محاسبة الجهاز التنفيذي على الرغم من كثرة الخطأ، والتجاوز لأن الوزير أو المسؤول من نفس الكتلة تعني محاسبته من وجهة نظرهم التقليل من قـــيمة الكـــتلة، وكأن البرلمانيين في سلوكهم هذا شيوخ يعملون على إعلاء شأن العشيرة الذي يتطلب قيميا عدم التقليل من قدرة الأبناء.

إن الأخطاء التي ذكرت وغيرها الكثير التي لم يسع المجال لذكرها توزعت مـــسؤوليتها في هـــذا العـــرض بـــين قوات الاحتلال، وبين الدولة بأجهزتها ومؤســـساتها، لكن المنطق يحتم التأكيد على أن المواطن العراقي العادي يتحمل جزءًا ليس قليلاً منها من خلال سلوكه، ومفاهيمه، وأهدافه، ومواقفه التي تدعم أو تعـــيق في معادلة الهدم، والإصلاح إذ لو أخذنا جانب الأمن مثلا على تحديد مـــستوياتها أي المـــسؤولية الـــتي يفترض أن تتوزع بالإضافة إلى ما يتعلق بقوات متعددة الجنسية بين:

1. الحكومة التي تقرر السياسة العامة للخطط الأمنية تبعا لإدراكها ماهية وخطورة التهديد، وتوفير مستلزمات النجاح.
2. الأجهـــزة الأمنية، والعسكرية المختصة التي تقوم بالتنفيذ مسنودة بجهد الدولة المتاح لتحقيق النجاح.
3. المواطن الذي ينبغي أن يلتزم بتعليمات الدولة، ويقدم من جانبه العون في محيط عمله وسكناه مدفوعا بحسه الوطني ومسؤولياته الاعتبارية لتعزيز النجاح.

وهكـــذا تتـــضافر جهـــود الثلاثة باتجاه التحقيق الأمثل لغاية باتت واضحة للجميع قوامها إعادة فرض الأمن، والنظام.

تلك مسألة أو قاعدة ثلاثية الأبعاد لا تتعلق بالعراق أو أفغانستان وغيرها من مـــناطق الاضـــطراب الأمني ولا حتى في الصومال، يتلمس المعنيون بها، والمراقبون لخطـــواتها معـــالم النجاح في تطبيقاتها عندما يكون التنسيق، والتعاون، والانسجام فعـــالا بـــين الأطراف الثلاثة، ويدركون معنى الفشل أو يشمّون رائحته من بعيد عـــندما يغـــيب التنسيق، وينتهي التعاون، ويختل الانسجام أي عندما يخرج أحد

الأبعـــاد الثلاثة من ذاك الثالوث لأي سبب من الأسباب، وبالعود إلى المثال الحالي أي الوضـــع الأمني، والتهديد السافر لمستقبل البلاد، والخطط الأمنية للحكومة التي تعلق عليها الآمال، يمكن بضوء مجرياتها الاستنتاج أن الحكومة من جانبها أدركت فعلا جدية التهديد القادم من قوى في الخارج، لا تتفق وسير العملية السياسية التي يفترض سيرها بخطوات اتفق على وجودها المشاركون، وأخرى في الداخل تسعى إلى العـــودة إلى حكـــم العائلة والعشيرة، والتمهيد إلى الديكتاتورية، وبادرت إلى وضـــع خطط للتعامل بنفس القدر يمكن التأكيد على أن المتبقي من عوامل الضبط ومشاعر المواطنة عند العسكر، ورجال الأمن لم تكن كافية للتنفيذ المعقول لأوامر الحكـــومة في بسط الأمن والسيطرة وتطبيق القانون، ومع ذلك يبقى التعويل على نجـــاح مـــساعي الحكـــومة وقواها الأمنية مرهوناً بالطرف الآخر من الثالوث أي الـــشعب والعموم من المواطنين لأن جهود المنفذين لتفاصيل الخطة، وصفحاتها في شارع من شوارع المدينة والمحلة، أو على مقربة من قرية نائية في الريف على سبيل المـــثال ستكون صعبة أو منقوصة إذا ما تسترت عائلة على شخص فر من مواجهة قـــبل دقائق معدودات، وقدم أحد من أفرادها معلومات لمجموعة إرهابيين يسكنون في القرب من تقدم رجال الأمن المنفذين، وقدمت سيدة من العائلة طعاما لمسلحين غير قادرين على الخروج من مخابئهم بعد تقرب المنفذين إلى أماكنهم، وإذ ما أرسل صـــبية من هذه العائلة أو تلك لنقل الذخيرة إلى مقاتلين يتخذون من الدار القريبة موقعا قتاليا، وأفتى شيخ جامع بتقديم العون والمساعدة في الإيواء والاحتضان، وقدم فلاح في الريف دابته وسيلة نقل الأعتدة، والأرزاق لمعارضين مسلحين، وقبل شيخ عشيرة الإتاوة، وتقسيم مغانم الاختطاف نظير القبول بالتنقل، والمرور عبر منطقته وقتل الغير في المناطق الأخرى، وإذا ما زوّرَ موظف مختص وثيقة مرور للمشبوهين، وتكتم سائق سيارة على نشاط المتورطين، وتعاطف آخر مع توجهات المسلحين، وكتب صحفي بما يحرض على العمل المسلح بالضد من الحكومة وأنصف المناوئين، وإذا مـــا خـــشي الجمع على أرواحهم وصمتوا فقبلوا أو فضلوا الفقدان الفردي للـــروح علـــى المجازفة بإنقاذ ما تبقى من الأرواح، وإذا ما وقف العموم على التل متفرجين ينتظرون العون الإلهي دون التحرك لتلبية ما يفرضه الشرع، ويريده الإله.

عندها سيكون الأمر صعبا، والتكهن بالنجاح مستحيلا، وفي حالتها سيكون المواطن هو الخاسر الأكبر، وستتعرض البلاد إلى مزيد من الدمار.

وفي الختام يتبين من جملة الوقائع التي أشير إليها في فصول هذا الكتاب أن هناك محنة في داخلها دوامات يعيشها جميع اللاعبين في ساحة الاحتراب، والتناحر العراقية بمستويات ضرر، وحيرة متباينة:

فالعراقيون وسطها يَقتلون، ويُقتلون وأغلبهم في حيرة من أمر هذا القتل، والتدمير، والتخريب، والرغبة في الإيذاء، أيدوا التغيير بحرارة، واحتجوا على وسيلته العسكرية في التنفيذ بعنف، و لم ينفع الخروج من دوامات محنتهم هذا التأييد، ولا ذاك الاحتجاج. انتخبوا من يريدون انتخابه حسب خطوات العملية السياسية المرسومة، وتبين لهم بعد الحصاد أن الانتخاب لم يخرجهم من دوامة الفرقة، والتوتر، والاختلاف. أيدوا، وسايروا، وصفقوا على طريق الديمقراطية، والعيش الآمن الرغيد، وفي وسطه اكتشفوا أنهم في الطريق الخطأ وسط أعتى الدوامات.

والحكومة العراقية بمؤسساتها، وأجهزتها، ودوائرها، وقواتها المسلحة وسط دوامات تسعى، وتتعامل، وتتأمل، وتجد عند التنفيذ أن الأداء يقل عن ما هو مطلوب، وأن الولاء الكفيل بالتضحية من أجل الوطن على الأغلب غير موجود، والإخلاص في العمل لا يُؤَمنُ الغاية التي تريد. تضع البرامج، وتحاول، وتنسق، وتتوعد ويتبين لها في خطوات الشروع الأولى أن حركتها مُقَيَّدة من مجلس وزراء يعمل بعض أعضائه لأنفسهم قبل العراق، ولأحزابهم بدلا من حكومة البلاد، ولطوائفهم دون الوطن الكبير.

ومن برلمان انقسم على نفسه، واختلف مع بعضه حتى ضعف، و لم يعد قادرا على إعانتها لتصريف شؤون البلاد.

ومن قوات احتلال تُطوقها من كل مكان قادرة على الوصول إلى النقطة التي تريد، والقيام بالفعل الذي ترغب، وإعاقة ما لا تريد أن يكون.

ومن محيط حولها فيه بعض الموظفين يفتي بما يعتقده مفيداً، ويشوه من فتوى غيره التي يعتقدها لا تصلح، وينصح بما يحس أنه ينفع ذاتيا، ويكتب التقارير لإزاحة الغير القريب، ويداهن في موقف الحاجة، وينافق عندما يقتضي الأمر.

تعد الخطط الأمنية الواحدة تلي الأخرى في حرص للخروج من المحنة الشديدة فتجد عند التنفيذ أن الاختراق الأمني وصل بعض مقراهّا، وتسريب المعلومات يبدأ من بعض أعضائها.

ودوامـــة الحيادية في التنفيذ، وضعف الأداء، وقلة الضبط، والإعياء، وهبوط المعنويات تحكم سلوك منتسبيها.

والقـــوى الـــسياسية كـــذلك عَلقوا في أكثر من دوامة، يرغبون المشاركة، واســـتثمار الفـــرص، ويتنـــصلون من تحمل الخسارة المتأتية من التعثر، والإسهام بالفشل.

نـــادوا أيام معارضتهم نظام صدام وكفاحهم السياسي الطويل بالديمقراطية، والعدالـــة، والمـــساواة ســـبيلا لمجتمع جديد، فكونوا بكثر أخطائهم، وقلة خبرهّم مجـــتمعات، متناثـــرة تحلـــم بالديكتاتورية أساسا للتوحيد. تحركوا في كل اتجاه، وكـــسبوا مـــن كل ممكن ومتاح، وأعطوا من الموجود بقصد تقوية الحال، وأغروا بمزيد من العطاء لمد النفوذ، وحذروا من التقرب، والمنافسة على ما هو متحقق من مكاسب، وهددوا الغير الذي يتجاوز خطوطهم الحمراء، وأزاحوا من طريقهم كل مـــن يعـــتقدونه قـــادراً على التقرب، وجرفوا الساحة من حولهم لتنظيفها إلا من المـــؤيدين والأتـــباع، وتبين بعد أربع سنوات من هذا الكفاح أنهم وسط جمهور رجـــراج لا تنفع كل تلك الأساليب في كسب تأييده، وضمان صوته، والسيطرة على انفعالاته.

اجتهدوا، فانشقوا، وتشظوا، واتصلوا، وتواصلوا، وامتدوا فدخلوا، وأُدخلوا دوامات احتراب هم فيها أضعف المشاركين.

استنكروا بعض الأفعال في العلن، وعارضوا بعض توجهات الاحتلال كذلك في العلن، فوجدوا الاستنكار وهماً، والمعارضة خدعة، والتأييد بدعة لأن محنتهم محنة مَكـــان اسمـــه الـــشرق الأوسط الجديد، وزمان فيه القطب الدولي الأمريكي هو الوحيد، وكل من يتحرك في داخل دواماته لا يعي مكانه، وزمانه الأكيد.

والأمريكان يبدو في الوقت الحاضر أنهم أيضاً في دوامات محنة بعد أن عجزوا عن إقناع عراقيين يعيشون زمان غير زمانهم بديمقراطيتهم الموعودة وهم لا يعرفون

طبيعتهم، وسبل التعامل معهم فوعدوا، وحاولوا، وناوروا، فعجزوا أن يحققوا الأمان أبسط مقومات الديمقراطية.

دعموا البعض سياسيا، وساعدوا البعض ماديا، وقدموا إلى البعض استشارات إدارية، وحجبوا عن البعض الآخر معلومات، وخططاً، وأفكاراً، وأسهموا بخصخصة الاقتصاد، واجتثوا البعث وأجهزة الضبط الاجتماعي، ورصدوا كل حركة، وتنصتوا، فاكتشفوا خلال الأربع سنوات زيادة في مشاعر العدوان بالضد منهم، وحلفائهم، وفي أعمال الإرهاب بالضد منهم ومن سايرهم أدخلتهم قسرا في أكثر من دوامة.

مَنوا العالم أجمع، وشعبهم بمجتمع عالمي جديد خال من القهر، والإرهاب، وأمريكي بعيد تماما عن العنف، والإرهاب، فوجدوا بعد هذه السنين أن منابع الإرهاب لم تنضب بعد رغم كل الجهود، وأن مجتمعهم الذي أيدهم قبل أربع سنوات بدأ يقف بالضد من مشاريعهم في الاستمرار بتقديم الوعود.

دخلوا العراق محررين، فتصرفوا مثل غيرهم فاتحين، أزاحوا بقوتهم الدكتاتور، والحزب الواحد، فخلقوا بجهلهم أكثر من ديكتاتور، وعشرات الأحزاب، والجماعات التي تتقاتل من أجل أن تبقى في النفوذ، والاستحواذ حزباً واحداً.

أيدوا العملية السياسية، وتخبطوا في جوانبها فأسهموا في إجهاض معانيها الإنسانية. دعموا الحكومات العراقية المتعاقبة علنا، وأسهموا في إفشال بعضها سرا فحيروا حلفاءهم، واحتاروا مع أنفسهم في الطريق الذي يختارون لضمان تحقيق الأهداف الميدانية. انقسموا في ساحة المحنة بين راغب في الانسحاب لا يعي مخاطره، وساع إلى البقاء البعيد لا يدرك أبعاده.

بين باق على العهد يصر على عزل أقوى اللاعبين في ساحة الاحتراب الملتهبة، وبين من يجد في إشراكهم جميعا منفعةً، ومخرجا مُشَرفا للتخلص من دوامات المحنة.

ودول الجوار هي كذلك في دوامات محنة يتحسسون فيها الاقتراب من ساحتها مشكلة تضعهم في دائرة الخطر المحتوم، والابتعاد عن محيطها معضلة فيها الخطر شبه محتوم.

دَعَمـــت، وساعدت، فأدركت أنها تسهم في إشعال فتنة تقترب من ساحتها القلقة، فزادت من دعمها، وتدخلها في هرولة إلى الأمام أدخلتها جميعا في دوامات المحنة.

استنكرت، وشجبت وجود الأمريكان في العراق قريبا من حدودها فسارعت إلى تـــوريطهم في مستنقع الاحتراب الداخلي، واكتشفت قبل النهاية أنها طرف في هذا الاحتراب قد يمتد إلى ساحتها غاية خُططَ لها أصلا دون أن تعي أبعادها.

إن ما يجري في العراق في الواقع محنة، وجميع الأطراف المشاركين فيها أدخلوا في دوامـــات تعـــصف بهم لمستوى من الشدة قد يخرج بعضهم منها بهيئة غير التي دخلـــوا بهـــا عـــندها سكيشف الباقون على قيد الحياة أن الأهداف الاستراتيجية للحرب اقتضت أن يدخلوا جميعا دواماتها المهلكة دون وعي منهم بعواقبها عليهم، وعلى مستقبل البلاد.

المصادر

1. صحيفة المشرق، العدد 921 في 21 آذار 2007.
2. دار الخليج، إحصاء الخسائر البشرية في العراق، 2007/1/30.
3. بعثة الأمم المتحدة لتقديم المساعدة للعراق UNAMI، التقرير التاسع، 2007/1/16.
4. إسماعيل الجليلي، محنة الأكاديميين العراقيين، مؤتمر مدريد حول اغتيال الأكاديميين العراقيين، 23 - 24 نيسان 2006.
5. مدير عام دائرة العمليات الطبية في وزارة الصحة، تصريح صحفي، كانون الثاني، 2007.
6. سيجموند فرويد (1972) خمس حالات من التحليل النفسي، ترجمة صلاح مخيمر، القاهرة.
7. مركز الأهرام للدراسات السياسية، والاستراتيجية، مؤسسة الأهرام، اللاجئون العراقيون أزمة إنسانية في انتظار الحل، العدد 2207 فبراير 2007.
8. إيلاف، شموئيل موريه، من هو المسؤول عن الفرهود 2007/1/19.
9. إسلام أون لاين نت، نمير حداد، ورقة الخلاص، 15 آذار 2007.
10. بيير داكو (1985) الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث، ترجمة وجيه أسعد، دمشق، الشركة المتحدة للتوزيع، الطبعة الثانية.
11. صحيفة الشرق الأوسط، الكلام في الطائفية، العدد 10240 11 ديسمبر 2006.
12. حقوق، من أجل عراق واحد آمن، كراس خاص 2006.
13. اليزابث موسون (1991) نظريات حديثة في الطب النفسي، القاهرة، دار النهضة العربية.
14. عبد الرحمن العيسوي، ومحمد أحمد النابلسي (1998) العلاج الطبي والنفسي، القاهرة، الشركة العالمية للكتاب.

15. بول بريمر (2006) عام قضيته في العراق، بيروت، دار الكتاب العربي.
16. الفساد الإداري، مفهومه ومظاهره، وأسبابه، ياسر خالد بركات الوائلي، النبأ، العدد 80 في 2006/1/1
17. مشاكل الهدر، والإسراف والفساد الإداري في الدولة، وجدان فالح الساعدي، شبكة النبأ المعلوماتية، 9 تشرين الأول 2005.
18. سيكولوجية العدوان، بحث في ديناميكية العدوان لدى الفرد، الجماعة، الدولة، تأليف مجموعة من المؤلفين، ترجمة عبد الكريم ناصيف، ط 1، دار منارات للنشر، عمان، 1986.
19. وضع حقوق الإنسان في العراق للفترة من 1 تشرين الثاني حتى 31 كانون الأول 2006، تقرير بعثة الأمم المتحدة للمساعدة في العراق (يونامي) في 2007/1/16.
20. علي الوردي (ب ت) شخصية الفرد العراقي، بغداد.
21. صحيفة المشرق، مصدر سابق.
22. CNN, 2024 (GMT) 24.03.07
23. العظم، صادق جلال (1996) ما هي العولمة، ورقة بحث مقدمة للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس.
24. العياري، الشاذلي، الوطن العربي وظاهرة العولمة: الوهم والحقيقة، المنتدى، عمان، السنة 12 العدد 145 ت1 1977.
25. العظم، صادق جلال (1996) مصدر سابق.
26. جيمس، روزناو (1997) ديناميكية العولمة: نحو صياغة عملة، قراءة استراتيجية، القاهرة، مركز الدراسات السياسية، والاستراتيجية بالأهرام.
27. ياسين، السيد (1995) الكونية، والأصولية، وما بعد الحداثة، القاهرة، المكتبة الأكاديمية.
28. طه النعمة، محاضرة في الصراع الدولي والحرب النفسية 1984، بغداد، غير منشورة.
29. جريدة الصباح، العدد 651 الاثنين، 12 أيلول 2005.

30. سعد العبيدي (2003) أزمة المجتمع العراقي، قراءة نفسية في التدمير المنظم، دار الكنوز الأدبية، بيروت.
31. السيد سعيد، محمد، مجلة العربي الكويتية، العدد 494 يناير 2000 ص 73.
32. جاسم حمدان الجاسم (1978) تخطيط وإدارة الحرب النفسية في الجيوش، بغداد. 43.
33. مديرية البحوث والخدمات النفسية (1989) المقاتل في مواجهة المجهول، كراس محدود التداول.
34. رويترز، العرب ينظمون إضرابا يوم الاثنين احتجاجا على ضرب العراق، 2003/3/22.
35. حسن زعرور: اتجاهات الشركات متعددة الجنسيات في ظل ثورة التكنولوجيا، والإعلام، الفكر العربي العدد 89، صيف 1997، ص 201.
36. سورة المائدة، الآية 51.
37. التغطية الكاملة لمعركة الفلوجة من قبل السيد أحمد منصور من قناة الجزيرة الفضائية.
38. مركز البحوث والدراسات، وزارة الداخلية، الواقع الأمني في منطقة الدورة، وسبل التخطيط لتجاوز حالة التداعي 2005، بحث محدود التداول.
39. سعد العبيدي (2003) نوايا وحروب، دار المعارف، بيروت.
40. الإشارات الواردة في المؤتمر الصحفي لرئيس الجمهورية العراقية الأستاذ جلال الطالباني في واشنطن على أعقاب حضوره إجتماعات الأمم المتحدة يوم الخميس 2005/9/8.
41. سعد العبيدي، أزمة المجتمع العراقي، مصدر سابق.
42 السيد بهاء الأعرجي عضو الجمعية الوطنية في برنامج (بالعراقي) قناة الحرة عراق بالساعة 2300 يوم 2005/9/6.
43 علي كمال (ب، ت) النفس، أمراضها وانفعالاتها، بغداد.
44 هادي العلوي (1999) خلاصات في السياسة والفكر السياسي في الإسلام، المدى، بيروت.

45. سورة النساء، 84.

46 ســعد العبــيدي ظاهرة الفساد الإداري في وزارة الداخلية، الرؤية والمعالجة، 2005، بحث غير منشور.

47. رويتــرز، العــراق قــد يستخدم أسلحة كيماوية ضد الأمريكان في بغداد، 2003/3/25.

48. مــيلوش ماركــو (1973) الحــرب النفسية، ترجمة لبيب لهيطة، دار الثقافة الجديدة، القاهرة.

49. International Crisis Group, After Baker – Hamilton: What do in Iraq, Middle East Report N. 60-19 December 2006?

نبذة عن حياة المؤلف

- ولد في قرية الجمجمة من محافظة بابل عام 1946.
- تخرج من الكلية العسكرية العراقية برتبة ملازم عام 1966.
- حصل على البكلوريوس آداب من الجامعة المستنصرية كلية الآداب قسم اللغة الانجليزية عام 1976.
- أكمل دراسة الدبلوم العام والخاص في التربية من جامعة عين شمس عام 1979.
- حصل على شهادة الطيران التجاري من مؤسسة الطيران المدني العراقية عام 1987.
- نال شهادة الدكتوراه في علم النفس السريري من جامعة بغداد عام 1991.
- خدم كضابط في الجيش العراقي تدرج من آمر فصيل ثم مدير شعبة الاستخبارات النفسية، ومدير البحوث والخدمات النفسية حتى الإحالة على التقاعد عام 1992 ومن ثم الإعادة للخدمة عام 2005 للعمل كمدير عام التخطيط في وزارة الداخلية، ومستشار وزير الدفاع، وملحق عسكري في باريس إلى نهاية عام 2006.
- عمل مدرسا لمادة علم النفس والصحة النفسية في كلية المأمون الجامعة، والجامعة المستنصرية في بغداد، وجامعة الفاتح في ليبيا منذ العام 1992 حتى 2000، وباحثا في علم النفس والسياسة.

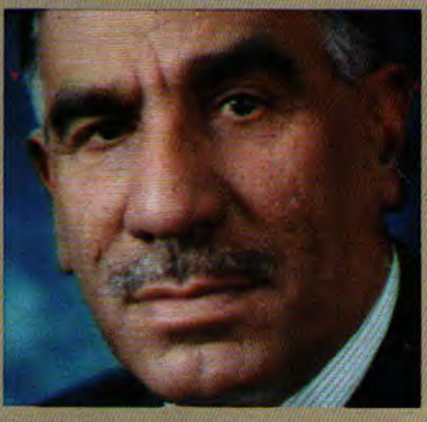
دوامات المحنة

حدث التغيير بفعل حرب لم يقاتل فيها العراقيون اعتقاداً منهم باستحالة القتال، ورغبة من غالبيتهم في التخلص من ضغوط الحروب التي أقحموا فيها قسراً لعشرات السنين، وحصلت بسببه تطورات لم تكن محسوبة تماماً لدعاته والمتفرجين، فالديمقراطية أنتجت فوضى قوضت أعمدتها الرئيسية، والحرية كونت تمرداً حرف الجمهور عن الحياة الاعتيادية، والانفتاح أدخل من في المحيط ساحة القتال الداخلية، ومحاربة الإرهاب أقحمت الإسلام طرفا في القضية، والأمل بحياة أفضل بعد قهر السنين تحول إلى يأس من استمرار الحياة مثل باقي البشرية.

وبالمحصلة أو بعد أربع سنوات من حدوثه وجدت جميع الأطراف المعنية بالوضع العراقي من عرب ومسلمين، وأمريكان محتلين، وعراقيين مؤيدين ومعارضين أنهم في محنة أو دوامات محنة لا يعرف فيها القاتل والمقتول، ولا الدافع إلى القتل على الهوية، ولا تُفهم وسطها الأهداف والاتجاهات، ولا الغايات البعيدة والقريبة ولا جدوى الاستمرار بذات الطريق لتحقيقها، ولا يعي السائرون في فلكها والمشاركون في أحداثها كيفية الخروج من وسطها بسلام، فكانت دوامات محنة وإن هدأت سرعة دورانها بعد سنين من الآن سيجد المشاركون فيها والقائمون عليها أنهم دفعوا الثمن تغييراً في أوضاعهم وأسلوب حياتهم، وشكل أهدافهم القريبة والبعيدة.

وهذا الكتاب الذي أخذ عنوانه من ركام هذه المحنة يتناول أحداثها بالشرح والتحليل من وجهتي نظر سياسية تتعلق بالاحتلال والإدارة وأسلوب الحكم، ونفسية ذات صلة بالنوايا والدوافع والأسباب في محاولة من شاهد عاش أحداثها أن يقدم شهادته موثقة عسى أن تسهم مع غيرها في إزالة العتمة والتسريع بالخروج من دوامتها المهلكة.

الفريق الدكتور سعد العبيدي



- ولد المؤلف في قرية الجمجمة من محافظة بابل عام 1946.
- حصل على البكلوريوس آداب من الجامعة المستنصرية عام 1976.
- أكمل دراسة الدبلوم العام والخاص في التربية من جامعة عين شمس عام 1979.
- حصل على شهادة الطيران التجاري من مؤسسة الطيران المدني العراقية عام 1987.
- نال شهادة الدكتوراة في علم النفس السريري من جامعة بغداد عام 1991 .
- خدم كضابط في الجيش العراقي تدرج من آمر فصيل وآمر سرية ثم مدير شعبة الإستخبارات النفسية، ومدير البحوث والخدمات النفسية ثم مدير عام التخطيط في وزارة الداخلية، ومستشار وزير الدفاع، وملحق عسكري في باريس.
- عمل مدرساً لمادة علم النفس والصحة النفسية في كلية المأمون الجامعة، والجامعة المستنصرية في بغداد، وجامعة الفاتح في ليبيا منذ العام 1992 حتى 2000، وباحثاً في علم النفس والسياسة.



الدار العربية للعلوم ـ ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102 بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb



978-9953-87-177-6